المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

نحو فهم للعولمة الثقافية

تأليف: پول هوپر

ترجمة: طلعت الشايب



1811

نحو فهم للعولمة الثقافية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ بإشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

- العدد: 1811
- نحو فهم للعولمة الثقافية
- پول هوپر
- طلعت الشايب
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

Understanding Cultural Globalization
By: Paul Hopper

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

نحو فهم للعولمة الثقافية

تــألــيف: پــول هوپــر
تــرجــمة: طلعت الشايب

2011

هوبر، بول.
نحو فهم للعولمة الثقافية/ بول هوبر: ترجمة: طلعت الشايب. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١ .
٣٠٤ص : ٢٤سم .
تدمك ٩ ٨٣٩ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الثقافة.
٢ ـ العولمة.
أ ـ الشايب، طلعت. (مترجم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦١/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 -839 - 9
ديوى ٣٠١,٢

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـــويات

شكر وعرفان

أود بداية أن أعبر عن خالص شكرى وتقديرى لكل من "أندريا دروجان Andrea Drogan" وزملائها فى دار نشر "بوليتى "Polity على كل ما قدموه لى من نصح ومساعدة فى كل مراحل إنتاج هذا الكتاب؛ كذلك فإننى مدين بشكر خاص لزملائى فى جامعة "برايتون " :"Brighton پادى ماجوير "Paddy Maguire و"ستيوارت لينج Stuart Laing" و"پيتر چاكسون Peter Jackson" و"آرون ونتر Aaron Winter" لدعمهم الكبير لى، وكذلك لـ "لوك مارتل Luke Martell" الذى أفدت كثيرا من تعليقاته النقدية القيمة أثناء الكتابة؛ ومثل كل أعمالى السابقة، أهدى هذا الكتاب إلى "إما " Emma و"آنا هوپر Anna Hopper" ابنتى أخى.

مقدمة

استشراف العولمة الثقافية

بينما كنت أكمل مراجعة هذا الكتاب فى أواخر ٢٠٠٦ وأوائل ٢٠٠٧، حدثت عدة تطورات فى مناطق كثيرة من العالم يمكن اعتبارها دليلا على العولمة الثقافية:

- قرب نهاية العام ٢٠٠٦ كانت الحكومة الإيرانية تحاول تقييد سرعة التحميل من أجهزة الكمبيوتر؛ لتقليص الزحف الثقافى الغربى وغيره من المؤثرات غير الإسلامية على البلاد.
- كان أحد هذه التطورات المقلقة مشهد إعدام صدام حسين، الذى سرعان ما انتشر فى أرجاء العالم بعد ساعات قليلة من الحدث، وذلك عن طريق الإنترنت ومنظمات إعلامية عالمية.
- فى يناير ٢٠٠٧ أثار عرض بريطانى من عروض تليفزيون الواقع (الأخ الكبير Big Brother) تعليقات كثيرة، وحظى بتغطية عالمية تركزت حول الاضطهاد العرقى وإساءة معاملة فتاة هندية من قبل زملائها فى المسكن (وكانوا من الإنجليز البيض)، الأمر الذى أثار أزمة سياسية بين الحكومتين الهندية والبريطانية، أدت إلى مخاوف فى بريطانيا من أن يضر ذلك بسمعتها فى العالم.
- فى ذلك الوقت كان فيلم "آخر ملوك سكوتلنده" الحاصل على عدة جوائز قد ظهر، وهو فيلم - من موضوعه إلى إخراجه - ربما يكون نموذجا للعولمة الثقافية مطبقة. الفيلم عن الديكتاتور الأوغندى السابق إيدى أمين Idi Amin، الذى قام بدوره الممثل الأمريكى الشهير فورست ويتاكر

Forest Whitaker وتم تصويره فى أوغنده وتمويله وتوزيعه عالميا، وأخرجه مخرج بريطانى، وشارك فيه أطقم من الممثلين والفنيين من عدة دول، وطبيب سكوتلندى متخيل.

- فى "ميديم" Midem المؤتمر السنوى لصناعة الموسيقى العالمية فى كان، الذى عقد فى يناير ٢٠٠٧، دار حديث عن التخلى عن إدارة الحقوق الرقمية ـ وهى التكنولوچيا التى تمنع طبع عدد غير محدود من النسخ الرقمية لأغان أو أفلام أو ڤيديو ـ لأسباب تتراوح بين تقييد مبيعات التحميل أو التحايل عليها؛ وهو تطور من شأنه أن يجعل الموسيقى متاحة عالميا.
- وعلى نحو أكثر جدية، نشرت هيئة التغيرات المناخية التى يشارك فيها عدد من الحكومات (Intergovernmental Panel on Climate Change) فى فبراير ٢٠٠٧، تقريرا كشف عن مدى خطورة ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض، وهو ما أدى إلى تصاعد النداءات الدولية لإعادة النظر فى الثقافة الاستهلاكية ودعم أفكار الكوزموپوليتانية وحماية البيئة فى العالم.
- هذه الأمثلة حدثت فى فترة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر، إلا أنها ليست غريبة عن عصرنا؛ وفى هذه المرحلة أيضا هناك أمثلة أخرى عديدة على ما تقوم به الحكومات الوطنية فى محاولة لتقليص أو تقييد المؤثرات الثقافية الخارجية والعالمية؛ وأمثلة على الصراع بين الصناعات الموسيقية لكى تتماشى مع أذواق وسلوك المستهلكين، وعلى الأفلام ذات الطبيعة الكوزموپوليتانية، وعلى عمليات الإعدام وقطع الرؤوس وغير ذلك من الفظائع التى تنقلها مواقع الإنترنت... وهكذا. هذه النوعية من التطورات وما تثيره من قضايا هى محل اهتمام هذا الكتاب الذى يعد ـ باختصار ـ مقدمة للعولمة الثقافية وما يصحبها من قضايا جدلية وأسئلة مركزية بالنسبة لموضوعنا مثل: ما العولمة؟ وما الثقافة؟ و ـ بالطبع ـ ما طبيعة العلاقة بين الثقافة والعولمة؟

استشراف لتمييز وتأطير العولمة الثقافية:

على مدار الكتاب سوف يكون تركيزنا على الطبيعة المعقدة والتعددية والمتفاوتة للعولمة الثقافية، مع محاولة لتوضيح أن هناك أبعادا متعددة للعولمة

تعكسها تواريخها وعملياتها وصيغ ترابطها المختلفة[1] وكما سيتضح لنا، فإن التعقد والتعددية وتعدد الأبعاد كلها تبدو واضحة عندما يتعلق الأمر بالثقافة؛ ومن الأهمية بمكان أن نعرف أن عمليات العولمة ليست بمعزل عن الثقافة أو الثقافات؛ إذ إن الثقافة والثقافات هى التى تشكل هذه العمليات وذلك ضمن مؤثرات أخرى، وبالقدر نفسه لن تكون الثقافات محصنة ضد عمليات العولمة، بل إنها هى التى تعبر عنها ولو جزئيا على الأقل، أضف إلى ذلك أنه بينما تقوم العولمة بتنشيط وتنمية الثقافة وتمزيقها فى الوقت نفسه، فإن الثقافة يمكن أن تكون أكثر الطرق مباشرةً فى ممارستنا للعولمة. فى استكشافنا لطبيعة هذه العلاقة المتداخلة، سيكون تركيزنا على كيفية مواجهة جماعات ومجتمعات مختلفة لكل الأشكال التعددية للتواصل الكونى فى محاولة لإفقادها قوتها؛ وفى المقابل سيجعل ذلك من السهل علينا أن نحدد النقاط والمواقع، حيث تكون العلاقة بين الثقافة والعولمة انعكاسية وجدلية أو تتخذ صيغة مختلفة أو شكلا آخر؛ وعليه فسوف نستخدم هنا استشرافا أو أسلوبا للتناول من أجل تمييز وتأطير العولمة الثقافية. على نحو أكثر تحديدا، سوف ندعى أن القوى الثقافية المحركة للعولمة تنبثق من التفاعل المتبادل بين عدة عمليات وتدفقات وشبكات وروابط، يتم فهمها وممارستها والإضافة إليها، من فاعلين وقوى فى سلسلة من بيئات ومواقع محلية، ثقافية وسياسية واجتماعية مختلفة. هذه الأطر قد تكون إقليمية أو قومية أو محلية، دينية أو صناعية أو تاريخية ... إلخ، بينما مدى وطبيعة ارتباطنا بهذه الأشكال من العولمة مهمة بالمثل. وكنتيجة لهذا التفاعل بين كل تلك القوى والجماعات المختلفة داخل هذه الأطر - المختلفة أيضا - ربما يكون علينا ألا ندهش لكون التعقد وعدم التجانس هى السمات السائدة فى حقبة العولمة التى نعيشها. يضاف إلى ذلك أن الأفراد والجماعات والمجتمعات سيكون لها ثقافاتها وتواريخها التى - حتما - ستشكل طبيعة تفاعلها مع الجوانب المختلفة للعولمة، وتعمل على توليد استجابات متنوعة؛ والحقيقة أنه فى حالة الأفراد فإن طبيعة هذا التفاعل سوف تعتمد بالإضافة إلى ذلك - ومن بين أشياء أخرى - على الخلفية الاجتماعية والتعليمية والعمل والمزاج الشخصى إلى جانب المعرفة وفهم المرء للعولمة[2] على سبيل المثال، ذلك السيل الجارف من الصور والمعلومات المنهمر

من الميديا الغربية، ربما يكون هو الوسيلة الأهم والأبرز التى يترجم بها المسلمون العولمة ويفهمونها، كما أن الوطنيين قد يربطون بين تدفقات المهاجرين الذين يهددون ثقافتهم الأصلية والعولمة، وتكون ردود فعلهم على هذا الأساس. ينبغى إذن عدم النظر إلى العولمة نظرة تجريدية؛ إذ إننا نمارس عملياتها بطرق ملموسة.

هكذا يمكن أن نقول إنه بدلا من مجرد الاعتماد على نظريات وتفسيرات عامة، فإن فهم العولمة الثقافية يتطلب منا التركيز على تداخل وتفاعل الكونى والمحلى فى داخل الأطر المختلفة، والحقيقة - كما سنبين - أن تطورات العولمة تزيد الأمور تعقيدا وبذلك تقوى الحاجة إلى إظهار هذا التمييز؛ فعلى سبيل المثال نجد أنه نتيجة لزيادة تدفقات البشر والصور والأصوات والرموز فى ظل العولمة المعاصرة، تتغير أطرنا المكانية أو محلياتنا على نحو مستمر، بينما تؤكد تكنولوجيا المعلومات والاتصال العالمية - وخاصة عدم تكافؤ الفرص فى الوصول إليها - الفروق الواضحة فى المشاركة فى الشبكات العالمية والعابرة للحدود القومية؛ وبالمثل فإن بعض الناس سوف يستخدمون الطائرات النفاثة ويتنقلون فى أرجاء الكرة الأرضية ويتعرفون على أماكن مختلفة أكثر من غيرهم. باختصار.. نحن نسكن فضاءات اجتماعية وثقافية معقدة ونعمل فى أطر وسياقات متعددة ومتغيرة، ولكى نجمع كل هذا التنوع فى كبسولة واحدة سيكون من الملائم أن ننظر إلى العولمة الثقافية بصيغة الجمع، أى باعتبارها عولمات ثقافية؛ ولتجسيد هذا المفهوم للعولمة الثقافية وإقامة الدليل عليه، سنقدم فى كل فصل عدة أمثلة رغم أن الكتاب لن يعرض لدراسات حالة، حيث تم تناول ذلك فى مصادر أخرى، انظر على سبيل المثال: Eade, 1997, Hany and March, 2001; Hopper, 2006; Monaci et al., 2003; Xavier Inda and Rosaldo, 2002.

وهنا أكرر أن الاهتمام الأساسى لهذا العمل هو تناول المجادلات الرئيسية المحيطة بهذا الموضوع.

أهمية المعايير التى نستخدمها فى تعريف العولمة:

هناك كثير من الأفكار والآراء فى هذا الكتاب، لعل من أهمها أن مصدر كثير

من الخلافات حول العولمة كامن فى مفاهيمها العامة والمعايير المستخدمة لفهمها وتعريفها: ونتيجة لذلك يبدو من يكتبون فى هذا الموضوع وكأنهم يكتبون عن أشياء مختلفة. فى جزء كبير منه، ينبع ذلك من حقيقة أن المجادلات الأكاديمية لها أساليبها المختلفة فى تناول العولمة ودراساتها. فى داخل علم الاجتماع مثلا نجد ربطا بين العولمة والحداثة، بينما يميل الاقتصاديون إلى تناولها فى علاقتها بالرأسمالية والاقتصاد العالمى. وفى العلاقات الدولية نجد العولمة ـ حتما ـ مرتبطة بمؤسسات الحكم العالمية؛ بالإضافة إلى ذلك هناك ـ بشكل عام ـ تقسيم بين العلوم الاجتماعية إزاء هذا الموضوع مثل علم الاجتماع وعلم الاقتصاد والعلاقات الدولية والإنسانيات(٣). من منظور الدراسات الثقافية، على سبيل المثال، تعتقد چانيت وولف (1991) Janet Wolff أن العلوم الاجتماعية تقدم تفسيرا غير كاف وقاصرًا فى تحديده للثقافة وعمليات العولمة، وفى المقابل فإن بعض نماذج العلوم الاجتماعية للعولمة لا تظهر كثيرا فى إطار الدراسات الثقافية. على سبيل المثال دراسات الهجنة فى حقبة العولمة هذه، نادرا ما تعترف بوجود تفسيرات شكوكية عن العولمة، مثل تلك التى يقدمها پول هيرست Paul Hirst وجراهام طومسون (1996) Graham Thompson اللذان نتناولهما فى القسم التالى؛ وعلى أية حال، فقد واجه هيرست وطومسون انتقادات شديدة لتغليبهما الجانب الاقتصادى على البعد الثقافى للعولمة.

العولمة المختلف عليها والحاجة إلى استشراف متعدد المجالات المعرفية

ما سبق طرحه يلقى الضوء على موضوعين إضافيين فى هذا العمل، هما بالتحديد: الطبيعة المختلف عليها للعولمة كما هى منعكسة فى الجدال حول وجودها وتاريخها وطبيعتها ومسارها أو مساراتها المستقبلية، ثم الحاجة إلى انتهاج أسلوب متعدد المجالات المعرفية عند بحثها؛ وفى حالة الأمر الثانى يمكن القول ببساطة إنه ليس هناك مجال معرفى واحد يمكن أن يشملها أو يقدم تفسيرا كافيا لأبعادها وتجلياتها وتأثيراتها المختلفة. ومن الأهمية بمكان، وباعتبار عمليات العولمة الثقافية لا تعمل بمعزل عن أبعادها الأخرى وإنما متداخلة متفاعلة معها، فإننا نستخدم هنا أسلوبا للاستشراف أو التناول متعدد

المجالات المعرفية. مثلا: درسنا للعولمة الثقافية لن يكون كاملا ما لم نعترف بإمكانيات وقدرات فاعلين رئيسيين (مثل تكنولوچيا المعلومات والاتصال فى الميديا والمنظمات الدولية وحكومات وطنية بعينها) على تشكيل عملياتها، وقوى مثل الرأسمالية والعقلانية لكى تدفعها، وأن ذلك بدوره يتطلب تضمين التحليلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى بحثنا؛ وفى هذا السياق نرى أن الرأسمالية ـ دون شك ـ مؤثر قوى يثرى وينشط الكثير من جوانب العولمة بما فى ذلك بعدها الثقافى، على الرغم من أن العلاقة ليست مباشرة بالضرورة.

بداية، هناك الآن توجه لتعريف أنماط مختلفة من الرأسمالية (وبخاصة النموذج الأنجلو ساكسونى الذى تُوَجِّهه السوق) بأنها تمارس نفوذا أكبر من غيرها على العولمة. (انظر الفصل الخامس)، والواقع أن هذا النمط بالتحديد هو ما يُسَتَشْهَدُ به كأحد أسباب الانخفاض التدريجى فى القيلولة الإسبانية، مع نقاد يزعمون أن ثقافة إسبانيا المتوسطية التى كانت تميل إلى الاسترخاء النسبى أصبحت، شيئا فشيئا، محبة للعمل وفردانية بسبب ضغوط المنافسة فى سوق رأسمالية معولمة؛ ولكن سكوت لاش Scott Lash وچون أورى John Urry (1983, 1994) يعقدان الأمور أكثر من ذلك بقولهما إن الرأسمالية قد خرجت بالفعل من شكلها القومى/ المجتمعى المنظم لتصبح غير منظمة وكونية فى الوقت نفسه، وتتميز باقتصادات شديدة الحركية والتعقيد (من ناحية العلامات والناس)؛ وباعتبارها لاعبا أساسيا مسيطرا فى تشكيل العولمة الثقافية، فإن الولايات المتحدة متهمة عادة بالقيام بهذا الدور. على نحو أكثر تحديدا، كان الانتقاد الشديد فى الفترة الحديثة يوجه إلى إدارة چورچ دبليو بوش George W. Bush لاستخدام القوة الأمريكية فى نشر مفهومها للحرية والديمقراطية فى العالم، إلا أن حجم الفوضى والعنف فى العراق إثر الحرب الأخيرة، بالإضافة إلى الانتقادات الدولية التى ولدتها هذه المرحلة، يوحى بشكل قاطع أن استخدام القوة لا يستطيع أن يضمن النفوذ الثقافى الكونى. ذلك كله يعنى (كما سنرى فى الفصل الرابع) أن هناك وجهات نظر مختلفة حول ما إذا كانت الرأسمالية والقوة الأمريكية أو أى مؤثر آخر يمكن أن يفرز ثقافة كونية واحدة؛ والحقيقة أنه سوف تتضح لنا على مسار هذا الكتاب إشكالية القول بأن العولمة الثقافية تحكمها قوة أو سلطة

خاصة؛ وذلك لأنه ينبغى النظر إلى العولمة الثقافية، على نحو أكثر دقة، كظاهرة متعددة المركز، تسهم فيها سلسلة من المصادر والقوى والمؤثرات. على الرغم من ذلك يبقى أننا فى استشرافنا أو تناولنا للعولمة من خلال تفحص ودراسة توجهاتها وتجلياتها الثقافية، ينبغى ألا نغفل عن رؤية الصورة الأعرض وأبعادها الأخرى.

تحليل العولمة الثقافية

على الرغم من الجدال الواسع الذى أثارته العولمة، وعلى الرغم من التعريفات والتوصيفات الكثيرة التى قدمها الكُتَّاب فى محاولة لشرحها، تبرز أمامنا ثلاث موجات للتحليل والاستشراف. هذه الموجات سوف نقوم بتلخيصها الآن ثم نتناولها بالتفصيل على مدار الكتاب، وخاصة فى ما يتعلق بالموقف من العولمة والثقافة.

• الموجة الأولى من أساليب استشراف وتناول العولمة:

يعتبر منظرو الموجة الأولى أو "المعولمون الأوائل" التطورات المعاصرة والعمليات الكوكبية بمثابة حالة أو مرحلة جديدة فى التاريخ الإنسانى. (انظر: Greider, 1997; Guéhenno, 1995; Julius, 1990; Ohmae, 1990; Wriston, 1992)[٤] إنهم يكتبون عن بزوغ اقتصاد عالمى متكامل مع التركيز على الأسواق المفتوحة وانهيار الحدود القومية، والإنتاج ينظر إليه باعتباره عملية عالمية واضحة فى الحجم المتنامى للتجارة العالمية، وحراك رأس المال والمعلومات والبشر، والمعدلات العالية للاستثمار الأجنبى المباشر، والأهمية المتزايدة للمؤسسات متعددة الجنسيات والمؤسسات العابرة للحدود القومية. إلى جانب وجود متضمنات ثقافية عميقة تسهم فى أمور مثل "الموسيقى العالمية"، فإن هذه التطورات تمثل تحديات خاصة للدولة ـ الأمة؛ حيث إنها تقيد استقلالية الحكومات الوطنية فى أن تسعى من أجل إدارة سياسية واقتصادية مستقلة؛ مع وجود بعض دعاة العولمة، مثل الكاتب اليابانى كينيشى أوهماى Kenichi Ohmae (1990)، الذين يتوقعون أفولها.

هذا التحدى الذى يواجه الدولة ـ الأمة واضح بشدة فى المجال الثقافى، حيث توجد دول تبذل قصارى جهدها للسيطرة على تدفقات الثقافة العالمية والمعلومات، وهو ما ينطبق حتى على الأنظمة السلطوية. حتى دولة الحزب الواحد الصينية، كما سنرى، لا تستطيع مراقبة أو حجب استخدام تليفزيون الأقمار الصناعية أو الإنترنت فى مجالها؛ كما تؤكد تكنولوجيا المعلومات والاتصال الكونية أن المواطنين الصينيين على صلة أكبر ببقية المجتمع العالمى، ويتبع ذلك بالتأكيد زيادة إمكانية الوصول إلى وجهات نظر أخرى بشأن الأخبار والشئون العالمية. والحقيقة أن بيچين لم تعد فقط عاجزة عن احتكار المعلومات، بل إنها تبدو عاجزة كذلك عن التعامل مع حجم عمليات قرصنة وتوزيع الأفلام الأجنبية وبرامج التليفزيون داخل أراضيها. فى عصر العولمة، ليست المؤثرات الثقافية وحدها هى التى تمثل مشكلة للحكومات الوطنية أو القومية، فمثل تلك المصاعب يمكن أن ينشأ من المنتجات الثقافية المحلية. حدث على سبيل المثال بالقرب من نهاية عام ٢٠٠٦، أن لجأت العسكرية الأمريكية إلى منتجى المسلسل الأمريكى " "24" الذائع الذى يوزع عالميا، لكى يخففوا مشاهد تعذيب الشرطى الفيدرالى "چاك بارور" بسبب الضرر الذى يلحقه ذلك بسمعة أمريكا فى الخارج. (Buncombe, 2007)

● **الموجة الثانية من أساليب استشراف وتناول العولمة:**

هناك وجهات نظر شديدة الانتقاد للوضع العولمى بين منظرى الموجة الثانية الذين يدعون ـ غالبا ـ بالمتشككين، فكثير من اليساريين على سبيل المثال يعتبرون العولمة امتدادا أو توسعا للرأسمالية العالمية وينكرون أنها تمثل مرحلة جديدة، (Burbach et al., 1997; Sklair, 2002) بينما يؤكد كتاب، انطلاقا من التقليد الواقعى -أن النظام العالمى مستمر فى خضوعه لدول بعينها، قوية اقتصاديا وعسكريا أبرزها الولايات المتحدة الأمريكية. (Gilpin 1987) ، وهناك آخرون مثل "پول هيرست" و"جراهام طومسون" ممن يلقون الضوء على الأساطير التى أصبحت مرتبطة بالعولمة. اعتمادا على أبحاثهم، يؤكد هؤلاء أن الاقتصاد العالمى أبعد من أن يكون معولما فى واقع الأمر، فالتجارة والاستثمار والتدفقات المالية

مركزة فى ثالوث أوروبا واليابان وأمريكا الشمالية ويبدو أنها سوف تبقى كذلك، ولذا فهم مقتنعون بأن الأنسب هو الحديث عن "التثليث" أكثر من العولمة. ويجادل "هيرست" و "طومسون" أيضا بأن الشركات العابرة للحدود القومية نادرة نسبيا وأن معظم الشركات متمركز محليا، ربما لأن الانتقال إلى مكان آخر مكلف، كما يعترفان بوجود تطورات معينة فى تدفقات التجارة والأفراد والتمويل والاستثمارات الرأسمالية عبر المجتمعات فى المرحلة المعاصرة، ولكنهما يشيران إلى سوابق تاريخية مثل الفترة من ١٨٧٠: ١٩١٤، حيث يزعمان أن الاقتصاد العالمى كان أكثر دولية فيها عما هو عليه الآن. "هيرست" و"طومسون" بالتالى يستنتجان أن التوجهات المعاصرة يمكن أن توصف ـ على نحو أفضل ـ بأنها عملية تدويل اقتصادى أكثر منها عولمة متقدمة بالكامل.

إذا كان المتشككون على حق، فإن ذلك يمكن أن يثير الشكوك حول مدى التغير الثقافى المعاصر. وببساطة، إذا كانت البنية الأساسية العالمية لم توجد بعد سواء فى شكل رأسمال عالمى أو شركات أو تجارة، فليس هناك الكثير، إذن، الذى يمكن أن يبقى على الهياكل الثقافية العالمية: بينما إذا أخذنا مثال "الموسيقى العالمية" الذى أوردناه قبل ذلك فيما يتصل بالموجة الأولى من أساليب استشراف العولمة، فإن بعض النقاد ينكرون أنه يمثل هيكلا ثقافيا محددا بأسلوبه الخاص أو صوته المميز، ناظرين إليه باعتباره مجرد استراتيچية تسويقية، تضم سلسلة واسعة من الموسيقى المتنوعة وتروج لها. وبالمثل، بالعودة إلى مثال الصين، نجد أنه على الرغم من كل النقاش حول التدفقات الثقافية الكونية والعابرة للحدود القومية، يواصل الحزب الشيوعى الصينى سيطرته المحكمة على الميديا. الصين مثلا يوجد بها أكثر من ٢٥.٠٠٠ جريدة ومجلة، ولكن السلطة هى التى تقرر ما إذا كان لأى منها أن يتناول القضايا السياسية الحساسة، وهى التى توجهها لكى تفعل ذلك. الدولة؛ كذلك، تراقب التغطية التليفزيونية للأخبار وتحدد الموضوعات المحظور تناولها. ورغم وجود عدد كبير من القنوات الأرضية فى الصين فإن الدولة أو الحكومات الإقليمية هى التى تديرها كلها؛ والحقيقة أن سيطرة الدولة تصل إلى درجة أن تصدر "إدارة الدولة للراديو والسينما والتليفزيون" التعليمات للمذيعين ومقدمى البرامج بالكف عن تقليد الأساليب الغربية فى المظهر

والتناول، بما فى ذلك التوقف عن استخدام كلمات إنجليزية: (Watts, 2004) والمعروف بالإضافة إلى ذلك آن الصين تشوش على إذاعة الموجة القصيرة لمقدمى الأخبار الأجنبية، كما تقوم بشكل روتينى بحجب الوصول إلى الإنترنت وبخاصة مواقع Falun Gong، وجماعات حقوق الإنسان وبعض المؤسسات الإخبارية الأجنبية. بيچين كذلك لا تبدو بدون سلطة أو نفوذ عندما تتعامل مع بعض القوى المحركة وراء الإنترنت كما فعلت بالنسبة لآلة البحث على "Google"، ففى سنة ٢٠٠٦ بعد أن أغلق الصينيون خدماتها فى بلادهم، وافق أصحاب Google على طلب بيچين منع إمكانية استعادة ما تراه معلومات حساسة سياسيا، مثل مذبحة ميدان "تيانان من" فى ١٩٨٩، وما حدث هو أن "جوجل" كان عليها أن توافق على رقابة ذاتية إن كانت تريد أن تستمر فى العمل فى الصين.

• الموجة الثالثة من أساليب استشراف وتناول العولمة:

هناك بالمثل طائفة من الآراء بين منظرى الموجة الثالثة حول العولمة؛ نجدها فى كتابات أمثال "أنتونى جيدنز" Anthony Giddens (1990) و"چيمز روزينو" James Rosenau (1997) الذين يعرفون بالتحويليين. كتَّاب من هذا النوع يؤكدون الطبيعة غير المسبوقة للتدفقات الاقتصادية والسياسية والثقافية الجارية ومستويات التواصل الكونى المتبادل نتيجة لقوى الحداثة مجتمعة. (ibid.,10) العولمة، بالتالى، لا تقودها الرأسمالية فقط وإنما - أيضا - التصنيع والدولة - الأمة والتطورات التكنولوچية والنزعة العلمية والتفكير النقدى... إلخ. ومن هذا الموضع يكون النظر إلى العولمة باعتبارها قوة أو عملية تحويلية قوية معقدة وغير نهائية بالضرورة، مسئولة عن إحداث تغيير كبير داخل المجتمعات والنظام العالمى. (ibid.,7)، هذا التناول الخاص يثير بالتالى قضية العلاقة بين العولمة والحداثة، وهو الموضوع الذى يتردد كثيرا فى أدبيات العولمة. إذا كانت الحداثة والعولمة، من منظور ثقافى، مرتبطتين ببعضهما فهل ينبغى فهم العولمة باعتبارها مشروعا غربيا بالأساس بسبب الأصول الأوروبية للحداثة؟ باختصار، هل العولمة غربية؟ عند "جيدنز" العولمة "إحدى النتائج الأساسية للحداثة"، وإن كان يعارض الربط بين العولمة والغربنة، مجادلا أن الأولى "تقدم أشكالا جديدة من الاعتماد العالمى المتبادل. (175 : 1990) وفى المقابل فإن نظرية النظم

الدولية تقيم هذه الصلات وتعادل العولمة بانتشار المؤسسات الغربية والرأسمالية. (Amin 1996, 1997; Wallerstein, 1974, 1980) من منظور آخر يرى "رولاند روبرتسون" Roland Robertson (1992) أن العولمة تسبق الحداثة، على الرغم من أن التحديث قادر على المساعدة فى الإسراع بالعولمة وبأوروبا الموجودة فى قلب هذه العمليات؛ بينما يعتبر "مارتين آلبرو Martin Albrow " العصر العولمى قد حل بالفعل محل العصر الحديث، بما يعنى أن الكونية قد خلقت الحداثة. ولكن "چون طوملينسون" John Tomlinson يرى أن مفهوم الحداثة الكونية يظل "أسلوبا مقنعا لفهم تواصلنا الحاضر شديد التعقيد" (1999a : 70).هذه المواقف المختلفة سوف يتم تناولها بالتفصيل فى هذا الكتاب وسيكون هناك تركيز على التطورات غير الغربية (كون الرأسمالية لم تعد ظاهرة غربية)، ومفهوم الحداثات المتعددة، وكيف يمكن أن تكون العولمة قد سبقت "الحداثة" وأسهمت فيها، بالإضافة إلى طبيعة الغرب وأوروبا المركبة، وذلك لكى نتجنب استشرافا ذا نزعة مركزية أوروبية، وللخروج بفهم أكثر دقة عن العولمة الثقافية.

على أية حال، كما ذكرنا عاليه، هناك الكثير فى تحليلات الموجة الثالثة للعولمة عن مجرد الوضع التحويلى، حيث نجد "كولن هاى" Colin Hay و"ديڤيد مارش" David Marsh مثلا يوضحان مسألة تجنب تصور العولمة كعملية سببية ذات تأثيرات محدودة، ويؤكدان بدلا من ذلك المرونة وتعددية العمليات والمصادفة والمقاومة والصراع ... إلخ، ويجادلان بأن العولمة هى ما يحتاج إلى تفسير. (2001: 6) وعلى نحو أشمل، بداخل تفكير الموجة الثالثة هناك دور أكبر للعوامل البشرية فى كل من الإنجاز والإسهام فى عمليات العولمة (انظر: Holton, 2005)، وهو ما يضيف بدوره إلى أهمية إدراكنا للعولمة والأفكار السائدة عنها وما يحيط بها من جدال. فى هذا السياق نجد "أنجس كاميرون Angus Cameron" و"رونين پالان (2004) Ronen Palan" فى تحليلهما لخطاب العولمة يؤكدان التأثير الذى يمكن أن تمارسه السرديات التقليدية على الأفراد والحكومات والأعمال، وبمعنى آخر هناك بعد تخيلى عن العولمة يمكن أن يؤدى إليها بالفعل مخلفا آثارا معينة لتصبح نبوءة تتحقق ذاتيا.

وبما أن التأكيد فى هذا الكتاب على التعقد وتعددية الأبعاد وعدم الاتساق والعامل البشرى وعلاقة ذلك كله بالعولمة. فإن أسلوب التناول المتبع هنا يأتى متسقا مع تحليلات الموجة الثالثة. على أن نقطة البداية فى هذا الكتاب أكثر مباشرة، حيث ننظر إلى العولمة باعتبارها أشكالا متعددة من الترابط والتواصل العالمى، مع الأخذ بالاعتبار كلا من تاريخها الطويل (لأن مثل هذا السلوك يمكن أن نجده فى المراحل الباكرة ـ انظر الفصل الأول)، وإمكانيات حدوث تغيرات فى طبيعتها وشكلها فى زماننا. فى هذا السياق، سيكون التأكيد على أن المرحلة الحالية من العولمة مألوفة بالنسبة للكثيرين ممن تناولوا هذا الموضوع وإن كان التعبير عن ذلك يجىء بطرق مختلفة. على نحو خاص هناك تأكيد شديد على العولمة باعتبارها مرحلة جديدة فى تنظيم الزمان والمكان: "ديڤيد هارڤى" David Harvey (1989) مثلا ينظر إلى هذا التغير باعتباره شكلا من "ضغط الزمان والمكان معا"، حيث الفضاء ينكمش أو يتآكل نتيجة للتطورات الحديثة (مثل السفر بالطائرات النفاثة)، وتكنولوچيا المعلومات والاتصالات الحديثة، والعمليات الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة، ونتيجة لذلك تتزايد سرعة إيقاع الحياة. بالإضافة إلى ذلك يبلور "أنتونى جيدنز" فكرة التباعد الزمانى المكانى ليصف "انخلاع" العلاقات والصلات الشخصية من محليات أو أطر بعينها. بما يعنى أن العلاقات الاجتماعية "تمتد" عبر مسافات، وتمدد عوالمنا الظاهراتية من المحلى إلى الكونى؛ وكما سنرى فى الفصل الثالث فإن استمرار الانقسام الرقمى العالمى يثير الكثير من الأسئلة عن المدى الذى تحول به التكنولوچيا العلاقات الإنسانية وكذلك مفهومنا عن الزمان والمكان. وبالعودة إلى الجدال الأوسع الذى يطرحه هذا الكتاب، نقول إنه إذا كانت المرحلة المعاصرة من العولمة تمثل توسعا غير مسبوق فى أشكال عدة من التواصل الكونى، يكون من المرجح إذن أن تحول خبراتنا الاجتماعية والثقافية؛ ولهذا السبب، عند تناول الجدل الذى أصبح مرتبطا بالعولمة الثقافية، سيكون الاهتمام بتحديد طبيعة ومدى هذه التحولات الثقافية.

بنيـة الكتـاب

فى تفحصنا للعولمة الثقافية، سنخصص فصلا لكل جانب من جوانب الموضوع مع الإشارة إلى عدد من الكتاب الرئيسيين الذين تناولوا كل مجال:

- الفصل الأول يبحث فى تاريخ العولمة الثقافية، بداياتها وما إذا كان ينبغى اعتبارها عملية تاريخية طويلة المدى. هنا سنجد تفصيلا لعدد من مراحل العولمة المختلفة وهو ما يشكل جزءا من حالة النظر إلى الأمر بصيغة الجمع أكثر منه بصيغة المفرد، أى "عولمات" بدلا من عولمة. كذلك يوضح هذا الفصل كيف أن المرحلة المعاصرة للعولمة قد قامت بالبناء على تطورات وعمليات أسبق، على الرغم من أنها تمثل مرحلة محددة من ناحية مدى وحدة وسرعة التدفقات الثقافية؛ وأخيرا سيكشف الفصل كيف أن تصوراتنا عن العولمة ترفد الجدل الدائر عن تاريخها وأصولها.
- الفصل الثانى يبحث طبيعة الثقافة بهدف الخروج برؤية أكثر وضوحا عن العولمة الثقافية، مستكشفا قضايا مثل كيفية انتقال الثقافة عبر العالم وتأثيرها على إحساسنا بالمكان؛ وكجزء من تقصى العلاقات المتبادلة بين الثقافة والمكان سيتم تناول عدد من الموضوعات المتعلقة بذلك، وبخاصة التدفقات الثقافية والنزوع عن الإقليمية وعبور الحدود القومية، وذلك إلى جانب أعمال عدد من الكُتَّاب الرئيسيين مثل: "آرچون أپادوراى" Arjun Appadurai و "چيمز كليفورد" .James Clifford
- الفصل الثالث يقيم إسهام الميديا وتكنولوچيات المعلومات والاتصال المعاصرة فى العولمة الثقافية، مع التركيز على التقدم التكنولوچى الحديث مثل معالجة

المعلومات والرقمنة والإنترنت ونطاق الموجات. كما يغطى هذا الفصل موضوعات مهمة تتضمن: أوجه الاتصال الجماهيرى التى تعتبر كونية بالفعل من حيث اتساعها الإقليمى ومدى تأثيرها، وما إذا كانت عولمة الميديا خرافة. ومدى معقولية فكرة "مانويل كاستلز Manuel Castells" عن "المجتمع الشبكى".

- الفصل الرابع يتناول مسألة ما إذا كانت عمليات العولمة الثقافية تؤدى إلى ظهور ثقافة كونية، وإن حدث ... فما الشكل الذى سوف تتخذه هذه الثقافة البازغة؟ وسوف يستدعى ذلك استكشاف وتحرى دعاوى أنها ثقافة تحركها الرأسمالية أو الحداثة أو أمريكا أو كل تلك العوامل مجتمعة إلى جانب قوى أخرى، كما سنقوم بدرس عمل "رولاند روبرتسون Roland Robertson"، وهو كاتب مهم فى هذا المجال. واتساقا مع الموضوع العام للكتاب سوف ندفع بأنه قد يكون من الملائم تصور ثقافة كونية بصيغة الجمع، أى "ثقافات عالمية".
- الفصل الخامس يفند الزعم بأن العولمة تضعف الثقافات القومية، ولذلك سوف ينظر فى كل من التحديات التى تواجه الدولة ـ الأمة والثقافات القومية فى منطقة معولمة، وكذلك مزاعم كُتَّاب مثل "أنتونى سميث Anthony Smith" (1995) الذى يؤكد وثاقة الصلة وحيويتها؛ كما يتناول الفصل ما تتضمنه الثقافات القومية نتيجة عمليات التهجين الثقافى فى ظل العولمة المعاصرة، مع الأخذ فى الاعتبار ذلك الرأى القائل بأن قضية الهجنة قد أخذت أكثر من حقها (e.g., Friedman. 1990, 1999).
- الفصل السادس محاولة لتحديد ما إذا كانت جوانب العولمة قد أسهمت فى أشكال الصراع الثقافى، وسوف يتناول العمليات الاجتماعية والاقتصادية والنقاط الأساسية المرتبطة بالعولمة، مثل ما بعد الصناعية والابتعاد عن التقليد أو التراث، وكذلك الكُتَّاب الذين عقدوا صلة بين العولمة والصراع الثقافى مثل "بنجامين باربر Benjamin Barber" و"صمويل هنتنجتون Samuel Huntington" ولكن كما يلاحظ هنا ـ مع تأكيد التعقد الثقافى والتعددية، ويجادل الفصل أن العولمة ـ حقيقة ـ لا تقدم تفسيرا للصراع الحضارى والثقافى الذى ينشأ.

- الفصل السابع، على نحو مغاير، يستشكف إمكانية قيام بعض جوانب العولمة بتوليد توجهات وأساليب حياة كوزموپوليتانية، وتقييم الآثار المحتملة على المجتمعات والأفراد الذين لديهم الإمكانية للوصول إلى ثقافات وتقاليد أخرى من خلال السفر والهجرة وتكنولوچيات الاتصال الكونية الحديثة؛ وبالطبع فإن التجليات الثقافية المختلفة للعولمة تزيد من قوة قضايا العولمة الثقافية التى ندافع عنها هنا.
- الخاتمة تقدم خلاصة للموضوعات الرئيسية فى هذا الكتاب، وتبلور التطورات الحديثة فى دراسات العولمة على ضوء علاقتها بتحليلات الشبكة، وتورد الحجج من أجل استشراف للعولمة الثقافية أكثر تركيزا على الجانب الإنسانى.

للمزيد:

أفرزت العولمة أدبيات كثيرة كان لبعضها الإسهام الأكبر فى دراسة هذا الموضوع من بينها:

- Anthony Giddens, "The Consequences of Modernity", 1990.
- David Held et al., "Global Transformations" 1999.
- Paul Hirst and Grahame Thompson, "Globalization in Question" 1996.
- Roland Robertson, "Globalization", 1992.
- Jan Aarte Scholte, "Globalization: A Critical Introduction" 2000.

أما النصوص ذات العلاقة بالجدل حول العولمة الثقافية فتجدها فى نهاية كل فصل.

الفصل الأول

العولمة الثقافية: أكثر من تاريخ

يتناول هذا الفصل بعض المجادلات الأساسية المحيطة بتاريخ العولمة الثقافية، ويبدأ بتفصيل عدد من المراحل التاريخية التى مرت بها، قبل أن يعرض لمشكلة بدايتها وملاءمة النظر إليها باعتبارها عملية تاريخية طويلة المدى. فى المقدمة أكدنا أن البعد الثقافى للعولمة متداخل مع الأبعاد السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، وبالمثل لكى نفهم تاريخ العولمة الثقافية فلابد من تقص أوسع لهذا التاريخ؛ وكما سيتضح لنا من خلال هذا النقاش فإن تحديدنا لمسار العولمة سوف يعتمد إلى حد كبير على مفهومنا عنها وما تتضمنه. إن المعيار الذى نستخدمه جزءًا من تعريفنا للعولمة يمضى بعيدا فى طرح أسئلة عن أصولها والشكل الذى اتخذته وطريقة انتشارها. كذلك سنجادل بأن إدراكنا تاريخ العولمة الثقافية يكشف لنا أن الوضع المعاصر، رغم أنه يمثل مرحلة محددة، مبنى فى الوقت نفسه على عدد من التطورات والعمليات السابقة. علاوة على ذلك، فإننا لكى نكون قادرين على فهم الأشكال التاريخية للعولمة الثقافية لابد لنا من فحص التقاء تاريخ التدفقات الثقافية المعولمة بتاريخ مواقع وأطر بعينها.

المراحل المختلفة للعولمة الثقافية

عند تتبع أصول وتطورات العولمة الثقافية من المفيد أن نفكر فيها باعتبارها مرت بعدد من المراحل المختلفة. هذه المراحل يمكن أن نصنفها بشكل عام بالمرحلة ما قبل الحديثة (الفترة السابقة على سنة ١٥٠٠) والمرحلة الحديثة (١٥٠٠ ـ ١٩٤٥)، والمرحلة المعاصرة (١٩٤٥ وما بعدها)[1] ربما يكون من المستحيل وصف كل أشكال أنشطة العولمة خلال هذه المراحل المختلفة، ولكن الهدف

ببساطة، هو تحديد القوى والعمليات الرئيسية التى أسهمت فى العولمة فى كل مرحلة، مثل الإبداعات التكنولوجية والسياسية والاقتصادية والتحولات الاجتماعية والتغيرات المؤسسية؛ يضاف إلى ذلك وحسب التركيز التحليلى لهذا الكتاب أننا سوف نؤكد البعد الثقافى لهذه التطورات. فماذا كانت، إذن، الملامح المحددة لهذه المراحل المختلفة من العولمة ؟

العولمة ما قبل الحديثة (من الحضارات الباكرة إلى ١٥٠٠)[٢]:

إذا فكرنا بالثقافة، بشكل أساسى، باعتبارها تتضمن الناس والأفكار والسلع والمنتجات الفنية، فيمكن أن يقال إن العولمة الثقافية لها تاريخ طويل، لأن مثل هذه المجالات كانت موجودة ومنتشرة على الكرة الأرضية منذ آلاف السنين. كما أن هناك أعمالا كثيرة وآراء لدى مؤرخين عالميين ومنظرى التهجين والنظم العالمية والحضارات، كلها ترصد أشكال العولمة الثقافية فى العصر الحديث.
(e.g., Frank and Gills, 1996; Nederveen Pieterse, 2004; Sanderson, 1995)

وسوف نحدد الآن جزءا من هذا البحث فى إطار فحص العمليات الأولية أو التحولات التى ينظر إليها، غالبا، باعتبارها تجليات للعولمة أو إسهامات فيها فى المرحلة ما قبل الحديثة، وهى تتضمن:

- الهجرات الإنسانية الباكرة.
- ظهور الأديان العالمية.
- الأنظمة الإمبريالية الأولى.
- تطور شبكات التجارة بين المناطق المختلفة.

الملمح العام لهذه الأنشطة الإنسانية هو أنها أمنت المواجهات الثقافية، لكى يتم تبادل واستيعاب الأفكار والمعتقدات والتطورات التكنولوجية، وبالتالى لابد من اعتبارها جزءا من تقصينا تاريخ العولمة الثقافية[١].

(١) الهجرات الإنسانية الباكرة:

يعتبر بعض الكُتَّاب الأشكال الباكرة من الهجرات الإنسانية دليلا على العولمة

فى المرحلة ما قبل الحديثة. على سبيل المثال، يكشف "روبرت كلارك Robert Clark" (1997) الحاجة الإنسانية الفطرية للانتشار عن "ضرورة كونية" فى العالم - تعود إلى إنسان ما قبل الزراعة معتدل القامة؛ هكذا كانت الجماعات الإنسانية تنتقل عبر كوكب الأرض لكى تؤمن بقاءها وتوفر الطاقة والاحتياجات حيث كانت المجتمعات تزداد حجما وتعقيدا، والبقاء على قيد الحياة يصبح أكثر صعوبة. ولكى يصور "كلارك" هذا التوجه نحو العولمة، يحدد سبع مراحل للعولمة شكلت تاريخنا: من الهجرات الأصلية للإنسان المعتدل القامة والإنسان العاقل من شرق أفريقيا وصولا إلى رقمنة المعلومات فى عصر الكمبيوتر الحالى. بالنسبة لـ "كلارك"، وبصرف النظر عن كونها ظاهرة حديثة، فإن العولمة ذات جذور فى الحياة الإنسانية: نحن جنس بشرى كونى؛ ويعبر عن ذلك بقوله: "إن جوهر الحالة الإنسانية هو الارتباط الأساسى بأجزاء الكون عبر الزمان والمكان" (ibid., 2) .

وسواء كان ذلك بسبب الدوافع التى يوردها "كلارك" أو لا، فمن الممكن بالتأكيد رصد أمثلة على الانتشار الإنسانى وحركة البشر خلال المرحلة ما قبل الحديثة، سوف نورد ثلاثة منها هنا. الأول: انتشار المرض الذى كان يأخذ شكل الوباء أو الجائحة، وبينما كان حدوث أمراض معدية فى مجتمعات وبلاد معينة نتيجة مؤكدة لعدة عوامل مجتمعية، كان انتشارها عبر مناطق أخرى يحمل بعض الدلائل على مدى اتساع حركة السكان قبل سنة ١٥٠٠، وهذا "وليم إتش ماكنيل William H. McNeill" مثلا، يشير إلى أن عددا كبيرا من الناس كانوا يتنقلون داخل إمبراطورية المغول الشاسعة "لمسافات طويلة جدا وعبر حدود ثقافية موبوءة"، ويعتقد أن ذلك كان له دخل كبير فى ظهور وانتشار الطاعون الدبلى (1979: 142-3).

المثال الثانى على انتقال وحركة البشر أثناء المرحلة ما قبل الحديثة يتعلق بانتشار حياة الترحل أو البداوة. أثناء هذه الفترة كان عدم وجود حدود للمناطق يسهل كثيرا من حركة الناس كما حدث مع الشعوب الجرمانية ثم المغول فيما بعد، بالإضافة إلى أن الرُّحَل كانوا يستطيعون أن يؤثروا فى المجتمعات المستقرة ويسهموا فى تشكيلها ثقافيا وسياسيا واقتصاديا؛ وفى هذا السياق يرصد "أناتولى خازانوف Anatoly Khazanov (1984)" الأساليب التى كان يؤثر بها

الرحل فى مثل هذه المجتمعات فى المنطقة الأفرو- أوراسية. كما يحدد أساليب التأقلم المختلفة للمترحلين مع المناطق والأماكن الجديدة بما فى ذلك إقامة دول وإن كانت قصيرة العمر. على الرغم من ذلك، لا بد من أن نضع فى اعتبارنا أن الإمبراطوريات المترحلة وموجات الهجرة كانت تمثل فى الغالب فترات فوضى وتمزق وصراعات تعوق التواصل وتدفق التجارة لمسافات بعيدة (Cowen, 2001)

فى المثال الثالث نجد أن عددا من مجتمعات الشتات كان موجودا فى أجزاء مختلفة من العالم فى الفترة ما قبل الحديثة. الشتات اليهودى على سبيل المثال ظهر - إلى حد كبير - نتيجة لأعمال قوى عسكرية إقليمية وبخاصة الإمبراطوريات الأشورية والبابلية والرومانية التى أجبرت كثيرا من اليهود على الفرار من وطنهم بدءا من القرن الثامن ق.م وبعده. بالإضافة إلى ذلك فإن مجتمعات الشتات ظهرت أيضا لأسباب غير تلك الخاصة بالسياسات الإقليمية أو الاضطهاد الدينى، فمجتمعات الشتات الصينية التجارية كانت موجودة بكثرة فى أجزاء من جنوب شرق آسيا فى القرن الخامس عشر، وكانت تعمل على تسهيل التجارة وخلق شبكات اجتماعية .(Van de Ven, 2002) .

غير أن معادلة الهجرات الإنسانية الأولى بالعولمة تظل عملية إشكالية؛ إذ إننا لعقد هذه الصلة لا بد من أن نعرف المزيد عن طبيعة التكامل الإنسانى الذى كانت تولده تلك الهجرات، مثل مدى وقوة علاقات التواصل والترابط؛ ويقدر، فى هذا السياق، أن الأمر تطلب ١٥٠٠٠٠ سنة لكى ينتشر الإنسان العاقل (الذى ظهر أولا كما يعتقد فى أفريقيا) فى بقية كوكب الأرض باستثناء انتراكتكا. (Fagan, 1990) .

كانت تلك عملية حدثت على نحو متقطع ودون انتظام، وعلى فترة زمنية طويلة لدرجة يستبعد معها أى فكرة عن تواصل كونى. يضاف إلى ذلك أنه حتى التحركات السكانية التالية فى أفريقيا لا يمكن رؤيتها بالطريقة نفسها. هجرة الشعوب الناطقة بالبانتو Banto مثلا من وسط أفريقيا حول بحيرة تشاد بين ٥٠٠ ق. م و ١٠٠٠م إلى معظم بقية القارة، كانت عملية تدريجية وتضمنت جماعات قليلة نسبيا لم تعد إلى موطنها الأصلى وأبقت على اتصال قليل به.

(Maylam, 1986) على نحو مماثل، هل يمكن أن نعتبر الترحل عولمة أو على الأقل دليلا عليها. بمعنى آخر، هل انتشار البشر فى مناطق جغرافية جديدة دليل على التواصلية الكونية والاعتماد المتبادل؟ لا شك أن التصور الذى نطرحه للعولمة هنا سيكون له معارضوه، وهذا موضوع سوف نعود إليه فى القسم التالى من هذا الفصل.

(٢) ظهور الأديان العالمية:

يعتبر انتشار الأديان العالمية عادة دلالة أخرى على العولمة فى المرحلة ما قبل الحديثة، حيث ساعد فى خلق ولاءات عابرة للمناطق والهويات. فى تلك المرحلة ظهرت عقائد مثل المسيحية والإسلام والبوذية واليهودية والزرادشتية والهندوسية، وفى بعض الحالات كان لها أتباع فى مناطق بعيدة عن مواطنها الأصلية، وحملها أحيانا التجار والرحالة إلى مناطق أخرى. ساعد على انتشارها أيضا تطور الكتابة وهو ما حمل النصوص الرئيسية، وبالتالى المبادئ الأساسية لهذه العقائد إلى أصقاع بعيدة. (Held et al., 1999:333) .

زادت التوجهات العولمية للمسيحية والإسلام قوة، والحقيقة أنها مؤسسة على المزاعم العامة الموجودة فى القلب منها. يضاف إلى ذلك أنه فى حالة الإسلام: على الرغم من الخلافات الطائفية (السنة والشيعة) والتقسيمات السلالية (أمويون وعباسيون)، وعلى الرغم من تأسيس خلافات متنافسة فى قرطبة والقاهرة فى القرن العاشر أضعفت الوحدة الإسلامية السياسية، على الرغم من ذلك كله فإن مفهوم الأمة، والمجتمع الإسلامى العالمى، واللغة العربية كانت كلها عوامل ساعدت فى اجتياز الحدود الإقليمية وضمان درجة عالية من الوحدة الثقافية. إلا أن من المختلف عليه، ما إذا كان يمكن اعتبار أى من هذه العقائد دينا عالميا وبالتالى معبرا عن العولمة، وذلك لأن معظمها، باستثناء الإسلام والمسيحية كانت متمركزة فى مناطق بعينها فى المرحلة ما قبل الحديثة. حتى الإسلام الذى انتشر من جنوب آسيا إلى شمال أفريقيا لم يكن موجودا فى كل الأقطار؛ أما بالنسبة للمسيحية، فبحلول القرن الخامس عشر كانت قوة ضعيفة فى آسيا ولم تصبح ظاهرة عالمية إلا فى المرحلة الحديثة، وهو ما تحقق، إلى حد

ما، بربط نفسها بالموجات المختلفة للتوسع الاستعمارى الأوروبى؛ وبالنسبة للبوذية والكونفوشيوسية والهندوسية فقد بقيت عقائد آسيوية إلى اليوم، وبينما يوجد لها أتباع فى العالم يظل مركزها الروحى فى آسيا .(ibid., 332) وأخيرا لا بد من ملاحظة أن انتشار هذه العقائد تطلب عدة قرون لكى يتحقق؛ ومرة أخرى نجد الإسلام استثناء هنا، حيث ساعدت الفتوحات العربية فى نشر العقيدة من إسپانيا إلى الهند خلال قرن من وفاة النبى محمد فى ٦٣٢م. ولكن، بينما أسهمت هذه العقائد بشكل عام فى التواصل الكونى، كان ذلك يتم ببطء شديد. كانت هناك، على أية حال، وسائل إضافية انتشرت من خلالها المعتقدات فى مناطق أخرى من العالم أثناء المرحلة ما قبل الحديثة، وكان ذلك لارتباطها بالإمبراطوريات كما سنرى.

(٣) الأنظمة الإمپريالية الأولى:

كانت النخبة الإمپريالية الحاكمة ترى فى بعض الأديان وسيلة لتدعيم أوضاعها، فقد تم تبنى الكونفوشيوسية والزرادشتية فى فارس والمسيحية فى الإمبراطورية الرومانية بشكل رسمى كمبادئ لهذه الإمبراطوريات. (Cowen, 2001) ومع توسع الإمبراطوريات اتسع انتشار الأديان، والحقيقة أن الأنظمة الإمپريالية الأولى مثل الإمبراطوريات السومرية القديمة (وادى الرافدين) والمصرية والإغريقية والرومانية، وصولا إلى الإمبراطورية الصينية والإسلامية، كان ينظر إليها باعتبارها قوى عولمية؛ هذه الإمبراطوريات كانت فى الأصل نتاج توليفة من الفتوحات العسكرية والسلطة السياسية القوية والشبكات التجارية، والمشترك بينها هو أنها كانت تحتوى جماعات ثقافية مختلفة داخل منطقة أو وحدة جغرافية واحدة. كان ذلك يعنى أيضا أن شعوب تلك الإمبراطوريات لم تكن فى الغالب الأعم مقيدة بحدود داخلية، وبالتالى كانت هناك حرية فى التنقل فى أرجائها، وكانت هذه الظروف تسهل عمليات التجارة والتفاعل الثقافى إلى حد بعيد. هذه الإمبراطوريات ذات الثقافات المتعددة كانت توفر السلطة المهيمنة بما يمكن الانتشار الثقافى ونشر الأفكار، كما كانت فى الوقت نفسه تحديا للهويات المحلية.

ولكن بشكل عام فإن إمبراطوريات المرحلة الحديثة كانت صغيرة الحجم نسبيا، على الأقل مقارنة بالإمبراطورية البريطانية التى تمددت عالميا فى القرن التاسع عشر، وهكذا كانت على الأكثر تجليات محدودة للعولمة؛ إلا أن بعض الأنظمة الإمپريالية مثل الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية هان الصينية أصبحت فيما بعد قوى إقليمية حقيقية. (Held et al., 1999 : 334) والواقع أنه فى حالة الإمبراطورية الرومانية تمكننا طبيعة سلطتها واقتصادها واتساعها الإقليمى من أن نكتشف وجود ثقافة عابرة للحدود الإقليمية تكونت نتيجة لتوجهات ضم واستيعاب النخب المحلية المهزومة فى النظام الإمپريالى. (Millar et al., 1967) إلا أن هذه الثقافة كانت مقصورة إلى حد كبير على أولئك فى النخبة الإمپريالية أو الطبقة الحاكمة، الذين كانوا مرتبطين معا بمشروعهم الجمعى وبالعادات الثقافية المشتركة وبالوضع الاقتصادى الاجتماعى، إلى جانب المعدلات العالية من معرفة القراءة والكتابة الموجودة بينهم؛ وقد أسهم ذلك كله فى "تكاملهم الأيديولوچى المتزايد". (Mann, 1986:268) بالإضافة إلى ذلك يكتشف كل من "رولاند روبرتسون "Ronald Robertson و"ديڤيد إنجلس (2006) "David Inglis وعيا كونيا بين النخب الاجتماعية، ليس فقط بداخل الإمبراطورية الرومانية ولكن فى العصر اليونانى الرومانى، يعود إلى أيام الإسكندر الأكبر فى أواخر القرن الرابع ق.م، وهو ما ينعكس فى اهتمام الدارسين الإغريق القدامى بالكوزموپوليتانية ومحاولاتهم كتابة تاريخ العالم. بالمثل، فإن كثيرا من المواطنين الرومان كانوا يعتبرون مدينتهم عاصمة العالم، ويعتقدون أن ما يعبر عن ذلك حقيقة أنك يمكن أن تجد فى روما بشرا وأطعمة وسلعا ... حتى وسائل التسلية (من المصارعين إلى الحيوانات الغريبة) قادمة من كل أنحاء العالم، (ibid) بينما كانت الأسر الإمپريالية فى إمبراطورية هان الصينية تشرف على الانتشار الواسع للنصوص والأدب الصينى داخل منطقتهم الواسعة.

بيد أن الإمبراطوريات الأخرى لم تكن تجارى مثل هذه الأشكال من الانتشار الثقافى فى الفترة ما قبل الحديثة بشكل عام كما يشير "Held et al"(1999)، فإلى جانب أن معظم تلك الإمبراطوريات كانت كيانات عسكرية تحافظ عليها

بنى سلطوية، فقد كانت تحظر الانتشار الثقافى وكانت النتيجة أن بعضها لم يعرف عنه أى إنجازات ثقافية؛ فبعض الإمبراطوريات الرعوية المتقاتلة فى سهول أوراسيا، على سبيل المثال، لم تخلف إرثا ثقافيا وإنما آثار تخريب ودمار فى الغالب (Osterhammel and Petersson, 2005) وفى حالة المغول (1405 - 1206) نجد أنهم بينما عملوا على توليد مواجهات ثقافية عن طريق تسهيل عمليات التنقل فى أرجاء الإمبراطورية كما ذكرنا سابقا، أدى ذلك أيضا إلى انتشار وباء الطاعون الدبلى عبر أوراسيا. (Ibid., 37-8)، والنتيجة أن الانتقال والتجارة والمواجهات الثقافية كلها قلت كثيرا فى أواخر القرن الرابع عشر. (Bentley, 1993)، ولكن هذا لا يعنى بالطبع أن الإمبراطوريات الأخرى لم يكن لها أى أثر ثقافى فى المرحلة ما قبل الحديثة. الآشوريون مثلا اشتهروا بفنونهم وعمارتهم المتقدمة، كما كان تقليد إبعاد المواطنين المشاكسين مشجعا على الاندماج الثقافى والتمازج العرقى داخل الإمبراطورية، ولكن تأثيرهم كان مقصورا على الشرق الأدنى، ثم قل مع اضمحلال القوة الآشورية فى القرن السابع ق.م.

بشكل عام من الصعب تحديد المدى الذى وصلت إليه الأنظمة الاستعمارية فى الفترة ما قبل الحديثة بالنسبة لإسهامها فى العولمة الثقافية، وذلك لأن الإمبراطوريات كانت مختلفة فى الحجم والقوة العسكرية والبنية السياسية وسنوات عمرها، ويؤكد ذلك كله أن مراكز القوة الإمپريالية كانت مختلفة فى قدرتها على التواصل مع المناطق التابعة لها وتشكيلها، إلى جانب ذلك فإن الإمبراطوريات عندما كانت تتشظى، كان ذلك يخرب طرق التجارة وأشكال الهجرة إلى حد بعيد وبالتالى يحد من التفاعل الثقافى. بدا ذلك واضحا فى انهيار الإمبراطوريتين الصينية والرومانية، الأمر الذى خرب هذه التدفقات والصلات المتبادلة سواء داخل هذه الإمبراطوريات أو فيما بينها.

(٤) تطور شبكات التجارة بين المناطق المختلفة:

كانت طرق التجارة الطويلة وشبكاتها إحدى الطرق الأخرى المهمة فى العولمة فى المرحلة ما قبل الحديثة، وكان معظمها يتركز على مدن ضخمة مثل تلك التى

فى الصين والهند. شبكات التجارة مثل طريق الحرير، ينظر إليها على نحو خاص باعتبارها دليلا على أشكال باكرة للعولمة: أما طريق الحرير هذا فكان مصطلحا يصف شبكة واسعة من الطرق البرية والبحرية تصل بين الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية هان الصينية بين سنة ٢٠٠ق. م و ٤٠٠م، وكان من بين نتائجها انتشار سك العملة الرومانية فى الجزيرة العربية والهند والصين. (Dalby, 2000)، ولكن حتى قبل ذلك الوقت، بإمكاننا رصد وجود تجارة عالمية بين القارات قديمة قدم الحضارات الأولى، وذلك فى الفترة التى شهدت كذلك نشاطا بحريا كبيرا. (انظر: Sabloff and Lamberg- Karlovsky, 1975) كانت الإمبراطوريات الباكرة فى وادى الرافدين على سبيل المثال (C. 3500 to 1600 BCE) تعتمد على التجارة واستيراد المواد الخام لمساعدة مجتمعاتها والوفاء باحتياجات النمو السكانى، وتشجيع "التخصيب الثقافى" بين السومريين والإندوأوروبيين (الحيثيين) والساميين، (Barraclough, 1984:54)، وقد قام "فيليب كيرتن (1984) "Philip Curtin بتحليل التاريخ الطويل لتجارة الشتات (التى كانت شبكات مكونة من مجتمعات تجارية) باحثا تأثيرها وإرثها الثقافى؛ وفى هذا السياق يبين لنا كيف يمكن تتبع بدايات الاستقرار الصينى وتأثيره فى جنوب شرق آسيا، وإرجاعه إلى شتات التجارة الصينية الذى بدأ عمله فى المنطقة منذ القرون الأولى.

ربما يجادل كل من "أندريه جندر فرانك "Andre Gunder Frank و"بارى ك. چيلز (1996) "Barry K. Gills بأن أنماط تجارة المسافات الطويلة والمبادلات السوقية ومراكمة رأس المال قد تدل على أن النظام الرأسمالى المعاصر عمره خمسة آلاف سنة على الأقل(٤) منحين جانبا قضية العلاقة بين النظام العالمى والعولمة، فإن دلالة طرحهم لهذا الرأى توحى بأن الصلات الاقتصادية الدولية تعود إلى أبعد من المرحلة الحديثة الباكرة وهى الفترة التى يعتبر أن الرأسمالية قد ظهرت فيها. هذه الفكرة عن شكل من أشكال التدويل الاقتصادى قبل ١٥٠٠ سنة، يمكن كذلك أن نجدها فى عمل "چانيت أبو لغد (1989) "Janet Abu-Lughod التى ترصد ظهور نظام عالمى فى القرن الثالث عشر مكونا من ثمانى دوائر تجارية متداخلة تضم الصين والهند والشرق الأوسط

وأجزاء من أوروبا وأفريقيا. نظام التبادل المعقد هذا، الذى كان ينطوى على ترتيبات لتكوين رأس المال وتقنين النقد، كان سابقا على صعود الغرب بعدة قرون؛ أضف إلى ذلك أن معظم أوروبا كان على هامش هذا النظام فى منتصف القرن الثالث عشر بينما كانت الصين ـ مثلا ـ منشغلة بعلاقات تجارية واسعة وبعيدة مثل مناطق فى شرق أفريقيا؛ وكذلك تسلط "أبو لغد" الضوء على حجم الصلات بين أفريقيا وآسيا أثناء تلك الفترة، ونفهم من ذلك كله أن النظام العالمى فى القرن الثالث عشر كان متعدد المراكز.

فيما يتعلق بالتجارة، يبدو إذن أن آسيا والشرق الأوسط وأجزاء من أفريقيا، كانت مثل أوروبا، مسهمة فى المرحلة ما قبل الحديثة للعولمة؛ أما إذا كان هذا النشاط يعتبر بداية لعولمة التجارة أو حتى دليلا على اقتصاد عالمى بأى صورة، فتلك مسألة غير محسومة. وبحسب "أبو لغد" نفسها، فإن شبكات التجارة التى رصدتها لم تكن فى الحقيقة عالمية من حيث مداها، كما أن النظام فى جملته كان "غير منتظم إلى حد بعيد". الاتصال بين الصين وأوروبا فى تلك المرحلة، على سبيل المثال، كان ما زال محدودا نسبيا، كما أن جوانب كثيرة فى نظام القرن الثالث عشر العالمى كانت تتراجع، وظلت كذلك حتى منتصف القرن الرابع عشر؛ وفى هذا السياق تورد "أبو لغد" الأثر الكارثى للطاعون الأسود "Black Death" الذى أباد معظم السكان والمدن فى ذلك الوقت، وقلب شروط التبادل ودمر طرق التجارة. (ibid., 19) (٥) . يضاف إلى ذلك أنه عند النظر إلى المرحلة ما قبل الحديثة برمتها، لابد من أن نعترف بوجود أشكال مختلفة من المبادلات، ومن أن نفكر كيف أثرت اللقاءات والمواجهات الثقافية بين البشر. فى بعض المناطق على سبيل المثال كانت التجارة تأخذ أحيانا شكل الجزية أكثر منها مبادلة أسواق. كانت تلك هى الحال فى الصين نحو سنة ٦٠ ق.م، عندما فرضت أسرة هان هذا النظام على برابرة الجنوب الغربى (Curtin, 1984) ولكن إلى أى مدى كبحت تجارة الجزية العلاقات والشبكات التجارية ومن ثم أعاقت انتشار التجارة؟ أم تراها كانت قادرة على تنظيم وتعميق العلاقات التجارية ؟

بصرف النظر عن هذا الجدال، فإن ما يمكن أن نقوله عن المرحلة ما قبل الحديثة، هو إننا إذا كنا نستطيع أن نرصد الكثير من جذور العولمة، إلا أن

معظم التدفقات والصلات الثقافية فيها كانت عبر أوراسيا فقط. (Held et al., 1999: 433) فضلا عن أن التدفقات الثقافية المتقطعة والبطيئة تجعل من الصعب الحفاظ على أشكال التفاعل الثقافى عبر أى مسافة. كان ذلك إحدى نتائج محدودية الصلات وضعف البنى التحتية لوسائل الانتقال، بالإضافة إلى ظروف الحياة اليومية لغير النخبة التى كانت تعرقل عمليات الانتقال والتجارة على مسافات بعيدة؛ ولكن ما يضعف أى فكرة عن التدفق الثقافى الكونى فى المرحلة ما قبل الحديثة بشكل حاسم، هو أن الأمريكتين وأوكيانيا كانت منفصلة عن أفريقيا وأوراسيا، مما أدى إلى نقص المعرفة بالمناطق الأخرى من العالم ـ لم تكن شعوب أوروبا على علم بوجود الأمريكتين والعكس صحيح على سبيل المثال. بينما كان هناك تقدم فى نهاية المرحلة ما قبل الحديثة سيكون له أهميته العالمية فى الوقت المناسب، فإن اختراع حروف الطباعة المتحركة بواسطة "يوهان جوتنبرج (c.1398 – 1468) "Johann Gutenberg" ـ فى خمسينيات القرن الخامس عشر، الذى نجم عنه أن أصبح هناك مطابع فى كل دولة أوروبية فى ثمانينيات القرن نفسه ـ هذا الاختراع كان بمثابة ثورة فى الاتصال، بدأ تأثيرها يظهر فى المرحلة الحديثة الباكرة، وكانت متمركزة فى البداية فى أوروبا الغربية.

المرحلة الحديثة من العولمة (1500 – 1945):

هناك خلاف حول بداية ونهاية المرحلة الحديثة من العولمة، كما أن بعض الكُتَّاب يقسمونها إلى مرحلة حديثة باكرة ومرحلة حديثة متأخرة، ويختلفون فى الوقت نفسه حول زمن كلتيهما، (انظر: Held et al., 1999; Holton, 2005; Hopkins, 2002) ، إلا أن هدفنا هنا، وكما كان الأمر بالنسبة للمرحلة ما قبل الحديثة، هو تحديد العناصر الأساسية التى أسهمت فى العولمة الحديثة وبخاصة فى بعدها الثقافى:

١ ـ الاستعمار الأوروبى.

٢ ـ اقتصاد عالمى بازغ.

٣ ـ الهجرات والتطورات العالمية خارج الغرب.

٤ ـ انتشار الحداثة.

٥ ـ نشأة الدولة ـ الأمة.

٦ ـ التصنيع.

(١) الاستعمار الأوروبى:

كان ظهور أشكال من التوسعية الاقتصادية والسياسية والعسكرية على هيئة استعمار أوروبى أحد الملامح الأساسية للمرحلة الحديثة، وهناك بالفعل بعض الكُتّاب الذين يعتبرون "صعود الغرب" الملمح المحدد للعصر الحديث. (McNeill, 1963). النزعة التوسعية الأوروبية أخذت دفعة فى ١٤٩٢ مع رحلة كولومبس إلى أمريكا، التى مهدت الطريق للقاء أوروبا بالعالم الجديد، وهى مرحلة بالغة الأهمية أدت إلى تدفقات فى البضائع والبشر عبر الأطلنطى وإن كانت على مستوى محدود نسبيا. مثل هذه التدفقات أسهمت فيها فيما بعد تجارة العبيد الأفارقة التى بلغت أوجها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونتج عنها أن أصبحت أجزاء من القارة متضمنة فى هذه الأنماط من التجارة. لم تكن تلك التدفقات مجرد تدفقات اقتصادية، بل إنها تضمنت كذلك ظواهر أخرى مثل انتشار الأمراض. لم تكن هذه النتيجة بالطبع مقصودة من الهجرة عبر الأطلنطى، ولكن ذلك كان له أثره دون شك على الشعوب الأصلية للأمريكتين حيث كانت أنظمتهم المناعية تجاهد لمقاومة الأمراض التى جلبها الأوروبيون. (McNeill, 1979) . كان هناك دافع أبعد لبعض الأوروبيين لكى يذهبوا إلى العالم الجديد وهو الدافع الدينى، وبالتحديد الرغبة فى كسب متحولين للمسيحية؛ وكان أحد التجليات الثقافية لهذه الرغبة فى نشر الرسالة المسيحية تلك الأسماء التى أطلقت على كثير من الأماكن فى أمريكا اللاتينية، حيث نجد أن "كولومبس"، على سبيل المثال استخدم أسماء بعض القديسين لإعادة تسمية كثير من المناطق التى استولى عليها.

بالإضافة إلى الأمريكتين والكاريبى، بدأت أوروبا فى عقد صلات مع مناطق أخرى قبل ١٨٥٠، وبخاصة فى أوكيانيا والهند والشرق الأوسط وأفريقيا. فى

حالة الهند مثلا نجد أن شركة الهند الشرقية فعلت الكثير لكى تفتح البلاد أمام التجارة البريطانية والاستعمار الثقافى مع اللجوء للوسائل العسكرية عند الضرورة: غير أن أجزاء كثيرة من العالم، بما فى ذلك مناطق فى أفريقيا والصين، بقيت محصنة ضد الزحف الأوروبى فى تلك المرحلة. فى أفريقيا مثلا، كان الأوروبيون قد أقاموا، فى بداية القرن التاسع عشر، مستوطنات بطول المناطق الساحلية، ولكنهم فشلوا فى الاختراق إلى الداخل بسبب عوامل كثيرة مثل حجم المقاومة الأفريقية، ولأنهم لم يكونوا قد حققوا تفوقهم العسكرى بعد. (Mackenzie, 1983). أما بالنسبة للأعمال العسكرية، فبينما كانت هناك مواجهات فى أجزاء مختلفة من العالم مثل ذلك الصدام بين القوات البريطانية والفرنسية فى الهند فى منتصف القرن الثامن عشر، فلن يكون من المعقول الحديث عن عولمة عسكرية فى تلك المرحلة الحديثة الباكرة، حيث لم يكن هناك وجود لتكتلات قوى عالمية أو تكنولوجيا أسلحة أو منظمات دولية، والحقيقة أنه حتى المناوشات العسكرية بين بريطانيا وفرنسا فى الهند كانت جزءا من حرب السنوات السبع (1756 - 1763)، وبالتالى كانت تعتبر اشتباكا أوروبيا أكثر منه عالميا.

بشكل عام، كان يعوق التدفقات الاقتصادية والثقافية قبل القرن التاسع عشر، عدم وجود شحن بحرى مميكن وسكك حديدية وأنظمة اتصال عالمية ودول - أممية قوية ذات اقتصادات رأسمالية صناعية قادرة، وكل ذلك حدث فيما بعد، أى فى المرحلة الحديثة. عدم وجود هذه التسهيلات جعل التدفقات والروابط الثقافية العالمية تستمر ضعيفة وغير منتظمة، كان معظمها مركزا على المنطقة بين ضفتى الأطلنطى. بيد أنه كانت هناك مؤشرات فى المرحلة الحديثة الباكرة على ما هو قادم مع تطور الطباعة المميكنة وشق القنوات وبناء الطرق وإنشاء النظام البريدى فى أوروبا. (Held et al., 1999: 434) استمرت الإمبراطوريات الأوروبية فى الاتساع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبخاصة عبر بقية أفريقيا ومناطق جديدة فى آسيا مثل الصين، وأن تصبح - بحق - عالمية فى هذه العملية؛ والحقيقة أن الإمبراطوريات الأوروبية، وبخاصة الإمبراطورية البريطانية الكبيرة القوية حققت اتساعها الأعظم من ناحية المساحة بالقرب من

نهاية القرن، كما كانت أمريكا أيضا قد اتسعت سريعا فى المناطق الجديدة مثل ألاسكا .(Brogan, 2001) ، الحقيقة أن الفترة ما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ جديرة بالإشارة إليها فى هذا السياق نظرا لزيادة حجم وقوة التدفقات الدولية فى التجارة والبشر والأموال والاستثمار الرأسمالى، مع أحداث عريضة مثل تلك التى أطلق عليها "التدافع نحو أفريقيا"، التى استولت فيها القوى الاستعمارية الأوروبية لنفسها على مناطق جديدة فى القارة وخلقت دولا جديدة فى هذه العملية مشجعة هذا التوجه.

(٢) اقتصاد عالمى بازغ:

هذه التطورات التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر كانت جزءا من عملية تدويل مهمة للعلاقات الاقتصادية، منعكسة فى اندماج أفريقيا وأجزاء كبيرة من آسيا فى الاقتصاد العالمى مع قاعدة الذهب كعملة لها؛ وبالفعل كان هناك ارتفاع كبير فى مستوى التجارة والاستثمار العالميين لدرجة أن "هيرست Hirst" و "طومسون Thompson " يعتبران الاقتصاد العالمى كان أكثر انفتاحا وتكاملا فى الفترة من ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ من النظام الحالى .(2 :1996). فضلا عن ذلك فإن انتشار أفكار التجارة الحرة باكرا فى القرن التاسع عشر، وبخاصة مع الحكومات البريطانية، ربما يكون قد مهد الطريق لظهور هذا النمط من الاقتصاد؛ إلا أننا ينبغى ألا نبالغ فى أهمية ما كان يحدث خلال تلك الفترة. أشكال الحمائية الاقتصادية مثلا تعود إلى ما قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، فضلا عن ذلك فإنه عند منعطف القرن كانت هناك حدود لكمية النشاط العالمى الذى كان يمكن أن تنخرط فيه حتى بريطانيا، كبرى القوى الرئيسية من ناحية العالمية. كان معظم الاستثمار البريطانى فيما وراء البحار ما يزال مركزا فى أسواق مستقرة مثل الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، والقليل نسبيا كان قد تحول إلى المناطق الجديدة التى تم الاستحواذ عليها فى أفريقيا (Fieldhouse, 1961) والواقع أنه اعتبارا من أربعينيات القرن العشرين فقط بدأت بريطانيا وفرنسا، القوتان الاستعماريتان الأوروبيتان الرئيسيتان، فى الاستثمار بشكل رئيسى فى ممتلكاتهما الأفريقية، ليبدأ ما أصبح يطلق عليه "احتلال استعمارى

ثان" لأفريقيا، فى محاولة لجعل المستعمرات تسهم إسهاما مهما فى الاقتصاد الكولونيالى.

(٣) الهجرات والتطورات العالمية خارج الغرب:

كانت الفترة من ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ مرحلة مهمة فى تاريخ الهجرة العالمية. كثير من الأوروبيين، على سبيل المثال، استغلوا "التدافع نحو أفريقيا" وبدأوا يقتلعون جذورهم للاستقرار فى المستعمرات الجديدة، وهو أسلوب استمر فى القرن العشرين؛ ولكن الهجرة لم تكن مجرد ما يحرص الأوروبيون عليه. هذه الفترة شهدت كذلك نشأة مجتمعات الشتات الآسيوية العالمية التى كان دافعها -إلى حد كبير -الرغبة فى العمل والارتحال إلى أفريقيا وأمريكا الشمالية والكاريبى على سبيل المثال وليس الحصر. على سبيل المثال نجد أن أعدادا كبيرة من الناس من شبه القارة الهندية رحلوا إلى جنوب أفريقيا فى أواخر القرن التاسع عشر، معظمهم بدأ بوصفه عمالة مأجورة فى مزارع قصب السكر الأوروبية ولكنهم فضلوا البقاء هناك بعد انتهاء عقودهم وشجعوا أسرهم على المجىء للحاق بهم.

تذكرنا الهجرة الآسيوية كذلك بألا نتجاهل التطورات غير الغربية التى أسهمت فى المرحلة الحديثة من العولمة. فى هذا السياق كان الإسلام يعتبر قوة عولمية قوية فى تلك الفترة مع وجود الإمبراطورية العثمانية ـ أكبر دولة إسلامية ـ التى كانت تضم وهى فى ذروتها أراضى شاسعة ممتدة من فارس إلى حدود النمسا، وفى المرحلة الحديثة كانت هناك أسرتان مسلمتان مهمتان هما المغول والصفويون، فرضتا سيطرتهما على الهند وفارس على التوالى، وفيما بعد كان لهما امبراطورياتهما. بوجه عام، كان ذلك وقتا مهما فى تاريخ "الأمة" مع اتساع نطاق التجارة الإسلامية والنفوذ الثقافى فى أفريقيا وإندونيسيا والمحيط الهندى، المستمرة آثارها إلى اليوم .(Bennison, 2002)

(٤) انتشار الحداثة:

لم يكن الاستعمار الأوروبى مجرد قوة عولمة اقتصادية فحسب، وإنما كانت له كذلك أبعاد ثقافية وسياسية مهمة، وبخاصة إسهامه فى نشر الحضارة فى أرجاء

العالم. أساليب التفكير الغربية مثل العلم والعلمانية ,وأيديولوجيات مثل الاشتراكية والماركسية والحرية والديمقراطية، انتشرت عبر الكرة الأرضية خلال العصر الحديث كنتيجة لدعاواها العامة والقوة الأوروبية وثقة الأوروبيين فى تقاليدهم الفكرية. ربما يعنى ذلك أن تأثير التدفقات الثقافية العالمية، مقارنة بالمراحل الباكرة، كان أكثر عمقا ودواما فى الفترة الحديثة المتأخرة. الإرث الثقافى والسياسى للاستعمار الأوروبى مثلا، واضح فى الهند متمثلا فى نظامها البرلمانى وانتشار اللغة الإنجليزية وشعبية لعبة الكريكت. كذلك ما زال بالإمكان رصد الإرث الثقافى للاستعمار الأوروبى فى دول وقارات أخرى مثل هونج كونج وأستراليا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا، وفى حالة الأخيرة يمكن أن نجد ذلك متمثلا فى استمرار دول الأنجلوفون والفرانكوفون، وكذلك فى حجم انتشار المسيحية فى القارة الأفريقية.

على أننا ينبغى ألا نبالغ فى أهمية تأثير الاستعمار وحجم واتساع إرثه فى أفريقيا وأماكن أخرى؛ إذ أن كثيرا من الدول الأفريقية استغنت عن الأنظمة البريطانية الأوروبية فى مرحلة ما بعد الاستعمار وأكدت أفريقيتها، وحاولت بشكل عام التخفيف من درجة الارتباط بحكامها الاستعماريين السابقين. إلى جانب ذلك فإن اللقاء بالاستعمار الأوروبى كان قصيرا نسبيا؛ إذ إن الحكم الاستعمارى الأوروبى فى بعض الحالات لم يستمر أكثر من أربعين أو خمسين عاما على الأكثر؛ وكنتيجة لذلك نادرا ما كان بعض الأفارقة يرون - إن كانوا قد رأوا أصلا - حكامهم المستعمرين، والكثيرون استمروا يمارسون أساليبهم وعاداتهم الحياتية.

إلى جانب امتلاك المقدرة العسكرية والتكنولوجية والاقتصادية للاستيلاء على أراض جديدة، كان لكثير من الدول الأوروبية مشروعات استعمارية تصدرها، ومفهوم عام بأنهم فى مهمة تمدين وتحضير؛ فرنسا مثلا اتبعت سياسة الاستيعاب، فى محاولة لتحويل رعاياها المستعمرين إلى فرنسيين؛ وبين القوى الاستعمارية الأخرى كانت فكرة "عبء الرجل الأبيض" شعورا منتشرا بين النخب الأوروبية، ومن هنا كانوا يحاولون غرس ثقافتهم وقيمهم الخاصة فى أذهان المحتلين، وحتما كان لذلك أثره فى تطور المجتمعات غير الغربية.

تضافر عوامل مختلفة من القوة العسكرية والاقتصادية الغربية والتأثير الثقافى، أسهم إلى حد كبير فى سقوط الصين الإمبراطورية. الهزائم العسكرية المتوالية أمام الجيوش الأوروبية فى القرن التاسع عشر ولّدت الجدل داخل الصين عن الحاجة إلى تقليد الأساليب العسكرية والعلوم ونظم الحكم لدى الأجانب، وأدى ذلك بدوره إلى دعوات ومطالبات داخلية بالإصلاح والتحديث انتهت بـ "صن يات صن (1925- 1866) "Sun Yat- sen وأعوانه إلى أن يقيموا أول جمهورية فى البلاد سنة 1911. باختصار، يؤكد لنا الاستعمار الأوروبى أن التدفقات الثقافية فى المرحلة الحديثة كانت غالبا من العالم الغربى إلى العالم غير الغربى، وعليه فإن أى اختلاط ثقافى حدث كان عملية أحادية الجانب فى الغالب، حيث المستعمَر يستوعب ثقافة المستعمِر، كما كان واضحا فى سياسة "النجلزة" Anglicization التى كان الإنجليز يطبقونها فى الهند فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر والتى كانت معدة بهدف تقديم تعليم إنجليزى لأبناء الطبقة الوسطى الهندية لكى يصبحوا وكلاء للانتشار الثقافى.

غير أن المستعمَرين احتفظوا بقدرتهم على مقاومة فرض هذه الثقافات الغربية، حدث ذلك فى آسيا كما حدث فى أفريقيا وغيرها بالقدر نفسه. وفى حالة الهند كان الدافع وراء هبة ١٨٥٧ ذلك الهجوم الملحوظ على الثقافة الأصلية من قبل السلطات البريطانية؛ كما يمكن رصد اهتمام مماثل لحماية الثقافات التقليدية من النفوذ الأجنبى فى تمرد البوكسر فى الصين فى أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت السفارات الأجنبية ومراكز البعثات المسيحية بؤرة للهجوم. أضف إلى ذلك أنه ينبغى عدم التهوين من شأن غرس الثقافات الغربية بواسطة رعايا المستعمرين أكثر من استيعابهم لها، وقد كان ذلك واضحا فى الحركة الإثيوبية وهى صيغة أفريقية من المسيحية كانت كذلك تعبيرا باكرا عن المقاومة الأفريقية للاستعمار الأوروبى، بينما احتفظت بعض الدول غير الغربية بقدرتها على شق طريقها الخاص نحو التحديث فى عصر الاستعمار الأوروبى هذا مثل اليابان .(Held et al., 1999) .

كذلك ينبغى ألا نفترض أن مثل تلك اللقاءات الثقافية كانت تحت السيطرة دائما من قبل الأوروبيين، أو أنهم لم يتعلموا أو يستوعبوا أمورا كثيرة من هذه

التجربة؛ إذ يرى كثير من المعلقين أنها تركت أثرا كبيرا على الثقافة والمجتمع الأوروبيين. اكتشاف الأمريكتين مثلا كان تحديا لسلطان المسيحية والحضارات الكلاسيكية حيث لم يكن لدى أيهما سابق معرفة بالعالم الجديد، وقد شجع ذلك رؤية جديدة مفادها أنه إذا كانت تلك المصادر مخطئة، فلربما كان من الأفضل استقاء المعرفة من التجربة العملية والملاحظة المباشرة بدلا من الاعتماد على السلطة التقليدية، وعليه فقد كانت مواجهات أوروبا بالعالم الجديد إسهاما فى تطوير توجه أكثر انتقادية أو حداثة[٦].

يضاف إلى ذلك أن تلك الفترة كانت بداية تحول نحو وسائل أكثر تاريخية ومقارنة فى المعرفة بأوروبا، وكان ذلك واضحا على نحو خاص بين كثير من الفلاسفة الفرنسيين مثل "فولتير" Voltaire الذى استخدم نموذج الصين الكونفوشيوسية جزءًا من نقده للنظام القديم ancient régime (Clarke, 1997) فى القرن التاسع عشر بالمثل، ونتيجة للقاء أوروبا بالثقافات الشرق أوسطية والآسيوية، أصبح لما يعرف بالاستشراق تأثير معتبر على الفكر الأوروبى والفن والعمارة والتصميم والموسيقى والسينما والمسرح وكذلك على الأذواق والمشاعر بشكل عام (انظر: Clarke, 1997; Macfie, 2002; Mackenzie 1995) حتى فى القرن العشرين كان يمكن رؤية هذا التأثير فى أفلام هوليود وكذلك فى الثقافة المضادة فى الستينيات من القرن نفسه. هذه الأشكال من الاختلاط والتمازج تتحدى مفهوم العولمة كمشروع غربى، وهناك الآن اعتراف متنام بأصولها الغربية وغير الغربية (انظر: Hopkins, 2002 على سبيل المثال). هذا التحول نابع فى جزء منه من التفحص النقدى لفكرة "الغرب" والاعتراف بطبيعتها المركبة، وبأنها مكونة من جميعة مصادر عدة ومؤثرات إسلامية وإثيوبية ومصرية وهندية .. إلخ . (Nederveen Pieterse, 1994).

(٥) نشأة الدولة ـ الأمة:

يعتبر قيام الدولة ـ الأمة أحد ملامح العصر الحديث الجديرة بالملاحظة، والدولة ـ الأمة هى المؤسسة التى يرى كثير من المعلقين أنها قد أسهمت إلى حد كبير فى عملية العولمة، وإن كانت قد مرت بعلاقة معقدة معها خلال تلك الفترة؛

فمن ناحية: مهد تكوين الدول الأمة القوية فى أوروبا الغربية الطريق أمام التوسع الإمبريالى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ومن هنا أسهم فى المرحلة الحديثة من العولمة. رغم ذلك، على نحو أكثر عمومية، فإن ظهور الدولة ـ الأمة فى المشهد العالمى صحبه كذلك تأكيد أكبر على الحفاظ على الحدود الوطنية، وهو التطور الذى قيد حرية الحركة والانتشار الثقافى؛ وبينما كانت المناطق محددة فى المرحلة ما قبل الحديثة، فإن تقوية الثقافات الوطنية كان يعنى غالبا إقصاء الذين كان من المتصور أنهم غير منتمين، وكذلك اعتبار الثقافات الأخرى أقل شأنا وقيمة. وإلى جانب الأشكال الرومانسية والحصرية من القومية، ظهرت أيديولوچيات أخرى تعارض كل صور التمازج الثقافى واختلاط الأجناس مثل العرقية والداروينية الاجتماعية التى مهدت بدورها الطريق إلى الفاشية والنازية. إقامة الحدود والتخوم والمحافظة عليها كان إذن ملمحا خاصا بالفترة الأخيرة من الحقبة الحديثة، الأمر الذى أسهم فى تقييد الاختلاط الثقافى والتهميش المؤقت للكوزموپوليتانية التى كانت موجودة ـ على الأقل ـ بين بعض المثقفين الأوروبيين فى القرن الثامن عشر.

(٦) التصنيع:

كان التصنيع تطورا مهما آخر سهل العولمة الحديثة. بينما كانت بريطانيا تعيش ثورتها الصناعية منذ القرن الثامن عشر، لم تقم بقية أوروبا والولايات المتحدة بالتصنيع إلا فى القرن التالى، وهو ما خلق الحاجة للمواد الخام وإلى أسواق جديدة لتصريف ناتج صناعاتهم؛ وبذلك كان التصنيع حافزا على التوسع الاستعمارى، وكان الاستحواذ على مستعمرات هو وسيلة مواجهة هذه المطالب التنافسية. (Hobsbawm, 1987) إلى جانب ذلك كانت هناك تطورات أخرى مرتبطة بالتصنيع عموما وبالعلم خصوصا مثل النقل البحرى المميكن والسكك الحديدية والتلغراف مما أسهم كثيرا فى التواصل العالمى. هذه التطورات التكنولوچية سهلت التجارة وزادت سرعة الاتصال والتنقل فى أرجاء الأرض، ويعتبر النجاح فى مد كابلات التلغراف عبر الأطلنطى فى ١٨٦٨ حدثا مهما فى الاتصالات الحديثة؛ وقد وضع البريطانيون، خاصة، بنية أساسية للاتصالات

مستخدمين تكنولوجيا الكابل وأنظمة تلغراف الغواصات ومئات الألوف من الخطوط كوسيلة لتأمين إمبراطوريتهم والحفاظ عليها. (Headrick, 1988)؛ وأخيرا، ومع التطور الذى حدث فى القرن العشرين، كان هناك المزيد من الإنجازات التكنولوجية مثل الراديو والتليفون والتليفزيون وماكينة الاحتراق الداخلى، وكلها أمور أسهمت كثيرا فى العولمة فى الفترة المؤدية إلى ١٩٤٥.

هكذا كان هناك عدد من التطورات المتناقضة تعمل فيما يتعلق بالعولمة، ولكن القوى الأساسية مثل الرأسمالية والتصنيع والاستعمار والعلم أحدثت توجهات عولمية قوية وإن كان ذلك على نحو غير منتظم.

المرحلة المعاصرة من العولمة (من ١٩٤٥ إلى الآن)[٧]:

سوف نحدد هنا بعض التطورات والعمليات الرئيسية التى كانت بمثابة قوة دفع للعولمة المعاصرة، وإن كنا لن نتناولها أو نتناول متضمناتها بالنسبة للعولمة الثقافية بالتفصيل هنا، كما سنفعل فى بقية الكتاب. بداية، لابد من الإشارة إلى أنه حتى فى المرحلة المعاصرة كانت هناك عوامل ضد العولمة. أولا: بينما كانت الحرب الباردة نظاما للصراع العالمى - واضحا على سبيل المثال فى الطرق التى أسهمت بها فى تطوير بنى الأمن العالمى وسوق السلاح العالمية - ومن ثم تعبيرا عن العولمة، كان من المحتم أن تقيد التجارة العالمية وحركة الناس والأفكار فى فترة ما بعد الحرب. ثانيا: الحيوية الدائمة للدولة الأمة ووثاقة الصلة بها فى زماننا - رغم أن دعاة العولمة قد ينكرون ذلك هنا - تعمل على كبح تطور مؤسسات الحكم العالمى، كما يمكن أن يقال إن الحكومات القومية كانت قيدا على العولمة بمحاولاتها تقييد الهجرة واللجوء، وهذه النقطة تنطبق أيضا على محاولتها التحكم فى رأس المال العالمى والتدفقات المالية فى سعيها لإدارة الاقتصاد القومى. ثالثا: يؤكد التفاوت الاقتصادى العالمى أن العولمة تظل عملية ناقصة؛ إذ إن أحد الأوجه التى يتجلى فيها مثل هذا النقص والتفاوت هو عدم امتلاك فرص متساوية للوصول إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصال، وهو ما يعنى أن مناطق وقارات بعينها، وخاصة الأفريقى منها، وكذلك أجزاء فقيرة من أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، تظل على هامش هذه التطورات العالمية المهمة؛ والنتيجة

الحتمية لذلك هى أنها لا تسهم فى التواصل والترابط العالمى. رابعا: وبناء على النقطة السابقة، وبسبب الشكل الذى تتخذه العولمة ـ أو المتصور على الأقل أنها تتخذه ـ فإنها أثارت رد فعل مضاداً ورفضا شعبيا. هذه التوجهات المناهضة للعولمة مجتمعة من المرجح أن تسهم فى عدم اتساق وتعقيد عملياتها.

على أن المرحلة المعاصرة تتميز بشكل عام، ليس فقط باتساع وقوة التدفقات الثقافية التى تبدو فى شكل حركة البشر والأفكار والسلع والرموز والصور فحسب، وإنما فى السهولة الكبرى التى تنتقل بها من مكان لآخر، ومن ثم تعمل على تعميق أشكال التواصل الثقافى الكونى. هذا النموذج يأتى نتيجة لعدد من التطورات وبخاصة التحسن الكبير الذى يطرأ على وسائل الانتقال وبنيتها الأساسية؛ والجدير بالذكر أن الطائرات النفاثة وإنشاء الطرق وشبكات السكك الحديدية عبر الكرة الأرضية والشحن بالحاويات والزيادة الكبيرة فى امتلاك السيارات وغيرها من وسائل الانتقال ـ كل ذلك جعل الاتصال أكثر سرعة وسهولة. التحسن الذى طرأ فى مجال الطيران أسهم فى تطور السياحة وأشكال الهجرة، بينما التقدم الذى حدث فى تكنولوچيا المعلومات والاتصال ـ وبخاصة فى التليفون والحاسب الآلى والرقمنة ـ يؤكد أن الاتصالات العالمية أصبحت أرخص وفورية فى الوقت نفسه؛ وبالمثل فإن الثقافات الفردية والتدفقات الثقافية أصبحت تصل إلى أبعاد كونية عن طريق حزمة من الأقمار الاصطناعية والكابلات والإمكانيات الواسعة للراديو والتليفزيون والإنترنت، وقد ساعد فى ذلك كله أيضا ظهور مؤسسات إعلامية قوية. ربما يكون أساس ذلك كله موجودا فى التوسع المستمر للرأسمالية العالمية، وهو ما يتجلى فى اتساع السوق العالمية واستيعاب دول جديدة فيها مثل الصين، وظهور المؤسسات متعددة الجنسية والمؤسسات العابرة للحدود القومية، والدور المتنامى للأعمال التجارية وتأثيرها بشكل عام فى المرحلة المعاصرة. الأثر التراكمى للتطورات التى نصفها هنا هو أن التفاعل الثقافى والاستهلاك، مقارنة بالفترات السابقة، واللذين يرى Held et al., (1999) أنه كان بين نخب المجتمعات المختلفة، يحدثان على المستوى الشعبى فى ظل العولمة المعاصرة. يضاف إلى ذلك أن بعض التوجهات العولمية تكتسب أهمية جديدة فى عصرنا مقارنة بالفترات السابقة، وبخاصة حالة البيئة

العالمية واحتمالات أشكال مختلفة من السياسة العالمية مع التكوين والتطور المستمرين لمؤسسات دولية.

باختصار، بينما قامت العولمة بالبناء على الكثير من التوجهات والأنماط التى كانت موجودة فى المرحلة الحديثة وطورتها، هناك جوانب منها فى المرحلة المعاصرة تميزها عنها فى المراحل الأخرى، وهى قضية جدلية كما سنرى لاحقا.

تفسير تاريخ العولمة الثقافية

بعد أن أوجزنا بعض الجوانب الأساسية من تاريخ العولمة الثقافية، ربما يكون علينا أن نوضح كيف أن المراحل المختلفة المفصلة هنا لا تعبر عن مدى تعقدها على نحو كاف. المرحلة الباكرة من العولمة على سبيل المثال يمكن أن نقسمها إلى: مجتمعات ما قبل الاستقرار ومجتمعات الاستقرار؛ وربما يكون من الأوقع، كما ذكرنا من قبل أن ننظر إلى العصر الحديث بأنه ينطوى على فترات حديثة باكرة وأخرى حديثة متأخرة، أى من ١٥٠٠ : ١٨٠٠ ومن ١٨٥٠ : ١٩٤٥ على التوالى. (انظر على سبيل المثال: (Held et al., 1999) . من منظور ثقافى واجتماعى محدد، يمكن أن نعتبر مرحلة العولمة الحديثة قد وصلت إلى نهايتها مع الحرب العالمية الأولى التى كانت فاصلا بالغ الأهمية ... ومدمرا. المرحلة المعاصرة يمكن تقسيمها إلى فترات قبل وبعد ١٩٠٠، حيث إن انتشار الإنترنت فى تسعينيات القرن العشرين أكد دفعة كبيرة فى التواصل العالمى؛ وبصرف النظر عن مدى دقة التحقيب التاريخى هنا، فالأهم أنه ينبغى ألا يشغلنا كثيرا تفصيل المراحل التاريخية بالنسبة للعولمة الثقافية. المراحل المختلفة المحددة هنا ليست كيانات محصورة، ويمكن أن نجد فى عصور مختلفة عمليات تجعلها أكثر اتساعا. كذلك من غير المرجح أن يكون أى من هذه العمليات موجودا فى كل المناطق فى العالم خلال فترة تاريخية معينة.

العولمة إذن ليست ظاهرة متماثلة أو متسقة، فهى بالأحرى متعددة المراكز وغير منتظمة، وإذا لم نعترف بهذه الحقيقة وحاولنا الخروج بتاريخ خطى لها سيكون فى ذلك مخاطرة شديدة؛ وبالفعل يرصد "فردريك كووبر Fredrick Cooper" (2001) انحيازا غائيا فى التواريخ المعاصرة للعولمة، حيث تتم قراءة

الحاضر فى الماضى. يتضمن الاعتراف بعدم الانتظام أو الاتساق أن نضع فى اعتبارنا أن تدفقات العولمة سواء أكانت ثقافية أم غير ذلك، قد أثارت درجات مختلفة من المقاومة فى بعض المجتمعات والمناطق، وبذلك أثرت فى مسار العولمة وقوت الحاجة إلى فحص مضامين وأطر بعينها ذات علاقة بالموضوع. ما يزيد الأمور تعقيدا هو أن بعض قوى العولمة يمكن أن تتصدى لتوجهات عولمية أخرى أو أن تعمل على إلغائها. توسع القوى الأوروبية فى القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، تحقق فى بعض المناطق بطرد قوى عولمية أخرى مثل الإسلام بالتحديد.

الصعوبة التى تنشأ عند دراسة تاريخ العولمة الثقافية، كما ذكرنا سابقا، تتعلق بتاريخ بداياتها. المرحلة الحديثة التى عرضنا لها يمكن أن تغطى عدة ألفيات قبل ١٥٠٠، ولذا يجب أن نفكر... متى يكون من المعقول أن نتحدث عن بدايات العولمة، وهذا الأمر - بالتالى - يثير تساؤلات حول ما نعنيه بالعولمة والمعايير التى نستخدمها لكى نحدد وجودها. هل نفكر بها - مثلا - باعتبارها: حركة البشر وأنشطة التجارة على مسافات بعيدة وحجم التفاعل الثقافى وتطور مجتمع عالمى أو فى علاقاتها بتكوين وعى كونى؟ أم ترى يجب أن ننظر إليها كجماع لكل هذه المعايير وغيرها؟ يضاف إلى ذلك أن هناك سؤالا كثيرا ما يطرح فى إطار دراسات العولمة، حول ما إذا كان يمكن أن يوجد شكل ثقافى ما فى أنحاء العالم ويعتبر دليلا على العولمة أو ما إذا كان يكفى أن يتعدى ليشمل عددا من المناطق. بالإضافة إلى ذلك، ما الكميات أو الآثار الدالة على وجود أعمال فنية، يمكن أن نجدها فى أجزاء مختلفة من العالم ونعتبرها دليلا على استمرارية العولمة الثقافية؟ باختصار، هل يمكن أن نتتبع العولمة بأثر رجعى إلى الحضارات القديمة، أم تراها نتاج أزمنة أحدث؟

- **چان ندرڤين پيتيرس Jan Nederveen Pieterse :**

التاريخ الطويل للعولمة:

يرى چان ندرڤين پيتيرس (2004) أنه ينبغى النظر إلى العولمة باعتبارها عملية تاريخية طويلة المدى. العولمة عنده تكامل إنسانى وتهجين، كما يعتقد أن بالإمكان رصد أشكال من الاختلاط الثقافى عبر القارات والمناطق تعود إلى

قرون مضت. الحضارات فى تصوره لها ليست كيانات منفصلة غير مترابطة، هى بالأحرى مكونة من تواشج مجموعة من المؤثرات على مدى زمنى طويل، وهو ما يمكن أن نجده مثلا فى التراث الثقافى المختلط للغرب. كذلك تولدت فى أمريكا اللاتينية كاثوليكية شعبية نتيجة تمازج المؤثرات الإسپانية والبرتغالية والكاثوليكية والثقافات المحلية الأصلية بعد التقاء أوروبا بالعالم الجديد؛ فالهجنة كما يشير "نستور جارثيا كانسلينى" :"Néstor Garcia Canclini لها مسار طويل فى ثقافات أمريكا اللاتينية" (1995: 241) وبالمثل فإن المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية التى تشكل الهندوسية نشأت نتيجة اختلاط الثقافة الإندو ـ أوروبية، وهى العملية التى بدأت من ١٥٠٠ ق.م وما بعدها، عندما واجه واندمج الغزاة الآريون بالمجتمعات قبل الآرية والدراڤيدية المحلية. ودعما لفكرته عن العولمة بوصفها عملية تاريخية عميقة، يشير "ندرڤين پيتيرس" إلى تطورات مثل حركة البشر داخل وعبر القارات، والتجارة على مسافات طويلة، وانتشار الأديان العالمية، وانتشار التكنولوچيا بما فى ذلك التكنولوچيا الزراعية والعسكرية. كما أن هناك تعبيرات أخرى عن التاريخ الطويل للتفاعل الإنسانى مثل انتشار اللغات والآداب والموسيقى والمطبخ والمواد الغذائية والنباتات ورسم الخرائط والمعارف الطبية والأفكار عن عمل الدولة وبنيتها وانتشار الاكتشافات العلمية والإبداعات التكنولوچية. ويجادل "ندرڤين پيتيرس" بأننا إذا كنا نقبل بطبيعة الهجنة، علينا إذن أن نقرأ العولمة المعاصرة بطريقة معينة، أى بأنها تحديدا تسرع بالظرف الإنسانى الذى يتميز بالاختلاط الثقافى، أو على حد تعبيره: "العولمة المعاصرة المتسارعة تعنى تهجين الثقافات الهجينة" (2004: 82) .

غير أن طرح "ندرڤين پيتيرس" كان عرضة للنقد، كما أن مفهومه الذى يعتبر ثقافتنا وهوياتنا هجينة وبالتالى غير مستقرة بطبيعتها، لم يكن مقبولا بشكل عام. وكما سنرى فى الفصل الخامس على سبيل المثال، فإن بعض من كتبوا عن القومية والثقافات القومية مثل "أنتونى سميث Anthony Smith" يحددون الجوهر الاثنى للدول، وعليه يؤكدون الاستمرارية بالنسبة لهذه الهوية الخاصة. كذلك فإن مفهوم "پيتيرس" للتاريخ باعتباره عملية تكامل مستمرة لم يمر دون نقد، خاصة أن هناك بعض الفترات التاريخية التى لم تتفاعل فيها الحضارات

بالقدر الذى يراه. فى كتابه الذى بعنوان Millennium (1996)، يقول "فيليب فرناندز ـ أرمستو "Felipe Fernández-Armesto إن الحضارات الصينية والإسلامية واليابانية كانت فى بداية الألفية الثانية عوالم مغلقة نسبيا، تتطور فى عزلة نسبية، وعلى هذا الأساس هناك دائما زعم بأن الصين أصبحت أكثر عزلة بعد ١٥٠٠ (Holton, 2005) فقد منعت الحكومة الصينية التجارة البحرية والهجرة إلى جنوب شرق آسيا لفترة ما فى القرن السادس عشر بسبب زيادة القرصنة والتهريب. (Van de Ven, 2002) والأكثر دلالة أن حكام الصين الإمبراطوريين ـ وبخاصة أسرة كوينج (1912 -1644) Qing Dynasty ـ حاولوا تجنب التورط مع "البرابرة الأجانب"، وخاصة الغربيين منهم.

ولكن بالنسبة لـ "ندرڤين بيتيرس"، مرة أخرى، فإن تلك الحضارات نفسها هى نتاج للتكامل الإنسانى، حيث إن الثقافات تتراكم وتتصادم وتتشكل عبر هذه المواجهات وهى عملية مستمرة منذ القدم، وهذا واضح كما يقول فى انتشار الأديان العالمية ودرجات التنوع بداخلها، وذلك كله نتيجة للتفاعل والتكيف مع الثقافات المحلية، وفى الغالب، وجود العقائد الأخرى وتأثيرها فى مناطق بعينها، (25 :2004)، على أنه من الملائم أن نتساءل هل التكامل الإنسانى ـ كما يصر بيتيرس ـ يمكن أن يصل إلى درجة العولمة. يبدو أننا إذا كنا نريد أن نجيب عن هذا السؤال سوف نحتاج لمعرفة المزيد عن طبيعة هذا التكامل الإنسانى أو عن شكله على سبيل المثال: هل يتضمن أو يضم مصادر من كل أنحاء العالم ؟ هل انبثقت هذه الحضارات أساسا نتيجة لأشكال من الاختلاط والتفاعل الإقليمى ؟ من المؤسف أن "ندرڤين بيتيرس" لا يقدم لنا أى تحليل تفصيلى أو دراسات حالة تمكننا من تقصى الأمر والإجابة عن هذه الأسئلة. إنه بالأحرى يتركنا مع الزعم العام بأن التكامل هو ما يفعله البشر.

- **أنتونى جيدنز Anthony Giddens :**

حداثة العولمة:

الافتراض الذى رسمه "ندرڤين بيتيرس" يتناقض مع ذلك الذى يصوره علماء الاقتصاد والاجتماع الذين يتتبعون أصول العولمة بشكل عام ويرجعونها إلى

الرأسمالية (١٥٠٠ وما بعدها) وإلى الحداثة (١٨٠٠ وما بعدها) على التوالى؛ والواقع أن "پيتيرس" ينتقد "أنتونى جيدنز" عالم الاجتماع الشهير لأنه يتصور العولمة "إحدى نتائج الحداثة. هذه الآراء فى نظر "ندرڤين پيتيرس" ذات مركزية أوروبية لأن أصحابها يعتبرون العولمة "غربنة"، وذلك فى رأيه فهم "ضيق جغرافيا وضحل تاريخيا" (ibid., 4) ويهمل حقيقة كون العولمة سابقة على صعود الغرب. إلا أن هذا الخلاف، إلى جانب أنه يعكس مجالات بعينها ذات أهمية بالنسبة لمجالات أكاديمية فردية، له جذوره فى مفاهيم مختلفة للعولمة. العولمة عن "ندرڤين پيتيرس" معنية بالتكامل الإنسانى، أما بالنسبة لـ "جيدنز" فهى معنية بالتباعد الزمانى المكانى، ومن الحتمى إذن أن يكون لدى كلا الكاتبين فهم مختلف لتاريخ العولمة؛ ومرة أخرى نستطيع أن ندرك أن الكثير يعتمد على المعيار الذى نستخدمه لتعريف العولمة.

وبينما قد تساعد أعمال كتاب مثل "چان ندرڤين پيتيرس" و "روبرت كلارك" على مواجهة حجج وتصور العولمة باعتبارها ظاهرة معاصرة فريدة بتذكيرنا بسوابقها التاريخية، فإننا لا بد من أن نكون حذرين بخصوص المدى الزمنى الذى نعود إليه عند تدبر هذه المسألة؛ وكما رأينا فإن عوامل مثل محدودية الانتقال والاتصال والقارات المنفصلة عن بعضها كأقاليم، كل ذلك كان يعوق التدفقات الثقافية وأشكال التواصل العالمى الأخرى فى المرحلة ما قبل الحديثة. لابد كذلك من أن يكون فى اعتبارنا أنه يمكن أن تكون هناك انقطاعات حينما يتعلق الأمر بتوجهات وعمليات العولمة. ربما كانت هناك مثلا فترات عبر القرون تقلصت فيها أشكال من التجارة أو الهجرة، وربما تكون قد اختفت، وعليه ينبغى ألا نغفل أهمية العلاقة بين العولمة والحداثة. على صلة بهذه القضية يرى "جيدنز" أن الحداثة "قوة معولِمَة بطبيعتها"، (177 : 1990) وهو مقتنع تماما بأن اثنتين من مؤسساتها المحددة، وهما الدولة-الأمة والرأسمالية، يساعدان على نشرها فى مناطق جغرافية جديدة؛ والواقع أن التطورات فى المرحلة الحديثة تزيد مدى التدفقات الثقافية العالمية وقوتها وسرعتها، بالقدر الذى يجعل هناك فوارق كمية وكيفية عن المرحلة ما قبل الحديثة، بينما نجد أن كل ما تفعله التطورات الحادثة فى المرحلة المعاصرة مثل تقدم تكنولوچيا المعلومات والاتصال، هو أنها تزيد وتيرة

هذا التوجه. ذلك كله يطرح مسألة ملاءمة تطبيق مصطلح "العولمة" على حقبة ما قبل الحداثة، وبذلك نعود إلى قضية تعريف العولمة. وأخيرا يؤكد "جيدنز" أن الدولة ـ الأمة و "الإنتاج الرأسمالى المنتظم" لهما أصولهما، ليس فى مرحلة تاريخية معينة فحسب، بل فى أوروبا كذلك؛ وعلى حد تعبيره: "لهما نظائر قليلة فى فترات سابقة وفى أطر ثقافية أخرى (174 : 1990)، ويجادل بلا شك بأن هذه الحقيقة التاريخية تفند الاتهام بالمركزية الأوروبية، الذى يقول به "ندرفين بيتيرس".

خاتمة: تواريخ العولمة الثقافية

لعل أكثر الطرق ملاءمة وفائدة لتصور العولمة هو مجرد البحث عن نماذج وأشكال ودرجات من التواصل الكونى، سواء أكان ذلك فى صورة الهجرة والتواصل الفكرى والتجارة وانتقال الأفكار، أم فى غير ذلك من المعايير التى طرحناها هنا؛ وسوف يمكننا ذلك من معرفة هل العولمة قوية أو ضعيفة، عميقة أو ضحلة، عريضة أو ضيقة تُشكل من أشكال الارتباط والتواصل. (انظر: Held et al., 1999; Rosendorf, 2000) بتبنى هذا الأسلوب فى الاستشراف سنكون أكثر قدرة على رسم خريطة للتطور التاريخى للعولمة والتحقق من أنها لم تنشأ من المجهول، وكذلك تحديد التغيرات الكمية والكيفية التى حدثت فى عصرنا، أى أننا ـ بمعنى آخر ـ سوف نتوقف عن النظر إلى العولمة باعتبارها "حالة نهائية" ذات نقطة بداية محددة فى لحظة تاريخية معينة؛ وهكذا فإن بعض التطورات التى عرضنا لها من قبل باعتبارها جزءًا من المرحلة ما قبل الحديثة، مثل الأنظمة الإمبراطورية الباكرة والأديان العالمية يمكن أن تكون أمثلة على العولمة الناقصة مثلا. يضاف إلى ذلك أننا إذا انتهجنا هذا الأسلوب فى الاستشراف، فمن المرجح أن نخرج بفهم أعمق وأفضل للعولمة المعاصرة والمجادلات والجوانب الدالة على "عولمة قوية"، وكذلك تلك التى تدل على عولمة ضعيفة(٨).

باختصار، ورغم هذا التنوع الكبير فى المادة التى تناولناها حتى الآن، يبدو من المستحيل القيام بتحليل شامل لتاريخ العولمة الثقافية، ولعل البديل عن ذلك هو

تفصيل التوجهات التاريخية العريضة. ما عرفناه هو أن العولمة الثقافية ليست منفصلة عن الأبعاد الأخرى للعولمة، وإنما هى فى الحقيقة متداخلة مع كثير من أشكال النشاط الإنسانى، وعليه فإن دراساتها تتطلب استخدام أسلوب تناول أو استشراف متعدد المجالات المعرفية.

رأينا كذلك كيف تطورت العولمة عن أصول ومصادر عدة على مدى ألوف السنين، رغم أن التاريخ لم يكن منتظما وكان عرضة للطوارئ بطبيعته اعتمادا على الأطر والسياقات المختلفة. يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك، فى مراحل مختلفة، قوى تعمل ضد العولمة، ومن هنا يكون من الملائم التفكير فى العولمة بصيغة الجمع وليس باعتبارها ظاهرة أحادية. والحقيقة أننا عند التفكير فى تاريخ هذا الموضوع، يكون الأكثر دقة هو التفكير فى أكثر من تاريخ: أى عولمات وليس عولمة واحدة، وحيث إن العولمة الثقافية مرتبطة بأبعاد العولمة الأخرى، فإن تأكيد التعددية هنا ينطبق عليها كذلك، ومن هنا كان عنوان هذا الجزء "تواريخ العولمة الثقافية". وأخيرا، بينما كانت العولمة - إذا كنا نتكلم من الناحية التاريخية - قادمة منذ زمن بعيد، فإننا نؤكد هنا تميز مرحلتها المعاصرة، وهذا نابع من القدوم المتلازم لمجموعة من العمليات التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية والثقافية، التى تأخذنا إلى مستوى جديد غير مسبوق من التواصل والترابط الكونى كما سنوضح فى الفصول القادمة.

للمزيد:

نرشح الأعمال التالية لمن يريد المزيد عن المادة التى عرضنا لها فى هذا الفصل:

- William McNeill´s: The Rise of The West: A History of the Human Community. (1963)
- Janet Abu-Lughod´s: Before European Hegemony. (1989)
- Conceptualizing Global History. (1993)

وهو عمل مهم عن التاريخ الكونى من تحرير

- Ralf Buultjens, Bruce Mazlish
- Jürgen Osterhammel and Niels Petersson´s: Globalization: A short History. (2005)

وهو مقدمة محكمة وثاقبة للموضوع، تتبع ظهور العولمة على مدى سبعة أو ثمانية قرون مضت، مع التركيز على المرحلتين الحديثة الباكرة والحديثة.

- Globalization in World History. (2002)

مجموعة مقالات من تحرير A. G. Hopkins، وهى محاولة جادة من جانب المؤرخين للمشاركة فى جدل العولمة، كما أن: Global Transformations تأليف David Held وآخرين (1999) محاولة وافية لرسم خريطة لتاريخ العولمة فى أشكالها المختلفة. ومن الأعمال التى تركز على التاريخ الطويل للعولمة انظر:

The Consequences of Modernity, by: Anthony Giddens. (1990)

Globalization: A Critical Introduction, by: Jan Aarte Sholte.

وأخيرا هناك المجلد الذى حرره كل من:

- William R. Thompson, Barry K. Gills

بعنوان: Globalization and Global History (2006) الذى يقدم بحثا علميا مفصلا للموضوع.

الفصل الثانى

ثقافات متحركة

لكى نفهم العولمة الثقافية لابد من أن نكون واضحين، وربما واضحين قدر الاستطاعة، بخصوص ما نعنيه بالثقافة، ولذلك سوف يستكشف هذا الفصل هذا المفهوم وما يحيط به من جدل. ليس الهدف هنا هو تقديم طرح جامع مانع عن طبيعة الثقافة، وإنما مجرد اقتراح طرائق تفكير ملائمة لتناوله واستشرافه فى ضوء الظروف المعاصرة، وبعد ذلك سننتقل لاختبار العلاقة بين الثقافة والعولمة متأملين كيفية انتقالها فى العالم، مركزين بوجه خاص على فكرة التدفقات الثقافية والخروج من الإقليمية ثقافيا. كذلك سوف يكون تركيز الجزء الأخير من هذا الفصل على قضية تلقى اهتماما نقديا متزايدا فى ما يتعلق بمجال هذا الموضوع، وهى بالتحديد عبور الحدود القومية وما يعنيه ذلك بالنسبة لتطور العلاقة بين الثقافى والمكانى فى المرحلة المعاصرة.

تفسير الثقافة

إذا افترضنا أن الثقافة أوسع من اعتبارها مجرد الفنون والمعارف الإبداعية سنكون على الفور أمام مشكلة محاولة تحديد وتعريف مفهوم مراوغ مختلف عليه. لذلك من المفضل أن نتصور الثقافة - بمعنى أساسى - باعتبارها "أسلوب حياة" (e.g., Williams, 1967) ولكن استشرافا عاما من هذا القبيل سيجد صعوبة فى تجميع واحتواء التجارب والخبرات الفردية للناس المقيمين فى ثقافات بعينها، ففى داخل أى جماعة ثقافية ستكون هناك أفكار وتوجهات مختلفة تعبر عن الأوضاع الفردية للناس وأساليب حياتهم ووجهات نظرهم نتيجة عوامل متعددة مثل السن والطبقة والنوع. (Eriksen, 1997) وفى بعض الأحيان ستكون

هناك جماعات وقوى قادرة على ممارسة تأثير سائد على ثقافة معينة سواء من داخل هذه الثقافة أو من خارجها. أضف إلى ذلك أن مفهوم الثقافة كأسلوب حياة يجور على أنماط الثقافة المختلفة - القومية والإقليمية والشعبية والمحلية والنخبوية والتجارية بالإضافة إلى الثقافات الفرعية على سبيل المثال - وهناك كذلك أبعاد مختلفة للثقافة والثقافات، وبخاصة المؤسسى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى والتاريخى منها؛ والحقيقة أن الطبيعة المتقلبة والمعقدة للثقافة أدت ببعض الكُتَّاب لعمل تصنيفات تحليلية أخرى عند التنظير للمفهوم. فى هذا السياق صاغ "پيير بورديو (1977, 1990 a, 1993) "Pierre Bourdieu مفهومه عن الاعتياد وهو عالم أو نظام يتعلم فيه الأفراد والجماعات مواقف وتوجهات ثقافية ويطورونها بمرور الوقت، ليس على نحو منتظم وإنما يمارسونها فى علاقاتها بأطر ومجالات محددة، إلا أن نظام "المواقف المكتسبة" هذا (1990b : 13) كما يصفه بورديو لا يعطى اهتماما كافيا لاختراق الثقافة بواسطة تدفقات وعمليات العولمة، والحقيقة أن كثيرين سوف يعتبرون مفهوم هذا النظام نفسه إشكاليا فى ظل ظروف الانتشار والحركة المعاصرة.

إن غياب إجماع مفهومى على "الثقافة" فى الوسط الأكاديمى أمر شديد الوضوح، ليس فقط لأن مجالات مثل الأنثروپولوچيا وعلم الاجتماع والدراسات الثقافية لها أساليبها الخاصة فى استشراف الموضوع، وإنما بداخلها كذلك هناك اختلافات فى الرأى حول الثقافة، فبينما تتردد فى مجال علم الاجتماع فكرة مفادها أننا نحصل على الثقافة من خلال عدد من مؤسسات التطبيع الاجتماعى والممارسات، توجد بين الماركسيين والوظائفيين وجهات نظر مختلفة عن الأهداف السياسية التى يخدمها ذلك، ويضيق المجال هنا عن تفصيلها، وفى حالة الأنثروپولوچيا نجد "آدم كوبر (1999) "Adam Kuper يستخدم مصطلح "الحروب الثقافية" ليحدد مدى وطبيعة الجدال المحيط بالثقافة فى داخل مجاله الدراسى. يضاف إلى ذلك أن الأساليب الباكرة لاستشراف الثقافة فى مجال الأنثروپولوچيا يوجه لها انتقادات كثيرة بسبب تصويرها "الآخر" على نحو غرائبى وإسهامها فى تسيد الثقافات غير الغربية، وهناك - حتى - بعض علماء الأنثروپولوچيا الذين يستغنون عن مفهوم الثقافة معتبرين أنه مشوِّه لمهنتهم،

(Shweder, 2002: 162) إزاء هـذه الانـتـقـادات نجـد عـلـمـاء الأنـثـروپـولـوچـيـا حساسـين بـالـنـسـبـة لمسـألـة الـتـعـدديـة الـثـقـافـيـة، وهـى نـظـرة تـعـود إلـى عـالـم الأنثروپولوچيا الشهير "فرانز بواس (1942 – 1858) "Franz Boas الذى يؤكد ضرورة احترام الفروق الثقافية والاعتراف بأن كل ثقافة مرتبطة بأسلوب حياة محدد ومتوافق تاريخيا؛ ولكن كما هو الحال بالنسبة لمفهوم "بورديو" عن الاعتياد، يصبح من المنطقى أن نتساءل ما إذا كان ذلك التمايز الثقافى الذى يعنيه، قابلاً كذلك للتطبيق فى ظروف العولمة. وكما سنرى على امتداد الكتاب، فإن الثقافات ليست محصنة ضد عمليات العولمة، بل إنها بالأحرى تؤثر فى هذه القوى الخارجية وتتأثر بها. باختصار، لكى نقر ما هو واضح، فإن عدم وجود إجماع على تعريف للثقافة بالفعل وكيفية دراساتها، يجعل تحديد علاقاتها بالعولمة أمرا شديد الصعوبة.

وفى النهاية نجد أن هناك قصورا فى بعض المجالات المعرفية الأكاديمية عند تناولها للثقافة؛ ففى حالة علم الاجتماع مثلا، فإن تأكيد الوظائفية على النظر إلى الثقافة باعتبارها القيم والمعايير المثقفة لمجتمع ما فى عصر العولمة، ربما يكون معلقا على مفهوم للدولة ـ الأمة عفا عليه الزمن. والحقيقة أن "أولريخ بيك (2000) "Ulrich- Beck يرى أن علم الاجتماع، بشكل عام، لم يعط اهتماما كافيا لما هو كونى؛ والوظائفية بالطبع ليست سوى فرع واحد من الفكر داخل علم الاجتماع، كما أن "بريان اس تيرنر (2006) "Bryan S. Turner يفند فكرة أن علم الاجتماع متوقف عند الدولة ـ الأمة والمجتمع القومى، محاججا بأن أجيالا من علماء الاجتماع ـ منذ "إميل دوركايم "Emile Durkheim و "تالكوت بارسونز "Talcott Parsonsـ قد ضمنت أساليب تناولها ومقارباتها عمليات عالمية. أما بالنسبة للأنثروپولوجيا فإنها كانت فى العادة تتقصى "المحلى" فى كل تجلياته، ومن ثم ربما تتجاهل المؤثرات الكونية والعابرة للحدود القومية فى الثقافة وإمكانية القيم والممارسات العالمية (Wilson, 1997)؛ وذلك على الرغم من أن هناك علماء أنثروپولوجيا معاصرين الآن مثل "أولف هانرز "Ulf Hanners (1992a, 1996, 2003) مشغولون بالخارجى، وفى حالته هذه أدى به ذلك أن يصور بدقة التنوع الثقافى والتعقد وامتزاج اللغات والابتكارات باعتبارها توجهات

مستمرة. على نحو أوسع، إذا كانت عمليات التعولم تولد قدرا أكبر من المغايرة أو اللاتجانس داخل الثقافات كما يدعى منظرو الهجنة، فإن ذلك يضع كل المجالات المعرفية أمام تحديات تحليلية واضحة. على سبيل المثال هناك دائما اعتقاد بأن الثقافة تحتاج إلى "آخر" ما، لكى تعرف نفسها، ولكن ذلك يصبح أكثر إشكالية فى ظروف الهجنة[1]. مثل هذه الظروف يمكن أن تزعزع المفاهيم التى نستخدمها، وهذا واضح فى الأسلوب الذى يتم به التهوين من شأن فكرة "الغرب"، وضمنا العالم "غير الغربى"، أمام الأنماط المعاصرة من الهجرة العالمية وتبادل الشعوب بما يؤكد أن المنطقتين تصبحان أقل تمايزا من الناحية الثقافية.

الثقافة باعتبارها عملية

بعد تحديد بعض الصعاب التى تواجهنا عند تحليل "الثقافة" سنوضح هنا أسلوب الاستشراف الذى سوف نستخدمه لذلك، وكما هو الأمر بالنسبة للعولمة سيكون التأكيد على طبيعة الثقافة أو شكلها متعدد الأوجه. وبدلا من الانشغال أكثر من اللازم بمحاولة تقديم تعريف محدد للثقافة لن يحظى بقبول عام لأسباب كثيرة سبق ذكرها، فسوف نتناولها هنا فى علاقاتها بعدد من الموضوعات، وهى تحديدا الانتقال وشبكات المعنى والتعددية؛ وبذلك سنفيد من عدد من المجالات المعرفية وبخاصة الأنثروپولوچيا الثقافية والاجتماعية والدراسات الثقافية. أما أسباب النظر فى الثقافة على هذا النحو فسوف نوضحها الآن.

بداية، لا بد من ملاحظة أن الثقافة كانت دائما مفهوما ديناميكيا ومتلونا، أى أن معناها يتغير مع الزمن كما أنها تتخذ عدة أشكال، (انظر: Williams, 1976) وفى زماننا أصبح ينظر إليها - على نحو متزايد - باعتبارها عملية مستمرة أكثر منها كيان جامد، وكفعل أكثر منها اسم وبخاصة داخل الأنثروپولوچيا والدراسات الثقافية، (Eriksen, 1997; Street, 1993; Wilson, 1997) ومثلما يجادل عالم الأنثروپولوچيا "روى ڤاجنر Roy Wagner" (1986) فإن الثقافات دائمة التغير ويعاد تخلقها كجزء من عملية مستمرة؛ وعلى نحو خاص فإن الثقافات تغذيها ضغوط ومؤثرات داخلية عدة، مما يؤكد أنها ليست جامدة أو ثابتة. كذلك فإنها تتشكل بفعل قوى خارجية، وبالتالى فهى ليست كيانات متجانسة أو متفردة أو

محددة، بل إنها بالأحرى تقوم بعملية مراكمة وتأخذ عن تقاليد أخرى. أشكال الهجرة العالمية مثلا، وبالتحديد الهجرة إلى المملكة المتحدة منذ خمسينيات القرن العشرين أدت إلى أن تصبح بريطانيا مجتمعا متعدد الثقافات، وأدى ذلك بدوره إلى التأثير فى ثقافتها القومية (كما سنرى فى الفصل الخامس)، وفى الوقت نفسه كانت هناك ضغوط داخلية تعمل على هذه الثقافة، مثل الوضع المتغير للمرأة وتحسين مستويات التعليم والإصلاحات التى تخفف من المركزية. الثقافات إذن متحركة على نحو مستمر، وكما سوف يتضح على مسار الكتاب فإن عمليات العولمة المعاصرة تزيد من هذا التوجه وبذلك يتسع الوعى بقابلية الثقافة للتشكل والتغير.

"چيمس كليفورد (1992- 1997) "James Clifford هو الكاتب الأكثر ارتباطا بعقد الصلة بين الثقافة والحركة، وهو مقتنع تماما بأنه لم يعد بالإمكان فهمها فى علاقاتها بالموقع أو المكان، وإنما ينبغى النظر إليها كشىء فى حالة حركة وانتقال باستمرار.

المسافرون والسائحون والمهاجرون يتنقلون فيزيقيا حول العالم حاملين معهم ثقافاتهم، متداخلين مع ثقافات وشعوب أخرى، ينجبون ويتفاوضون ويعرفون أنفسهم، كما يساعدون فى تأكيد أن الثقافات تتحول باستمرار إلى أشكال ثقافية جديدة. بالطبع ليس بإمكان كل فرد أن يسافر، لكننا حتى إذا اخترنا البقاء بالوطن فنحن نلتقى بمسافرين غرباء قادمين من بلاد بعيدة. كليفورد يرى أننا لابد من أن ننظر إلى الأماكن باعتبارها مواقع لقاء، مواقع إقامة وسفر، بالإضافة إلى أن مفهوم الثقافة باعتبارها سفرًا، ينطبق ليس فقط على الناس وإنما كذلك على تدفقات الصور والأفكار والأصوات والرموز وكل الأشياء التى تجوب الكرة الأرضية، عابرة الحدود القومية جيئة وذهابا فى إطار هذه العملية. من هنا يصبح السفر بالنسبة للفرد اشتباكا لافتا وجديدا مع المألوف وغير المألوف، وفى الواقع فإنه يؤدى إلى ضبابية صورة الوطن والخارج (Rojek and Urry, 1997). الثقافات إذن ليست ساكنة أو ثابتة، إنها تتحرك وتتكيف وتتغير، ولهذا السبب فإن فكرة "الثقافات فى حالة حركة" قد تطورت لتصبح طريقة مفيدة للتفكير فى هذا الشأن، (انظر: Lury, 1997.)

كل ما سبق ذكره ينطوى على متضمنات تتعلق بالهوية وتكونها. فما دامت الثقافات فى حالة تغير وحركة مستمرة، من الطبيعى ألا تكون هناك هويات ثابتة أو مستقرة. على أنه ينبغى ألا نبالغ فى أهمية مدى التغير وسرعته فى لحظة ما، لأن الثقافات إذا كانت غير ثابتة وفى حال تغير دائم، فسوف يكون من الصعب على الناس أن تتماهى معها أو تسكنها. من هنا لا بد من أن تكون هناك لحظات استقرار: فترات من الزمن تتماهى فيها شبكات أو مجموعات من البشر مع أشياء من قبيل الأفكار والقيم والرموز، وترتبط بمظاهر ثقافية مثل الآثار الفنية والنصوص، وتكون قادرة على إضفاء الطابع المحلى عليها. بمعنى آخر، فإنه حتى فى عالم دائم الحركة، ما زال يعاد إنتاج الثقافات داخل عدد وافر من النظريات الاجتماعية بأطر تفسيرية ونظم قيمة ومصادر للهوية. اعترافنا بوجود "شبكات المعانى" هذه - بعبارة "كليفورد جيرتس (1973) Clifford Geerts" هو فى الوقت نفسه اعتراف بحقيقة أن أغلبية الناس يقيمون فى أماكن مولدهم وبالتالى فهم معرضون لعملياتها التطبيعية، وسوف يواصل، حتى، الكثيرون منهم العمل أو أحدهما فى تلك الأماكن المحلية نفسها لفترات طويلة من حياتهم ويطورون ارتباطهم بها وبثقافاتها[٢] فَهْم الثقافة على هذا النحو يجعلنا أكثر قدرة على التعبير عن التنوع والتعددية داخل الثقافات، حيث إن الشبكات والمجموعات العديدة التى تكونها ستكون فى الغالب تجربة خاصة أكثر منها تجربة عامة، تعكس تمايزات إقليمية ومحلية. هناك على سبيل المثال عدد كبير من المجموعات التى تكون وتثرى الثقافة البريطانية، تدرجا من مجموعات مرتبطة بالملكية والمؤسسة، إلى مجتمعات المهاجرين، كل منها حسب فهمه للثقافة البريطانية والقدرة على تشكيلها بطرق مختلفة إلى حد بعيد. الثقافات بالتالى متعددة المراكز، متراكمة الطبقات، وهى تتغير مع الزمن كما هو واضح فى حالة الإسلام الذى يضم بداخله عددا من التقاليد الدينية المختلفة التى برزت على مر القرون. مثل هذا التباين الداخلى يتزايد بالنسبة لكل الثقافات، بتشابكها وتعالقها مع الثقافات الأخرى؛ وعلى الرغم من ذلك لا بد من أن تكون هناك عمليات تكون ثقافى واستيعاب داخلى وإلا كنا نعيش كلنا حياة لاثقافية، ويصبح من الصعب أن نفسر وجود صراعات ثقافية. كما أنها ليست حالة أن البنية الثقافية تعود إلى

مرحلة أسبق مع استمرار ظهور ثقافات جديدة (مثل الراب والهب هوب كأمثلة من الموسيقى الشعبية) وهو ما يحدث جزئيا بسبب الحراك.

هكذا فإن النظر للثقافات كما تعبر عنها شبكات المعانى المختلفة، وليس باعتبارها كيانات متمايزة مغلقة أو متماسكة، هو اعتراف ضمنى بالعلاقات المختلفة للناس بثقافات معينة. ببساطة شديدة، سيكون هناك داخل أى ثقافة اختلافات وتنوعات فى درجة الالتزام بها، إلى جانب تصورات مختلفة عنها وعما تعنيه. يضاف إلى ذلك أن المجموعات والشبكات ديناميكية ودائمة الحركة - تتشكل وتتطور وتتشظى من وقت لآخر ولكنها كذلك تعيد تشكلها - وهو ما يعطينا بدوره رؤية أبعد ويصف لنا الطبيعة غير المحددة والمتغيرة للثقافات. كما أن هذا الأسلوب فى التناول أو الاستشراف ينكر احتمال تكون أو اختراع العوامل المكونة للثقافة مثل العادات والتقاليد والممارسات، ولذلك فإن علاقات القوى المكونة عادة ما تكون متورطة فى تشكيل الثقافات. بالإضافة إلى أن استخدام فكرة الشبكات بالنسبة للثقافة يفسر لنا الطريقة التى تمتد بها عبر المسافات، وبذلك فإنها تتراكم وتندمج بشبكات ثقافية أخرى، بما يؤكد أن الثقافات تختلط دائما وتمتزج باختراقات مختلفة وأشكال ثقافية أخرى تظهر كجزء من عملية مستمرة، وهذا يساعد فى إبراز المشتركات بين الثقافات المختلفة، بل فى تفسير التعقدات والتباينات الموجودة بداخلها. الحقيقة أن الاعتراف بمثل هذا التمازج يلتقى إلى حد ما مع طرح "ليلى أبو لغد" (1991) بأن مفهوم الثقافة ينكر وجود "الوسطى" أو "الهجين". الثقافات إذن متقاطعة "ثقافيا" بما يعنى ضمنا أنها تنطوى على حركة وتغير أكثر من الركود والثبات، وهو ما يصفه "ولفجانج ويلش (1999) "Wolfgang Welsh بالمثاقفة العابرة للحدود، بمعنى أن الثقافة يتزايد وجودها عبر غيرها من الثقافات. بيد أن التمايز الثقافى يظل موجودا، جزئيا بسبب التواريخ الخاصة للثقافات المختلفة، وكذلك بسبب النتائج المتعددة التى ستنجم عن الاختراقات المتبادلة بين الثقافات نتيجة دخول الأفراد والجماعات هذه المواجهات بمواقف وميول ووجهات نظر ثقافية مختلفة. وأخيرا فإن فهمنا للثقافة باعتبارها ممتدة عبر المسافات وفى ثقافات أخرى، ينبغى أن يشجعنا على ملاحظة كيف أن الثقافات تتغير عندما

تنتقل، وبالتحديد كيف يتم تبنيها وتكييفها وربما مقاومتها فى أماكن مختلفة[٣] وهكذا بتبنينا هذا الأسلوب فى الاستشراف، نعطى اهتماما أكبر لوجود تنويعات كثيرة داخل الثقافات.

عند التفكير بأمر الثقافة، نحن كذلك فى حاجة إلى أن نضع فى اعتبارنا أن الناس بالفعل يقيمون فى ثقافات متعددة سوف تؤدى بدورها إلى تشكيل شعورهم بالهوية، من هنا يكون من المرجح أن تشكل سلوكنا فى أى لحظة مؤثرات ثقافية مختلفة حتى إن كنا غير مدركين لذلك. هذه النقطة الأخيرة تلمح إلى جانب آخر من الثقافة، هو بالتحديد أن هناك صفة دقيقة لها، وأننا غالبا نصبح واعين بثقافتنا عندما نواجه "آخرية" أو اختلافا. كذلك فإننا لا نكون سلبيين أو غير ملمين عندما يتعلق الأمر بالثقافة، التى هى ببساطة منتجات عمليات تطبيعنا الاجتماعى وما يحيط بنا، فنحن بالأحرى نظل محتفظين بقدرتنا على انتقاد ثقافتنا الخاصة، وإبعاد أنفسنا عن ثقافات أخرى، ونصبح أكثر التزاما بثقافات عن غيرها، ونمارس ونجرب ثقافات جديدة أو جوانب منها على الأقل. وهكذا فإننا بوصفنا بشرًا سوف نحمل ثقافاتنا معنا ولكننا أيضا سنمر عبر تدفقات وثقافات مختلفة فى مسيرة حياتنا اليومية ونستوعب مؤثرات جديدة، على الرغم من أننا قد لا نكون مدركين لذلك دائما. نحن إذن لسنا مجرد حملة ثقافة، نحن جامعو ثقافة أيضا، وفى هذا السياق يقول "تيم إنجولد Tim Ingold" إننا "ربما نكون أكثر واقعية إذا قلنا إن الناس يعيشون ثقافيا أكثر مما هم يعيشون فى ثقافات (330 :1994) رغم أننا ينبغى ألا ننسى، مرة أخرى، أننا نتناول الثقافة فى إطار صعود أشكال الأصولية الثقافية.

بإيجاز، من الملائم أن نفكر بالثقافات باعتبارها تنطوى على تنوع داخلى وأنها متعددة وعرضة لتطور مستمر، بينما نعترف بأنها قادرة على إعطاء معنى للأعضاء بتضامنهم حول موضوعات وأفكار وهويات مشتركة، إلى جانب قيم وممارسات مشتركة أيضا. وبعد إيجاد طرائق التفكير بشأن الثقافة، سوف نعود فى بقية هذا الفصل للنظر فى كيفية إفادة واستفادة الثقافات من العمليات المتعددة للعولمة المعاصرة.

تفسير التدفقات الثقافية

هناك شبه إجماع بين كتاب العولمة الثقافية على أن العمليات والتكنولوچيات المعاصرة ينتج عنها حراك ومرونة فى الثقافة، وهو ما يعنى أنه من المرجح أننا نجمع مؤثرات ثقافية أكثر مما كان عليه الأمر فى الماضى، حيث إن الميديا والمعلومات وتدفقات البشر على نحو خاص، كلها تؤكد أن ليس علينا بالضرورة أن ننتقل أو نتحرك بعيدا لكى نمر بكثير من التجارب والخبرات الثقافية. النتيجة بالنسبة لنا بوصفنا أفرادًا أننا نصبح متورطين فى علاقة انعكاسية أكثر تلقائية وخصوصية مع هذه الثقافات. (انظر الفصل السابع)، وبعبارة أكثر بساطة: نحن ندخل فى علاقة أكثر تفاوضية وانتقادية مع الثقافة. مثل هذه الانعكاسية أو التلقائية تعبر عن توجه حديث، كما أنها أحد الأسباب التى تجعل "أنتونى جيدنز" يعتبر العولمة ظاهرة حديثة، على أن اهتمامنا الآن سينصرف إلى "آرجون أپا دوراى Arjun Appadurai" وهو كاتب يضع تأكيدا كبيرا على حركة الثقافة عندما يعقد صلة بين العولمة والحداثة.

• آرجون أپادوراى: التدفقات و"المشاهد" والاقتصاد الثقافى الكونى الجديد:

فى أعمال مثل: "الحداثة طليقة: الأبعاد الثقافية للعولمة" (1996)(*) يستخدم آرجون أپادوراى استعارات الحركة لوصف الطبيعة غير المتجانسة للثقافة وكيف تتنقل فى العالم فى المرحلة المعاصرة، ويعرف على نحو أكثر تحديدا خمسة أبعاد للتدفقات الثقافية فى هيئة مشاهد هى:

- المشاهد العرقية
- المشاهد التقنية
- المشاهد المالية
- المشاهد الفكرية
- المشاهد الإعلامية

(*) Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization. (1996).

وهذه المشاهد كلها تقدم فضاءات أو فرصًا لبناء عوالم جديدة متخيلة، وهى "بنى عميقة المنظور مقيدة إلى حد كبير بالأوضاع التاريخية واللغوية والسياسية لمختلف اللاعبين" بدءا من الدول ـ الأممية إلى دول الجوار (Appadurai, 1990: 296) المشاهد العرقية تخص ديموغرافيا العالم وتتكون من كل حركة الناس (السفر ـ الهجرة ـ السياحة ـ التنقل ـ النفى) والمجتمعات المستقرة وخاصة السابقة، بفرض أن الناس أصبحوا أكثر حركة عن ذى قبل. عطفا على ذلك فإنه نتيجة للإعلام الإلكترونى والسفر الحديث لم تعد مجتمعاتنا المتخيلة مقصورة على الدولة ـ الأمة، وإنما أصبحت ـ على نحو متزايد ـ تتقاطع مع حدود قومية؛ والمشاهد التقنية تصف توزيع التكنولوچيات العالمية، ومعظمها غير منتظم، التى تسهل انتشار التدفقات العالمية وتؤمن الاتصال اللحظى، وبالتالى تولد علاقات بين المال والسياسة والعمل يتزايد تعقدها (1990: 297-8) وكما هو متوقع فإن المشاهد المالية هى: التدفق السريع على نحو غير مسبوق، لرأس المال والعملة والاستثمار، الذى يرى "أپادوراى" أنه أصبح منفصلا عن أرضه أو منتزعا منها؛ والعلاقة عنده بين المشاهد الثلاثة لا يمكن التنبؤ بها، كما أنها متمفصلة، كل منها خاضع لقيوده ودوافعه "ولكن الأهم أن كلا منها يعمل باعتباره قيدًا ومقياسًا لحركة المشهد الآخر فى ذات الوقت"(1990, 298) أما المشاهد الفكرية فتشير إلى تدفق الأفكار، والأيديولوچيات، والأيديولوچيات المضادة والصور الذهنية مثل الحرية والديمقراطية، التى عادة ما يتم تعديلها حسب السياق؛ وتشير المشاهد الإعلامية إلى بنى الإعلام الجماهيرى المكونة من العتاد الميكانيكى والإلكترونى. كلا المشهدين فكرى، وفى حالة المشاهد الإعلامية فإن المشاهدين يستخدمون هذه الهياكل أو الصور الذهنية الإعلامية لبناء سرديات ثقافية عن "الآخر".

بالنسبة لأپادوراى فإن كل هذه التدفقات الثقافية المترابطة تشكل الإطار الرئيسى لذلك النظام المعقد المتراكم المتمفصل ـ فى الوقت نفسه ـ أو ما يعرف بالاقتصاد الثقافى العالمى الجديد. ما يعنيه بذلك هو أن هذه التدفقات من البشر والأشياء والصور والخطابات تتبع باستمرار مسارات غير متماثلة فى الشكل "ذات سرعات ومحاور ونقاط بداية ونهاية وعلاقات متنوعة بالبنى

المؤسسية فى المناطق والدول والمجتمعات المختلفة" (ibid) فعلى سبيل المثال عندما تكون هناك منطقة مشبعة بتدفقات إعلامية، تقدم صور وأساليب حياة بديلة، فإن ذلك يمكن أن يثير الخيال ويخلق توترات وضغوطا داخلية من أجل التغيير. باختصار، من خلال تلك "الفواصل" بينها، تثرى هذه المشاهد الثقافية وتؤثر فيها وتهيئ الظروف لحدوث التدفقات الثقافية.

• هل بالإمكان رسم خريطة للتدفقات الثقافية ؟

إذا قبلنا مؤقتا ـ دون تمحيص ـ فكرة أن التدفقات وسيلة مفيدة للتفكير بالثقافة فى علاقاتها بالعولمة، نكون مازلنا أمام المهمة الصعبة، وهى رسم خريطة لهذه التدفقات، سواء أكان ذلك فى صورة بشر أو سلع أو صور ذهنية أو أفكار، بالإضافة إلى ذلك السيل من الصلات والعلاقات، وبالتالى ردود الفعل إزاء ذلك كله[٤] هل يمكن حقيقة قياس كمية الحركة الثقافية وتقييمها بطريقة ذات معنى؟ وكيف يمكن لنا أن نحدد ذلك العدد الكبير من التدخلات الثقافية بأنماطها المختلفة، فى دولة أو منطقة بعينها؟ عدد الإعلانات المعلقة والتليفزيونية التى تبيع سلعا من دول أخرى، كمية الموسيقى المتدفقة من الإذاعات، مدى انتشار اللغات الأجنبية فى بلد ما، تلك كلها أمثلة لثقافات تخترقها أو تتخللها مؤثرات ثقافية أخرى. الأمر، باختصار، يتطلب تحديد مجموعة كبيرة من الأشياء والعلامات والأصوات والصور، إلى جانب شعوب تتحرك عبر مساحات ومناطق وفضاءات عبر القارات. على الرغم من هذه التحديات، يعتقد "ديڤيد هيلد" وآخرون (David Held et al., 1999) أنه بظهور وسائل الاتصال التى يستتبعها علامات منفصلة تنتشر فى التو واللحظة فى أرجاء الكرة الأرضية، وتستغل الطبيعة الفنية الواقعية للنقل الثقافى، يصبح بالإمكان استشفاف وتتبع التدفقات الثقافية، وعلى حد تعبيرهم: "نستطيع أن نرسم خريطة لعولمة الثقافة، بمعنى تعيين الاتساع الجغرافى لهذه التحركات ومدى قوتها وحجمها بالنسبة للقومى أو المحلى، كذلك فإن العولمة الثقافية يمكن تحديدها عن طريق سرعة انتقال الصور والأفكار من مكان لآخر" (Held et al., 1999: 329).

بينما رسم خريطة ثقافية أمر ممكن، إلا أن التركيز على التدفقات الثقافية لا يدلنا على كيفية فهمها وممارستها بواسطة المتلقين لها، ولا على دوافع منتجيها. علينا أن نحاول معرفة - مثلا - لماذا تلقى بعض التدفقات الثقافية دون غيرها أشكالا من المقاومة. باختصار، لن يكشف قياس أو رصد حجم مثل هذه التحركات وسرعتها وموقعها سوى القليل عن طبيعة التفاعل الثقافى(٥) هناك كذلك الصعوبة المقيمة وهى محاولة تحديد ما يحدث عندما تؤدى التدفقات الثقافية إلى أن تواجه الثقافات المختلفة بعضها؛ ومن وجهة نظر مراقب خارجى، سيكون من الصعب عادة أن نفسر بدقة طبيعة عملية التفاعل، أو أن نحدد المعنى الذى تربطه الأطراف المعنية بهذا التبادل الثقافى. عطفا على ذلك، فإن المجموعات والأفراد المختلفين سوف يفهمون ويمارسون ثقافات أخرى بطرق متعددة أكثر من ذلك، حيث إن التدفقات الثقافية يمكن أن تكون ذات طبيعة سطحية وانتقالية إلى جانب كونها غير منتظمة، إن تأثيرها فى المتلقين أحيانا لن يكون ذا قيمة. سيكون المطلوب منا بالتالى الاتصال المنتظم أو التعرض المستمر لمثل هذه التدفقات الثقافية لكى تكون ذات تأثير دائم فينا. باختصار: طبيعة ومدى التدفقات الثقافية، إلى جانب قوتها واتساعها وسرعة حركتها، كلها عوامل مهمة تقرر قوة تأثيرها.

علينا بالمثل أن نضع فى اعتبارنا ما إذا كانت هناك قوى أو مؤثرات بعينها لها الغلبة فى تحديد التدفقات والعمليات الثقافية الكونية. هل تنبع التدفقات الثقافية أساسا من مصدر أو مصادر بعينها، وهل تنتقل أساسا فى اتجاهات بعينها؟ (انظر الفصل الرابع). من المهم جدا أن نعرف أن التدفقات الثقافية لا تنتقل فى "فراغ قوة"، وإنما هى تعمل، بالأحرى، فى عالم توجد به تفاوتات بنيوية، وأننا فى حاجة إلى تفحص كيف يؤثر ذلك فى طبيعتها وشكلها. لقد أكدت "دورين ماسى (1994, 2005) "Doreen Massey على نحو خاص، الحاجة للتعرف إلى "هندسة القوة"- Power Geometry - القائمة فى العلاقات الاجتماعية الموجودة فى غير أماكنها الطبيعية. نتيجة للفوارق فى القوة، فإن الجماعات الاجتماعية والأفراد يعملون أو يوضعون، بطرق محددة، فى علاقتهم بالتدفقات أو الصلات الكونية. البعض يبدأ و/ أو يكون جزءا من هذه التدفقات،

بينما يكون هناك آخرون مستقبلون لها فى الطرف الآخر. عند "دورين ماسى" ينطبق ذلك حتى على الأماكن. تشاد مثال على الأخير، ولندن تقدم دليلا على السابق(٦) ذلك كله يجعل "أيهوا أونج (1999) "Aihwa Ong يجادل أننا لكى نفهم العولمة الثقافية وننتقل إلى ما هو أبعد من الخلاصات العامة، لابد من أن تضم تحليلاتنا الاقتصاد السياسى إلى جانب "الإثنوجرافيا القائمة" بحسب تعبيرها. إضافة إلى ذلك يؤكد الكُتَّاب الماركسيون أن ما يدور فى العالم على شكل أشياء وسلع وصور وبشر، إنما هو نتيجة للرأسمالية، التى تظل فى نظرهم القوة الدافعة وراء التدفقات الثقافية.

كثير من الكُتَّاب يرون أن التدفقات الثقافية تنتقل كذلك من المحلى إلى الكونى، ولهذا السبب لا يمكن النظر إلى العولمة باعتبارها عملية ذات اتجاه واحد أو حركة من الكونى إلى المحلى فحسب، (الفصل الرابع)، وفى هذا السياق يكتب "أنتونى جيدنز" عن "جدل المحلى - الكونى" قائلا إن: "عادات وأساليب الحياة المحلية أصبحت مقبولة عالميا"، (5 :1994) ويضيف: "قرارى بأن أشترى شيئا من الثياب، له متضمنات تخص النظم البيئية للأرض وليس تقسيم العمل الدولى فحسب" (ibid) إلا أن الأمر يظل أكثر تعقيدا من ذلك، حيث يمكن أن تؤثر الطرز والأذواق العالمية فى قراراتنا بالنسبة للملبس وغير ذلك من المنتجات التى نقوم بشرائها، يضاف إلى ذلك أن مثل تلك القرارات لا يبقى محدودا أو مقيدا بالمجال الثقافى. المؤثرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية كذلك سوف تثرى سلوكنا وسيكون لها أبعاد كونية ومحلية، ولنتناول، على سبيل المثال، أحد هذه المؤثرات وليكن المؤثرات البيئية: عندما نقرر شراء منتج محلى، فلأسباب واضحة سيكون هذا القرار قائما على اعتبارات محلية / عالمية وله كذلك عواقب محلية/ عالمية، وسوف يبدو أن المحلى والعالمى يعملان على نحو متبادل رغم أن ما يحدث تحت ظروف العولمة المعاصرة من المرجح أن يكون أكثر تعقيدا من مجرد كونه ازدواجية بين العالمى والمحلى، كما سيتضح فى الخاتمة.

التركيز على التدفقات الثقافية ومرونة العولمة بشكل عام يمثل تحديا لعدد كبير من المجالات المعرفية وبخاصة علم الاجتماع والأنثروپولوچيا. فى حالة علم الاجتماع حاول "چون أوراى (2000) "John Urry أن يرد على هذه التطورات

بانتهاج "علم اجتماع الحركة" موقنا أن أساليب التناول الاجتماعى والمفاهيم القائمة تصارع لكى تحتوى التغيرات التى تحدث فى عصرنا هذا الأكثر عولمة[٧] وفى حالة الأنثروبولوچيا قد كان على علماء هذا المبحث، كما ألمحنا من قبل، مراجعة فكرة أن الثقافات كيانات متجانسة ومحددة ومقيدة، حيث يصبح من الصعب الإبقاء على ذلك عندما تكون هذه الثقافات ـ على نحو متزايد ـ من قبل تدفقات وقوى خارجية. (انظر: .Eriksen, 1995; Wilson, 1997) .

وقد أبرز ذلك، على نحو خاص، عيوب أسلوب التناول الميدانى التقليدى داخل الأنثروبولوچيا ـ رغم أننا قد رأينا فى تأكيد چيمس كليفورد أهمية السفر والانتقال بالنسبة للثقافة، وكيف كانت هناك استثناءات فى هذا الأسلوب داخل هذا المجال، مما أدى بعلماء الأنثروبولوچيا أن يولوا اهتماما أكبر للظواهر الاجتماعية والثقافية وتأثيرها فى المكان. مثل هذا الأسلوب فى التناول أو الاستشراف يمكن علماء الأنثروبولوچيا من تعيين حدود العولمة والجوانب المحلية التى لم تخترقها بعمق التدفقات والعمليات المعولمة بعد، وبالتالى فإنها تسهم فى تأكيد ما هو عابر للحدود القومية. وأخيرا، واستكمالا لأحد موضوعات هذا العمل، لابد من ملاحظة أن استشراف أو محاولة تناول هذا الموضوع، هو إلى حد كبير، نتيجة قيود وتقاليد نظامية مع دراسات ثقافية تؤكد حركية ومرونة من جانب العولمة ومجالات مثل العلوم السياسية والدراسات القانونية، التى تركز على مؤسسات وأطر وكيفية هيكلة قوة الدولة للثقافة. (Holton, 2005) ، وأخيرا بينما تزودنا استعارات مثل التدفقات والمشاهد بكلمات وصور لوصف الأسلوب الذى تتحرك به الثقافة، فإنها ليست تصنيفات تحليلية، وهناك دائما مخاطرة بأن يجعل استخدامها تقصينا ومناقشتنا للعولمة الثقافية عاما ومجردا.

الانخلاع الثقافى عن الإقليم

● ما الانخلاع الثقافى؟

يمثل الانخلاع الثقافى عن الإقليم بمعناه الواسع تحولا فى العلاقة بين الثقافة ومكانها، يتطلب أن نعيد النظر فى تصورنا للثقافة. التوجهات والنزعات العولمية المعاصرة تعتبر ممزقة للصلة بين الثقافة وإقليمها كما تؤكد أن خبراتنا الثقافية

وهوياتنا وممارستنا تصبح منفصلة عن الأماكن التى نسكنها، وهو ما يمكن أن نراه فى أسلوب تطور الثقافات والمجتمعات الثقافية فى المواقع والأماكن الجديدة التعددية. والحقيقة أن الانخلاع الثقافى عن الإقليم أو الأرض مرتبط على نحو خاص بمجتمعات الهجرة والشتات التى سوف يستخدم الكثير منها إستراتيجيات عديدة ويكيف ثقافته مع الظروف الجديدة بما فى ذلك استخدام بعض التطورات التى تسهم فى العولمة مثل التقدم فى تكنولوچيا الاتصال والانتقال. فى هذا السياق فإن تكنولوچيا الاتصال الكونى تمكن الجماعات المتفرقة والمهاجرة من أن تظل على اتصال منتظم مع بعضها ومع أسرهم وأوطانهم. فى الوقت نفسه فإن وسائل الإعلام الحديثة تخبرهم بما يحدث فى أوطانهم وتنقل إليهم أخبار أقرانهم فى مناطق أخرى من العالم. بالإضافة إلى ذلك فإن الطيران الحديث يعنى أن من استقروا يمكنهم القيام برحلات عائدين إلى بلادهم الأصلية خلال ساعات فى كثير من الأحيان. بعض المهاجرين الكوريين إلى الولايات المتحدة – وهم كثر –يمكنهم زيارة بلادهم بشكل منتظم وهم بالفعل يعيشون حياة مزدوجة بكونهم يعيشون ثقافتين. (Douglass, 1994) وهكذا، بوجود مجتمعات ثقافية تظهر فى أماكن مختلفة من العالم، وغالبا فى أماكن مختلفة داخل دولة واحدة، تصبح الثقافة "متعددة المحلية" وبالتالى منخلعة من إقليمها. هذا الانخلاع أو الابتعاد الثقافى عن المكان الأصلى عند "نيكوس پاپاسترجيادس "Nikos Papastergiadis" يصور "الأساليب التى يشعر بها الناس أنهم ينتمون إلى مجتمعات مختلفة، رغم حقيقة كونهم لا يشتركون فى إقليم مع كل الأعضاء الآخرين"، (115 .2000) والمجتمعات الإلكترونية أو الشبكات العالمية هى التجلى الواضح جدا لهذا التطور؛ إذ إنها تعكس التشاركية الثقافية رغم غياب أى قاعدة إقليمية؛ ومن ثم فإن الابتعاد عن الإقليم أو الانخلاع منه لا يضعف الروابط الثقافية بالضرورة لمن هم فى حالة حركة وتنقل وخاصة فى ظروف العولمة. الحقيقة أن ما يحدث هو العكس تماما: فطبيعة الشتات أو الوجود المهاجر سوف تعنى غالبا أن جماعة اجتماعية ما سوف تحاول جاهدة أن تتمسك بثقافتها الأصلية المستقرة فى إقليمها، ومن هنا فإنها لن تستوعب بسهولة أو دون تمييز ثقافة الدولة المضيفة. وكما ذكر "أپادوراى" (1996) فإن قضية إعادة الإنتاج

الثقافى للهندوس الذين يعيشون فى الخارج أصبحت وثيقة الصلة بتطور الأصولية الهندوسية داخل الهند. والواقع أن الارتباط بالوطن الأم من جانب المبتعدين عنه يمكن أن نجده حتى عندما لا تكون تلك الأوطان موجودة، فالسيخ الذين يعيشون فى كندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة كانوا فى صدارة المشهد فى حملة من أجل "خالستان" وطنًا هندوسيًا مستقلا فى الهند. أضف إلى ذلك أن هناك دائما توقعا بأن مثل تلك العواطف والأنشطة سوف تولد داخل بعض المهاجرين رغبة فى العودة إلى أوطانهم الإقليمية سواء أكانت حقيقية أو متخيلة.

هناك شواهد أخرى على الانخلاع الثقافى الإقليمى فى هذه المرحلة المعاصرة من العولمة: التدفقات التجارية المتزايدة مثلا وكذلك رأس المال والصور الإعلامية والرموز الثقافية يمكن أن تساعد، ليس فقط على تفتيت المواقع وإنما على تغييرها أيضا. فى الممارسة العملية هذا يعنى غالبا أن الأماكن التى نسكنها معرضة دائما للقصف بالصور والأفكار والأصوات القادمة من أرجاء العالم سواء عبر شاشات التليفزيون أو الراديو أو من خلال الإعلان عن المنتجات من أماكن بعيدة. كذلك فإن المحلات والمراكز التجارية التى نمشى فيها سوف تحتوى على مواد غذائية وملابس وسلع استهلاكية قادمة من أماكن لا حصر لها، ليس فى الحسبان حتى أن نقوم بزيارتها. الطرز المعمارية لكثير من المنشآت التى ندخلها سوف تكون مستلهمة من مؤثرات من أنحاء العالم بالإضافة إلى مواد البناء؛ وهكذا فإن الأشكال الثقافية العالمية والسلع تصبغ الفضاءات الثقافية أو المناطق التى نعيش بها بصبغتها وتقوم أثناء ذلك بإعادة تشكيلها. والحقيقة أن المكونات الثقافية والسلع ليست هى وحدها القادرة على ممارسة هذا التأثير، فأنماط الهجرة العالمية تعنى وجود أناس جدد بيننا لهم ثقافات وتقاليد مختلفة يريدون ممارسة هذه الثقافات وتشكيل فضائها المعيشى فى مجتمعاتها الجديدة. يضاف إلى ذلك أنه مع تفاعل المهاجرين مع المحليين سيحدث اقتراض ثقافى متبادل وتطور لمكونات ثقافية جديدة. من هنا فإن الانخلاع الثقافى عن الإقليم الأصلى لا يؤثر فقط فى أولئك الذين يقومون بالهجرة، وإنما سيكون له تأثير فى ثقافة أو ثقافات الدول المضيفة. باختصار، إحدى النتائج المهمة لمثل هذه الحركة، هى

أن الثقافات والأشكال الثقافية يمكن أن تعيش أو أن توجد داخل ثقافات أخرى وإن كانت دائما تتأصل فى هذه العملية؛ والواقع أن ثقافات اليوم يمكن أن تكون مليئة بمثل هذه العناصر "الأجنبية" وبدرجة يكون من الصعب معها - إن لم يكن من المستحيل - تمييز الثقافة الأصلية وما إذا كان هناك شىء موجود، أو كان موجودا على الإطلاق. بداخل المجتمع الألمانى والثقافة الألمانية على سبيل المثال يمكن أن نجد "پوكيمون" و "إلڤيس" و "ريجا" وأفلام الكونغ فو ورقص الهپ هوپ والراب والصالصا والمدارس البوذية وكلها مؤثرات وأشكال ثقافية نابعة من دول وثقافات أخرى. مثل هذا التعقد الثقافى يمكن بدوره أن يمزق شعورنا بالمكان، جاعلا من الصعب علينا جميعا أن نحتفظ بمفهوم محدد عن وطننا الثقافى.

هكذا، فى ظل هذا الحراك الثقافى المتزايد، تصبح الثقافة - على نحو متزايد كذلك - منتزعة أو مبتعدة عن منطقتها الأصلية؛ وبالنسبة لبعض الكُتَّاب فإن انخلاع الثقافة أو انغراسها هو الشرط الثقافى للعولمة (e.g., Thompson, (1995; Tolinson, 1999a) وربما يستطيع أن يؤدى بالفعل إلى شكل أو أشكال ثقافية تتحرك حرة إلى حد بعيد عن الارتباط بمكان محدد. يبدو ذلك واضحا فى مثال موسيقى البانجرا Bhangra Music التى هى فى الأصل شكل من الموسيقى الشعبية من شمال الهند وانتشرت فى المملكة المتحدة، والأهم أنها أفادت من مؤثرات موسيقية كثيرة مثل "الراپ" وغيرها وأغلبها ليس بريطانيًا فى الأصل. الأشكال الثقافية الجديدة التى تنشأ عن هذه المواجهات الهجينة بدورها، فى الغالب لا تكون مرتبطة بأى منطقة محددة، رغم أننا يجب ألا نغفل حقيقة أن هذا التوجه قد يكون له تاريخ أطول. الچاز نموذج لذلك على سبيل المثال، حيث تطور فى القرن العشرين.

• الانخلاع الثقافى عن الإقليم: وجهات نظر نقدية:

إسهام عمليات العولمة المعاصرة فى الانخلاع عن الإقليم ثقافيا، ينبغى ألا يأخذ أكثر مما يستحق من الأهمية، حيث إن ذلك يعود إلى جماعات الشتات الباكرة. الشعب اليهودى مثلا احتفظ بثقافته الدينية رغم فقدان اليهود لما يعتبرونه الوطن الثقافى الأم وتفرقهم بين غير اليهود على مدى معظم تاريخهم.

لا بد من أن نضع فى اعتبارنا كذلك إنه إلى جانب أوجه العولمة التى تمكن الثقافات من النجاة من الانخلاع الإقليمى، هناك قوة الثقافات نفسها، التى تضمن تطورها. أثناء مرحلة الاضطرابات، فى أيرلنده الشمالية مثلا، كان يمكن أن تجد بين الأمريكيين الذين هم من أصول أيرلندية فى الولايات المتحدة بعض أشد المتحمسين المؤيدين لأيرلنده متحدة. فى مثل هذه الحالة، ليس مجرد وجود الشتات هو ما يؤكد مثل هذا الاهتمام بالوطن الأم، لأن الميديا العابرة للحدود القومية وتكنولوچيا الاتصالات تسهل الوعى بما يدور، كما أن القوة والحيوية الفعلية للثقافة تسهم كذلك فى هذه العملية.

يضاف إلى ذلك أننا ينبغى كذلك ألا نبالغ فى مدى ابتعاد الثقافة عن إقليمها أو انخلاعها عنه فى المرحلة المعاصرة، فالناس ما زالوا مستعدين للجوء إلى العنف من أجل حقهم الكامل فى وطنهم أو إقليمهم الثقافى وإقصاء - وأحيانا ذبح - الجماعات الاجتماعية التى يعتبرونها غير منتمية، ولنا مثال على ذلك فى عمليات التطهير العرقى التى ارتكبت فى البلقان فى تسعينيات القرن الماضى. الإقليم والإحساس بالمكان بالتالى يظلان مهمين ولعلهما يمثلان حاجة إنسانية عميقة توفر لنا الحماية والأمان إلى جانب كونها مواقع للتكوين الثقافى؛ وفى هذا السياق فإن زعم "آرچون أپادوراى" بأن الفلسطينيين "أكثر اهتماما بأن تحل إسرائيل عن ظهورهم منهم بالسحر الجغرافى الخاص للضفة الغربية"، يظل زعما صحيحا (165 :1996) .

كثير من الفلسطينيين يعلقون أهمية ثقافية ودينية كبيرة على أقاليم بعينها بالضفة الغربية وينظرون إلى المنطقة كلها باعتبارها تشكل أساسا لدولة فلسطينية. وبشكل أوسع فإن منطقتهم الخاصة التى تحميها دولة - أمة خاصة بهم تظل هدفا لكثير من الحركات التحررية أو الانفصالية، وبالمثل ينظرون إلى ذلك باعتباره أفضل وسيلة للحفاظ على ثقافتهم أو هويتهم. إلى جانب ذلك فإن حكومات الدول القائمة تصبح أكثر يقظة عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على ثقافاتها القومية وأساليب الحياة داخل حدودها الإقليمية، وسوف تلجأ إلى أشكال الحمائية الثقافية عند الضرورة لتحقيق هذا الهدف. من هنا ينبغى ألا نتجاهل الإصرار على الإقليمية فى عصر التعولم هذا. هذا الموضوع تناوله "چان

آرت شولت (2005) "Jan Aart Scholte" الذى يؤكد الأهمية المستمرة للإقليم فى مجالات تتراوح بين الحكم الرشيد والهوية مستخدما مصطلح "تجاوز الإقليمية"، ليعبر عن فكرة مفادها أن الإقليم رغم أنه يتسع باستمرار، فإنه يظل حاضرا ومتجذرا فى كل التطورات التى تتجاوز الإقليمية.

ما الذى نخرج به إذن من كل هذه الآراء المتضاربة بخصوص الانخلاع الثقافى عن الإقليم ؟ لعل "جون توملينسون" (1999a) محقا فى ملاحظته أن الانخلاع الثقافى عن الإقليم، من المرجح أنه يحدث على نحو غير منتظم. أحيانا تظهر أشكال من التأقلم الثقافى أو إعادة التأقلم حيث تتكيف جماعات ثقافية مع الظروف الجديدة، كالهجرة مثلا، ويجلبون معهم من أوطانهم الأصلية ما يذكرهم بها، مثل الأطعمة والملابس إلى غير ذلك من السلع الثقافية وأساليب الحياة والقيم السابقة، وهذا واضح على نحو جلى فى المدن الصينية التى ظهرت فى مدن كثيرة من العالم منذ القرن التاسع عشر حيث يقوم المهاجرون الصينيون بإنشاء مناطق لأنفسهم تشبه مناطق من الصين نفسها معماريا وثقافيا؛ يضاف إلى ذلك أن إعادة التأقلم يمكن النظر إليها باعتبارها ردا على عدم اليقين الناجم عن خلع "العلاقات الاجتماعية من السياقات المحلية للتفاعل وإعادة تشكيلها عبر فترات غير محددة زمنيا أو مكانيا"، كما عرفها "أنتونى جيدنز" (21 : 1990) بعبارة أخرى، إعادة التأقلم تمثل بحثا عن إحساس بالوطن أو المكان، ويبدو، فوق ذلك، أن هناك عمليات مستمرة بالنسبة للثقافة والإقليم، وهى الحالة التى يلتقطها كل من "جوناثان خافيير إندا "Jonathan Xavier Inda و"ريناتو روزالدو (2002) "Renato Rosaldo اللذين يعتبران عمليتى الانخلاع الثقافى عن الإقليم وإعادة التأقلم تحدثان فى الوقت نفسه وبشكل مستمر ويستخدمان لذلك مصطلح "الانخلاع/ التأقلم" للتعبير عن هذه الحالة، على أن هناك خطرا بأن يكون التأكيد الحالى على الحراك والتدفق فى دراسات العولمة يقلل من أهمية الموقع أو الإقليم. كما رأينا إذن فإن الثقافات لا تتطلب بالضرورة وجودا إقليميا مستقرا، (انظر Clifford, 1992) وكثير من مجتمعات الشتات يؤكد ذلك، ولكن مثل هذه الثقافات بلا تاريخ أو ذاكرة، وغالبا ما يكون ذلك مرتبطا بأماكن بعينها.

القوميـة العـابرة للحـدود

ما المقصود بالقومية العابرة للحدود؟

مواصلة لتقصينا كيفية انتقال الثقافة فى عصر العولمة هذا، والأشكال التى يمكن أن تتخذها، نتناول الآن القومية العابرة للحدود. على الرغم من، وربما بسبب، فهم القومية العابرة للحدود بطرق مختلفة، اكتسب هذا الموضوع ذيوعا وانتشارا أكاديميا وشعبيا فى الفترة الأخيرة. (انظر: Kearney, 1995) هذا الذيوع ربما يكون راجعا فى جزء منه إلى القصور الملحوظ فى الدولية، المستمرة فى تصورها للعالم باعتباره مجموعة من الدول ـ الأممية واتساع ظاهرة القوة القومية ومن ثم لا تهتم اهتماما كافيا بأشكال الثقافة والقوى والتوجهات المختلفة التى تمتد إلى ما هو أبعد من حدودها وتتحرك بداخلها فى الوقت نفسه. وكما تشير "سوزان جيرهارت Suzanne Gearhart (2005)" فإن القومية العابرة للحدود تعبر عن شىء ليس قوميا ولا دوليا وإنما تفعل ما هو أكثر من ذلك: إنها توحى بأن شيئا أكبر من مجرد ثنائية "المحلى والعالمى" هو الذى يعمل. القومية العابرة للحدود اعتراف بأن كثيرا من التدفقات المعاصرة ليس فى واقع الأمر عالميا وإنما هو مستقر فى أكثر من دولة ـ أمة؛ وعليه فإن تفحص هذه الظاهرة يتطلب تحليلا فى إطار إقليمى أوسع، ويساعد فى تفسير لماذا كانت القومية العابرة للحدود مجالا له أهميته الخاصة بالنسبة لعلماء الثقافة والأنثروبولوچيا، (انظر: Eriksen, 2003) فى المقابل فإن كتابات كثيرة فى إطار دراسات العولمة تنتهج أسلوبا أوسع يعبر عن الطبيعة المنفصلة إقليميا للتدفقات والعمليات العالمية، وعلى الرغم من ذلك فإن تخطى الحدود القومية، من منظور العالمى، لا يعنى العولمة بالضرورة.

التطورات التى تسهل العولمة، مثل تكنولوچيا المعلومات والاتصال والانتقال، تسهم كذلك فى أشكال القومية العابرة للحدود، والواقع أن القومية العابرة للحدود ينظر إليها بوصفها جزءًا من عملية العولمة وكذلك باعتبارها محاولة لدراساتها، وبهذا المعنى تعتبر معبرة عن صور التفاعل الإنسانى، إلى جانب التكيف مع تلك التطورات التى تحدث فى سياقات معينة؛ إلا أنه مما يزيد الأمور تعقيدا أن أشكال القومية العابرة للحدود يمكن أن تكون سابقة على المراحل

الحديثة والمعاصرة للعولمة، بمعنى أن مجتمعات الشتات والثقافات الدينية والدوائر التجارية الممتدة عبر الأقاليم، يمكن أن نجدها فى مرحلة ما قبل الدولة ـ الأمة. هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى قلب بعض الانتقادات المثارة ضد القومية العابرة للحدود، وبالتحديد قضية فهمها، وكيف أنها مختلفة عن غيرها من التحركات الأخرى العابرة للحدود أيضا. على سبيل المثال: ما الذى يجعل جماعة اجتماعية مهاجرة مجتمعا عابرا للحدود القومية ؟ لقد لاحظ النقاد كذلك أن الغالبية العظمى من سكان العالم ليسوا مهاجرين، ومن هنا فإنهم لا يعيشون حياة "عالمية"، حتى أولئك الذين فى حالة حركة ليسوا بالضرورة منهمكين فى أنشطة عالمية، ونتيجة لذلك كله يقال إنه قد تم تضخيم أهمية القومية العابرة للحدود؛ وردا على ذلك فإن بعض من يكتبون فى هذا الموضوع يلاحظون أن الإلحاح المستمر من الرأسمالية العالمية على هجرة عمالة رخيصة، من المرجح أن يجعل القومية العابرة للحدود أكثر انتشارا فى المستقبل. (Portes, 2001) .

● المجتمعات العابرة للقومية والثقافات:

عودة إلى مسألة ما يميز مجتمعا عابرا للقومية، نجد أن من أهم ملامح القومية العابرة للحدود أنها تقدم للجماعات الاجتماعية المهاجرة بديلا عن الاستيعاب، وهو أمر واضح فى دراسة "ريتشارد راوز (1991) "Richard Rouse" للعمالة المكسيكية المهاجرة فى ردوودسيتى ـ كاليفورنيا، الذين يحافظون على صلات متعددة مع مدينتهم الأم "أجيليللا" فى ريف المكسيك(٨) هذه الصلات والروابط قوية بدرجة ساعدت على ظهور مجتمع مهاجر أو دائرة عابرة للقومية ممتدة من وادى السيلكون إلى أجيليللا، وبتعبير "راوز": "يجد أهالى أجيليللا اليوم أن أهم أصدقاء وأقرباء لهم يعيشون على بعد مئات الألوف من الأميال، وكأنهم يعيشون بينهم" (ibid., 12) التطورات التكنولوچية التى تسهم فى التواصل العالمى مثل التليفون والإنترنت والبريد الإلكترونى والطائرات تمكنهم من "الإبقاء على هذه العلاقات الممتدة عبر المسافات، نشطة وفعالة مثل الروابط التى تجمعهم بجيرانهم"، (ibid) ويخلص "راوز" من ذلك إلى أن أهالى أجيليللا يمثلون مجتمعا واحدا منتشرا فى أماكن مختلفة (ibid, 13) ونجد قصة مشابهة فى

دراسة "بيجى ليفيت Peggy Levitt (2001)" لعلاقات عائلية مدنية ودينية بين "ميلافلورز" - مدينة فى جمهورية الدومينيكان - و "چامايكايلين" -منطقة مجاورة فى بوسطن: ماساشوستس - حيث يسهم المهاجرون فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للدولتين، صانعين مجتمعات تتخلل وتتجاوز الحدود طامسة مفاهيم الأصل. يلخص "ليفيت" هذه التجربة العابرة للحدود ببراعة كما يلى: لأن المرء يسافر دائما بين بوسطن والجزيرة هناك تدفق مستمر ودائرى للسلع والأخبار والمعلومات، نتيجة لذلك عندما يمرض شخص ما، أو عندما يحدث غش منه أو من زوجته، أو يحصل فى آخر الأمر على تأشيرة دخول، فإن أخباره تنتشر بسرعة فى "چامايكايلين" كما هى فى شوارع "ميرافلورز"، (Levitt., 2001: 3) بمعنى آخر يشير "ليفيت" إلى إنه ليس من الضرورى أن تهاجر لكى تكون شخصا "عابرا للحدود". يستطيع أهالى "ميرافلورز" أن يشاركوا فى التجربة نفسها فى المكانين، ومع توافر اللغة الإسپانية فإن الـ " "CNN" تمكن المهاجرين وغير المهاجرين من مشاهدة البرامج نفسها فى الوقت نفسه بما فى ذلك المسلسلات، يضاف إلى ذلك أن مثل هذه الصلات العابرة للحدود، والعلاقات البينية مسئولة كذلك عن إحداث تغير ثقافى واجتماعى. النساء فى "ميرافلورز" أصبحن يطالبن بمساواة أكثر بنساء الدومينيكان فى مجتمعهن، وذلك راجع فى جزء منه إلى علاقاتهن بنسائهن وأصدقائهن الذين هاجروا من الولايات المتحدة. (ibid, 14) .

وبينما كان الكثير من الكتابات الأولى عن القومية العابرة للحدود مركزا على المهاجرين الدوليين، فإن المصطلح امتد ليضم طائفة أوسع من المجتمعات والهويات والثقافات عبر الحدود؛ وهكذا فإن القومية العابرة للحدود تعتبر فى رأى المدافعين عنها موجودة بصور مختلفة وعلى نحو واضح فى مجتمعات العمل التجارى والمجتمعات المدنية الإقليمية والهويات. كذلك ينظر إلى القومية العابرة للحدود باعتبارها تعمل عندما تنتشر أشكال ثقافية (الثقافة الشعبية - الموسيقى - الأزياء - الطعام - إلخ) عبر مجموعة من الدول - الأممية، فالثقافة الشعبية اليابانية، مثلا، حققت تأثيرا كبيرا فى شرق وجنوب شرق آسيا، فى هيئة الألعاب الإلكترونية والرسوم المتحركة. (انظر: Iwabuchi, 2002) الفكرة العامة لهذه

الأشكال الثقافية والمجتمعات العابرة للحدود هى أنها تغفل الحدود القومية والهويات القومية وهو ما يعنى بالنسبة لبعض الكُتَّاب أن فى ذلك تهوين من شأن البنى الاجتماعية مثل "الوطنى" و"المحلى" وبالتحديد فكرة "بندكت أندرسون Benedict Anderson" (1983) عن "المجتمع المتخيل" للدولة ـ الأمة، (انظر: Hanners, 1996).

● العابر للحدود القومية والمحلى:

المؤكد أن هناك علاقة معقدة وقلقة بين القومية العابرة للحدود والدولة – الأمة والثقافات القومية، وهو ما نراه فى التحديات التى تواجه بعض الحكومات من المجتمعات أو الجماعات الاجتماعية العابرة للحدود، التى تعمل داخل حدودها الإقليمية ويكون بها أعضاء ولاءاتهم خارج تلك الحدود. فى آسيا الوسطى والقوقاز على سبيل المثال، نجد أن الولاءات العرقية الثقافية العابرة للحدود، منذ سقوط الاتحاد السوفيتى، عقدت بناء الدولة وصياغة هوية قومية فى الدول ـ الأمة الناشئة (انظر: (2005) (Mehendale and Atabaki) إلا أنه ينبغى ألا ننظر إلى القومية العابرة للحدود باعتبارها تحديا للقومية والدولة ـ الأمة بالضرورة. وبالعودة إلى مثال اليابان الذى ذكرناه قبل قليل يرصد "كويشى إيوا بوشى ـ (2002) "Koichi Iwabuchi دافعا قوميا قويا وراء التدفقات الثقافية العابرة للحدود التى تنشر الثقافة الشعبية اليابانية فى مناطق أخرى من آسيا. بالمثل، وفى السياق نفسه، هناك حكومات تنمى العلاقات العابرة للحدود وتسن قوانين للمواطنة والجنسية المزدوجة للمهاجرين باعتبارها وسيلة لتوسيع نفوذ وتأثير بلادهم الأصلية.

والحقيقة أن المجتمعات أو الجماعات الاجتماعية القومية والعابرة للحدود يمكن أن تكون مصادر للتضامن الاجتماعى والدعم المالى للوطن الأصلى عن طريق التحويلات والاستثمارات .. إلخ؛ فالحكومة المكسيكية، على نحو خاص، حاولت تطوير مثل تلك الصلات وتنمية "الروح المكسيكية" فى الخارج بشكل عام، وهو ما يفسر فى جزء منه لماذا كان رد فعلها قويا ضد اقتراح الولايات المتحدة إقامة سور بطول ٣٢٠٠ كم على الحدود المشتركة لمنع الهجرة غير الشرعية من

المكسيك إليها؛ ويقدر أنه كان هناك فى عام ٢٠٠٦ حوالى عشرة ملايين مكسيكى يعيشون فى الولايات المتحدة، بينهم أربعة ملايين مهاجر غير شرعى، وكثيرون كانوا يرسلون تحويلات مالية لذويهم فى الوطن الأصلى وبذلك يفيدون الاقتصاد المكسيكى. وفى مؤتمر عقد فى كولومبيا فى فبراير ٢٠٠٦ وافقت المكسيك وعشر دول أخرى من أمريكا اللاتينية على القيام بحملة ضد مشروع قانون هجرة أمريكى كان يتضمن بناء سور حدودى، كما كثفت الدول جهودها لتشجيع الهجرة الهسپانية.

فى النهاية، يتوقف على الأفراد المتورطين فى تلك الدوائر أو الجماعات الاجتماعية العابرة للحدود القومية، ما إذا كانت القومية العابرة للحدود تضعف الدولة الأم والثقافة القوية أو لا. المدى الذى يسهم به الأفراد فى الدوائر العابرة للحدود أو فى استيعاب ثقافات الدول المضيفة سوف يتأثر بدوره بعوامل السن والنوع والطبقة والمهنة وغيرها من الاعتبارات. فى هذا السياق يؤكد "إيهوا أونج Aihwa Ong" فى كتابه: Flexible Citizenship: The Cultural Logics of Transnationality, 1999 تنوع الإستراتيجيات التى يستخدمها المستثمرون الصينيون العابرون للحدود القومية والمديرين والمهنيون فى أعمالهم بالنسبة لاستثماراتهم وعائلاتهم وفى تعاملهم مع نظم الدولة الأمة المختلفة فى منطقة الپاسيفيك فى آسيا. تعقيدات القومية العابرة للحدود التى ألمحنا إليها هنا، ومعنى أنها أكبر من مجرد كونها قومية ممتدة أو متسعة، تم إلقاء الضوء عليها فى عدد من الأعمال الحديثة التى تناولت هذا الموضوع، وخاصة فيما يتعلق بالجدل حول مفاهيم "الأمة" و"الوطن" بالنسبة للشعوب العابرة للحدود. "البحث عن الوطن فى الخارج" Searching For Home Abroad, (Lesser, 2003) على سبيل المثال، سلسلة من الدراسات عن اليابانيين ـ البرازيليين تلقى الضوء على صعاب تحديد ما يمثل "الوطن" وبخاصة فى المرحلة المعاصرة وما إذا كان بالإمكان أن يكون للمرء عدة أوطان. اليابانيون البرازيليون نتاج هجرة واسعة لليابانيين إلى البرازيل فى النصف الأول من القرن العشرين، ولكن هذا التوجه انعكس اتجاهه حديثا بعودة مئات الألوف منهم إلى اليابان. إلى جانب إشكالية مفاهيم مثل "الوطن" و"الشتات" و"الهوية"، ومع وجود دراسة واحدة تطرح ما إذا

كان هناك وجود لمن يسمون بالبرازيليين اليابانيين، (Linger, 2003)، فإن أكثر الموضوعات إثارة فى هذا الكتاب هو ذلك الشعور العام بين كثير من البرازيليين اليابانيين العائدين إلى اليابان، بأنهم أكثر "برازيلية" منهم عندما يكونون فى البرازيل.

وأخيرا، بربطهما بين الانخلاع الثقافى عن الإقليم والقومية العابرة للحدود، يشير "كينيدى" و "رودوميتوف" Kennedy and Roudometof (2002) أن الانخلاع الثقافى عن الإقليم يعيد تشكيل مفهومنا عن "الجماعة الاجتماعية". الجماعة الاجتماعية لم تعد تستند إلى المحلية، وليس معنى ذلك أن الأخيرة ليست مهمة بالنسبة للأولى وبخاصة فى شكلها الرمزى أو المتخيل؛ ومن المثير للاهتمام أن كلا من "كينيدى" و "رودوميتوف" يعتقدان أن العولمة قد أعطت المجتمع فرصة جديدة للعيش فى هيئة جماعات اجتماعية عابرة للحدود القومية، وأن هذه الجماعات هى المؤهلة لإفراز أهم شكل للمجتمع فى المستقبل، (ibid., 24)، على أنه سواء ثبت أو لم يثبت أن الحال كذلك، ينبغى ألا نتجاهل حقيقة أن العولمة، على الأقل فى شكلها الليبرالى الجديد، كانت كذلك ضارة بالمجتمعات وأشكال الحياة المجتمعية فى العالم كله.

خاتمة: التدفقات الثقافية والقرائن

الخلاصة أن الثقافة موضوع مثير لكثير من الجدل الذى نراه منعكسا فى تعدد مفاهيمها واستخداماتها؛ وداخل دراسات العولمة نجد أن عمليات وتكنولوچيات العولمة المعاصرة تزيد الأمور تعقيدا بالإسراع بالتدفقات الثقافية وتغير العلاقة بين الزمان والمكان والتشجيع على المزيد من أشكال التفاعل الثقافى الواسع، وكلها تطورات تؤثر حتما فى الثقافات وفى ممارستنا لها. مثل هذه التكنولوچيات على سبيل المثال تسهل ظهور شبكات عالمية منخلعة من أقاليمها، ومن ثم تساعد فى عمليات الامتزاج الثقافى، مع اهتمام ضعيف وربما دون اهتمام على الإطلاق بالحدود الجغرافية والثقافية. وكما رأينا ـ على نحو أوسع ـ فإن تكنولوچيات العولمة إلى جانب التقدم الذى حدث فى وسائل النقل، ينظر إليها باعتبارها تسهم فى الانخلاع الثقافى عن الإقليم وذلك نتيجة ما

تحدثه من تدفقات، وهو ما يعنى، مثلا، أن هناك كذلك العديد من الثقافات العابرة للمحلية بداخل الثقافات المستقرة فى الأقاليم والمجتمعات.

وقد أوضحنا كذلك كيف ينبغى أن نحتفظ بمنظور نقدى عندما يتعلق الأمر بالتدفقات الثقافية، وألا نبالغ فى تأكيد فكرة انتقال الثقافة، وإهمال حقيقة أنها تتطلب درجة من الاستقرار والانتظام لكى يتم إنتاجها. والواقع ـ كما رأينا ـ أن هناك انتقادات للاعتماد الزائد عن الحد على الاستعارات الخاصة بالحركة فيما يتعلق بهذا الموضوع، ربما تعكس تأثير النظرية الثقافية مع نقاد يشيرون إلى قلة البحث التجريبى[٩]. إلى جانب ذلك يجب أن نقبل بأنه عندما تكون التدفقات الثقافية متقطعة وضعيفة فى طبيعتها، فمن المرجح ألا تكون هناك مواجهات ثقافية ذات معنى، وعليه فلن يكون لتلك التدفقات أثر كبير. من ناحية أخرى، عندما تكون التدفقات الثقافية نتيجة لقوى كونية كبيرة مثل المؤسسات الإعلامية فقد يثير ذلك مقاومة، رغم أن ذلك قد يكون سببا فى الحد من تأثيرها، لذلك عند تناول التدفقات الثقافية، نكون فى حاجة إلى استقصاء الأشكال الثقافية المتدفقة بالفعل ومصادرها وكيفية استقبالها.

وهكذا فإنه على الرغم من القبول الواسع الآن بعدم إمكانية تقييد الثقافة، ينبغى عدم المبالغة فى فكرة أنها باستمرار فى حالة حركة، وفى هذا السياق نجد أن كلا من "چوناثان خافيير إندا" و"ريناتو روزالدو" (2000) على حق فى اعتقادهما أن الثقافة ليست مجرد "ترحل حر"، كما عبرا عن ذلك بقولهما "الانخلاع الثقافى عن الإقليم هو دائما الظرف المناسب لإعادة إدراج الثقافة فى قرائن أو سياقات زمانية مكانية" (ibid., 11) وهما يعنيان بذلك أن "التدفقات الثقافية لا تتدفق هكذا أثيريا عبر الكرة الأرضية، وإنما يعاد كتابتها عادة (وإن جزئيا أو سريعا) فى بيئة ثقافية محددة"، (ibid) وهذا يعيدنا إلى فكرة أن الثقافة يعاد تأقلمها، ولكنه فى الوقت نفسه يدعم أحد أفكار هذا العمل، وهى أهمية فحص الأطر والمواقع التى تتم فيها ممارسة التدفقات الثقافية العالمية إن كنا نريد أن نفهم جيدا الطرق التى تعاد بها كتابتها.

باختصار، يمكننا أن نحدد ما يحدث بالفعل، عن طريق التركيز على كيفية تقاطع التدفقات الثقافية مع مناطق ومجتمعات ومحليات بعينها، كما هو الأمر

بالنسبة لمجموعات وأقسام محددة من المجتمع[١٠] ولكن لابد من الاعتراف بأنه نتيجة لخلفياتنا المعينة أو لتاريخ حياة محدد، فإننا نمتلك بالفعل أطرا ثقافية سوف تشكل وجهات نظر وتفيدنا فى تعاملنا مع عمليات العولمة، بما فى ذلك مواجهة الثقافات والتدفقات الثقافية الأخرى. وسوف يؤثر ذلك فى كيفية استجابتنا للأصوات والصور الإعلامية القادمة من الخارج، والسلع والمنتجات الثقافية الأجنبية، والناس القادمين من دول أخرى الذين ينتقلون فى المناطق التى نعيش فيها، هذا إلى جانب أشكال أخرى من التواصل الكونى تمثل العولمة. هذه الأطر الثقافية ـ بالطبع ـ ليست ساكنة، وإنما تتغير نتيجة مواجهاتنا الكونية. الأكثر أهمية هو أن أسلوب الاستشراف الذى نلخصه هنا يجعلنا نفهم طبيعة العلاقة بين الثقافة والعولمة؛ وبعبارة أخرى: سنصبح قادرين على تتبع كيف تتشكل توجهاتنا الثقافية بواسطة العولمة التى تثرى بدورها العمليات الثقافية، من خلال فحص الصلات الكونية ـ المحلية المتبادلة وكيف تتفاوض عليها العناصر البشرية. عند هذه التقاطعات، تظهر الأنماط المختلفة من العلاقات القائمة بين العولمة والثقافة، متبادلة وجدلية وانعكاسية، ومن هنا فإن العولمة والثقافة ليستا كيانات منفصلة، هما كيانات متداخلة أو بالأحرى عرضة لعمليات اختراق وتغلغل متبادلة، ومن الطبيعى أن تورطنا فى التدفقات والعمليات الثقافية سوف يكون له أثره فى طبيعة ومسار مستقبل العولمة. باختصار، الثقافة يمكن أن تشكل مسارات التواصل الكونى الذى يعبر عن العولمة والعكس صحيح.

للمـزيـد:

نرشح الأعمال التالية لمن يريد المزيد عن المادة التى عرضنا لها فى هذا الفصل:

يعتبر مقال Arjun Appadurai المنشور فى 1990 بعنوان:

"Disjuncture and Difference in the Global Cultural Economy"

مادة بالغة الأهمية فى هذا المجال، كما يقدم كتاب:

The Sociology of Culture: Emerging Theoretical Perspectives (1994).

الذى حرره Diane Crane رؤية عامة مفيدة عن أساليب التناول الاجتماعى للثقافة؛ كذلك فإن مقال James Clifford بعنوان: "Travelling Cultures"," 1992يعرض رؤية أنثروبولوچية للثقافة. انظر كذلك:

Globalization and Culture, (1999a). By: John Tomlinson.
The Turbulence of migration (2000). By: Nikos Papastergiadis
"Global Networks" Journal

للاطلاع على دراسات حالة حديثة عن تجارب عابرة للحدود، انظر:

Transnational Spaces (2003), By: Peter Jackson et al.

New Transnational Social Spaces (2001), By: Ludger Pries (ed)

وللاطلاع على عدد من دراسات الحالة من مناطق كثيرة من العالم تتناول معنى "الوطن" بالنسبة للمترحلين عبر الحدود القومية، انظر:

New Approaches to Migration ? (2001). By: Nadje Al- Ali and Khalid Koser (eds)

الفصل الثالث

التواصل الكونى والميديا والتكنولوچيا

يشتمل التواصل العالمى على مجموعة كبيرة من التكنولوچيات والوسائط، وفى تناولنا لهذا الأمر فى علاقته بالعولمة الثقافية، سيكون تركيزنا هنا على التواصل بين الأفراد وتبادل المعلومات والميديا. بالنسبة لبعض المعلقين فإن تكنولوچيات المعلومات والاتصال والميديا هى محرك العولمة المعاصرة، وبالتالى فإن هذا الفصل من الكتاب سيحاول تحديد المدى الذى تصل إليه التطورات الحديثة فى هذه المجالات، بحيث نعتبرها تمثل تحولا فى التواصل الإنسانى والعلاقات المتبادلة بين البشر، التى تختلف نوعيا عن أى شىء، يمكن أن نجده فى المراحل السابقة؛ من هنا سنولى أهمية للمدى الذى تتم به عولمة أشكال الاتصال والميديا وطبيعة الانقسام الرقمى الكونى، وما إذا كنا نشهد بزوغ مجتمع شبكى. إلا أن تحديد مدى العولمة بالنسبة للميديا وتكنولوچيات المعلومات والاتصال يصبح أكثر صعوبة بسبب وفرة تدفقاتها واختلاف سرعتها ومداها، وهو ما يفسره جزئيا ذلك الانتشار المتفاوت فى الاتصالات والتكنولوچيات الكونية. هناك كذلك قضية المعيار الذى نستخدمه لقياس المدى الذى وصلت إليه حالة التواصل العالمى، وما إذا كان يجب أن يقوم على انتقال الصوت أو إمكانية الوصول إلى التكنولوچيا أو الاستخدام الفعلى لتكنولوچيا ما. فى هذا السياق: ألا بد من وجود تكنولوچيا معينة فى أنحاء العالم لكى يعتبر ذلك دليلا على العولمة ؟

ونحن نضع النقاط السابقة فى اعتبارنا، هناك على الرغم من ذلك دليل على أننا أصبحنا أكثر قدرة على التواصل فى عدد من المناطق. الاتحاد الدولى للاتصالات التابع لمنظمة الأمم المتحدة، يفيد فى تقرير له أن 90% من سكان

العالم كان لديهم خدمات إذاعية (راديو) فى سنة ٢٠٠٢ بينما كان الرقم بالنسبة للتليفزيون ٨٦٪ .(Mingers, 2006; 136) كذلك يقترب الكوكب من تحقيق تواصلية كاملة فى هيئة إمكانية الوصول الأساسى إلى شبكات اتصال الهاتف المحمول (ibid., 138) وبحسب الاتحاد الدولى للاتصالات أيضا فإن عدد خطوط الهاتف الرئيسية زاد من ٦٣٤ إلى ١,٢٠٧ مليونا بين عامى ١٩٩٤ و٢٠٠٤ كما زاد عدد المشتركين فى الهاتف الخلوى من ٦٥ إلى ١.٧٥٨ مليونا، وقفز عدد مستخدمى الإنترنت من ٢١ إلى ٨٦٣ مليونا، وبالنسبة للاتصالات التليفونية الدولية (محسوبة بالبليون) كان هناك بالمثل زيادة كبيرة خلال تلك الفترة، حيث كانت أرقام ١٩٩٤ و ٢٠٠٤ هى ٥٧ و ١٤٥على التوالى (ITU, 2006).

الميديا والعولمة

طبيعة عولمة الميديا:

عززت الزيادة التى طرأت على امتلاك أجهزة الراديو والتليفزيون فى أرجاء العالم منذ ستينيات القرن العشرين، عولمة الميديا. وبحسب مجلة ""Screen Digest" (مايو ١٩٩٨) كان هناك بالقرب من أواخر الألفية أكثر من بليون جهاز تليفزيون حول العالم، برغم وجود تباينات إقليمية فى مستويات الملكية بالطبع. فى سنة ١٩٩٦على سبيل المثال، كان فى أوروبا ٤٤٢ جهاز استقبال تليفزيونى لكل ألف شخص، مقارنة بعدد ٥٠ جهازًا لكل ألف شخص فى أفريقيا. (UNESCO, 1998: Table 6-5) أحد المؤشرات العالمية الواضحة هو ذلك الهبوط فى نسبة المشاهدة لمحطات الخدمة العامة، وهذا يعود فى جزء كبير منه إلى إدخال الأقمار الاصطناعية والتكنولوچيا الرقمية مما أدى إلى زيادة هائلة فى عدد القنوات التليفزيونية ومحطات الإذاعة وساعات البث وتعدد البرامج المنزلية، ونتج عن ذلك كله أن أصبحت مشاهدة التليفزيون تجربة أكثر تشظيا وفردانية؛ وفى هذا السياق فإن الكثير من محطات التليفزيون والراديو أصبحت تستخدم هذه القنوات لخدمة أذواق وثقافات وعرقيات بعينها لتكون فى واقع الأمر "بثا محدودا" أكثر منها بثا عريض المدى. ألمانيا، على سبيل المثال، شاركت

فى هذه التطورات بتخفيض حصة السوق من زمن مشاهدة مؤسسة الخدمة العامة من ١٠٠٪ فى ١٩٧٥ إلى ٣٩٪ فى ١٩٩٥ .(Mackay, 2000: 53) .

مشاهدة التليفزيون من ثم تصبح تجربة مجتمعية وطنية أقل فأقل. هذا التوجه، يزيد من التشجيع عليه ظهور التليفزيون العابر للقارات، وكذلك ظهور عدد من أسواق التليفزيون الإقليمية مثل تلك فى أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط وآسيا. مثل هذه الأسواق يكون تركيزه فى العادة على قوة إقليمية ذات نفوذ مثل البرازيل والسعودية والهند ـ على التوالى ـ ويسهل من العملية وجود لغة مشتركة، هذا على الرغم من أن الإقليمية ليست العولمة بالطبع.

قويت بالمثل عولمة الميديا بظهور عدد من مؤسسات الميديا العملاقة متعددة الأنشطة مثل "ديزنى" و "سونى" و "برتلزمان" و "چنرال إليكتريك" و "نيوز كوربوريشن" و"تيم وارنر" و"ڤياكوم"، كما أن تركيز ملكية هذه المؤسسات فى أيدى قلة من المؤسسات والتكتلات العملاقة يمكنها من اقتسام صناعات الترفية والتسلية من خلال قدرتها على التمويل والإنتاج والتسويق والتوزيع لمنتجاتها السينمائية والتليفزيونية. تعتقد "كريس باركر (1997) "Chris Barker أن مؤسسات الميديا العابرة للحدود القومية تطوق القواعد والنظم القومية والوطنية ومن ثم تضعف من إجراءاتها التنظيمية، وهو توجه يدعمه النظام الدولى المتجه نحو السوق، الذى وضعه كل من منظمة التجارة العالمية والاتحاد الدولى للاتصالات؛ وهناك قلق يتم التعبير عنه كثيرا من أن هذه التطورات تؤدى إلى أنماط مشاهدة "متجانسة" أو "معولمة"، بأشكال البرامج التليفزيونية نفسها، مثل الأخبار والمسلسلات وبرامج المسابقات وتليفزيون الواقع، التى نجدها فى كثير من دول العالم وقنوات بعينها. وعلى نحو أكثر تحديدا، هناك وجهة نظر تتردد دائما، مفادها أن أمريكا تسيطر على الميديا العالمية ببرامج تليفزيونية ونماذج أمريكية أخرى تغمر دولا فى أوروبا وأمريكا اللاتينية وغيرها، وقد لاحظت كل من "سوزان شيك "Susanne Scheck" و"چين هاجس (2000) "Jane haggis" أن المسلسلات التليفزيونية فى أمريكا اللاتينية تدور فى نفس الإطار التقليدى الموجود فى ثقافة الميديا الأمريكية(١).

فى المقابل، فإن الولايات المتحدة لا تستورد سوى القليل من البرامج: ١٪ من البرامج الإعلانية، و ٢٪ من برامج الخدمة العامة.(Barker, 1997: 49) بالإضافة إلى ذلك يرى النقاد آن الإدارات الأمريكية المتعاقبة كانت تحاول دائما التحكم فى الإطار التنظيمى الدولى لصناعات الثقافة والإعلام، وذلك لكى تؤمن لصادراتها الثقافية إمكانية الوصول إلى أسواق الدول الأخرى. ولتحقيق هذا الهدف فإن الولايات المتحدة، كما يرى البعض، تستخدم لغة وأيديولوچية السوق الحرة لانتقاد ما تزعم أنه سياسات حمائية من قبل الحكومات الوطنية؛ وعلى نحو أوسع هى الحالة نفسها التى تبرهن على أن المؤسسات الإعلامية المسيطرة كلها مؤسسات غربية باستثناء "الجزيرة"، وهو ما يؤكد أن أجندة العالم الإخبارية مركزها "غربى" وتدار "غربيا" إلى حد كبير. هذه المؤسسات تستطيع أن تؤثر فى الأجندات العالمية، وغالبا ما تتهم بأنها تقدم تقارير مجتزأة عن الأحداث الجارية، وتهمش الصحافة الخبرية الجادة، وتبتر الحوار سواء على المستوى العالمى أو المحلى. (انظر: Habermas, 1984) .

مثل هذه التطورات من وجهة نظر اليسار السياسى، يتم تفسيرها باعتبارها شكلا من أشكال الاستعمار الإعلامى الذى ينشر القيم الرأسمالية الغربية والأمريكية أو إحداهما، وكذلك القوة الاقتصادية، وهو ما نراه بوضوح فى انتشار الإعلام التجارى العابر للحدود. (انظر: ;Mattelart and Siegelaud, 1978 (Schiller, 1979) على أن النقد الشائع الذى يوجه إلى هذا الفهم، هو أنه يفترض أن الجمهور غير الغربى سلبى ولا يستطيع قراءة النص أو الرسالة الإعلامية. وكما اكتشفت "ماريان بريدن (1996) "Marian Bredin فى دراساتها عن المجتمعات الأصلية فى شمال كندا، فإن البرامج الأجنبية يمكن بالفعل أن تؤكد القيم والهويات الأصلية، حيث تستخدم الشعوب الأصلية تاريخها ووجهات نظرها الثقافية فى مناقشة ما يقدم لها على شاشات تليفزيوناتهم، والحقيقة أن كل أعضاء أى جمهور للتليفزيون يشاركون بدرجات مختلفة فى بناء معانيهم الخاصة كجزء من عملية فهمهم وتعريفهم لذواتهم. الأفراد، على نحو دائم، سوف يقومون بتفسير النصوص الإعلامية وغيرها من المنتجات الثقافية من وجهة نظر تاريخهم الثقافى الخاص (Sinclaire et al., 1996) بالإضافة إلى ذلك ينبغى أن

نفكر فى أهمية التلفزيون بالنسبة لنا، وما إذا كانت برامجه قادرة بالفعل على إضعاف القيم الأصلية؛ وفى هذا السياق يؤكد "چون طوملينسون" (1991) كيف أن مشاهدة التليفزيون مستوعبة فى حياتنا باعتبارها أحد الأنشطة التى نتعهدها، بينما طبيعة تفاعلنا مع هذا الوسيط تشكلها ميولنا وظروفنا الشخصية، وكل ذلك يثير قضية طبيعة ونوعية البرامج. على صلة بهذا الأمر فإن فكرة الاستعمار الإعلامى لا تهتم كثيرا بنوعية البرامج الأمريكية ولا باستخدام المسئولين لها وسيلة لملء البرنامج، فى الوقت الذى يولون فيه المنتج المحلى أولوية . (Barker, 1997)

هناك كذلك تدفقات موازية من البرامج التليفزيونية من أمريكا اللاتينية أو أستراليا إلى الولايات المتحدة على سبيل المثال، (Mackay, 2000) الاستعمار إذن مفهوم غير كاف لوصف نماذج وأنماط وأعمال الميديا المعاصرة، إلا إنه ينبغى ملاحظة أن رد بعض الكُتَّاب على مثل هذا الخلاف هو "نظرية الاستعمار الإلكترونى" التى تركز على طريقة تأثير الميديا العالمية فى تفكيرنا وأفعالنا، وخاصة فيما يتعلق بسلوكنا بوصفنا مستهلكين. (انظر: .McPhail, 2006) .

- **هل هى عولمة الميديا؟ المنظور الشكى:**

يثير المتشككون عدة اعتراضات على الزعم بعولمة الميديا، (انظر: Hafez, 2007) وبعض الكُتَّاب يؤكدون اتساع مدى المقاومة المحلية لإمبراطوريات الميديا العالمية (Thussu, 1998 على سبيل المثال)؛ ومن المهم جدا أن نعرف أنه على الرغم من أن المؤسسات الإعلامية الغربية المتعددة الجنسية تبث باللغات القومية على نحو متزايد، يظل حضورها خارج أمريكا الشمالية وأوروبا وBستراليا محدودا نوعا ما. بالإضافة إلى ذلك فإن توزيع البرامج يقيده كون حقوقها مقسمة، أكثر من أنها تباع بالجملة، وذلك بهدف تعظيم الدخل، (Sparks, 1998)حتى الـ "CNN" على الرغم من أسلوب عملها الدولى ـ موجودة فى أكثر من ٢٠٠ دولة ـ فإنها فى النهاية شبكة أخبار أمريكية بالكامل، وكانت تنتقد أحيانا لأنها تسير على خط واشنطن، وهو ارتباط قلص انتشارها العالمى. يضاف إلى ذلك أن الحكومات، كما يؤكد دائما ـ تحتفظ بالقدرة على إخضاع

مؤسسات الميديا العالمية لقواعدها ونظمها الوطنية. كما أن شركات التليفزيون والإذاعات تظل موجهة وطنيا وتتناول الأحداث العالمية من منظور وطنى، وبالتالى من المرجح ألا يجد إنتاجها الخاص اهتماما عالميا، (Tomlinson, 1997b.) بالإضافة إلى ذلك فإن إذاعات الخدمة العامة لم تختف، وفى دولة مثل المملكة المتحدة على سبيل المثال، نجد أنها ما زالت فى صحة جيدة معقولة، بالرغم من الضغوط المتزايدة من المحطات التجارية وفرط القنوات التليفزيونية الجديدة. (Mackay; 2000)[٢] على صلة بهذه النقطة. يلاحظ بالرغم من دخول مرحلة تليفزيون القمر الصناعى، أن أنماط مشاهدة التليفزيونات الوطنية لم تمر بثورة وأن التليفزيون العالمى لا وجود له بعد، (Sparks, 1998) ومن هنا فإن الناس سوف يشاهدون برامج التلفزيون المحلية، مع بعض الاستثناءات مثل الدراما والمسلسلات الكوميدية الأمريكية عندما يكون الخيار لهم.

• هل هناك جمهور عالمى وفضاء عام ؟

وجود أو عدم وجود جماهير عالمية وفضاء عام محدد، أمور مهمة بالنسبة لطبيعة العولمة الإعلامية والمدى الذى يمكن أن تصل إليه. فى حالة الأولى فإن تكنولوجيا الأقمار الاصطناعية والملكية الجماهيرية للتليفزيون تضمن أن أحداثا رئيسية سوف تجتذب جماهير تليفزيونية فى أنحاء العالم وتمكن نسبة كبيرة من البشر من أن يتشاركوا هذه التجربة، وهى أحداث عالمية رئيسية مثل دورات الألعاب الأولمبية وكأس العالم والحفلات الموسيقية لدعم مقاومة الإيدز، إلى جانب أحداث أخرى مثل كارثة تسونامى (٢٠٠٤) وإسقاط نظام صدام حسين ومصرع الأميرة "ديانا". على الرغم من ذلك، فإن مثل هذه الأحداث والمناسبات تعتبر، من المنظور المتشكك، أحداثا عارضة وأحداثا تاريخية استثنائية، وعليه فليس من المرجح أن تبقى على الشعور بالزمالة العامة اللازمة لبناء جمهور إعلامى عالمى. يضاف إلى ذلك أن مشاهدة التليفزيون فى آخر الأمر تجربة نكون فيها على مبعدة من الحدث أو المناسبة الفعلية، معتمدين على مهارات الإخراج لدى صانعى البرامج، الأمر الذى يقلل من مستوى وعمق مشاركتنا[٣] باختصار ما مدى تأثير التليفزيون بوصفه وسيلة لصنع جمهور عالمى؟

أما بالنسبة لمسألة الفضاء الكونى العام، فإن الأزمات الدولية مثل الحرب الأخيرة فى العراق، يمكن أن تخلق بالفعل اهتماما وجدلا إعلاميا كبيرا . ولكن، مرة أخرى، تلك أحداث لا تستطيع بمفردها أن تبقى على فضاء كونى عام: والواقع أنه فى حالة حرب العراق، لم تستطع المعارضة العالمية الواسعة أن تمنع الولايات المتحدة وحلفاءها من القيام بالغزو، مما يوحى بأن كلا من المواقف القائمة والميديا لم يكونا قادرين على تقديم منبر عالمى لبلورة قرار عالمى. على أنه ربما بسبب التنوع الشديد الموجود فى العالم، سيكون من الصعب تحقيق فضاء عام للجدل العالمى. وأخيرا فإن "چان بودريار (1983) Jean Baudrillard" يتناول هذا الموضوع من منظور مختلف تماما، مجادلا أن تكنولوچيات الإرسال وما تنتجه من تدفقات، أدت إلى تشويه أو طمس الخط الفاصل بين الحقيقة المتخيلة والعالم الحقيقى؛ والميديا كما يعتقد، تخلق واقعا متشعبا يهدف إلى التسلية، وبالتالى تخلت عن وظيفتها التوصيلية.

• هل هناك صحافة كونية؟

فى ما يتعلق بالصحافة المطبوعة هناك دلائل على العولمة، وبخاصة اتساع نطاق وكالات الأنباء العالمية مثل "بلومبيرج" و "رويترز" و "الأسوشيتد برس" و"أچنس فرانس پرس"، التى يمكن النظر إليها باعتبارها تشكل السياسات المحلية والأچندات السياسية. فى المملكة المتحدة على سبيل المثال، نجد أن ملكية المؤسسات الإخبارية لصحف مثل "Sun" التى هى جزء من إمبراطورية "روبرت مردوخ" الإعلامية -تضمن أن يكون له تأثير فى السياسات المحلية البريطانية وبخاصة فى ما يتعلق بالقضايا الأوروبية. على أن فكرة وجود صحافة كونية يقلل من شأنها غياب صحف عالمية حقيقية وهو ما يعتبر انعكاسا للوسيط الخاص. من الأسهل جدا بالنسبة للصور الإعلامية والموجات الإذاعية أن تنتشر فى العالم مقارنة بالصحف، رغم أن الأولى بالطبع معتمدة على البنية التكنولوچية الأساسية اللازمة، لكى تتمكن من الانتقال على هذا النحو. "فاينانشال تيمز"، هى إحدى الصحف القليلة مع "وول ستريت چورنال"، التى تهدف إلى البيع عالميا، ولكن التوزيع خارج المملكة المتحدة فى عام ٢٠٠٠ كان يقدر بـ ١٣٠,٠٠٠

نسخة، مع قاعدة مقروئية ضعيفة مقصورة تقريبا على رجال الأعمال. (Mackay, 2006: 67) يضاف إلى ذلك أن الصحف تميل إلى اتخاذ منظور وطنى (أو قومى) واضح أكثر من التلفزيون فى تغطيتها. الأخبار العالمية فيهما تجنح نحو الصراعات والكوارث. وهو ما يثير قضية مدى دقة الانطباع الذى تتركه عند الجمهور عن الدول الأخرى؛ ولكننا لكى نكمل ما بدآناه عن الإعلام المطبوع، من الضرورى أن نتعرف على الأشكال المختلفة التى يتخذها. مثلا: مقارنة بالتوجه القومى لكثير من الصحف القومية، فإن كثيرا من الصحف والمجلات مثل "كوزموبوليتان" و "نيوز ويك" و "تيم" و "الإيكونومست"، كلها مصممة لكى تحظى بقبول عالمى، (Mowlana, 1997) بالإضافة إلى ذلك فإن معظم الصحف القومية الآن لها مواقع إلكترونية على الإنترنت، الأمر الذى يمكن جمهورا عالميا من الوصول إلى التغطية الخبرية التى تقدمها. وبالتالى، فإن أرقام التوزيع العالمية الضعيفة، بمعنى ما، تجعل الوصول العالمى أو الدولى مستحيلا بالضرورة.

• عولمة الميديا: محاولة للتقويم:

كما تناولنا سابقا، فإن طبيعة الوسيط ونوع المنتج الثقافى كلها محددات مهمة للمدى الذى يتم به عولمتها، ولهذا السبب فإن طبيعة وشكل الأفلام والموسيقى والتصوير الساكن تؤكد أن بالإمكان إعادة إنتاجها بسهولة وأن تكون موجودة فى أنحاء العالم. الموسيقى الشعبية على سبيل المثال انتشرت فى العالم نتيجة لمنتجات صديقة أخرى (مثل أجهزة التسجيل والأشرطة والأقراص المدمجة) وعبر الراديو، ومؤخرا عن طريق أجهزة الموسيقى الرقمية، على الرغم من أن المؤسسات الإعلامية العالمية (مثل پوليجرام وتيم وارنر وسونى وآى إم آى) لعبت دورا مهما فى توزيع الموسيقى فى أرجاء العالم. الراديو كان قادرا على تجاوز الحدود قبل الوسائط الإلكترونية الأخرى نتيجة استخدامه ترددات وتكاليف إنتاج رخيصة نسبيا؛ ويمكن أن يقال إنه الوسيط الوحيد الذى يوجد به منتج عالمى فى هيئة الـ " بى بى سى العالمية"، التى ـ بسبب تاريخها وعدم انحيازها وتقديمها للبرامج بالإنجليزية وباثنتين وثلاثين لغة أخرى ـ تجتذب جمهورا عالميا،

على الرغم من أن النقاد ما زالوا يعتبرونها مؤسسة غربية بسبب تمويلها من الحكومة البريطانية. إلى جانب ذلك فإن عدد مستمعى الـ "بى بى سى" فى العالم فى ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨ كان يقدر بـ ١٣٨ مليون مستمع. وهو رقم يتناقص بالفعل بسبب المنافسة المتزايدة من مصادر أخرى.(Hendy, 2000: 23) الانتشار العالمى للراديو كله، محدود بالطبع لاستحالة تزويده بعناوين فرعية، إلا أن الراديو فى النهاية يتميز بأن توجهاته مزيج من المحلية والقومية والإقليمية والدولية والكونية. وهكذا فإن محطات الراديو المحلية والإقليمية خلقت وعيا أوسع بالهويات المحلية والإقليمية الخاصة. على الرغم من أن شكل ومحتوى برامجه ـ كما يلاحظ ـ يبدو متشابهًا تقريبا فى أنحاء العالم.

إجمالا، بينما توجد قوى قادرة مثل المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود القومية التى تقود عولمة الميديا، وعلى الرغم من وجود تطورات تسهل هذه العملية، وبخاصة التوجه العالمى للتحرر من القيود والقوانين، فإن عدم اتساقها يتأكد، بسبب عوامل مثل مدى التنوع الثقافى واللغوى فى العالم، وعدم المساواة فى فرص الوصول إلى تكنولوچيات الميديا، ووجود أنظمة إعلامية مختلفة. والعدد الإجمالى لمحطات الراديو المحلية والإقليمية، والصحف والقنوات التليفزيونية، والدور التنظيمى الذى تمارسه الدول. كذلك فإن أحد المحددات المهمة للعولمة الإعلامية، هو طبيعة رد الفعل المحلى على الميديا العالمية الذى سوف يتوقف على ظروفنا وأطرنا الخاصة. أحد العوامل الأخرى التى تسهم فى عدم اتساق العولمة أو انتظامها هو اختلاف قدرات الدول فى السيطرة على المؤسسات الإعلامية العابرة للحدود وفرض قواعدها المنظمة، الأمر الذى يعنى أن هناك تنوعات كثيرة فى العالم فى عدد البرامج المستوردة وغيرها من المنتجات. عولمة الميديا ـ باختصار ـ لا ينبغى التفكير فيها، باعتبارها حالة مستقرة، وإنما باعتبارها مشروعًا فى حال استمرار تسهم فيه عمليات أخرى كثيرة وتدفقات متعددة الجوانب، ليست كلها كونية من حيث درجة وصولها وإن كانت كلها تولد تفاعلات معقدة فى أطر مختلفة، وهذا كله يتطلب تحليلا على عدة مستويات.

- **الطبيعة المتطورة للاتصال العالمى:**

يساعد على الاتصال العالمى فى المرحلة المعاصرة عدد من التكنولوچيات المتقدمة، حيث جعل الإنترنت والبريد الإلكترونى والفاكس والتليفون المحمول والرسائل النصية، الاتصال سهلا بأجزاء مختلفة من العالم؛ كما أن التوسع الهائل والسريع فى المعلومات على الإنترنت يمكن الناس من الوصول اللحظى غير المسبوق الذى نتج عنه ارتفاع كبير فى حجم تبادلها فى العالم[٤] يضاف إلى ذلك أن الابتكارات التكنولوچية الحديثة تساعد على دمج أشكال مختلفة من وسائل الاتصال الحديثة، تمكننا على سبيل المثال من الوصول إلى الإنترنت والبريد الإلكترونى وتلقى الأخبار والخدمات الإعلامية عن طريق التليفون المحمول. إلى جانب ذلك هناك تقدم هائل فى ما يخص البنية الأساسية للاتصالات والكابلات والأقمار الاصطناعية والتكنولوچيات الرقمية التى تسهل التفاعل الاجتماعى والثقافى عبر الحدود والمناطق والقارات. فى سنة ١٩٩٧ كان هناك ٣٠ مليون كيلومترا من الكابلات الليفية الضوئية فى العالم (Whitehouse, 1999) وبنهاية ٢٠٠١ ارتفع الرقم إلى ٤٥ مليون كيلومترا، كذلك يرسم الباحثون خرائط لنمو الممرات الصوتية على طرق الاتصال العالمية الرئيسية، إذ زاد عدد ممرات البرقيات الصوتية عبر الأطلنطى من ٢٢٠٠٠ فى ١٩٨٦ إلى٢٦٤,٠٠٠ فى ١٩٩٦ بينما زاد عدد الممرات الصوتية بالقمر الصناعى عبر الأطلنطى من٧٨,٠٠٠ إلى ٧١٠,٨٠٠٠ فى الفترة نفسها.(Staple, 1996) فى هذا السياق تمثل التكنولوچيا الرقمية قفزة هائلة إلى الأمام فى الاتصال العالمى، مع الرقمنة التى تمكن من ترجمة المعلومات إلى كود ثنائى عالمى يجعل بالإمكان تحويل المعلومات بين وسائط الإعلام والاتصال المختلفة، وبثها بعد ذلك عبر الشبكات الرقمية. كذلك فإن تكنولوچيا شبكات النطاق العريض فائقة السرعة، وهو ما يسهم فى انتشار واتساع مدى ونطاق المواقع مثل "You Tube" وخدمات الشبكة الاجتماعية مثل "My Face" والـ "Face Book" (Wray, 2007).

● **الاتصال بالتليفون المحمول:**

تعتبر التليفونات المحمولة إسهاما كبيرا ورئيسيا فى زيادة الاتصال الصوتى، كما أنه قد حدث نمو كبير فى ملكيتها واستخدامها منذ تسعينيات القرن الماضى. ففى يونيو ٢٠٠٦ تم توصيل البليون الثانى فى المنظومة العالمية. ما تعبر عنه هذه الإحصائية هو أن الأمر تطلب ١٢ عاما لبيع أول بليون تليفون محمول، وعاما ونصف العام فقط لبيع البليون الثانى، مع الوضع فى الاعتبار أن ٨٠٪ من هذه الزيادة حدثت فى الدول النامية. المثير للاهتمام أن الزيادة الكبيرة فى هذا الاتساع عن طريق الـ "GSM" تعنى أن التليفونات المحمولة هى أول تكنولوچيا اتصال يكون لها مستخدمون أكثر فى الدول النامية منها فى الدول المتقدمة. وأحد الأسباب أن الشركات المنتجة تقوم بتصميم أجهزة فى المتناول بالنسبة لتلك الأسواق الناشئة المتوقع لها أن تكبر. كذلك تقدم تكنولوچيا التليفون المحمول فوائد إضافية للدول الأشد فقرا؛ إذ يرى معهد "World Watch" مثلا أنها سوف تُضَيِّق الهوة فى فجوة المعلومات الموجودة بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات النامية، كما أنها تسهل إمكانية الاتصال الأفضل عن طريق الإنترنت، كما تمكن الأقل قدرة مادية على إجراء اتصالات لاسلكية بالشبكة دون الحاجة لشراء أجهزة كمبيوتر شخصية. (BBC, 2003) وأخيرا فإن ما يسمى بالجيل الثالث "3G" من تكنولوچيا التليفون المحمول، الذى يوفر خدمات فائقة السرعة فى الاتصال وغير ذلك من وظائف الميديا المتعددة، سوف يؤدى إلى نمو مستمر فى استخدامه.

● **الإنترنت والتواصل الكونى:**

الإنترنت وسيلة أخرى من الوسائل التى وفرتها تكنولوچيا المعلومات والاتصال المعاصرة من أجل مجتمع أكثر تواصلا. بحلول عام ٢٠٠٠ كان معظم دول العالم قد أصبح مربوطا بالإنترنت، وفى السنوات الخمس الأخيرة من الألفية السابقة كان الاتصال عبر هذه الوسيلة يتزايد بنسبة ٨٦٪ سنويا .(Kogut, 2004) قدوم الإنترنت يؤكده كذلك تزايد عدد مواقع الشبكة، ففى ١٩٩٥ كان هناك أقل من

٢٠,٠٠٠ موقع، وارتفع العدد إلى ما يزيد عن ٣٦ مليونا فى ٢٠٠٢[٥] والسبب فى هذا الاتساع الكونى هو تطور الشبكة العالمية، التى حققت أكبر نمو سنوى لها فى سنة ٢٠٠٥ عندما بلغ عدد مواقعها ١٧ مليون موقعا، بحسب تقرير لشركة Netcraft التى تقوم بالرصد. وبالإضافة إلى التغلب على معوقات الفضاء المادية والحدود القومية التى تقيد قدرة الناس على التفاعل والاتصال، فإن التوسع فى الإنترنت قد يمكن فى وقت ما من أن يصبح تكوين مجتمعات إلكترونية وشبكات عابرة للحدود القومية هو العادى، وليس مجرد سلوك ينتهجه النشطاء والمهاجرون وأصحاب التوجهات التكنولوچية.

الإنترنت، بالنسبة لكثيرين، أكثر من مجرد وسيلة اتصال بالآخرين، فهو يقدم لهم كذلك منبرا للتعبير عن أنفسهم بحرية ويمكنهم من القيام بدور أن يكون للناس هويات جديدة مع الاحتفاظ بسرية الأسماء فى الوقت نفسه. (Turkle, 1995) على أننا قبل أن ندفع لنعلن أن الإنترنت قد غير السلوك الإنسانى تماما، لابد من دليل أكثر إقناعا عبر فترة زمنية أطول، لتبين هذه النقطة، وبخاصة إذا تذكرنا أن الإنترنت كما نعرفه لم يظهر إلا فى تسعينيات القرن الماضى. سوف نحتاج أن نتحرى مثلا ما إذا كان استخدامه يقلل الوقت الذى ننفقه على أنشطة أخرى مثل مشاهدة التلفزيون؛ وبالرغم من انشغال بعض الأبحاث بهذه المسألة تحديدا - رصدت دراسة قامت بها جامعة "ستانفورد" فى سنة ٢٠٠٠ بعض الدلائل على أن الإنترنت كان يؤدى إلى تقليص الوقت المخصص لمشاهدة التليفزيون فى الولايات المتحدة، (Nie and Erbring, 2000) فإن معلومات من هذا النوع لا تكفى للوصول إلى استنتاج دقيق إذ إننا فى حاجة إلى المزيد من المعلومات لكى نقرر إذا ما كان استخدام الإنترنت يؤدى إلى الاستثمار فى العلاقات الافتراضية على حساب الوقت الذى ننفقه على علاقاتنا الاجتماعية "الفعلية" مثل الصداقات والأسر. بمعنى آخر، إلى أى مدى نستخدم الشبكة الدولية: World Wide Web? لكى نصبح متواصلين عالميا ومتفاعلين مع ثقافات وشعوب جديدة ؟[٦]، يضاف إلى ذلك أن استمرار وجود صور مختلفة من الانقسام الرقمى، يعنى أن إمكانية الوصول إلى الإنترنت ليست متاحة للكل.

- **تأثير التدوين:**

لانتشار التدوين كذلك إسهام كبير فى اتساع الشبكة. والمدونات مواقع شخصية منشورة على الشبكة تغطى موضوعات عدة وتقدم مصادر بديلة (تعتمد على المواطنين) للمعلومات والتسلية للأفراد وللمؤسسات الإعلامية التقليدية. المراحل والأحداث التراجيدية فى حياة الناس، على نحو خاص، هى التى تنتج أكثر المدونات؛ وذلك لأنها تقدم وسيلة للناس لاستدعاء خبراتهم وتجاربهم الشخصية وصوغ مشاعرهم تجاه مثل تلك الأحداث. ساعد كذلك على انتشار ظاهرة التدوين وجود خدمات مجانية مثل تلك التى تقدمها "Movable Type و "AOL Journals وشركات مثل " "Microsoft و" ?"Google التى تزود المستخدمين بوسائل لنشر مدوناتهم، وقد أدخلت الأخيرة - مؤخرا - آلية للبحث خاصة بمدوناتها. نتيجة لذلك كله اتسع عالم التدوين والشبكات وأصبح حجمه يتضاعف كل ستة أشهر فى المتوسط؛ وبحسب " "Technorati وهو موقع تدوين وفهرسة - فإن عام ٢٠٠٦ شهد نشأة مدونة جديدة كل ثانية، أى أنه كان هناك ما بين ٧٥٠٠٠ و ٨٠٠٠٠ مدونة كل يوم (Arthur, 2006) نمو ظاهرة التدوين ملحوظ فى الولايات المتحدة على نحو خاص، وبحسب مسح قام به "Pew Internet and American Life Project" أن الجمهور القارئ للمدونات ارتفع بنسبة ٥٨٪ فى ٢٠٠٤ وبنهاية ذلك العام كان حوالى ثمانية ملايين من الناس قد أصبح لهم مدونات .(BBC, 2005a) ولعل الأكثر أهمية بالنسبة للحيوية المستمرة للظاهرة هو أن اتساع نطاق المدونات لم يكن مقصورا على عالم المركزية الإنجليزية فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، بل إننا يمكن أن نجده فى الصين وفرنسا وكوريا الجنوبية واليابان. يضاف إلى ذلك أن الاهتمام بالتدوين كان كبيرا لدرجة أن مؤسسات وشركات الميديا تتقدم بسرعة فى هذا المجال، يشجعها على ذلك إمكانية الوصول إلى جماهير وعملاء جدد باستمرار.

إلا أننا لا بد من أن نتوخى الحذر لكى لا نقع فى قبضة "خدعة الميديا" المحيطة بهذه الظاهرة، حيث إن الأغلبية من مستخدمى الإنترنت ليسوا فاعلين بالقدر الكافى فى عالم التدوين، فحتى سنة ٢٠٠٤ على سبيل المثال - وهى السنة التى انطلقت فيها قراءة المدونات فى أمريكا بالفعل، كانت نسبة من لم يسمعوا

بالتدوين من بين المتعاملين مع الكمبيوتر تزيد عن ٦٠٪ هذه النقطة تنطبق كذلك على المملكة المتحدة، حيث أجرى مسح فى سبتمبر ٢٠٠٥ ليجد أن سبعة من كل عشرة مواطنين بريطانيين لم يكونوا يعرفون شيئا عن التدوين أو ما يتضمنه (BBC, 2005a) وفى مسح آخر أجراه مكتب أبحاث السوق البريطانية: British Market Research Bureau نجد أن النسبة المئوية لمستخدمى الإنترنت البريطانيين الذين ينشرون مدونات أو يسهمون فيها لم تكن أكثر من ٢٪ فى الربع الأول من ٢٠٠٦ بينما كانت نسبة من يتصلون بمدونة أكثر من مرة فى الشهر لا تزيد عن ١٠٪ .(Lelic, 2006) يضاف إلى ذلك أنه فيما يتعلق بالصورة الشاملة فإن العمر الزمنى لكثير من المدونات قصير، أما ما يظل نشطا ويتم تحديثه كل ثلاثة أشهر على سبيل المثال فلا يمثل أكثر من نصف عددها .(Perrone, 2005) على الرغم من ذلك فإن قصر هذا العمر الزمنى يمكن فهمه فى ضوء أن الكثير من المدونات ينشأ ردا على أحداث معينة أو ظروف يضعف أثرها بمرور الوقت.

إضفاء الطابع الفردى على الميديا والاتصال:

بالعودة إلى قضية الميديا، نجد أن التطورات الحادثة فى مجال تكنولوچيا المعلومات والاتصال تشكل وتغير طريقة حصول الناس على الأخبار ومواد التسلية. الشباب، على نحو خاص وبشكل متزايد، يحصلون على أخبارهم من مصادر غير منافذ الميديا والأنباء الرئيسية مثل التليفزيون والصحف. فى استطلاع للرأى أجرته مؤسسة "Globescan" فى البرازيل ومصر وألمانيا والهند وإندونيسيا ونيچيريا وروسيا وكوريا الجنوبية والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، وذلك بين مارس وأبريل ٢٠٠٦ يتضح أن جيل المرحلة العمرية من ١٨ : ٢٤ سنة (فى تلك الدول) يفيدون من الإنترنت للحصول على الأخبار من عدد من المصادر، كما يقومون بمقارنة ومضاهاة التقارير الإخبارية. والحقيقة أن الإنترنت كان الاختيار الأول من بين المصادر للحصول على الأخبار، إلى جانب مصادر أخرى مثل Google News التى أصبحت واسعة الانتشار .(Hermida, 2006) على نحو أكثر عمومية، لم يعد الناس يتوقعون - ببساطة - أن يقرأوا الصحف أو أن

يشاهدوا التليفزيون أو يبحثوا على الإنترنت، في عملية ذات اتجاه واحد يكونون فيها سلبيين، وإنما يختارون الإسهام في هذه الميديا من خلال وسائل مثل منابر الحوار وإرسال قصصهم الخاصة والتعليق على محتوى ونوعية البرامج؛ والمثير للاهتمام أن وسائل الإعلام الرئيسية أصبحت تضمن تقاريرها أفكار وتعليقات وآراء ووجهات مستخدمي الوسائل التكنولوجية المختلفة، وخاصة عندما يكون الأمر متعلقا بأحداث مثل تلك في لندن ونيو أورليانز التي ذكرناها سابقا. التأثير التراكمي لهذه التطورات هو تغير في طبيعة العلاقة بين المنتج والمستهلك، مثل الصحفي والقارئ، ويبدو أن الخطوط الفاصلة أصبحت ضبابية، حيث إن جوانب الميديا أصبحت بالفعل متبادلة التأثير.

• انتشار الديمقراطية الإلكترونية:

مواقع الإنترنت، اللوحات الإعلانية، المحادثات على النت، البريد الإلكتروني، الرسائل اللحظية، التدوين، كل تلك الظواهر إسهامات مهمة في فضاء عام جديد للحوار، تقدم منابر للمواطنين العاديين للتعبير عن آرائهم، ومن الصعب أن تسيطر عليها الحكومات. مع سهولة الاتصال العالمي وزيادة تدفق المعلومات عن طريق التكنولوجيات الحديثة، أصبح من الصعب على دولة ما أن تتحكم في المعلومات أو أن تطوّعها لاحتياجاتها الخاصة، كما أصبح من الصعب كذلك على الحكومات السلطوية أن ترصد أنشطة أو تحركات خصومها. نجاح حركة "زاپاتا" في المكسيك - مثلا - يرجع إلى تفاديها مؤسسات الإعلام الرسمي وتقديم قضيتها للعالم مباشرة ودون تفكير عبر الإنترنت. الحركات الاجتماعية وجماعات المصالح الجديدة تستخدم الإنترنت كذلك لدعم تصور المجتمعات العالمية الافتراضية أو الواقعية والعمل كمنابر ديمقراطية للحوار، والحقيقة أن الإنترنت والبريد الإلكتروني يسهلان بناء نمط جديد من المجتمعات ويجعلان بإمكان الناس من ذوي الأفكار المتشابهة أن يتواصلوا ويتفاعلوا، رغم تساؤلات النقاد ما إذا كان يمكن اعتبار المجتمعات الإلكترونية مجتمعات ملائمة، لأنها لا تتطلب اتصالا مباشرا بين الأشخاص. والواقع أن الحركات الاجتماعية تبقى، ليس بفضل تكنولوجيات المعلومات والاتصال فحسب، وإنما بفضل هذه التكنولوجيات

والالتقاء وجها لوجه بين عدد كبير من أعضاء هذه الحركات فى مواقع مختلفة من العالم، وهو الأمر الذى يساعد عليه النقل الجوى زهيد التكلفة. التكنولوچيات الحديثة يمكن أن تنعش أيضا العمليات الديمقراطية الواهنة، حيث تقدم وسائل إضافية لتمكين الناس من التصويت فى الانتخابات. عطفا على ذلك فإن هذه الديمقراطية التى تسمى "ديمقراطية بالضغط على زر" أو الديمقراطية الإلكترونية المباشرة، تقدم طرائق جديدة للأحزاب السياسية لكى تتصل وتشارك فى الدائرة الانتخابية، إلى جانب أنها تحمل إمكانية إجراء المزيد من الاستفتاءات على مدى أوسع وأكثر تنوعًا من القضايا، وذلك كله يساعد على إسهام المواطنين فى العملية التشريعية، وعلى جعل اتخاذ القرار الحكومى أكثر انسجاما مع الرأى العام. إلا أن الإنترنت ـ كذلك ـ يوفر الفرصة لسماع أصوات جديدة، وللتعبير عن الآراء الثورية وآراء الأقليات، والتحرر من سيطرة الأحزاب السياسية الرئيسية على ساحة الحوار العام.

على أية حال، عند التفكير فى تحرير تكنولوچيات الاتصال الجديدة وإمكانياتها الديمقراطية، يجب ألا نغفل الهيئات العديدة التى تستخدم تلك التكنولوچيات لجمع معلومات عنا، بدءا من الوكالات الحكومية وانتهاء بمنظمات التسويق التى ترصد أساليب حياتنا وأنماط استهلاكنا عندما نذهب للتسوق ونستخدم الإنترنت. بالإضافة إلى ذلك، فإننا، نحن أنفسنا، ننفق معظم الوقت فى استخدام الشبكة الدولية لأهداف شخصية أكثر مما هو لأهداف ذات توجهات مجتمعية، وبخاصة عند البحث عن معلومات والشراء عن طريقها. فى السياق نفسه، بينما تعتبر المجتمعات الافتراضية أحد التجليات البارزة للتواصل الكونى، إلا أنها يمكن أن تكون كذلك منابر تطل منها بعض العناصر الأكثر بغضا من السلوك الإنسانى، مثل الكذب والابتزاز الشخصى (كما فى الحياة الحقيقية فى الواقع)، وهى نقطة يعترف بها، حتى، "هوارد رينجولد "Howard Rheingold (2000) بطل المجتمع الافتراضى.

• وجهة النظر الشكوكية:

يتضح ـ بشكل عام ـ أن التطورات الحادثة فى مجال تكنولوچيا المعلومات والاتصال، قد أسهمت لدرجة بعيدة فى أشكال وأنماط التواصل الكونى العابر

للحدود القومية، إلا أن "پول هيرست" و"جراهام طومسون" (1996) يتشككان فى تأثير هذه التكنولوچيات ويعتبران إدخال التلغراف والكابلات تحت الأرضية لحظة أكثر محورية فى تاريخ التواصل الدولى. بالنسبة لـ "توم ستانداج "Tom Standage" كان ذلك هو "الإنترنت الڤيكتورى" الذى أكد أنه كان "ينبغى إعادة النظر فى كل شىء من جمع الأخبار إلى الدبلوماسية".(1998, 1) الكُتَّاب المتشككون فى الدعاوى المتطرفة لدعاة العولمة، لا ينكرون أن التطورات الحديثة فى تكنولوچيا المعلومات والاتصال، تشكل الأساليب التى نتواصل بها بعضنا مع البعض، ولكنهم يؤكدون أن تلك عملية تطورية أكثر منها ثورة. فى علاقة بذلك، نجد أن أشكال التوزيع التليفونى العالمية بقيت، نسبيا، دون تغيير لمئات السنين، باستثناء الدول سريعة التصنيع فى شرق آسيا، التى تتكامل فى شبكات معلومات واتصال بمعدل سريع (Tehranian and Tehranian, 1997) كما يجادل المتشككون كذلك بأن علينا أن نعترف بالأساليب التى تستطيع بها المجتمعات القومية تشكيل الظواهر الكونية والعابرة للحدود القومية، فيما يتعلق بكل من التكنولوچيا وغيرها من مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية مثل الأسواق. فى "اقتصاد الإنترنت العالمى"، مثلا، وهى سلسلة دراسات لتطور الإنترنت وبخاصة فى مجال التجارة (2004) نجد أن الفكرة الرئيسية البارزة هى الطرق المختلفة التى تتطور بها فى مجتمعات معينة، عاكسة الظروف المحددة فى هذه الدول مثل الأنظمة القانونية، الأمر الذى يجعل المحرر يستنتج أن "اقتصاد الإنترنت العالمى" لم يتحقق بعد رغم أن ذلك هو عنوان الكتاب. (Kogut, 2004: 437) مثل هذه النتائج يعمل كذلك على موازنة الزعم بأن الحكومات القومية غير قادرة على التحكم فى الإنترنت أو التأثير فيه، وأن النتيجة الأولية للتقدم الذى حدث فى تكنولوچيا المعلومات والاتصال العالمية هى تسريع قوة المؤسسات متعددة الجنسية والمؤسسات العابرة للحدود القومية، مما أدى إلى إلحاق الضرر بالسيادة القومية. (Schiller, 1995) وأخيرا، ربما يكون الجدال الرئيسى ضد مفهوم التواصل العالمى هو أن عدم المساواة فى إمكانية الوصول إلى تكنولوچيات المعلومات والاتصال هو سبب ضعفه، وهو ما سوف نتناوله الآن.

الانقسام الرقمى العالمى:

يشير ما يطلق عليه "الانقسام الرقمى" إلى عدم المساواة فى فرص الوصول إلى تكنولوجيا المعلومات والاتصال، ويبدو أنه يمثل تحديا رئيسيا لمفهوم "مارشال مكلوهان "Marshall McLuhan" عن "القرية الكونية". (McLuhan and Fiore, 1967) هناك مفهومان رئيسيان يقال إنهما يشيران إلى وجود الانقسام الرقمى: الأول أنه موجود عالميا أو كونيا بين الدول، والثانى أن هذا الانقسام نفسه موجود داخل الدول[٧] فى إطار المفهوم الأول نجد أن أفريقيا أقل حظا بكثير فى كل من تكنولوچيات المعلومات والاتصال والبنية التحتية الداعمة مقارنة بالمناطق ذات الصناعات، مثل أوروبا وأمريكا الشمالية، وهو الوضع الذى يجعل الكثير من الدول والشعوب الأفريقية أقل ارتباطا بشبكات الاتصال العالمية. فى هذا السياق فإن الوصول إلى الإنترنت فى بعض مناطق العالم أكثر محدودية منه فى غيرها، على الرغم من أن ذلك قد يكون راجعا فى بعض الأحيان إلى أشكال السيطرة السياسية والدينية أو إلى إحداهما، وهو الوضع الذى ينطبق على دول بعينها فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقوقاز. وبينما زاد استخدام الإنترنت بشدة فى الغرب، ويتزايد فى أجزاء كثيرة من آسيا وأمريكا اللاتينية، نجد أنه لم يزدد ولا يتزايد فى مناطق كثيرة مثل الشرق الأوسط وأفريقيا. فى الهند، على سبيل المثال، ارتفع عدد المستخدمين للإنترنت من ٤ ملايين شخص فى سنة ٢٠٠٠ إلى ٢٣ مليونا فى ٢٠٠٣ على الرغم من أن ذلك يظل ظاهرة مدينية، كما أن الوصلات التليفونية الرديئة تعطل اتساع الظاهرة.

من منظور عالمى، وعلى الرغم من تمثيل أقل من ٢٠٪ من سكان العالم، فإن ٩٠٪ تقريبا من مستخدمى الإنترنت كانوا موجودين فى الدول الصناعية فى ٢٠٠٣ رغم أن هذا الرقم يخفى فوارق هائلة بين الدول فى داخل العالم المتقدم. (Guardian, 2003) فى فرنسا مثلا هناك مستخدمون للإنترنت وللكمبيوتر الشخصى أقل منهم فى الولايات المتحدة، وفى أفريقيا كان هناك ١٪ من مستخدمى الإنترنت بالرغم من أن القارة تمثل ١٩٪ من سكان العالم (ibid) مرة أخرى، ذلك أمر لا يثير الدهشة، إذا عرفنا أنه يوجد فى أفريقيا عدد محدود من

خطوط التليفون مقارنة بغيرها من الدول[8] وهنا مثال آخر نورده لدلالته وهو أن "مانهاتن" يوجد بها خطوط تليفون أكثر من تلك الموجودة فى أفريقيا جنوب الصحراء بكاملها. أفريقيا كلها تواجه تنوعات كثيرة فى استخدام الإنترنت بسبب تركز أغلبية المستخدمين فى جنوب القارة. إمكانية الوصول الأفريقى إلى طرق المعلومات الدولية فائقة السرعة معوقة بسبب نقص عدد أجهزة الكمبيوتر والتليفونات المحمولة عنه فى القارات الأخرى، هذا بالرغم من أن عدد التليفونات المحمولة فى أفريقيا جنوب الصحراء ارتفع من ٧٢٠٠٠ جهاز فى ١٩٩٥ إلى ٢٥,٥ مليون جهاز فى ٢٠٠٥ (Vasagar, 2005) وهناك محاولات تبذل لكى لا تظل أفريقيا أقل القارات تواصلا، وخاصة من خلال بناء كابل ليفى - بصرى حول القارة بكاملها، بهدف تحويل الاتصالات فائقة السرعة داخل أفريقيا، وتكاملها مع الشبكة العالمية للاتصالات. هناك إذن بعض المؤشرات الإيجابية بالنسبة لأفريقيا فى هذا المجال.

فى سياق مماثل، نجد أن المسألة أكثر تعقيدا بالنسبة لأمريكا اللاتينية، أكثر مما أوضحنا سابقا؛ فبينما زاد استخدام الإنترنت، إلا أن هذه الزيادة ليست متساوية أو متسقة. فى الأرجنتين والبرازيل والمكسيك - حيث يوجد أكثر من ٨٠٪ من مستخدمى الشبكة فى المنطقة - نجد أن الاتصال جيد، بينما هو ليس كذلك فى بقية دول القارة (Tran, 2000) وبالنظر إلى ما هو أبعد من أمريكا اللاتينية، وبحسب بيانات الاتحاد الدولى للاتصالات، فإن الإحصائيات عن مستخدمى الإنترنت فى العالم ليست دقيقة، بما يعنى أن الفجوة الرقمية ربما لا تكون واسعة كما يدعى غالبا. المشكلة - كما يقال - تكمن فى الأساليب والآليات القاصرة لجمع المعلومات فى كثير من الدول النامية، والشاهد على ذلك دهشة حكومات هذه الدول عند الاطلاع على نتائج أبحاث الاتحاد الدولى للاتصالات ومفاجأتهم بعدد الناس الموصولين بالكمبيوتر فى بلادهم. (BBC, 2003) ولكن بصرف النظر عن توفر البيانات والخلاف حول صدقيتها أو دقتها، هناك قدر من الاتفاق على أن تحسين إمكانية الوصول إلى التكنولوچيات الحديثة أمر حيوى بالنسبة للمجتمعات النامية، وقد يمكن الكثير منها من تخطى، أو على الأقل الإسراع بمراحل نموها، وخاصة أن المعلومات (المعرفة) والاتصال (الشبكات)

مصادر مهمة لإنتاج الثروة فى المرحلة المعاصرة، ونقص الوصول إليها سوف يشهد هذه المجتمعات وقد أصبحت أكثر تخلفا.

● **الانقسام الرقمى المحلى:**

أما بخصوص الانقسام الرقمى فى داخل المجتمعات، فقد أظهرت الدراسات التى أجريت فى السنوات الأولى لاستخدام الكمبيوترات الشخصية والإنترنت، نمطا عاما من هذا الانقسام، على الأقل بداخل العالم الصناعى. كان أول من تلقف تكنولوچيا المعلومات والاتصال، والتعامل مع الإنترنت هم: الذكور - المرحلة العمرية من ١٨ - ٢٤ سنة، البيض، سكان الضواحى، أصحاب الدخل الجيد والتعليم الجامعى؛ وبالتالى كان بالإمكان رصد التصنيفات الدراسية والعرقية والنوعية والعمرية بالنسبة للمستخدمين لنجد أن البيض الذكور تحت سن الأربعين هم أغلبية المتعاملين مع هذه التكنولوچيا فى المجتمعات ما بعد الصناعية.(Eisenstein, 1998) فى عام ١٩٩٨ مثلا، كان عدد مستخدمى الإنترنت من الإناث يتراوح بين ٩ : ٢٠٪ فى مختلف الدول الأوروبية. (BBC, 2000a) وفى الولايات المتحدة كانت هناك تعليقات كثيرة على الانقسام الرقمى واتساع الفجوة، تعود إلى فترة رئاسة كلينتون، الذى طالب أثناءها بأن يكون الوصول إلى الإنترنت واستخدامه متاحا مثل استخدام التليفون، باعتباره وسيلة لمواجهة هذه المشكلة. وكما هى الحال فى كثير من المجتمعات الغربية الأخرى فإن الفروق فى مستويات استخدام الكمبيوتر والإنترنت فى أمريكا قد مرت عبر خطوط عرقية وتعليمية ومدينية/ ريفية وكذلك خطوط خاصة بالداخل. الأمريكيون البيض مثلا، كان من المرجح - تقليديا - أن يكون لديهم أجهزة كمبيوتر منزلية أكثر من الأمريكيين من ذوى الأصول الأفريقية أو الإسپانية، وبالتالى كانت فرصتهم أكبر للوصول إلى الإنترنت، وبالمثل فإن ٥٣٪ فقط من الهنود الأمريكيين الذين يعيشون فى محميات كانت لديهم إمكانية الوصول إلى الخدمات التليفونية الأساسية فى (Anderson, 1999).

ومع انتشار الإنترنت واستخدامه، فإن النموذج الذى وصفناه أصبح أقل ظهورا داخل المجتمعات المتقدمة، (انظر: Chen et al,. 2000)[٩] ومع تزايد إمكانيات

الوصول إلى الإنترنت وبخاصة فى المكتبات وأماكن العمل ومقاهى الإنترنت، فإن الباحثين يعطون الاهتمام الأكبر للاستخدام الفعلى؛ وفى هذه المجالات يمكن أن نلمس الانقسام، حيث لا يستخدم أصحاب الدخول الأقل الكمبيوتر إلا لساعات قليلة أسبوعيا، والمرجح أن يتوقفوا تماما. (Katz and Rice, 2002) المؤكد أن قضية استخدام الإنترنت تعبر عن الفجوات والانقسامات الاجتماعية القائمة وتقويها، كما أنها مرتبطة بعوامل مختلفة مثل التعليم والدخل والخلفية الأسرية والجيرة .(Warschauer, 2004; Van Dijk, 2005) بعبارة أخرى موجزة: الانقسام الرقمى ليس مجرد صعوبة تكنولوچية.

- **شبكة اتصال النطاق العريض والانقسام الرقمى:**

أحد التجليات الواضحة للانقسام الرقمى أو الفجوة الرقمية، هو عدم المساواة فى إمكانية الوصول إلى شبكة اتصال النطاق العريض، وهو ما يحدث ليس فقط داخل المجتمعات (حيث عادة ما تكون الشبكة مركزة فى المناطق الحضرية عنها فى الريفية)، وإنما بين المجتمعات كذلك: ٩٣,٩ من مستخدمى الإنترنت فى كوريا الجنوبية كان بإمكانهم الوصول إلى شبكة النطاق العريض فى سنة ٢٠٠٣ مقارنة بـ ١٨,٣ فقط فى الولايات المتحدة (ITU- 2003) شبكة النطاق العريض توفر سرعة عالية وتحقق استمرارية الاتصال بالإنترنت، وهناك ما يدل على أن ذلك يمكن الناس من استكشاف مجالات أوسع لتطبيقات الإنترنت، وأن يصبحوا أكثر إبداعا فى استخداماتها؛ وفى الولايات المتحدة أظهر البحث الذى أجرى بوصفه جزءًا من: "Pew Internet and American Life Project" أن شبكة النطاق العريض هى المحدد الوحيد المهم لاستخدام الإنترنت، وأنها أكثر تأثيرا من عوامل مثل السن والنوع ومستوى التعليم. (Horrigan and Raine, 2002) ومن ثم فإن مستوى الوصول إلى شبكة النطاق العريض سيكون فى المستقبل أحد العوامل المهمة التى تحدد ما إذا كان الانقسام الرقمى يتسع أم يضيق. شبكة النطاق العريض، بحسب الظاهر، مجرد محدد تكنولوجى عن الانقسام الرقمى؛ ولكن من الثابت أن هناك عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية وراء هذا التوزع غير المتساوى. وهكذا بالنسبة للولايات

المتحدة، فإن عددا كبيرا من المعلقين يلاحظون أن هذه المشكلة موجودة مع نقص الترويج العام، بينما يضغط كثير من الحكومات فى مناطق من آسيا وأوروبا بنشاط ويستثمرون فى شبكة النطاق العريض لأغراض اجتماعية ومنزلية (e.g., Van Dijk, 2005).

هناك كذلك عامل تنافسى بخصوص توفر شبكة النطاق العريض، فكما أشار "مارك وارشاور (2004) Mark Warschauer" نجد أن تقديم خدمات شبكة النطاق العريض يتجه لأن يكون أكثر سرعة، كقاعدة عامة. فى الأماكن التى تكون فيها المنافسة قوية. ومن المثير للاهتمام، وربما يكون من الأمور الأكثر دلالة، أن تكون هناك سوق تنافسية فى كوريا الجنوبية. وعلى نحو أكثر تفاؤلا، يوضح "Jan A.G. M. Van Dijk" (2005) أنه مقارنة بالابتكارات التكنولوچية الأخرى، فإن الانقسام الرقمى ربما لا يكون طويل المدى للوصول إلى شبكة النطاق العريض؛ حيث إن الإنتقال من اللاتواصل إلى التواصل هو أكبر من الخطوة من شبكة النطاق الضيق إلى شبكة النطاق العريض، وخاصة أن الأخيرة يمكن أن تقدم تنوعا من الخدمات السمعية البصرية التى من المرجح أن تجد قبولا واسعا.

- **معالجة الانقسام الرقمى:**

يصاحب الانقسام الرقمى تباينات إضافية وحالات خارجة عن القياس خاصة بتكنولوچيات الاتصالات العالمية، يبرز من بينها كون الولايات المتحدة لها السيطرة الأحادية على أنظمة الأسماء والمخاطبة فى مجال الإنترنت. فى سنة ١٩٩٨ أنشأت وزارة التجارة الأمريكية مؤسسة غير ربحية تعرف بمؤسسة الإنترنت للأسماء والأعداد المخصصة (ICANN) لتتولى هذا الدور، إلا أن عددا متزايدا من الحكومات الوطنية يطالب بنفوذ أكبر على الإنترنت بزعم أن الدور الذى تقوم به الـ (ICANN) يطغى على سيادتها وأن إشرافها على الإنترنت عرضة للڤيتو من قبل وزارة التجارة الأمريكية، وكان رد الولايات المتحدة على مثل هذه الاتهامات هو أن وضعها يأتى نتيجة لتاريخ الإنترنت، حيث إنها هى التى قادت مسيرة تأسيس معظم البنية الأساسية القائمة، وأن رعايتها هى التى حققت الاستقرار، كما أنها هى التى تشرف على اتساعها المستمر. الانتقادات الموجهة

لدور الولايات المتحدة تم التعبير عنها فى الأشهر السابقة على القمة العالمية لمجتمع المعلومات التى عقدت فى تونس ٢٠٠٥ برعاية الأمم المتحدة، كما تم التعبير عن القلق من أن الشبكة العالمية "WWW" قد تتشظى إذا لم يحسم هذا الأمر وإذا قررت بعض الدول أن تتصرف على انفراد. ما حدث هو أن القمة وافقت على أن تستمر "(ICANN) فى إدارة الشبكة فنيا على أن يتم إنشاء منتدى جديد لإدارة سياسة الإنترنت Internet Governance Forum (IGF) إلا أن الانتقادات ترى أن هذا الحل يعنى - من الناحية العلمية - استمرار توجيه الولايات المتحدة وسيطرتها على الإنترنت.

هناك كذلك قضايا أخرى فى حاجة إلى أن تعالج، تتعلق بهذا المجال، مثل كون الشبكة العالمية ظاهرة تسودها اللغة الإنجليزية. فى افتتاح مؤتمر الأمم المتحدة الأول بخصوص الانقسام الرقمى، كان "كوفى أنان"، السكرتير العام السابق للمنظمة يجادل بأن كون ٧٠٪ من المواقع باللغة الإنجليزية يعنى الضغط على الأصوات المحلية. هناك كذلك شكاوى مستمرة من المواطنين والحكومات على السواء فى كل من الدول النامية وأوروبا بأن معظم الشبكة أمريكى، وهى مشكلة يعتقد أن سببها سطوة الكمبيوترات الخادمة للشبكة الأمريكية وآلات البحث. على أن هناك تغيرات تجرى على قدم وساق فى هذه المجالات، بمعنى ظهور لغات أخرى على الإنترنت، وكذلك اتساع المحتوى الصينى للشبكة، كما هو ملحوظ، نتيجة للنمو الكبير فى استخدام الشبكة فى الصين. وبحسب مركز معلومات شبكة الإنترنت فى الصين: "China Internet Network Information Centre فإن جمهور المستخدمين يتضاعف هناك كل ستة أشهر، وبنهاية ٢٠٠٤ كان هناك أكثر من ٢٠ مليون مشترك فى شبكة النطاق العريض.

وأخيرا، يجب ألا نغفل الجهود الكبيرة المبذولة لتضييق الفجوة الرقمية، فحملة "لاب توب لكل طفل" أدت إلى تطوير الأجهزة رخيصة السعر، كما تم فى الهند تصميم بديل للكمبيوتر الشخصى الذى يعمل بالبطارية، أو الـ " "Simputer كما يطلق عليه والاسم اختصار لـ " ."Simple Computer فى هذا السياق فإن حركة المصدر المفتوح تقدم خدمات ومعلومات كسلع عامة أكثر منها خاصة، وهى مجانية مثل نظام التشغيل Linux والـ Open Office الذى يقدم بدائل مجانية كذلك

للأنظمة المقدمة من ميكروسوفت، إلى جانب موسوعة "ويكيبيديا" على الكمبيوتر. بالإضافة إلى ذلك فإن منظمات مثل البنك الدولى والأمم المتحدة تحاول مواجهة مشكلة الانقسام الرقمى أو الفجوة الرقمية ونشر تكنولوچيات المعلومات والاتصال فى الدول النامية، مع محاولات من الأمم المتحدة لربط كل قرية فى العالم بالإنترنت بحلول عام ٢٠١٥ على الرغم من أن التقدم بطىء، وخاصة فى ما يتعلق بمن الذى سيتحمل نفقات وضع البنية التحتية للمعلومات والاتصال.

هل هناك مجتمع معلومات؟

- **مجتمع المعلومات عند مانويل كاستلز:**

تثير مسألة ما إذا كانت التطورات الحادثة فى تكنولوچيات المعلومات والاتصال تؤدى إلى مجتمع إنترنت عالمى كثيرا من الجدل. "مانويل كاستلز Manuel Castells" (1996) هو المنظر الأكثر ارتباطا بمجتمع المعلومات الذى يرى أنه يتكون من عدد من العناصر المتداخلة من بينها الرأسمالية، أو بالأحرى الرأسمالية المعلوماتية ومناهضة العولمة الرأسمالية؛ ولكن تكنولوچيات المعلومات والاتصال هى التى سهلت هذه التطورات بكل تأكيد، ومكنت الشبكات من تنسيق أنشطتها. كاستلز مقتنع بأن الشبكات تمتاز عن الأشكال الأخرى من التنظيم الاجتماعى، وأنها أصبحت النموذج التنظيمى السائد، وأنها تعيد تشكيل قطاعات المجتمع المختلفة أثناء هذه العملية، كما يعبر عن ذلك بقوله: "الشبكات تمثل المورفولوچيا الاجتماعية الجديدة لمجتمعاتنا، وانتشار منطق الشبكات يعدل التشغيل والنتائج فى عمليات الإنتاج والتجربة والقوة والثقافة" (1996: 469) وعنده أن ظهور مجتمع المعلومات هو الأثر التراكمى لعمليات ثلاثة مستقلة: ثورة تكنولوچيا المعلومات فى السبعينيات، وإعادة هيكلة الرأسمالية والدولانية فى ثمانينيات القرن العشرين، والحركات الاجتماعية فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين وبخاصة "النسوية" و"البيئية" (Castells, 1997b: 7) وهو يؤكد، على نحو خاص كيف أمنت تكنولوچيات المعلومات والاتصال التوسعَ السريعَ للتدفقات المعلوماتية المتزايدة حول العالم وكيف غيرت العلاقة بين الزمان والمكان كما سنرى الآن.

• كاستلز: "الزمان اللازمنى" و "فضاء التدفقات":

على طريقة "جيدنز" و"هارفى" يصوغ "كاستلز" مفهومى "الزمان اللازمنى" و"فضاء التدفقات" مجادلا أننا نستخدم تكنولوچيات المعلومات والاتصال لإزالة تعاقب الزمن، فنحن، على سبيل المثال، نراكم الزمن من خلال جمع المعلومات، لكى يظهر الماضى والحاضر والمستقبل فى النص المتشعب نفسه، وبالتالى نلغى "تعاقب الأشياء" (ibid., 11) وبالمثل يمكن أن يلغى الزمن من خلال الاتصال الفورى بين أجزاء مختلفة من العالم؛ أما "فضاء التدفقات" فيشير إلى إمكانية ممارسة التزامن دون تقارب إقليمى: شبكة أماكن أو نقاط عقدية متصلة، حول ممارسة اجتماعية فى الوقت نفسه ـ تتراوح من الأسواق التجارية إلى الحركات الاجتماعية العالمية ـ وذلك عبر دوائر إلكترونية. والحقيقة أن "كاستلز" يحدد ثلاث طبقات من الدعم المادى تمثل فضاء التدفقات، الطبقة الأولى "دائرة نبضات إلكترونية" وهى مكونة من إلكترونات صغرية واتصالات عن بُعد ومعالجة كمبيوترية وأنظمة إذاعة ونقل شديد السرعة –وهى كذلك تعتمد على تكنولوچيا المعلومات (1996: 412) وهى تسهل وتنسق الممارسات الفورية داخل الشبكة. الطبقة الثانية مكونة من "عقد ومحاور" مثل المدن العالمية الكبرى والاقتصادات الوطنية والإقليمية والقارية التى تكون النظام المالى العالمى، أو الأماكن المتصلة بشبكات داخل الشركات الصناعية المتقدمة، المتفرقة مكانيا كما أنها "منظمة تراتبيا حسب وزنها النسبى داخل الشبكة"، على الرغم من أن هذا التراتب يمكن أن يتغير بمرور الوقت، مثل طبيعة الأنشطة والوظائف الأخرى الناتجة عن حركة الشبكة" .(ibid., 413) الطبقة الأخيرة "تشير إلى التنظيم المكانى لنخب الإدارة السائدة، أى ـ بعبارة أخرى ـ صلاتهم وشبكاتهم الشخصية التى تمارس الوظائف الإدارية التى يتشكل حولها هذا الفضاء".(ibid., 415) .

• المجتمع الشبكى حقبةً اجتماعيةً جديدةً:

التحدى الذى يواجه المجتمع الشبكى فى رأى "كاستلز"، يتعلق بـ "الهويات المقاومة" وخاصة عندما تكون فى هيئة جماعات عرقية وحركات دينية أصولية. وعلى الرغم من هذه التوجهات المضادة، يعتقد أن هذا التشبيك المعلوماتى الذى

تسهله تكنولوچيات المعلومات والاتصال يفيد المجتمع الشبكى، وبذلك يخلق حقبة اجتماعية جديدة؛ وهكذا فإن الشبكة هى الشكل التنظيمى لعصر المعلومات؛ إذ إنها تنشئ شكلا مختلفا من البنية المعلوماتية، يحافظ عليه الإنترنت. (Castells, 2001) المؤسسات التراتبية والبيروقراطية مثل الدولة ـ الأمة، لا تستطيع أن تواكب الكفاءة التنظيمية والديناميكية ومرونة الشبكات، وهذا واضح فى الصعوبات التى تواجهها الدول فى تعاملاتها مع الشبكات الدولية الجنائية؛ ومن دواعى السخرية أن الحكومات عندما تريد أن تتناول مثل هذه الشبكات، سيكون عليها ـ هى نفسها ـ أن تعمل فى صورة شبكات ونقاط عقدية تنسق أنشطتها وتجمع معلوماتها، وكل ذلك يتضمن أن تتحول القوة من المؤسسات السياسية إلى التدفقات والقواعد الثقافية لتلك الشبكات؛ على أن طرح "كاستلز" واجه انتقادات كثيرة كما سنرى.

• مانويل كاستلز: وجهات نظر نقدية:

بداية، بينما يقدم "كاستلز" مادة غزيرة، إلا أنه واجه انتقادات كثيرة؛ لأنه لم يقدم عرضا وافيا أو عميقا للشبكات. لم يوضح الفروق بينها. لم يبين علاقتها بغيرها من الأشكال التنظيمية؛ ومن هنا هناك زعم بأن هذا الملمح الرئيسى لعمله لا يقدم مفهوما متكاملا. (Urry, 2003) وفى نظر بعض الكُتَّاب تظل شبكات "كاستلز" عند مستوى الاستعارة (Nas and Houweling, 1998) وفى السياق نفسه يجادل "روبرت هولتون" "Robert Holton" (2005) أن "كاستلز" يقدم معالجة عامة للشبكات لا تحتوى على بيانات إمبيريقية كافية، وهو نقد له قيمته؛ لأن نظريته، رغم أنها فضفاضة، قابلة للتطبيق عمليا. (Stadle, 2006).

وهناك نقد عام آخر لطرح "كاستلز"، يرى أنه بتأكيده الاستعارات، لا يولى اهتماما كافيا لقضية السلطة واتخاذ القرار والقوى التى تدفع مجتمع الشبكة؛ كما أنه، فى الواقع، يتجاهل كون الشبكات تنشأ وتتمدد فى المجتمع، وأنها ـ حتما ـ تعكس المكونات الاجتماعية ـ السياسية القائمة. وبهذا الخصوص فإن عوامل فاعلة مثل المؤسسات متعددة الجنسية والعابرة للحدود القومية، والحكومات الوطنية، والمؤسسات القانونية، ومنظمات التجارة الدولية، هى التى

تقرر التوزيع العالمى لتكنولوچيات المعلومات والاتصال، وبدورها، فهى التى تؤثر فى مسار مكونات الشبكة. أحد الأوجه المهمة لهذا التحكم، ملكية الحقوق الفكرية بالنسبة لتكنولوچيا المعلومات والمعرفة وبخاصة اتفاقية الـ "TRIPS (*) التى تشرف عليها منظمة التجارة العالمية. والتى تحاول أن تضع معايير للملكية الفكرية لاقتصاد المعرفة الكونى .(Drahos and Mayne, 2000).

يعتقد كل من "بيتر دراهوس Peter Drahos" و"چون بريثويت John Brith waite" (2002) أن القواعد الحالية الخاصة بالملكية الفكرية هى نتاج قسر من قبل الدول المتقدمة (الولايات المتحدة الأمريكية بالتحديد، والاتحاد الأوروبى على مستوى أقل قليلا) والمؤسسات القوية التى تفيد مباشرة من وضع يطلقون عليه "إقطاع المعلومات". وهكذا فإن حقوق النشر وبراءات الاختراع والماركات المسجلة تحمى التصميمات وتعمل على تقييد الوصول إلى البرمجيات وحسابات التكنولوچيات الرقمية بما يجعل الكثير من المجتمعات النامية يجد صعوبة فى دفع رسوم وعائدات عن هذه المصادر المعلوماتية. وإذا كان "دراهوس" ومن معه من الكُتَّاب محقين، فإن أنظمة الملكية الفكرية هذه لن ينجم عنها أشكال جديدة من اللامساواة وتعويق للتنمية فى العالم الثالث فحسب، وإنما سيكون لها آثار عميقة فى تكوين مجتمع معلوماتى عالمى؛ لأن مثل هذا المجتمع يعتمد على إمكانية الوصول للمعلومات والمعارف والمشاركة فيها. ولمواصلة موضوع القوة، من المنظور الماركسى - ومن المثير للاهتمام أن كاستلز بدأ عمله الأكاديمى من هذا التراث - ترى أنه حتى مع السماح بالتغيرات التى تقدمها الشبكات للأشكال التنظيمية داخل المجتمعات فإنها تظل مدعومة بواسطة الرأسمالية وتعمل فى إطار نظام رأسمالى عالمى. يتبع ذلك أن المجتمع الشبكى، بمعنى ما، يختلف قليلا عن الحقب السابقة، وعلى الرغم من ذلك فإن "كاستلز" سوف يرد على هذه النقاط مجادلا بأنه يضع فى اعتباره كلا من أهمية واستمرار الرأسمالية، ويفعل ذلك بصوغ مفهوم "الرأسمالية المعلوماتية" - التى تقوم كما سبق أن ذكرنا على ثورة تكنولوچيا المعلومات فى سبعينيات القرن العشرين، وإعادة هيكلة الرأسمالية والدولانية فى ثمانينياته - وهى أكثر مرونة وكفاءة وأكثر كمالا من الناحية

(*) قضايا الملكية الفكرية المتعلقة بالتجارة Trade Related Intellectual Property Issues

الجغرافية. (انظر: Castells, 1996) إلا أنه ربما يوجد، كما يلاحظ "فرانك ويبستر "Frank Webster" شبهة تناقض فى عمل "كاستلز" بين تأكيده ظهور شكل جديد من المجتمع واستمرار الرأسمالية. وبنظرة أوسع، بينما يكون من الضرورى أن نحدد علاقات القوى والقوى الاقتصادية وراء الشبكات، ينبغى ألا نستبعد دور العناصر البشرية المشاركة فى هذه الأشكال التنظيمية: حيث إن الكثير منهم سيقوم بذلك لدوافع غير اقتصادية، كأن يكون ذلك لأسباب ثقافية وشخصية.

ربط "كاستلز" التدفقات المعلوماتية والحراك بالنخب، والذى ـ كما ذكرنا سابقا ـ يعتبر الطبقة الثالثة من الدعم المادى الذى يحدده بأنه يمثل فضاء التدفقات، هذا الربط يجعله يقلل من شأن المدى الذى يمكن أن يسهم به المواطنون العاديون فى مثل تلك التدفقات، وهى ليست مقصورة على "فضاء الأمكنة". فى هذا السياق فإن قدرة الحركات الاجتماعية والمنظمات غير الحكومية على التأثير فى أجندات نخب الشبكة، وعلى أن يكون لها فى بعض الأحيان دخل فى صنع السياسة ـ هذه القدرة تعقد مفهومه عن الطبيعة التراتبية للشبكات؛ هذا على الرغم من أنه ـ إنصافا له ـ اعترف فى مقابلة معه فيما بعد بأن قطاعا أوسع من المجتمع "يريد أن يفعل كل شىء، يمكن أن يشغل هذا الفضاء ويستخدمه لأغراضه الخاصة"، بما أن فضاء التدفقات يعتمد ماديا على تكنولوچيات المعلومات والاتصال الجديدة .(Castells and Ince, 2003: 58) .

وأخيرا، هناك نقطة أخرى لافتة للانتباه فى نظرية "كاستلز"، وهى أنها تلمح إلى وجود تفاوت فى عمليات العولمة، وقد كتب بالفعل عن "العولمة الناقصة لمجتمع المعلومات" (23 : 2004) كاستلز" يعترف بأن ليس كل واحد مرتبط بالشبكات، ويصف بالمثل كيف تتكيف الشبكات وتشكل نفسها ذاتيا ـ بمعنى أن الوظائف التى تقوم بها بعض النقاط يمكن أن تزيد أو تقل فى الأهمية، حال كونها جزءًا من عملية مستمرة. "كاستلز" يعترف كذلك بأن تأثير التكنولوچيا يتوقف على تفاعلها مع العناصر البشرية فى مواقف محددة، وهذا ما يجعل "دارين بارنى (2004) Darin Barney" يتساءل ما إذا كان من الملائم تصور "مجتمعات شبكية" بدلا من "المجتمعات الشبكية".

تفسير التواصلية المعاصرة

يؤكد كثير من الكُتَّاب على أن التكنولوچيا هى المسهم الرئيسى فى العولمة وبخاصة فى مجال الإعلام والاتصال (e.g., Ohame, 2005; Strange, 1990; Wriston. 1992) أما بالنسبة لـ "وولت ريستون "Walt Wriston و"كينيشى أوهماى "Kenichi Ohmae فهما يريان أن التكنولوچيا هى التى أملت طبيعة الأعمال التجارية والمصرفية الحديثة، ومن ثم أدى ذلك إلى ظهور الاقتصاد العالمى. إلا أنه بالتركيز على التكنولوچيا، يوجد هناك دائما خطر الوقوع فى الحتمية التكنولوچية وإهمال العمليات الأخرى التى تسهم فى العولمة مثل الرأسمالية والتحديث؛ وعليه فلكى نؤكد تأثير الإبداع التكنولوچى فى العولمة الثقافية يجب أن نضع كل ما يتعلق بالأبعاد الأخرى فى الاعتبار، ولكن بمعنى أيضا أن التكنولوچيا متضافرة معها، وتتناول على سبيل المثال حجم ما تقدمه الرأسمالية لدفع الانتشار السريع لتكنولوچيات المعلومات والاتصال، وخاصة أن تعظيم الربح من المرجح أن يكون هو الدافع الرئيسى وراء ظهور تكنولوچيات الاتصال والمنظمات الإعلامية العالمية.

ولكن عولمة الاتصال ساعد عليها كذلك عوامل أخرى منذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين، بانتهاء الحرب الباردة وخصخصة الاتصالات فى بعض الدول ونظام تحرير التجارة العالمية الذى سهل كثيرا انتشار اقتصاد السوق. يضاف إلى ذلك أننا لكى نقيم هذه المسألة على نحو صحيح لا بد من أن نضع فى اعتبارنا تلك القوى التى تستخدم التكنولوچيا لتعطيل جوانب من العولمة تراها ضارة بمصالحها، يدخل فى ذلك ـ تلك القوى ـ حركات سياسية معينة وتقاليد دينية وقومية وعرقية مختلفة.

وللتعبير عن ذلك كله بأسلوب آخر، وبهدف التركيز تحديدا على اهتمام هذا الفصل من الكتاب، وهو مدى إسهام الاتصالات العالمية والميديا والتكنولوچيا فى العولمة الثقافية، لا بد من الاعتراف بأن تكنولوچيات المعلومات والاتصال والميديا العالمية لا تعمل بمعزل عن عوامل أخرى كثيرة، فهى تنبثق من مجتمعات إنسانية ومرتبطة بها وهى حقيقة تقرر طبيعة تأثيرها تماما. مثل هذه التكنولوچيات ـ باختصار ـ يتداخل فيها ومعها الأفراد والجماعات التى تعمل فى

أطر اجتماعية معينة، أى أنه ليس لها تأثيرات مباشرة أو آلية أو حتمية. والواقع أن عددا من الدراسات يرى أن كثيرا من الناس يستخدمون الابتكارات التكنولوچية الحديثة مثل الإنترنت من أجل ملاءمة وتسهيل أنماط سلوكية مستقرة، إلى جانب الحفاظ على العلاقات الاجتماعية القائمة. (انظر: (e.g., Kogut, 2004) هذا المفهوم عن كيفية عمل هذه التكنولوچيات سوف يساعدنا كذلك على تجنب اعتبارها ذات تأثير خاص لا يستطيع الناس مقاومته، وهو توجه يمكن أن نجده فى بعض التفسيرات التكنولوچية عن العولمة. وكما أوضحنا، فإن أحد الملامح المحددة لتكنولوچيات المعلومات والاتصال المعاصرة، هو أنها تؤدى بوسائل مختلفة إلى المزيد من التشخيص (individualism) (*) وتزود الناس باستقلالية ذاتية واختيار أوسع، وخاصة عندما يكون الأمر متعلقا بالإعلام. على أن الناس، كما رأينا أيضا، يستخدمون هذه التكنولوچيات للإسهام فى أشكال مختلفة من الشبكات، ومن هنا فهم أيضا متورطون فى أنماط من الممارسة والتشكيل الاجتماعى؛ أما التعبير المستخدم لتلخيص هذا السلوك فهو "الفردانية الناتجة عن الشبكة" (Wellman and Haythorn Waite, 2002).

وأخيرا، إذا كنا بالفعل نريد أن نحدد تأثير التكنولوچيا فى العولمة، وهو ما يحول دونه ضيق المجال هنا، فلابد من مناقشة هذه القضية فى علاقتها بتأثير التكنولوچيات الأخرى (النقل مثلا)، وليس بمجرد التركيز على تكنولوچيا المعلومات والاتصال كما هى الحال هنا.

عند تناول هذا الأمر فى علاقته بالعولمة الثقافية، لا بد من أن ندرك كذلك أنه كانت هناك لحظات فارقة أخرى فى تاريخ تكنولوچيا الإعلام والاتصال، أسهمت على نحو مهم فى أشكال التواصل عبر الكرة الأرضية، وخاصة تطور مطبعة جوتنبرج فى العصور الوسطى، التى كانت تعتمد على تكنولوچيا تسمى "النمط المتحرك" واخترعها "چوهان جوتنبرج "Johannes Gutenberg" فى ١٨٤٨ - هذا إذا تغاضينا عن حقيقة أن الصينيين كانوا أول من فكر فى الطباعة فى القرن الثامن. كانت أهمية هذا الاختراع أنه سهل انتشار أشكال مختلفة من

(*) الوجود الشخصى أو الفردى (المترجم)

الأدب عبر أوروبا بما فى ذلك الإنجيل، وبذلك سهل النهضة والإصلاح والتنوير. كانت الطباعة إذن إسهاما رئيسيا فى التواصل الإنسانى وفى الوقت المناسب لتطور العولمة، ولكنها ظهرت بشكل أساسى فى المرحلة ما قبل الحديثة، وربما قد ننظر إلى التطورات التكنولوچية فى الاتصالات فى المرحلة الحديثة باعتبارها الإسهامات الأساسية للعولمة. من بين هذه التطورات، إلى جانب التلغراف الذى ذكرناه سابقا، كان دخول التليفون (1876) واللاسلكى (1895) وهناك كذلك سوابق فى تكنولوچيات الإعلام والاتصال فى عصرنا مثل دور النشر ووكالات الأنباء العالمية التى ظهرت فى الولايات المتحدة وأوروبا فى القرن التاسع عشر. بالتساوق مع ذلك، فإنه بينما يمكن تتبع أصول الاتصال العالمى عائدين إلى القرن التاسع عشر، وربما قبل ذلك بكثير كما تبين الإحصائيات هنا، فإن التدفق اليومى للاتصالات والمعلومات على نطاق عالمى يعتبر أحد ملامح هذا العصر. التقدم الحديث فى تكنولوچيات المعلومات والاتصال وغيرها من التطورات فى إطار صناعة الاتصالات يمثل تغيرا نوعيا فى طبيعة وحجم التواصل العالمى ومداه الإقليمى.

على أننا عندما نحاول تقييم مدى التواصلية العالمية التى سهلت التكنولوچيات الحديثة، لابد من أن نضع فى اعتبارنا ملاحظة "ثابو مبيكى Thabo Mbeki" رئيس جنوب أفريقيا بأن "أكثر من نصف البشرية لم يديروا فى حياتهم قرص تليفون" .(Lynch, 1997: 253) يضاف إلى ذلك أنه فى بداية الألفية الجديدة كان هناك أكثر من ٤ بلايين نسمة من إجمالى سكان العالم البالغ عددهم نحو ٦ بلايين نسمة، لم تلمسهم ثورة تكنولوچيا المعلومات، بينما كان هناك حوالى ٢٪ فقط متصلين بالإنترنت، وهذا يدل على حجم العمل المطلوب القيام به للتغلب على الفجوة الرقمية. بعبارة أخرى، يمكن أن نبالغ فى حجم ما يحدث بالنسبة للاتصال العالمى والإعلام والتكنولوچيا، ونقع أسرى قولنا إننا نعيش فى "عصر المعلومات" و"ثورة الاتصالات" و"مجتمع الشبكة الكونية". وحيث إن ملكية تكنولوچيات المعلومات والاتصال وإمكانيات الوصول إلى التدفقات المعلوماتية غير متساوية فى العالم، فإن الاتصال العالمى ينبغى ألا يفسر باعتباره اتصالا عاما أو شاملا بالفعل. هذا مجال، كما رأينا، سريع التغير، فمنذ سنة ٢٠٠٠ أصبحت

أفريقيا ومناطق أخرى نامية أكثر اتصالا على المستوى الكونى. هناك كذلك وضع راسخ داخل الدراسات التكنولوجية مفاده أنه حيث إن التكنولوجيات موزعة لدرجة التشبع فإن تكلفتها تهبط لكى تجتذب المزيد من المستخدمين. إلا أنه، على سبيل الحيطة من هذا التفاؤل، فإن على كثير من الدول النامية - لكى تفيد من أى انخفاض فى التكلفة - أن تواجه مشكلات البنية الأساسية الرئيسية حتى تستطيع الوصول إلى هذه التكنولوجيات، وهى نقطة ممكنة التطبيق فى بعض المناطق الريفية فى المجتمعات النامية. على أننا، إضافة لذلك، لا بد من أن نقول إن هناك "متشائمو سيبر" (إن جاز لنا استخدام مصطلح "پيپا نوريس (Pippa Norris) الذين يجادلون أنه حيث إننا ما زلنا فى بداية ثورة تكنولوچيا المعلومات والاتصال، فإن المبتكرين الأوائل من المرجح أن يظلوا محافظين على سبقهم فى هذا المجال. (انظر: Norris, 2001) هناك كذلك مزاعم مستمرة بأن الأثر النهائى للتقدم التكنولوچى مثل الإنترنت سوف يفاقم اللامساواة ويعمق التفاوت الموجود، وهذه النظرة ليست مقصورة على معارضى العولمة فقط، ولكن ذلك كان أيضا رأى قرابة ألف من كبار رجال الأعمال الذين جرى استطلاع رأيهم قبل منتدى ديفوس فى سنة ٢٠٠٠ (BBC, 2000) .

والخلاصة، أن الطبيعة المعقدة - على الأقل فى هذه المرحلة - لكثير من الجدال المحيط بتكنولوچيات المعلومات والاتصالات، دليل على صعوبة تحديد مدى إسهام تلك الأشكال التواصلية فى العولمة الثقافية. ما يمكن قوله بتأكيد أكبر، هو أنه بينما ربما تكون التكنولوچيا قد دفعت العولمة أو لا تكون، إلا أنها - على أية حال - قدمت الكثير من البنية التحتية لكى تساعد على تطورها. فى هذا السياق فإن الشبكات التى تعمل على تكامل أجزاء مختلفة من العالم، والتى تساعد التكنولوچيات الحديثة على الإبقاء عليها - هى مكون مهم للتواصلية الكونية. ونكرر، لكى نفهم كيف تسهم الميديا وتكنولوچيات المعلومات والاتصال والتدفقات التى تولدها فى العولمة، لابد من أن نفهم كيف تتأثر كل تلك العوامل بالأفراد والجماعات فى سياقات مختلفة.

للمزيد:

مع وجود عدد كبير من الكتب والمقالات تتناول الاتصالات الكونية والميديا والتكنولوچيا، نلفت النظر إلى أن بعضها تم اختياره لما يحمله من انتقادات، وتعتبر ثلاثية "مانويل كاستلز" عن عصر المعلومات (1996, 1997a, 1998) مرجعا أساسيا فى هذا الموضوع. هناك كذلك عدد من المراجع المهمة عن الانقسام الرقمى، تبحث فى طبيعته وآثاره السياسية والاجتماعية كما تقترح أساليب عملية للتغلب عليه. (انظر: Norris, 2001; Servon, 2002; Van Dijk; 2005).

وللمزيد عن التواصل العالمى والميديا، انظر الطبعة الثانية من:

Global Communication: Theories, Stakeholders, and Trends (2006)

تأليف: .Thomas McPhail وللمزيد عن التدوين انظر: Kline and Burse tin (2005) وعن الراديو، انظر: Hendy (2000) ، وعن التليفزيون العالمى والعابر للحدود القومية، انظر: Wellman and Haythorn Waite (2002) ، وعن اتصالات الهاتف المحمول، انظر: Katz and Aakhus (2002) ، وعن المجتمعات الافتراضية، انظر: Jones (1998) و Smith and Kollock (1999) وعن الميديا والعولمة، انظر: Rantanen (2005)

الفصل الرابع

العولمة والثقافة الكونية

إحدى المجادلات الرئيسية المحيطة بالعولمة الثقافية، هى ما إذا كنا نشهد ظهور عولمة كونية، فهذه قضية تشغل الاهتمام الأكاديمى والجماهيرى، على الرغم من أن الأكاديميين يبدون متشككين أمام الفكرة. هدف هذا الفصل من الكتاب هو معرفة ما إذا كانت هذه الثقافة موجودة، وإذا كان الأمر كذلك فما الشكل الذى تتخذه، ولذلك سوف نبحث هنا أربعة مجالات ذات صلة بالأمر. سنبدأ بوصف الأساليب التى تسهم بها عمليات العولمة فى المجانسة الثقافية وإيجاد عدد من مفاهيم الثقافة الكونية. وسوف نركز فى القسم الثانى على عمل "رولاند روبرتسون Roland Robertson" الذى يقدم رؤية فطنة للعلاقة المتبادلة بين العولمة والثقافة الكونية، ويوضح على نحو خاص مدى تعقد القوى العالمية - المحلية المحركة؛ ويقدم القسم الثالث نقدا للثقافة الكونية، مجادلا بأن مثل هذا المفهوم يقوم على قراءة خطأ للتطورات المعاصرة، كما يستند إلى فكرة معيبة وهى أن عمليات العولمة لها آثار أو عواقب معينة، وفى القسم الأخير من الفصل، اتساقا مع التأكيد العام للفصل على الاعتراف بالطبيعة التعددية للعولمة سوف نورد الحجج التى تجعلنا نتصور الثقافة الكونية باعتبارها "ثقافات" كونية وليس ثقافة واحدة.

العولمة والمجانسة الثقافية:

يرى بعض المعلقين أن هناك جوانب من العولمة - وخاصة فى مجالات الاتصال والميديا والاقتصاد - تعتبر ذات تأثير على المجانسة؛ كما يقال إن تكنولوچيات المعلومات والاتصال الحديثة والنقل المتقدم وظهور ميديا جديدة ومؤسسات

متعددة الجنسية قوية، يعنى أن العالم، شيئا فشيئا، يغدو مكانا أصغر، وأن الثقافات والتراثات المحلية تجاهد من أجل البقاء وأن الفوارق الثقافية تتلاشى. (Hamelink, 1983) نجد ذلك كله منعكسا فى التعليقات التى نسمعها كثيرا بأن مراكز المدن فى الكرة الأرضية كلها تبدو متشابهة على نحو متزايد. الموزعون الرئيسيون للمنتجات، والبنوك، وبيوت المال الأخرى، ومطاعم الوجبات السريعة، والإعلانات، كل ذلك يمكن أن تجده فيها كلها. فى السياق نفسه يمكن أن نجد سلعا استهلاكية وماركات مسجلة بعينها فى دول مختلفة فى أرجاء العالم؛ الأفلام نفسها تجدها معروضة فى دور السينما. كما يمكن مشاهدة الكثير من البرامج نفسها معروضة على شاشات التليفزيون. "أولريش بيك Ulrich Beck" يصف هذا التقارب على النحو التالى: "فى قرى باڤاريا الدنيا، كما هو الحال فى كالكتا وسنغافورة أو فى ضواحى ريو دى چانيرو، يشاهد الناس مسلسل "دالاس" فى التليفزيون ويرتدون الچينز ويدخنون "المارلبورو"..." (2000, 42) ما يشغل النقاد هو أن ذلك يؤدى إلى تآكل الأصالة الثقافية، كما يشجع الطموحات المشابهة، وعلى المزيد من الرغبة فى الاتساق العام مع أساليب الحياة المماثلة[1] (e.g., Crick, 1989) نتيجة لهذه التطورات هناك زعم بأن الثقافات والمجتمعات تواجه ضغوطًا مجانسة قوية، بدرجة تجعل بالإمكان الحديث عن وجود ثقافة كونية، ينظر إليها غالبا باعتبارها شكلاً من أشكال الاستعمار الثقافى. (Mattelart et al., 1984; Schiller, 1989, 1991)؛ على أن الشكل الذى تتخذه هذه الثقافة الكونية والقوى الدافعة لها محل جدال كبير، وقد تم صياغته على أنحاء مختلفة كأن يقال "أمركة" و"مكدلة"(Ritzer. 1998) و"غربنة" (Latouche, 1996) مع قول بعض المنظرين إن ما يحركها هو الرأسمالية أو قوى الحداثة مجتمعة، وسوف نناقش هذه الآراء الآن، بادئين بمفهوم الثقافة الكونية باعتبارها "أمركة".

• المجانسة الثقافية باعتبارها أمركة:

إلى جانب أن الولايات المتحدة أقوى دولة فى العالم وتستطيع ممارسة نفوذ عالمى واسع، يلاحظ أن كثيرا من الشركات العملاقة الرئيسية فى مجالات

الإعلام والتسلية (مثل "تايم وارنر" و"سى بى اس" و"والت ديزنى") كلها أمريكية؛ وكما رأينا فى الفصل الثالث فإن الولايات المتحدة تصدر برامج تليفزيونية أكثر من أى دولة فى العالم. والحقيقة أن قضية الهيمنة العالمية على الميديا من قبل الولايات المتحدة قد نوقشت لفترة، وخاصة فى تقرير مكبرايد McBride Report الذى نشر فى ١٩٨٠ وأدى إلى أن جعل اليونسكو تحث على اتخاذ تدابير لمواجهة الأمر؛ وبشكل عام، كان يتم التعبير عن القلق خارج الولايات المتحدة بسبب الحضور الكثيف للثقافة الشعبية الأمريكية. إلى جانب البرامج التليفزيونية فإن شبكات وشركات التوزيع العالمية ذات الكفاءة العالية تضمن أن تكون الأفلام الأمريكية والمؤسسات الإخبارية وبرامج "السوفت وير" وغيرها من المنتجات، موجودة فى انحاء العالم. بالإضافة إلى ذلك فإن ماركات أمريكية مسجلة (مثل ليفى شتراوس - بيرجر كنج - ماكدونالد - بيبسى كولا - كوكاكولا - بيتزاهت) وموسيقى وأزياء الشارع، وجوانب أخرى من ثقافتها الشعبية تحظى بقبول متزايد وتأثير عالمى كبير. الولايات المتحدة كذلك تقود مجال تكنولوجيا المعلومات وتتمتع بمميزات معينة على منافسيها، وخاصة أنها بسبب وجودها منذ بداية ثورة المعلومات، استطاعت أن تشكل نظم المعلومات وعملياتها.(Nye, 2002).

على الرغم من ذلك، فإن فكرة اعتبار الثقافة الكونية شكلا من أشكال الأمركة تظل قضية إشكالية لعدة أسباب؛ ولنبدأ ببعض الاستوديوهات القوية فى هوليوود مثل "كولومبيا تريستار" و "فوكس". هذه الاستوديوهات تملكها مؤسسة "سونى" اليابانية و "نيوز كوربوريشن" ومركزها أستراليا. الأهم من ذلك أنه إذا كانت ملكية المؤسسات فى المرحلة المعاصرة ذات طبيعة معقدة، فهل ينبغى أن نكون مشغولين أكثر من اللازم بالأصول القومية للمؤسسات والتكتلات التجارية؟ أما بالنسبة لمسألة الهيمنة الأمريكية على الميديا عالميا، فنجد أن المؤسسات الإخبارية والإعلامية الأمريكية مثل CNN مؤثرة إلى حد كبير؛ إلا أنها، على الرغم من ذلك، لا تقرر أجندة الأخبار للدول الأخرى. فى هذا السياق فإن التغطية الإخبارية العالمية الواسعة لقضايا مثل خليج "جوانتانامو" وإيذاء السجناء العراقيين بواسطة الجنود الأمريكيين فى "أبو غريب"، توحى بأن أمريكا عامة

وواشنطن خاصة تحاولان بشتى الطرق تشكيل أجندة الأخبار العالمية. بالإضافة إلى ذلك فإن ظهور مؤسسة إعلامية مثل "الجزيرة" وإطلاق قناة الإعلام الدولية International Information Channel فى فرنسا، التى تعتبر بمثابة CNN الفرنسية، فى ٢٠٠٥ ربما يكون دلالة على أنه ستكون هناك فى المستقبل وجهات نظر متعددة بالنسبة للشئون العالمية. نفس الأمر تقريبا أن الميديا العالمية بكل أشكالها المختلفة والمتعددة لها تأثير فى المجتمع الأمريكى، وقد كان ذلك واضحا فى الأيام القليلة السابقة على الانتخابات الرئاسية، حيث كانت هناك تكهنات كثيرة عن المدى الذى يمكن أن تؤثر به الرسالة التى أطلقها آنذاك أسامة بن لادن عبر شبكة الجزيرة الإخبارية على النتائج النهائية. فوق ذلك، أن السيادة الأمريكية الثقافية ليست كاملة حتى داخل الولايات المتحدة، حيث يوجد عدد لا يحصى من القنوات التليفزيونية والمحطات الإذاعية يبث داخل البلاد بلغات مختلفة مثل الإسبانية واليابانية، وكلها موجهة إلى جماعات عرقية أو ثقافية خاصة.

هناك كذلك جوانب من الثقافة الأمريكية لا تلقى قبولا عالميا. فى هذا السياق فإن أفكارا سياسية مثل دولة الحد الأدنى والفردانية ليست جذابة عالميا، وبالمثل هناك شىء من رد الفعل السلبى أو المضاد فى أجزاء كثيرة من العالم ربما يقيد انتشارها المستقبلى. هذه الظاهرة يلاحظها كثير من المعلقين الذين يوردون أسبابا تتراوح بين الحقد على القوة الأمريكية وعدم شعبية إدارة چورچ دبليو بوش. (انظر: Sardar and Wyn Davies, 2002) والحقيقة أن ظاهرة معاداة كل ما هو أمريكى كانت منتشرة لدرجة أن وزارة الخارجية نظمت مؤتمرا لمواجهة الموقف؛ حتى الحكومات الغربية مثل الحكومة الكندية والحكومة الفرنسية اتبعت سياسات معدة خصيصى لمقاومة ما يعتبرونه أشكالا من الهيمنة الثقافية الأمريكية وخاصة فى مجال التسلية الشعبية والترفيه. مثل هذه المشاعر المعادية لكل ما هو أمريكى، ربما تكون، فى جزء منها، ردا على عدد وحجم المنتجات الثقافية الأمريكية التى تصدر للخارج، وإن كان هناك عادة عنصر من عناصر الاختزالية. بعبارة أخرى، ظاهرة معاداة كل ما هو أمريكى تعتمد على فهم خاص لماهية الثقافة الأمريكية وكون هذه الثقافة متسقة أو مستقرة، وكما سنبين لاحقا لا شىء من ذلك صحيح.

● المجانسة الثقافية باعتبارها "مكدلة" (McDonaldization)

يقال إن جوانب العولمة مثل الشركات متعددة الجنسيات والعابرة للحدود القومية تسهم كذلك فى تجل آخر من تجليات الثقافة الكونية وهو "المكدلة" بالتحديد. كان أول من اعتنق هذه الفكرة وروج لها "چورج ريتزر George Ritzer (1993)" ليصف كيف أن "مبادئ مطعم الوجبات السريعة تتزايد سيطرتها على المزيد من قطاعات المجتمع الأمريكى بالإضافة إلى بقية العالم" (ibid., 19) ريتزر يعمل فى إطار علم الاجتماع الڤيبرى(*) فعالم الاجتماع الألمانى "ماكس ڤيبر Max Weber" كان يرى أن المجتمعات الجديدة تحركها مبادئ العقلانية وإمكانية الإحصاء والتنبؤ والكفاءة. ريتزر يرى أن ماكدونالدز يستخدم مثل هذه المبادئ. كما تستخدمها مؤسسات تجارية حديثة أخرى بشكل عام. التأثير التراكمى لهذه التوجهات هو أنه يوحد معيارا للحياة المعاصرة، وهذا النموذج شكل من أشكال المجانسة الثقافية أكثر اكتمالا من الأمركة.

إلا أن فكرة "المكدلة" هذه تواجه انتقادات كثيرة، فهى تسقط من حسابها وجود اختلافات وتنوعات فى هذا النموذج وكذلك أشكال مختلفة من تنظيم وممارسات وثقافات العمل التجارى. كما أن هناك تنوعات واختلافات إقليمية مثل الأساليب المختلفة لتنظيم المؤسسات والهيئات الحديثة ـ كما فى فرنسا والمملكة المتحدة وإسكاندناڤيا وآسيا ـ بما يعكس الظروف المحلية؛ وبعض هذه النماذج يخضع لمؤثرات خارجية كبيرة وبخاصة فى الأساليب اليابانية فى الإدارة، وهى العوامل التى أدخلتها أو قلدتها الشركات فى كل من أوروبا وأمريكا (Elger and Smith, 1994) والحقيقة أن ما يطلق عليه "التيوتية Toyotism" أو "نموذج تويوتا"، الذى يتضمن نظام "Kauban" أو (فى وقته تماما Just In Time) لتنظيم العمل ومراقبة الجودة، هذا النموذج ينظر إليه غالبا كبديل لنموذج فورد "Fordist Model" للمنظمات الصناعية الذى ظهر فى البداية فى الولايات المتحدة[٢] ومن الطبيعى أن تستخدم الشركات مجموعة مختلفة من الأساليب والأفكار مستمدة من مصادر عدة ومكيفة مع الظروف

(*) نسبة إلى عالم الاجتماع "ماكس ڤيبر" (المترجم)

المحلية، لكى تناسب أهداف أعمالها التجارية، وكل ذلك يسير ضد فكرة أن هناك ثقافة عمل تجارى عالمية أو كونية، أو مجموعة مبادئ عامة لتنظيم المؤسسات الحديثة، سواء أكانت "المكدلة" أو "الفوردة" أو "التايلرة" (إدارة تيلور العلمية) أو "التيوتية" أو أى نموذج آخر.

- **المجانسة الثقافية باعتبارها أمركة:**

يمكن أن نقول إن أصول تصور الثقافة الكونية باعتبارها غربنة، تعود إلى مرحلة الاستعمار الأوروبى وقيام الأوروبيين بفرض مؤسساتهم وممارساتهم الخاصة على رعاياهم من المستعمرين. كان ذلك يتضمن إنشاء أو تنمية الدولة - الأمة، ونظام العمل المأجور، واقتصادات السوق، والأنظمة القانونية الأوروبية، ومفاهيم الملكية الخاصة ونشر اللغات، وفى بعض الحالات الديمقراطية البرلمانية داخل مستعمراتهم؛ ولعل هناك أيضا أشكالا من الهيمنة الثقافية فى ظل العولمة المعاصرة. تكنولوچيات المعلومات والاتصال والميديا العابرة للحدود القومية ساعدت مثلا على نشر اللغة الإنجليزية التى يتحدث بها اليوم قرابة ربع الجنس البشرى؛ وبينما تواجه تحديا من قبل الماندارين الصينية على الإنترنت، فإن الإنجليزية هى اللغة المشتركة للعولمة. انتشار الإنجليزية هذا من نتائج الاستعمار البريطانى والسيادة الأمريكية بعد الحرب، على الشئون العالمية؛ وهى ليست فقط لغة التجارة وإنما لغة السياسة الدولية والدبلوماسية والعلم، وهو ما نجده منعكسا فى استخدامها داخل منظمة الأمم المتحدة والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى؛ ويضاف إلى ذلك كله أنها اللغة الرئيسية للكمبيوتر والاتصالات العالمية[٣] وكما يرى "أبرام دى سوان Abram de Swaan" فإن استقرارها على قمة النظام اللغوى العالمى، يجعل من المرجح أن تواصل انتشارها لأن "الناس يتجهون لتعلم اللغة ذات القيمة الأعظم فى الاتصال (انظر: Swaan, 2001: 188) الجانب السلبى لهذه الظاهرة أنه فى أجزاء من العالم يمثل انتشار الإنجليزية خطرا على اللغات الأخرى، إذ يتنبأ بعض علماء اللغة بأن ٩٠٪ من اللغات معرض للانقراض خلال هذا القرن. (Wurm, 1996) على أن "ديڤيد كريستال David Crystal" (2003) يقترح سيناريو بديلا لتعميم الإنجليزية عالميا، مشيرا

إلى أنه عند انتشار لغة سائدة، تظهر بمرور الوقت تنويعات جديدة عليها قد تجعلها غير مفهومة للطرفين. ولكن إذا كان ذلك يحدث فمن المرجح أن يكون فى المستقبل البعيد؛ وعلى أية حال ليس من صالح الناس الذين يتعلمون الإنجليزية آن يتعلموا صيغة أخرى منها، لأن ذلك سيكون ضد الهدف من تعلم لغة أجنبية.

أبعد من قضية اللغة، هناك كذلك شعور بأن الثقافة الكونية واقعة تحت سيطرة قيم وأيديولوچيات غربية. النقاد غير الغربيين يجادلون بأنهم يلقون تشجيعا لاستهلاك السلع الغربية والإقبال فى الوقت نفسه على أساليب الحياة الغربية، وبخاصة التأكيد على الفردانية. الحكومات الغربية تعزز ذلك من خلال محاولتها فرض مفهومها الخاص عن حقوق الإنسان على العالم غير الغربى، مستخدمة فى ذلك كلا من قوتها الاقتصادية ووضعها المسيطر فى مؤسسات التحكم العالمية مثل الأمم المتحدة. ويعتقد كثيرون أن الفردانية الغربية متغلغلة فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وأن الحكومات الغربية تكرسها بصرف النظر عن ملاءمتها للمجتمعات غير الغربية التى هى غالبا أكثر تدينا وترابطا من الناحية الاجتماعية؛ وفى السياق نفسه هناك زعم قوى بأن المؤسسات التى تنشأ لتتناول قضايا التجارة العالمية والمعونات والقروض والتنمية، مثل البنك الدولى ومنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى، إنما تعمل على تنمية وترويج مفهوم غربى للحداثة والتحديث. بعبارة أخرى، هى تقوم على فكرة أن هناك طريقا صحيحا للتنمية ومعنى محددا لما يمثل النمو الاقتصادى والسياسى، وهى تحديدا تأسيس مجتمعات ليبرالية تعتمد على اقتصاد السوق، وهو ما يمكن أن نراه فى سياسات إعادة الهيكلة التى كانت تفرضها هذه المؤسسات فى ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى، التى كانت القروض تعتمد فيها على الحكومات التى تطبق إصلاحات تساعد على اتساع السوق الحرة. التأثير التراكمى لمثل هذا التوجه هو أنه يضع ضغوطا على المجتمعات غير الغربية لكى تسلك نهجا خاصا نحو التنمية، وبالتالى تعمل كشكل من أشكال الاستعمار الثقافى.

هناك كذلك اعتراضات كثيرة على مفهوم الغربنة، فمضمونه -بداية -يتصور العولمة باعتبارها ظاهرة حديثة، أى أنها وضع يعتمد على صعود الغرب، وهو

تطور بدأ من القرن السادس عشر. هذا المنظور بالتالى، يغفل الإسهامات غير الغربية فى عملية العولمة، التى يمكن أن نجدها إذا تعرفنا على التاريخ ما قبل الحديث ودرسناه. وبالمثل، إذا ركزنا حصريا على الغربنة فى حقبتنا هذه، فإننا بذلك نخاطر بإهمال القوى الأخرى التى تسهم فى العولمة مثل "الآسينة Asianization" و"اليبننة Japanization" و"الأسلمة Islamization". يضاف إلى ذلك أننا لا بد أن نضع فى اعتبارنا أن المجتمعات الغربية تصبح أكثر فأكثر تنوعا وتعددية من الناحية الثقافية، مما يثير قضية ما نعنيه أو نقصده عندما نقول "ثقافة غربية" و"غربنة"، (وهى نقطة سنعود إليها فى القسم الثالث)، بينما تعنى فكرة أن المؤسسات الدولية تنشر القيم الثقافية الغربية، أن أولئك الناس الذين يعملون فى إطارها عناصر تعمل دون وعى فى هذه العملية، ويتجاهلون حقيقة أن هذه المنابر تنطوى على جدال كبير حول سياساتها، كما نلاحظ الآن فى إعادة النظر فى سياسات إعادة الهيكلة.

والحقيقة أن منظمات عالمية مثل "اليونسكو" لديها حساسية شديدة، وتحاول أن تتفادى اتهامات بأنها تبقى على الهيمنة الثقافية الغربية، وهو توجه يمكن أن نجده - حتى - بين بعض الحكومات الغربية، بالرغم من أن ذلك ربما يكون نابعا - فى جزء منه - من شعور بالذنب بسبب ماضيها الاستعمارى.

● الثقافة الكونية والرأسمالية

يعتبر كثير من الكُتَّاب - وخاصة من اليسار السياسى - الرأسمالية القوة الرئيسية المحركة للعولمة الثقافية، وبالتحديد من أجل ثقافة عالمية استهلاكية، وهو توجه يشجع عليه الإعلام الجماهيرى وصناعة الإعلان. الاستهلاك الثقافى الكونى يتخذ عدة أشكال؛ ولكنه واضح، على نحو خاص، فى ثقافة الشباب والثقافة الشعبية وأساليب الحياة وأنماط الاستهلاك الرمزى. (انظر: Miller, 1995; Shields, 1992).

هذا الوضع له تاريخ أكاديمى طويل، فقد ظهر فى أربعينيات القرن العشرين وفى أعمال منظرى مدرسة فرانكفورت: "تيودور أدورنو Theodor Adorno" و"ماكس هوركهايمر Max Horkheimer" اللذين أكدا كيف كان يتم تسليع

الثقافة فى ظل ظروف الرأسمالية المعاصرة، حيث إن القيمة السوقية للسلع الثقافية هى التى تحدد حجم إنتاجها وطبيعتها (Adorno, 1991; Lash and Lurry, 2007) ويعنى ذلك أيضا أن أشكال المجانسة الثقافية التى عرضنا لها فى بداية هذا القسم، من هذا المنظور، منتجات للتوسعية الرأسمالية. وفى إطار هذا التقليد، هناك مزاعم كثيرة بخصوص التأثير الثقافى للرأسمالية العالمية، سوف نتناول اثنين منها على خلفية أعمال كل من "إيمانويل فالرشتاين Immanuel Wallerstein" و"ليزلى سكلير Leslie Sklaire" على التوالى.(٤)

١ ـ إيمانويل فالرشتاين:

الثقافة باعتبارها "الفكرة ـ النظام" للاقتصاد الرأسمالى العالمى.

كما رأينا فى الفصل الأول، فإن النظام العالمى من وجهة نظر المنظرين له هو اقتصاد رأسمالى عالمى. "إيمانويل فالرشتاين" يرى ـ عن اقتناع ـ أنه يقوم على منطق خاص هو "المراكمة المستمرة لرأس المال" (36 : 1990) ومن هنا فإن الرأسمالية، فى رأيه، هى المحرك الذى يقود "العولمة"، رغم أنه يرفض هذا المصطلح ويفضل عليه مصطلح "النظام العالمى". أما بالنسبة للثقافة فهو يراها "الفكرة ـ النظام" لهذا الاقتصاد العالمى. (1990a: 38) على أنه لا يبلور مفهوما للثقافة الرأسمالية باعتبارها كيانا مهيمنا، وإنما يرى أنها تؤدى دورا خاصا داخل النظام العالمى وهو الحفاظ عليه، تحديدا، من خلال احتواء "التوترات المتعارضة" التى يثيرها. (ibid, 51) أما الأيديولوچيات الثقافية المختلفة فى جوهرها (والتى تتراوح بين العرقية والجنسانية والعالمية)، والمعارك التى تنجم عنها، فهى تحول الاهتمام عن الانقسامات الاقتصادية الموجودة فى الرأسمالية، ومن هنا فإنها تلعب دورا فى إخفاء الاستغلال واللامساواة الموجودين فى النظام العالمى. (Holton, 1998: 171 – 2) العالمية تؤسس أسطورة أن النظام يعمل من أجل مصلحة عامة، بينما العرقية والجنسانية تصنعان تراتبية تمكن الرأسمالية من أن تفرق لكى تسود. عند " فالرشتاين"، (1990a) الأيديولوچيات المزدوجة للعالمية والعرقية ـ الجنسانية (وهى مضادة للعالمية) تعمل لكى تضعف المقاومة المضادة للنظام، ولهذا السبب يصف الثقافة بأنها ساحة القتال الأيديولوچى للنظام

العالمى الحديث، والحقيقة أن الرأسمالية هى المستفيد الرئيسى من ذلك الإرتباك المحيط بكل مفهوم الثقافة.

على أن "ڤالرشتاين" واجه انتقادات كثيرة لتقديمه تصورا للثقافة باعتبارها أحد مشتقات النظام العالمى واختزالها فى أيديولوچيته . (Boyne, 1990) بعبارة أخرى، الجوانب الاقتصادية الرأسمالية تسيطر على الثقافة وتحدد هدفها. أو، فى أقل القليل، تشكل المحددات التى ستعمل فى إطارها؛ ولكن مثل هذا التصور للثقافة يحاول أن يفسر ظهور الأصولية الثقافية التى شهدناها فى المرحلة الحديثة، بالإضافة إلى ثقافة مناهضة العولمة الرأسمالية التى ظهرت، وكلتاهما تمثل تحديات للثقافة الرأسمالية. وهكذا فإن توصيف "ڤالرشتاين" يُهَوِّنُ من أمر الأساليب التى يمكن أن تستخدم بها الثقافة كشكل من أشكال المقاومة. يضاف إلى ذلك - كما عرضنا فى الفصل الأول - أن النظام العالمى الذى يقول به "ڤالرشتاين" يواجه نقدا شديدا لتجاهله العمليات والتطورات الثقافية أو الحضارية التى حدثت فى المرحلة ما قبل الحديثة وأسهمت فى العولمة (Friedman, 1995).

باختصار، نظرية "ڤالرشتاين" عن النظام العالمى متهمة بأنها نموذج لاقتصاد سياسى لا يعطى الثقافة سوى قدر ضئيل من الاهتمام، وبأنها بتركيزها على البنى العالمية والمنطق الكلى للنظام، تهمل العامل الإنسانى؛ وفى رأى منظرى الثقافة على نحو خاص، فإن "ڤالرشتاين" لا يتناول قضية الثقافة بجدية(٥).

• ليزلى سكلير:

ثقافة وأيديولوچيا النزعة الاستهلاكية.

تنتهج "ليزلى سكلير" (2001, 2002) بالمثل أسلوبا بنيويا فى هذا الشأن، وتحاول أن تبين أن الرأسمالية العالمية تشكل وتُعَرِّفُ كلا من العالم والعولمة؛ وهى مهتمة، على نحو خاص، بالنظام العالمى وكيف يعمل، وترى أنه يقوم على ممارسات عابرة للقوميات تعمل فى مجالات ثلاثة هى: الاقتصادى، والسياسى، والثقافى/ الأيديولوچى. يضاف إلى ذلك أن كلا من هذه الممارسات يتميز

بمؤسسة رئيسية: المؤسسة العابرة للحدود القومية والنزعة الاستهلاكية .. هكذا على التوالى. ومن هذه المجالات نستطيع أن نرى أن الثقافة ـ مرة أخرى ـ مرتبطة بالأيديولوچيا، كما هى مرتبطة بالطبع بالجوانب الاقتصادية، وعليه لا يمكن القول إن لها وجودا مستقلا[٦] فى هذا السياق، فإن إحدى الدعاوى الأساسية عند "سكلير"، فيما يتعلق بالممارسات الثقافية ـ الأيديولوچية العابرة للحدود القومية، هى أن النزعة الاستهلاكية تسهم فى بقاء الرأسمالية على قيد الحياة لأنها تحاول إقناع أغلبية الناس بأن مثل هذا الأسلوب فى الحياة يحقق لهم مطالبهم. بعبارة أخرى، "سكلير" ترى أن الأيديولوچية الثقافية للنزعة الاستهلاكية تقدم الكثير الذى يؤدى إلى تماسك النظام العالمى، "بدون النزعة الاستهلاكية فإن منطق التراكم المستمر لرأس المال يتلاشى" (116 : 2002) كذلك فإن الوظيفة التى تقوم بها النزعة الاستهلاكية تكشف عن أن النظام الرأسمالى العالمى متورط فى عملية مستمرة للإبقاء على نفسه وإعادة إنتاج ذاته؛ وهو ما تعتقد "سكلير" أنه واضح على نحو خاص فى محاولة مد العلاقات الرأسمالية إلى دول العالم النامى.

• الثقافة الكونية والعصرية:

كما رأينا، فإن عددا كبيرا من علماء الاجتماع يرى أن العولمة وما تحمله من ثقافة كونية، تتضمن انتشار عمليات وقوى العصرية، مثل الرأسمالية والعقلانية والتحول إلى الديمقراطية والليبرالية والتصنيع. (e.g., Giddens, 1990; Spybey, 1996) أو بمعنى آخر، إنها تحديث العالم الذى نشهده. لهذا السبب فإن بعض أشكال المجانسة الثقافية التى نلخصها هنا مثل "المكدلة" و "الغربنة" تعتبر جزءا من هذا التوجه، وهنا نجد شيئا تسعى كل الشعوب والدول إليه، وهو توجه يمكن رصده فى نظرية التحديث الباكرة وصولا إلى طرح "فرانسيس فوكوياما "Francis Fukuyama عن "نهاية التاريخ"، الذى سوف نناقشه لاحقا. الحداثة ـ من هذا المنظور ـ توسعية بطبيعتها، أو كما عبر عن ذلك بوضوح شديد الشاعر والناقد المكسيكى "أوكتابيو باث Octavio Paz" بقوله: "كل الثقافات محكوم عليها بالعصرية".(Berman, 1983: 125) .

على أننا لا بد من أن ننتبه لاستخدامنا لمصطلحات مثل "العصرية "Modernity و"التحديث "Modernization فهذا "أنتونى كنج (1995) "Anthony King على سبيل المثال، يفرق بين فهم الإنسانيات لـ "العصرية/ الحداثة" وفهم العلوم الاجتماعية لـ "التحديث"، مجادلا أن الأولى مفاهيم أوروبية ـ أمريكية بالأساس "ومستقرة فى مؤقتية تاريخية مقيدة مكانيا". (115 : 1995) بينما الأخيرة مصطلح أمريكى إلى حد كبير. بالإضافة إلى ذلك يزعم "كنج" أن علماء الاجتماع بعد الحرب العالمية الثانية كانوا يتصورونها ذات أبعاد عالمية، ومن ثم تتحرك إلى ما هو أبعد من الحدود الجغرافية التى تقيمها العصرية والحداثة. وعند المخاطرة بتعقيد الأمور أكثر من ذلك، يجب ملاحظة أن داخل التمييز العريض الذى يضعه "كنج"، يمكن أن نجد مفاهيم مختلفة عن العصرية والتحديث. بالنسبة للعصرية مثلا، يحدد بعض علماء الاجتماع فترة للعصرية "العالمية" أو "المتأخرة" فى علاقتها بالتغيرات التى أدخلتها العولمة. هذا الأسلوب فى التناول يحاول أن يدمج ما يتصور أنه حقبتنا الأساسية، الناتجة عن تحدى التقاليد والسلطة التقليدية من جانب العصرية العالمية. فى حقبة ما بعد تقليدية فإن إحدى الظواهر المصاحبة للحريات الفردية الأوسع التى نتمتع بها، هى أن حقائق الماضى وثوابته المستقرة قد قلت، وأصبحنا نعتمد ـ بشكل متزايد ـ على أنفسنا ونحن ندخل مرحلة من التاريخ الإنسانى أكثر قلقا وأقل استقرارا. ومرة أخرى يتم تصور هذه الحالة على أنحاء مختلفة، فهذا مثلا "أولريخ بيك" يرى أننا نعيش الآن فى "مجتمع مخاطر". العصرية من هذا المنظور إذن عصرية انعكاسية، وهو موضوع سوف نعود إليه فى الفصل السابع.

إلا أن "مارتن ألبرو (1996) "Martin Albrow يعترض على الربط بين العولمة والعصرية، فهو يرى أن "الحديث" و "العالمى" من العصور ليسا حقبا مختلفة فحسب، وإنما الأهم فى رأيه أننا تحركنا إلى ما هو أبعد من العصرية، ودخلنا حقبة كونية، وهو تطور يعكسه تحدى العقلانية والدولة ـ الأمة باعتبارهما الأساس الأولى للعمل والتنظيم الاجتماعى. "ألبرو" مُصر على أن سبب عدم الاعتراف بهذا التحول على نطاق واسع، يقع جزء منه على عاتق لغة العصرية. أن تكون عصريا يعنى أن تكون حديثا وجديدا، فكيف إذن يمكننا التحرك إلى ما

هو أبعد من هذا الظرف؟ بل لماذا ـ حقيقة ـ نريد أن نفعل ذلك؟ من هذا المنظور فإن كاتبا مثل "فرانسيس فوكوياما (1992) "Francis Fukuyama" الذى يعتقد أن نظاما عالميا ديمقراطيا ليبراليا يمثل مستقبل الإنسانية، يظل أسير نزعة وأفكار العصرية؛ وكما يعبر "ألبرو" عن ذلك فإن "العصرية أصابت الخيال الإبداعى بالشلل" (ibid., 9) الأمر الذى قد يفسر تعلق بعض الكُتَّاب بمفاهيم "العصرية العالمية" أو "العصرية المتأخرة"، حتى على الرغم من انقضاء زمانها. وفى رأى "ألبرو" أن حلول الكونية محل العصرية، واضح فى مدى الضرر الذى لحق بالبيئة العالمية، والتسلح المعاصر مع احتمالات تدميره العالم، وتأثير نظم الاتصالات العالمية، وصعود الاقتصاد العالمى. ومن المثير للاهتمام أن الطريق الخامس الذى يعتقد "ألبرو" أن "الكونية" قد أخذتنا به إلى ما هو أبعد من افتراضات العصرية، يخص ما يطلق عليه "انعكاسية العولمة"، التى وفقا لها يشير الأفراد والجماعات الآن إلى العالم باعتباره الإطار المرجعى لآرائهم ومعتقداتهم (1996: 64) وعليه ليس هناك عصرية انعكاسية وإنما "كونية انعكاسية".

• رولاند روبرتسون: النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية

الظرف الإنسانى الكونى والاختراق المتبادل بين الكونى والمحلى:

يؤكد "رولاند روبرتسون (1992, 1995) "Roland Robertson" وهو أحد الكُتَّاب البارزين فى علم اجتماع العولمة، أهمية المواجهة بين الكونى والمحلى، بوصفها جزءًا من محاولة أوسع لتنمية عالم الثقافة داخل دراسات العولمة، وهو مجال يؤكد أهمية الجوانب الاقتصادية والسياسية. ونتيجةً لذلك، فإن أسلوب تناوله، أكثر من تأكيده البنية والنظام، يركز على العامل الإنسانى ويحدد ما هو حالة اجتماعية وظاهراتية ـ أو حالة إنسانية كونية كما يقول. هذه الحالة هى نتاج عملية تاريخية طويلة وتمثلها أربعة "أشكال من الحياة" (الذوات ـ المجتمعات القومية ـ النظام العالمى للمجتمعات ـ الجنس البشرى)، هى فى حالة تفاعل مستمر فيما بينها وتتغير أثناء ذلك ولكنها تثرى أسلوب رؤيتنا للعالم. العولمة، عند "روبرتسون" تشير بالتالى إلى تقارب أشكال الحياة تلك، على أنه يعتبر الاستعارة أو نموذج "الميدان العالمى" مفهوما أكثر دقة للكونى أكثر من النظر إليه

باعتباره نظاما كونيا متحدا أو ثقافة كونية متكاملة .(9-26 :1992) من نقطة البداية هذه، يعتقد "روبرتسون" أن هناك أوجه نقص معينة فى مفهوم "العولمة" - الذى يعتقد أنه يصف "انضغاط العالم واتساع الوعى بالعالم ككل". (ibid., 8) على أن ذلك، كما قال سابقا، لا يعنى أنه يغفل المحلى فى تصوره للعولمة. العولمة عنده "تتضمن خلق واحتواء ما هو محلى، كما تتضمن عمليات تشكل هى نفسها بدورها انضغاط العالم كله" .(40 :1995) بعبارة أخرى: هناك دائما عملية مستمرة يتحد فيها الكونى والمحلى، العام والخاص، بحيث يصبح المحلى نتاجا للعولمة أو على الأقل أحد جوانبها، وهى نقطة سوف نعود إليها لاحقا. (ibid., 30) ولكن "روبرتسون" يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يرى الكونى والمحلى يتبادلان الاختراق والتغلغل ببعضهما، لدرجة أن يصبح المفهوم الأكثر ملاءمة لوصف هذه الحالة هو: "Glocalization" أى إضفاء الطابع الكونى على ما هو محلى، وهذا التغلغل بين الكونى والمحلى يؤكد أنهما ليسا كيانين ثقافيين منفصلين أو متمايزين، وإنما مزيج اندماجى توفيقى يحتوى عناصر من كليهما. .(Holton, 2005)

كل ما سبق يعنى أننا على مدار حياتنا اليومية موجودون وفى أذهاننا الشعور بكل من الكونى والمحلى. أن نعمل بشروط الكونى فقط يعنى أننا سوف نعمل بأسلوب شديد التجريد، نحن بالأحرى نفهم الكونى ونعيد إنتاجه فى السياق المحلى ونشكله على ضوء المؤثرات الثقافية المحلية مثلنا. العام إذن يتم تخصيصه، وليس الأفراد فقط هم الذين يمكن نسبتهم للكونى أو العالمى، فهذا التوجه يمكن أن نجده فى المؤسسات والأديان والمجتمعات القومية على سبيل المثال، (Robertson, 1992: 29) ومن وجهة نظر "روبرتسون" فإن ذلك يساعد أيضا فى تفسير ما نشهده من صعود للقوى الوطنية والمحلية بما يؤدى إلى "صدامات بين الأفكار الحضارية والاجتماعية والمجتمعية" .(Robertson, 1992: 141).

هذا التشظى هو نتاج للقدر الكبير من الاختراق المتبادل والانتساب الحادث فى المرحلة المعاصرة، بالإضافة إلى الوعى المتزايد بالعالم باعتباره مجتمعًا واحدًا، والتحديات المحتملة التى يمثلها ذلك. هناك إذن تماثل واختلاف، تجانس وتنافر فى حالة عمل، والنتيجة فى نظر "روبرتسون" (1995) هى أننا لا بد من أن

نتحرك إلى ما هو أبعد من الجدل حول المجانسة أو التنافرية العالمية. وبينما هذه التوجهات، التى تحدث فى الوقت نفسه، "يمكن أن تتصادم فى مواقف محددة، وهى تتصادم بالفعل"، لا يعود الأمر مسألة خيار بين "إما وإما"، وإنما يصبح من الضرورى الاعتراف بأنها متممة لبعضها، ومتغلغلة فى بعضها (ibid., 40) .

• تعميم الخصوصية وتخصيص العمومية.

لا ينكر "روبرتسون" وجود خطابات معولمة أو وجهات نظر كونية عامة، كما لا ينكر أننا نتأثر بما هو كونى؛ والحقيقة أن الحياة الاجتماعية تثرى بالخطابات العالمية عن طبيعة العالم ومكاننا فيه؛ ويعتقد ـ كما رأينا فى الفصل الأول ـ أننا يمكن أن نجد هذا التوجه عند الإغريق القدامى. (Robertson and Inglis, 2006) بل، أكثر من ذلك، يعترف بوجود ثقافة كونية على الرغم من أن ذلك ـ ونحن نكرر هنا ـ ليس بالتنوع المتكامل، وأنها تنبثق من التفاعل المتبادل بين الخاص والعام، والمحلى والعالمى. على نحو أكثر تحديدا، هناك عمليات تجرى تشجع على "الخلق الكونى للمحلى"، وذلك واضح فى شكل حركة بيوت الشباب الموجهة محليا، وانتشار سكن الضواحى فى العالم، والتوجه نحو تنمية حقوق ومصالح الشعوب الأصلية عالميا، فى شكل حركات وحملات سياسية عالمية. (Featherstone and Lash, 1995: 4-5) كذلك فإن الطبيعة الجمعية للثقافة الكونية منعكسة فى تبنى أساليب العمل والإنتاج اليابانية وتعميمها فى دول أخرى؛ وكذلك فإن القومية والمجتمع القومى اللذين انبثقا من هذه الأيديولوچية، قد تطورا بالترادف مع العالمية. انتشار فكرة المجتمع القومى إذن، شكل من المجتمعية المؤسسية، أو تمثل ـ بمعنى آخر ـ تأسيس نظام عالمى للمجتمعات القومية .(Robertson, 1992: 58) عند "روبرتسون" "الالتزام بفكرة المجتمع القومى مُكَوِّن حاسم فى الشكل المعاصر للدولة" .(1992: 114) فى رأيه أن الثقافة الكونية يتم خلقها، جزئيا، من التفاعلات بين المجتمعات القومية (114 : 1922) ومن هنا فإن فكرة وجود "ثقافة كونية" "فكرة معقولة، بالضبط مثل فكرة وجود المجتمع القومى أو الثقافة المحلية" (ibid).

قبل ذلك كله، ينبغى ألا نتصور الثقافة الكونية باعتبارها فوق أو أبعد من كل المحليات، أو أن لها مواصفات تتسامى إلى ما هو أبعد من أى شىء يمكن أن نجده فى وحدات نظام كونى" ؛ (Robertson 1995: 34) والحقيقة أن الكونى ليس فى مواجهة المحلى ولا مضادا له. (ibid., 35) المحلى عند "روبرتسون" جزء من الكونى. هناك، باختصار، عملية ماضية فى اتجاهين تتضمن "اختراق العام للخاص" و "تخصيص العام" .(Robertson, 1992: 100) وبالعودة إلى أساليب العمل والإنتاج اليابانية، لتوضيح هذا التوجه، نجد أن تلك الأساليب كان قد تم سبكها من مؤثرات عديدة عالمية/ خارجية. بعبارة أخرى: العام كان قد تم تخصيصه قبل تعميم الخاص.

● روبرتسون والثقافة والعولمة

إذا كان "روبرتسون" محقا، فإن الثقافة تكون إذن فى قلب العولمة، لأننا نطبق إطار عملنا الثقافى الخاص باستمرار على مدى مسيرة تفاعلاتنا اليومية مع كل ما هو كونى. "روبرتسون" بالتالى، يعارض "أنتونى جيدنز" لأنه ببساطة يعادل العولمة بالعصرية لأنها تقلل من أهمية عالم الثقافة الذى يشمل تأثير الجنس والعرقية والقومية والنوع(٧) و "روبرتسون" بالمثل، ينتقد نظرية "ڤالرشتاين" عن نظام العالم؛ لأنها لا تضع فى اعتبارها - بشكل كاف - ذلك التنافر والتعقد اللذين ينجمان عن عمليات العولمة الثقافية. مثل هذا التنوع، فى رأى "روبرتسون"، ينبثق عن التفاعل المعقد بين العناصر الأربعة المكونة للحالة الإنسانية العالمية، وهو تنوع يتم إنتاجه بشكل مستمر ويعاد إنتاجه فى زماننا، وهو إلى حد كبير جانب من القوى المحركة نفسها التى من المفترض أنها تمثل المجانسة. على أن طرح "روبرتسون" يواجه انتقادات كثيرة لإهماله الأبعاد الهيكلية للعولمة، أى أنه يهون من شأن القوى السياسية والاقتصادية التى تدفع العولمة وبالتالى لا يولى قضايا القوة واللامساواة اهتماما كافيا. (e.g., Friedman) يضاف إلى ذلك، الزعم بأن تقصيه العالمى والمحلى والعام والخاص ليس سوى عملية بحث مجرد، باعتباره يعتمد فى ذلك على ما يحدث عندما تلتقى تلك القوى وتتفاعل (Holton, 2005).

على أنه فى ما يتصل بفكرة هذا الفصل والاهتمام العام للكتاب، فإن إحدى نقاط القوة فى عمل "روبرتسون" هى أنه يطرح أسئلة مهمة، ليس بخصوص الثقافة الكونية فحسب، وإنما بخصوص العولمة كذلك.

العولمة والثقافة الكونية

بعد أن تناولنا أشكالا بعينها من المجانسة الثقافية فى القسم الأول من هذا الفصل، نقوم الآن بتوسيع النقاش فى محاولة لتحديد أسباب إشكالية الربط بين العولمة والثقافة الكونية فى أى شكل قد تتخذه الثقافة، إلى جانب إشكالية فكرة الثقافة الكونية نفسها.

● الثقافة الكونية :

مجادلات نقدية وتطورات معاصرة.

من المستحيل تبين عدد من وجهات النظر فى قضية الثقافة الكونية دون دراسات العولمة؛ وبينما يعتبر دعاة العولمة تفصيل عولمة الثقافة أمرا ضروريا، هناك متشككون مثل "هيرست" و"طومسون" (1996) يرون أن من المرجح عدم وجود ثقافة كونية بدون اقتصاد معولم، رغم أنهما لقيا انتقادات كثيرة، كما أسلفنا، لفشلهما فى تقديم تحليل عن العلاقة المتبادلة بين الثقافة والاقتصاد وإهمالهما البعد الثقافى للعولمة بوجه عام. ردا على ذلك يشير المتشككون إلى أن التصاعد الحديث للتوترات والصراعات بين الثقافات المختلفة على مستوى عالمى، قد يوحى بأننا ما زلنا بعيدين ـ كما كنا دائما ـ عن العيش فى عالم متجانس ثقافيا؛ وأخيرا، من منظور تحويلى، فإن مفهوم الثقافة الكونية غير قادر على أن يحتوى داخله تنوع وتعقد التدفقات الثقافية الكونية المعاصرة وردود الأفعال التى تثيرها، بدءا من المقاومة الثقافية وانتهاء بتأسيس شبكات عالمية جديدة .(Held et al., 1999: 327) .

قد يبدو أن عددا من التطورات المعاصرة يسير عكس أشكال المجانسة الثقافية التى أوجزناها من قبل، وخاصة أن تصور الثقافة الكونية باعتبارها "أمركة" أو "غربنة" يقوم على شكل معين من النظام العالمى تسيطر عليه أمريكا

والغرب على التوالى، بينما يمر فى واقع الأمر بتغيرات مهمة. فى هذا السياق يرى "ڤالرشتاين" أن تآكل قوة الولايات المتحدة، هو الملمح المحدد لعصرنا، وهو تطور يعود إلى سبعينيات القرن العشرين، ونتيجة لعدة عوامل بما فيها التدهور النسبى لقوة أمريكا الاقتصادية؛ والحقيقة أن مرحلة أفول أمريكا تعتبر، فى نظر بعض المعلقين، دلالة على أننا دخلنا مرحلة جديدة من العولمة. (e.g., Taylor, 2001) وفى الوقت الذى ينبغى ألا نتجاهل فيه حقيقة أن الولايات المتحدة تظل هى القوة العالمية المسيطرة، نجد أنها هى والغرب كله يواجهان اليوم تحديات كبيرة، وبخاصة أمام ذلك النمو المذهل لعدد من اقتصادات آسيا مع الصين والهند المرشحتين لأن تصبحا قوى اقتصادية عظمى فى القرن الحادى والعشرين. وبالإضافة إلى شرق آسيا، هناك عدد من الدول فى أمريكا اللاتينية تقوم بعمليات تصنيع سريعة وتصبح أكثر تكاملا مع الشبكات العالمية فى هذه العملية؛ والواقع أن بعض الملامح الدالة على العولمة مثل انتشار الأفكار وتكنولوچيات الاتصال العالمية قد أسهمت فى هذه التغيرات، بما مكن المجتمعات غير الغربية من أن تدخل فى ممارسات أفضل وتستوعب تكنولوچيات جديدة وتختصر بعض مراحل التطور؛ ولذلك بينما أخذت بريطانيا مائة عام لكى تتصنع، نجد بعض الأنظمة الآسيوية تحقق ذلك فى مدى عشرين إلى ثلاثين سنة. الأثر التراكمى لهذه التطورات يطمس فكرة التمييز بين دول العالم الثالث والعالم الأول، ويمهد الطريق أمام عالم متعدد الأقطاب، وهذا بدوره له متضمنات ثقافية، وخاصة على مستوى عالمى، بما يمكن دولا ومناطق خارج الغرب من أن يكون لها تأثير ثقافى أوسع. ولعل ذلك يحدث إلى جانب انتشار ثقافة العمل التجارى الآسيوية وأشكال تنظيم العمل التى ذكرناها سابقا، كما أن هناك منتجات وممارسات ثقافية آسيوية أخرى تنتشر عالميا مثل الطب الشعبى، والعلاجات التقليدية، والأطعمة، والأفلام، وفنون القتال، وبرامج التخسيس، وبرامج الكمبيوتر، والألعاب، والفلسفات البوذية والطاوية، وكما نرى، يتزايد انتشار الروحانيات وطرق التداوى الشرقية فى الغرب.

"چوناثان فريدمان (1999) Jonathan Friedman " يرى أننا نشهد تحديا رئيسيا للهوية الثقافية الغربية، ويشير بالمثل إلى "صعود الشرق"، ولكن أيضا إلى

التطورات الداخلية فى الغرب مثل التعددية الثقافية وتشظى الدولة ـ الأمة، ويعتبر ذلك دليلا على انهيار العصرية الغربية ومعها الهيمنة الثقافية؛ وهو يعتقد أن ذلك مرتبط بالتغيرات التى تحدث فى الاقتصاد العالمى الذى يشهد "تآكلا فى الهيمنة، وزيادة فى تصدير رأس المال، ولامركزية فى تراكم رأس المال على نطاق عالمى" .(ibid., 235) باختصار، ربما يبدو أننا نعود إلى العالم متعدد المراكز الذى كان معروفا فى القرن الثالث عشر، الذى عرفته "چانيت أبو لغد". هذه التطورات نجد آثارها فى عالم الثقافة الذى يمر هو الآخر بمستويات عالية من اللامركزية، أو التعددية مثل إحياء الهويات العرقية والدينية بما يعكس القوة والنفوذ الثقافى الغربى الذى ينكمش(٩) فريدمان" يرى أن الأهمية المتزايدة التى تعطى الآن للدراسات الثقافية ونظرية الهجنة وأنثروپولوچيا ما بعد الحداثة، من أعراض أزمة الثقافة والهوية الحديثة. والواقع أن تعددية المراكز تسير ضد الفكرة الكلية لثقافة كونية، لأنها حالة يميزها غياب قوة واحدة مهيمنة وبالتالى ـ أيضا ـ غياب قوة موحدة أو قوة مجانسة. باختصار، ليس من المرجح أن تُوَلِّد المراكز المتعددة الأشكال الثقافية نفسها أو حتى أشكالا مشابهة.

● إدراك التعقد الثقافى

تصور الثقافة الكونية باعتبارها "أمركة" أو "غربنة" ـ وافتراض أنها تتخذ شكلا معينا ـ ليس من المرجح أيضا أن يعبر عن تعقد عمليات العولمة المعاصرة. التدفقات الثقافية العالمية لا تنبعث ـ هكذا ـ ولا بشكل أساسى من الولايات المتحدة أو الغرب فى أى لحظة. الصور والرموز والأفكار والإعلانات والأفلام وغيرها من الأشكال الثقافية سوف تنبعث من مصادر أخرى متعددة وتنتقل فى اتجاهات مختلفة عبر الكرة الأرضية، ولن يكون لكثير منها علاقة كبيرة، أو أية علاقة بالمرة، بالغرب أو أمريكا. هناك أشكال من التفاعل الثقافى تحدث بين مناطق من أفريقيا وآسيا، وكذلك بداخل تلك القارات، وكما رأينا فى الفصل الأول، فإن ذلك يحدث على مدى قرون عدة، هذا إلى جانب أن فكرة "الغربنة" أو "الأمركة" تتجاهل إمكانية التدفقات الثقافية المضادة فى هيئة الأطعمة والأزياء والعقائد والموسيقى والأفلام (e.g., Bollywood)، ومؤثرات أخرى تنتقل من بلاد

مختلفة إلى الغرب. الولايات المتحدة، على سبيل المثال، مستمرة فى تمثل ثقافات أخرى على مدى تاريخها، وهو أكثر ما يكون وضوحا فى الدستور الذى استمد الكثير من الأفكار الثورية والأوروبية. باختصار: أمريكا بمثابة "اسفنجة ثقافية"، وعليه فهى مجتمع دائم التغير، (Nye, 2002: 242) وهو موضوع سوف نعود إليه لاحقا.

التدفقات العديدة والاتصالات المتبادلة التى تمثل العولمة، إذن، ليس من المرجح أن تعمل كقوة مجانسة؛ فهل يمكن، فى هذا السياق، لأى قوة أن تتسيد التدفقات والعمليات الثقافية العالمية ؟ الحجم الإجمالى للتدفقات العالمية المعاصرة فى المعلومات والصور والأفكار، يعنى أنه لم يعد بالإمكان احتكارها ـ إن حدث ـ بواسطة أى دولة أو إقليم أو مؤسسة واحدة؛ وفوق ذلك أنه بالتركيز على الثقافة الكونية، سواء بالمعنى المفرد أو الجمعى، هناك دائما احتمال إغفال أشكال ومصادر أخرى للهيمنة الثقافية. بالنسبة لكثير من الجماعات الثقافية، ليست الأمركة أو المكدلة هى التى تهدد استقلالها وهويتها الثقافية، وإنما قوة إقليمية أو تأثير محلى. أهالى التبت مثلا، يجاهدون لكى يؤكدوا ثقافتهم وهويتهم الدينية البوذية نتيجة لمحاولة الصين "تصيين Sionization"بلادهم. فى حقبة ما بعد الحرب الباردة ـ كذلك ـ كانت دول كثيرة فى الاتحاد السوفيتى السابق تحاول الحد من مستوى التأثير الثقافى والسياسى الروسى فى مجتمعاتها. إلا أن الضغوط الثقافية خارج "العالم الأول"، هى كذلك عملية ذات اتجاهين؛ فالصين والهند مثلا قوى إقليمية كبيرة تمارس نفوذا ثقافيا هائلا على الدول المجاورة، بينما هى نفسها ليست محصنة ضد التدفقات المضادة. فى حالة الصين، فإن الضغط الثقافى وتأثير دول الجوار يأتيها فى شكل الثقافة الشعبية القادمة من هونج كونج وتايوان، من الأغنيات الشعبية إلى الغناء "الكارا أوكى Karaoke" وهو ما يشكل إزعاجا لحكومة بيجين (Yang, 2004) .

بالنسبة لقضية التعقد الثقافى، فليس من المؤكد ما إذا كنا نستطيع أن نفكر فى الأمر بالأسلوب نفسه وبالصيغة نفسها .. عولمة ... أمركة .. آسينة". "بيتر چى تيلور Peter J. Taylor (2001)" يعتقد أن وصف التطورات الكونية على هذا النحو عملية إشكالية، وينبغى تجنبه لأنه يوحى بأن العملية قد أخذت شكلها

النهائى، وهكذا فإن صيغة الفعللة (إضافة اللاحقة ization إلى الكلمة الإنجليزية) تنطوى على حتمية، وبذلك فهى تنكر التعقد وتنفى إمكانية مسارات بديلة[١٠] فى حالة مشابهة. هناك سبب إضافى للحذر من تأكيد أن الثقافة الكونية تعنى الأمركة أو الغربنة أو أنها نتاج للرأسمالية العالمية، وهو ما يوجد فى التحدى النقدى الذى تواجهه هذه المفاهيم الآن. وهناك توجه متزايد فى الوسط الأكاديمى للنظر فى المفاهيم على أساس أنثروبولوچى على ضوء الخبرات والتجارب المحلية، وعليه يصبح بالإمكان القول بوجود حداثات متعددة ورأسماليات متعددة و ـ كما رأينا ـ عولمات متعددة. (Berger and Huntington, 2002; Wei-Ming, 2000). بشكل عام، هناك الآن تقبل أكثر لطرق مختلفة للعصرية ومفاهيمها مثل الحداثة الإسلامية أو الآسيوية، ووجهة نظر بأن النموذج الغربى قد لا يكون الطريق الوحيد نحو التحديث، وربما يكون غير ملائم ـ من الناحية العملية ـ لبعض الثقافات والمجتمعات (انظر: Eisenstadt, 2002) بينما قد يبدو الاعتراف بأنواع مختلفة من الرأسمالية مثل النماذج الأنجلو ـ أمريكية والإسكندنافية والآسيوية، أنه يسير ضد فكرة الرأسمالية العالمية. (انظر: Albert, 1993).

على أية حال، وعلى سبيل الرد على هذه النقطة تحديدا، ينبغى علينا ألا ننسى الدور الذى يلعبه المال والنفوذ فى تشكيل العولمة المعاصرة. على الرغم من وجود أشكال مختلفة من الرأسمالية، فإن مبدأ تعظيم الربح موجود فى أساس كل منها، وبهذا المعنى يصبح بالإمكان أن نتحدث عن شكل كونى من الرأسمالية. يضاف إلى ذلك أن بعض المعلقين يقللون من أهمية الأشكال المختلفة من الرأسمالية، مصرين على أن النموذج الأنجلو ـ أمريكى الليبرالى الجديد، هو المهيمن لأنه يجمع بين القوة الأنجلو ـ أمريكية والأيديولوچيا وتكنولوچيات الاتصالات الحديثة ودعم المؤسسات الدولية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى. يتبع ذلك أن يصبح بالإمكان الإشارة إلى أهمية تأثير الثقافات المحلية فى مواجهة مثل هذه الضغوط. ولكن، إذا كان علينا أن نتخلى عن ذلك كله، ونجرى تقويما عاما لما يحدث بالنسبة للرأسمالية فى المرحلة المعاصرة، فسوف تكون أمامنا أشكال المجانسة والتمييز فى كفتين متساويتين.

إلى جانب النظر إليها من وجهة نظر أنثروبولوجية، فإن الشك يخيم على درجة دقة وجدوى المفاهيم التى نناقشها هنا. الاعتراف يتزايد بأن "الغرب" و"أمريكا" مفاهيم عامة .. "مظلة" يندرج تحتها تنوع هائل؛ فعندما نتنقل فى الولايات المتحدة، على سبيل المثال، نجد أن هناك أكثر من أمريكا. فى حالة "الغرب"، درجة التنوع أكثر وضوحا، مع وجود تدفقات ثقافية متنافسة تتنقل بين أمريكا وأوروبا، بالإضافة إلى الفوارق الثقافية والسياسية بينهما، كما ظهر أثناء حرب العراق الأخيرة. (انظر: Kayan, 2003) .

الشىء نفسه نجده عند منظرى الهجنة، فالغرب وأمريكا لهما فى نظرهم بنى ثقافية مكونة من عدة مصادر مختلفة؛ فقد رأينا فى الفصل الأول أن الشرق له تراث ثقافى غنى ومختلط، ولكن ذلك ينطبق بالدرجة نفسها على الولايات المتحدة، فـ "البيتزا" ـ مثلا ـ التى تعتبر أحد الرموز الأمريكية التى تصدرها للعالم، هى أحد منتجات أجيال من المهاجرين الإيطاليين .(Nye, 2002: 80) كل ذلك يثير أسئلة عن ما نقصده بـ "الغربنة" و"الأمركة"، وهو ما يضعف بدوره من فكرة أن كليهما يمثل ثقافة كونية. ومن منظور منظرى الهجنة الذين عادة ما يتصورون العولمة المعاصرة مرحلة اندماج متسارع (Nederveen Pieterse, 2004) هل ينبغى علينا الاستمرار فى استخدام مسميات اصطناعية مثل "الغرب" فى ظل هذه الظروف؟

عمليات العولمة المعاصرة، بعبارة أخرى، تبرز تنافرا أكثر فى المفاهيم ذات الطبيعة الملتبسة بالفعل؛ وفى هذا السياق هناك زعم دائم أننا نشهد عدم وضوح أو ضبابية فى مفهومى "الشرق" و "الغرب"، حيث إن الثقافات تمتزج والأقاليم تصبح أقل تمايزا واختلافا. على أنه ربما تكون هناك مبالغة فى أهمية طرح الهجنة. ربما تكون مفاهيم مثل "الغرب" ابتكارات "اصطناعية"، ولكن ذلك لا يعنى أنه لا توجد ميول أو توجهات سائدة بداخلها، التحمت بمرور الوقت. يضاف إلى ذلك أنه ستكون هناك دائما، داخل أى مواجهة ثقافية، مؤثرات أو قوى أقوى سائدة على المستوى الكونى؛ ذلك لأن المجتمعات الغربية عرضة لمستوى القصف الثقافى الخارجى نفسه مثل المجتمعات غير الغربية.

• **الكونى والمحلى**

هناك نقد آخر يوجه إلى التركيز على الثقافة الكونية فى ما يتعلق بعمليات العولمة، وهو أنه يتجاهل الطرق المختلفة التى تتأصل بها هذه الثقافة، أو رفضها ومقاومتها إذا افترضنا حدوث ذلك. هذا التركيز يفترض أن "المحليين" مجرد متلقين سلبيين لمثل تلك الثقافة بدلا من قيامه بدور فى تشكيلها على نحو نشط، ولهذا السبب هناك اعتراف متزايد فى إطار دراسات العولمة بأن الكونى والمحلى موجودان معا فى عملية تفاعل مستمر(١١) هى مواجهة تتضمن العنصر البشرى ولا تنطوى على مجرد الهيمنة من جانب الثقافة الكونية والقوى البنائية. وكما رأينا، فإن "رولاند روبرتسون" يتبنى فكرة إضفاء الطابع الكونى على ما هو محلى، ليوضح الأسلوب الذى يتفاعلان به ويتداخلان ليثرىَ كلاهما الآخر. إضفاء الطابع الكونى على ما هو محلى أو "المحلية الكونية"، هى "رؤية كونية مكيفة حسب الظروف المحلية"، وكانت فى الأصل مفهوما شائعا فى دوائر العمل التجارى اليابانى كما يقر بذلك "روبرتسون" نفسه. (28 :1995)، واكتسبت اعترافا عالميا عندما تبنتها "سونى" إستراتيچية للتسويق، والآن تستخدمها مؤسسات كبرى فى أرجاء العالم. بشكل جوهرى، تحاول الشركات تكييف منتجاتها حسب أذواق وتوجهات الأسواق المحلية. تقوم شبكة ـ MTV مثلا ـ ببث موسيقى صينية فى الصين وأغنيات شعبية هندية فى الهند (Eckes and Zeil er; 2003) حتى "ماكدونالدز"، والمفترض أنها أكبر مجانس ثقافى، تستشعر الظروف الثقافية المحلية وتكيف منتجاتها حسب الأطر التى تعمل فيها. وبينما يعكسون القبول المتزايد لفكرة أن الكونى والمحلى منخرطان فى عملية تفاعل مستمرة، يؤكد بعض الكُتَّاب إمكانية انتقال التدفقات الثقافية من المحلى إلى الكونى لإثراء الأخير. (انظر: Cvetkovich and Kellner, 1997) مرة أخرى، هناك دليل، ربما، على هذا التوجه من جانب "ماكدونالدز" التى تركز الآن على أساليب الحياة الصحية وبيع السلاطة والفاكهة فى مطاعمها، على الرغم من أن هذه النقلة قد يكون مرجعها النقد الذى وجه إليهم، أكثر من كونها جاءت نتيجة لاهتمام الشركات بالثقافات المحلية.

على الرغم من التأكيد مؤخرا على عملية إضفاء الطابع الكونى على ما هو محلى، فإن هذا لا يعنى بالضرورة أن المواجهة بين الكونى والمحلى متكافئة. الثقافات الأصلية فى الأساس مستجيبة، وهى تتكيف مع المؤثرات الأجنبية، والحقيقة أنه لن تكون هناك ديناميكية كونية/ محلية دون المزيد من القوى الخارجية مثل المؤسسات متعددة الجنسية والمؤسسات العابرة للحدود القومية التى تصنع تدفقات ثقافية وتدعم مثل تلك المواجهات. ولكى نكمل موضوع القوة هذا فى علاقته بالمواجهة الكونية -المحلية، ينبغى عدم إغفال إمكانية وجود البنى المسيطرة التى تشكل طبيعة هذا التفاعل. وبالعودة إلى النقطة التى تناولناها عاليه، نجد أن الرأسمالية والمبادئ الرأسمالية هى التى تحفز المؤسسات متعددة الجنسية والعابرة للحدود القومية لتأسيس شركات ومنافذ فى أنحاء مختلفة من العالم، بالإضافة إلى توجيهها لكى تتكيف مع الأسواق المحلية؛ والحقيقة أن هناك كذلك حسابات "فيبرية"(*) منطقية تعمل هنا، بمعنى أن المؤسسات متعددة الجنسية والعابرة للحدود مثل "ماكدونالدز" قد حسبتها، ووجدت أن توجهها فى تعاملاتها نحو المحلى هو أكثر الطرق كفاءة لزيادة أرباحها.

وفى النهاية علينا أن نفكر ما إذا كان بالإمكان الآن أن تكون "محليا". ومع وجود القوة وإمكانيات التوسع للتدفقات الثقافية الكونية، هل هناك أى مكان فى العالم لم يتأثر بدرجة ما بالعولمة ؟ ما معنى، إذن، أن تكون محليا؟ وإذا كان المحلى لم يعد له وجود فهل يعنى ذلك أن كل شىء قد أصبح كونيا ؟

"أولف هانرز (1991) Ulf Hanners " يلمح إلى ذلك مشيرا إلى أن التدفقات المحلية يتزايد التواصل بينها لدرجة أنها أصبحت تشكل خطابا كونيا للمحلية. على أننا نستطيع أن نمضى بعيدا فى هذا السياق، إذ بينما نجد كل مكان فى العالم، تقريبا، قد تأثر بدرجة ما وأفاد من القوى الكونية، لا بد من أن نعى أن ممارسات الناس وسلوكهم اليومى تتكيف حسب تاريخهم الحياتى البيئى والشخصى المباشر، وهذا يوضح النقطة الأساسية فى العلاقة بين الكونى

(*) نسبة إلى ماكس فيبر (المترجم).

والمحلى تماما. باختصار، لكى تكون القوى السائدة أو المجانسة موجودة، لابد من أن يتسع تأثيرها وأن يعاد إنتاجها فى مناطق جديدة؛ ولكنها فى هذه العملية تتفاعل مع ما هو محلى، حيث المرجح أن يتغير شكلها فى هذه الأطر والسياقات المختلفة.

"ثقافة" كونية أم "ثقافات" كونية؟

هل نشهد إذن ظهور ثقافة كونية ؟ الإجابة باختصار أن ذلك ليس من المرجح حدوثه سواء الآن أو فى المستقبل المنظور. والحقيقة أنه على ضوء المدى الذى وصل إليه اتساع التنوع الثقافى الإنسانى، ربما تكون "ثقافة" كلمة كبيرة وقوية لكى تستخدم على المستوى الكونى، ولعل الأرجح فى حال استمرت الأنماط الحالية، أن نرى المزيد من الناس يطورون استعدادهم وقدراتهم على التفكير فى ما هو أبعد من المحلى والخاص، ويكتسبون الشعور بأنهم موجودون فى العالم وأنهم جزء منه. فى النهاية، وعلى الرغم من ذلك، لكى نقرر ما إذا كان توجد أو تنبثق ثقافة كونية، نحن مرة أخرى فى حاجة للتفكير فى ما إذا كان اهتمامنا بتحديد ثقافة كونية موحدة دليلا على ميلنا للدولة ـ الأمة، الأمر الذى يصبح ـ على نحو متزايد ـ غير ملائم فى المرحلة المعاصرة من العولمة. وهكذا فإن الاستقرار والتجارب المشتركة المطلوبة لتكوين مثل هذه الثقافات فى حالة صراع مع كل من اتساع التدفقات الثقافية المعاصرة وعدم القدرة على التنبؤ بها. يتبع ذلك، إذن، أننا ينبغى ألا نناقش الثقافة الكونية بالشكل الذى تتخذه داخل المجتمعات القومية أو الجماعات الدينية؛ وذلك لأننا لا يمكن أن نتوقع أن تمارس ثقافة كونية السيطرة نفسها علينا وعلى خيالنا وتصوراتنا مثلما تفعل ثقافتنا القومية أو الدينية. (Featherstone, 1990)، وفى هذا السياق يصر "أنتونى سميث Anthony Smith على أن "الثقافة الكونية"، مقارنة بالثقافات القومية هى ثقافة "بلا ذاكرة أساسا" .(179 :1990) بالنسبة له ليس هناك "ذاكرات كونية" تستطيع أن توحدنا جميعا، وكل ما يمكن أن تفعله "أكبر التجارب الكونية حتى الآن ـ الاستعمار والحروب العالمية ـ هو أنها تذكرنا بانقساماتنا التاريخية". (ibid., 180) من المرجح كذلك أن نفهم الأحداث التاريخية من خلال عدساتنا

القومية، وبذلك نستبعدها من أن تكون ذاكرات عالمية أو أساسا لثقافة كونية. عمليات التطبيع الاجتماعى والقيم المشتركة والشعور بتجانس الجماعة، وهى الأمور المطلوبة لتأمين تطور مثل هذه الثقافة ـ كلها غائبة، ناهيك عن الذاكرات التاريخية المشتركة. يضاف إلى ذلك أن الكثير من مواجهاتنا الكونية سيكون من النوع الافتراضى الذى يدور فى الفضاء الإلكترونى، وبالتالى من غير المرجح أن تكون ذات معنى مثل "حياتنا المحلية الحقيقية" وخبراتنا اليومية التى تحدث فى حدود مناطقنا القومية الخاصة. لكى تطوى ثقافة كونية صفحة ثقافتنا القومية، فإن الأمر يتطلب حالة كونية، أو على الأقل مؤسسات عالمية أكثر تطورا تسمح بأشكال من المشاركة العامة. باختصار، مقارنة بثقافتنا القومية، نحن نشعر بقدر قليل من الارتباط، أو ربما لا نشعر على الإطلاق، بثقافة كونية، حيث إنها لا تشبع حاجة عاطفية أو عملية لدينا. من منظور "سميث"، على ضوء وثاقة الصلة بالثقافات القومية، فإن أفق توقع تغير هذه الأوضاع فى المستقبل المنظور ضئيل. "سميث" يذهب أبعد من ذلك مجادلا أن "فكرة وجود ثقافة كونية مستحيلة عمليا" (171 :1990) وذلك لأننا إذا فكرنا بالثقافة باعتبارها "أسلوبا جمعيا للحياة"، أو مستودعا للمعتقدات والأنماط والقيم والرموز، سيكون بالإمكان حينئذ فقط أن نتكلم عن "ثقافات" وليس عن مجرد "ثقافة"، حيث إن "أسلوبا جمعيا للحياة أو مخزون معتقدات .. إلخ"، يفترض مسبقا وجود أساليب ومخزونات مختلفة فى عالم من الأساليب والمخزونات .(ibid) .

على أن المؤكد أن مفهوم "سميث" للثقافة متأثر بعمله فى مجالات القومية والثقافات القومية، وهذا يؤدى به إلى تصور الثقافة وتطوراتها الكونية على نحو خاص. على العكس من ذلك فإن عالم الأنثروپولوچيا الاجتماعية "أولف هانرز"، الذى كتب كثيرا عن العلاقة بين الكوزموپوليتان (العالميين) والمحليين فى المرحلة المعاصرة، نجد لديه مفهوما أوسع للثقافة وأسلوب استشراف مختلفًا للموضوع، محددا ـ كما ذكرنا سابقا ـ وجود ثقافة عالمية فى التواصل بين الثقافات المحلية، إلى جانب تطور الثقافات الذى لا يتوقف فى أى منطقة. (1992 b)، عند "هانرز" العالم ليس نظاما للمعنى أو التعبير متجانسا ومنفردا، لقد أصبح بالأحرى، "شبكة واحدة" من العلاقات الاجتماعية، وهناك بين مناطقه المختلفة تدفقات من

المعانى، إلى جانب تدفقات البشر والسلع. (1990: 237)، ولكن مرة أخرى يمكن أن نرى كيف أن الخلفيات الأكاديمية المختلفة يمكن أن تثرى المنظورات المختلفة عن العولمة الثقافية. كلاهما، "سميث" و"هانرز" محق فى تقييمه للثقافة الكونية، من وجهة نظره لما يمثل الثقافة.

هناك عقبة أخرى أمام تكوين ثقافة كونية موحدة، وهى عدم وجود "آخر". التكون الثقافى والتضامن الجمعى يدعمهما إمكانية المقارنة المضادة بجماعة ثقافية أخرى، جماعة ينظر إليها باعتبارها مختلفة، غريبة، لا تنتمى، أو باختصار "خارجية" .(Featherstone, 1990) على أننا لو تصورنا ثقافة كونية بمعنى محدد، الغربنة مثلا، حيث يكون بالإمكان تحديد "آخر" فى هيئة تلك المجموعات أو المجتمعات التى لا تتسق مع المعايير والقيم الغربية، لو تصورنا ذلك لأصبح بالإمكان أن يقال الآن عن "أسامة بن لادن" وشبكة القاعدة أنهم يقومون بهذا الدور، فأعمالهم تقدم عادة بواسطة القادة الغربيين على أنها تحد للنظام العالمى (الذى ينظر إليه من منظور الغرب باعتباره الديمقراطية وحقوق الإنسان وحكم القانون)، ومن هنا فهم متهمون بالعمل خارج حدود المجتمع المتحضر، على أن الفكرة الكلية للغربنة - كما رأينا - لا تعدم نقادا لها.

هناك - باختصار - عوامل كثيرة تعمل ضد بلورة ثقافة كونية فى أى شكل؛ وذلك على نحو خاص فى وجود الأساليب المعقدة التى تعمل بها عمليات العولمة التى تتضمن - إن كان رولاند روبرتسون على حق - مدى التغلغل بين المحلى والكونى؛ فمن غير المرجح تماما أن تنبثق ثقافة كونية موحدة. وكما أشار "مايك فيذرستون": إننا بدلا من التفكير بثقافة كونية عامة، علينا أن نتصورها ميدانا تظهر فيه الفوارق وصراعات القوى» (14 : 1995) ، وبينما هناك ضغوط من أجل التجانس تمارس تأثيرها فى المرحلة المعاصرة، هناك فى الوقت نفسه قوى مغايرة تعمل؛ وهذا يعنى أن علينا أن نتعامل مع مفاهيم مثل "الأمركة" و "المكدلة" بتشكك كبير، رغم أن "ريتزر" وغيره قد يردون بأنهم إنما يحاولون تحديد التوجهات السائدة فى عصرنا أكثر مما يحاولون تحديد ظروف نهائية. حتى هذه التوجهات سوف يطالها الفهم النقدى ومحاولة التأصيل، وربما يتم رفضها بالكلية، إلى جانب أنها سيكون عليها التصدى لتوجهات مضادة. من هنا فإن

النتيجة الرئيسية لقوى التجانس الثقافى، فى نظر بعض الكُتّاب، هى التفرقة والمزيد من التشظى (e.g., Axtmann, 1997) .

ربما يكون من الأجدى أن نفكر بالثقافة الكونية بصيغة الجمع ... أو بأن هناك ثقافات كونية، أو على الأقل "ثقافات فى حالة تعولم". نحن نشهد ـ على سبيل المثال ـ ظهور عدد من الثقافات الكونية فى المرحلة المعاصرة، بما فى ذلك إسلام معولم، أو بوذية، أو مسيحية إيفانچليكية، وحركات مناهضة للعولمة منتشرة فى العالم، وحركة بيئية عالمية، ومجتمع موسيقى عالمية، وثقافة كرة قدم عالمية. المشترك بين هذه الحركات، إلى جانب اتساعها الكونى، هو أن المؤيدين والمتحمسين والتابعين لها يتوحدون مع شكل ثقافى خاص يميزهم عن سواهم، ومن ثم يكون لديهم شىء مميز يرتبطون به والمرجح أن يُقوى هذا الا٤رتباط. هذه الثقافات الكونية، بعبارة أخرى، تحتفظ ببعد شديد الخصوصية، وهذا يمضى إلى حد ما فى نفس اتجاه نقد "أنتونى سميث" ومفهومه للثقافة. فكرة الثقافات الكونية هى كذلك اعتراف بحقيقة أننا نعيش ثقافات متعددة، بما فى ذلك تلك على المستوى الكونى؛ فالمسلم، على سبيل المثال، سوف يتوحد مع الأمة أو المجتمع الإسلامى العام الذى يمتد فى كل أجزاء العالم، ولكنه فى الوقت نفسه قد يكون مهتما بكرة القدم العالمية ومن ثم مرتبطا بثقافة كونية أخرى. هذا الأسلوب من الاستشراف يعنى كذلك أننا يمكن أن نرى أشكال التجانس الثقافى مغطاة هنا، مثل المكدلة والأمركة والغربنة، التى قد انتشرت بالتأكيد عبر الحدود الجغرافية وفى مناطق أخرى باعتبارها مجرد ثقافات كونية متنافسة أكثر من كونها تمثل ثقافة كونية موحدة. والحقيقة أن تصور الثقافة الكونية بالمعنى الأخير فيه تجاهل للتنوع الكبير الموجود فى العالم، بالإضافة إلى كونه تقييما غير واقعى لأساليب عمليات العولمة المعاصرة؛ يضاف إلى ذلك أنه بتناول هذا الموضوع على هذا النحو، فإننا نعترف بأنه بينما لا توجد قوة تجانس ثقافية مسيطرة تعمل، فإن ذلك لا يعنى أن قوى التجانس لا وجود لها، وأنها تمارس بواسطة أناس مرتبطين بها فى أرجاء الكرة الأرضية.

إذا قبلنا بوجود ثقافات كونية، يصبح بالإمكان أن نفهم على نحو أفضل كيف يتفاعل الكونى والمحلى، وبخاصة فى ما يتعلق بعملية التكوين الذاتى. ببساطة، لو

أن هناك "ثقافة" كونية منفردة فسوف يكون هناك توقع لرفضها من قبل كثيرين فى العالم والعكس صحيح؛ فمع "ثقافات" كونية سيكون هناك البعض ممن نتوحد معهم وسوف يكونون جزءا من ثقافتنا المحلية، التى لا شك فى أنها تثرى تصوراتنا للثقافات الكونية المختلفة: كذلك فإن الثقافات الكونية، وتحديدا بعضها، يمكن أن تشكل جزءا من إطار تصورنا للعالم وفهمه. هذا يعنى أن التدفقات الثقافية التالية سوف يتم فهمها فى ضوء هذا التفاعل بين الكونى والمحلى، بوصفه جزءًا من عملية مستمرة للتكون الذاتى؛ وعليه فالموضوع مكون من المواجهة، أو بالأحرى التغلغل المتبادل بين الكونى والمحلى.

وفى النهاية، فإن هذا التقصى للثقافة الكونية لم يكن مقصورا على العالم الثقافى، وإنما تضمن بين أشياء أخرى اعتبارا للنظام السياسى العالمى وطبيعة الاقتصاد الدولى. واضح أن الثقافة مرتبطة بشكل وثيق بكل من القوة والمال، وذلك يعيدنا إلى موضوع لخصناه فى المقدمة وهو: إذا كنا نريد أن نفهم العولمة الثقافية، علينا أن نعتمد على الأفكار بعيدة النظر فى أساليب التناول المتعددة المجالات المعرفية. ما غدا واضحا على مسار هذا الفصل هو أن المواقف والرؤى المتباعدة حول قضية الثقافة الكونية، يمكن إرجاعها إلى الفوارق بين المجالات المعرفية الأكاديمية. وكما رأينا فى القسم الأول من الفصل، فإن تأكيد التجانس الثقافى (بمختلف أشكاله) والأنظمة العالمية كان أقوى بين علماء الاجتماع والاقتصاد. على النقيض من ذلك نجد أن القسم الثالث يؤكد التنافر والهجنة فى ما يتعلق بالثقافة الكونية، من جانب منظرى الثقافة وعلماء أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة. مرة أخرى، يبدو أن هناك جانبا من العولمة الثقافية يولد انقسامات بين العلوم الاجتماعية والدراسات الثقافية.

للمزيد عن مادة الفصل الرابع:

- من الأعمال الرئيسية التى تبحث فى العلاقة المتبادلة بين العولمة والثقافة الكونية، انظر:

Roland Robertson´s: "Globalization", 1992.

M. Featherstone, (ed.): "Global Culture" 1990.

- انظر كذلك كتاب Leslie Sklaire الصادر فى 2002 بعنوان:

Globalization: Capitalism and its Alternatives

الذى يبحث بالتفصيل أوجه الصلة بين العولمة والرأسمالية والثقافة الاستهلاكية.

- للاطلاع على عدد من المقالات المحكمة عن العلاقة بين النظام العالمى والثقافة، انظر:

Wallerstein (1990 a)

Boyne (1990)

- فى كتابه الصادر فى (1996) بعنوان: "The Westernization of The World" يقدم Serge Latouche دراسة شاملة عن الجوانب المختلفة للغربنة.

- للمزيد عن أطروحة "المكدلة" وما وجه إليها من انتقادات، انظر:

George Ritzer´s: "The McDonaldization of Society". (1993)

Barry Smart´s (ed.): "Resisting McDonaldization" (1999)

- يغطى كتاب John Tomlinson الصادر فى (1991) بعنوان: "Cultural Im-perialism" مجالات ومجادلات واسعة حول الاستعمار الثقافى.

الفصل الخامس

العولمة والثقافة القومية

كثيرا ما يؤكد أن العولمة تؤدى إلى تآكل الثقافة القومية. هذا الفصل من الكتاب سوف يقوم بعملية تقويم لهذه الرؤية ضوء التحديات التى تواجه الدول - الأمة والثقافات القومية فى حقبة العولمة، مثل تأثير الميديا العابرة للحدود، وتكنولوچيات المعلومات والاتصال، وأنماط الهجرة، والتعددية الثقافية المتزايدة فى كثير من المجتمعات[1] كما سوف نعرض لآراء كل من "أنتونى سميث" (1995) و"مايكل بيلنج" (1995) اللذين يؤكدان الصلة المستمرة للثقافات القومية فى عصر العولمة، وكذلك لتأثير التهجين ونظرية الهجنة على هذا الجدال؛ وسوف نبدأ بتلخيص بعض الأفكار النظرية الرئيسية عن القومية والثقافة القومية بالإضافة إلى النقاش الدائر حول ذلك. يضاف إلى ذلك أننا سوف نقوم بتوضيح كيف أن النظرية التى ترى العولمة خطرا على الثقافة القومية تعتبر مفهوما مغرقا فى التبسيط، يقوم على فهم قاصر لطبيعة الثقافة القومية، وعلى افتراض معيب بأن التدفقات الثقافية الكونية تعمل بأسلوب مفرد.

القومية والثقافة القومية

قبل أن نبحث كيف تؤثر عمليات العولمة فى الثقافات القومية، لابد من أن نضع فى اعتبارنا طبيعة تلك الثقافات، وهو ما يتضمن أن نكون على دراية بعلاقات القوى التى تعمل على تكوينها؛ وفى هذا السياق نجد أن الثقافات القومية تعكس - تقليديا - تأثير القوى أو النخب المسيطرة داخل المجتمع، الذى كان يعنى إلى عهد قريب نسبيا أن المرأة وجماعات الأقليات قد أسهمت قليلا فى تطورها بشكل عام؛ وهذا بدوره يعنى أن الثقافات القومية والدول كانت تقليديا

آماكن للنزاع الثقافى؛ وهناك صعوبة تحليلية أخرى تقدمها لنا الثقافات القومية لتعكس هذه الحقيقة، هى أنها ليست كيانات ثابتة أو مستقرة، وإنما ـ بالأحرى ـ تتطور مع الزمن، مما يضيف إلى صعوبة تحديد أى تأثير للعولمة عليها. باختصار.. هل الثقافات القومية تتغير نتيجة تحولات داخلية أم نتيجة مؤثرات خارجية تقدمها عمليات العولمة، بما فى ذلك إطار كونى متغير؟ وهل هذه التغيرات تتم نتيجة للتغلغل المتبادل بين الكونى والمحلى؟ يضاف إلى ذلك أن هناك عوامل أخرى تزيد الأمور تعقيدا عند التفكير بالثقافات القومية، وخاصة الانزلاق المفهومى الذى يحدث عادة عندما يناقش الكُتَّاب موضوعات القومية والدول والدول ـ الأممية والهويات القومية[٢] انظر: (Connor, 1978)، وهذه المشكلة تتفاقم بسبب عدم وجود إجماع على أصول وطبيعة القومية والهوية القومية، الذى ينعكس فى ظهور عدد من المدارس الفكرية المختلفة فى هذا الموضوع، والتى تصنف إلى مفاهيم بدئية (أصلية) وحداثية وعرقية ـ رمزية؛ ويضاف إلى هذه القائمة تفسيرات أخرى لدى كُتَّاب يحاولون التحرك إلى ما هو أبعد من أساليب الاستشراف التقليدية للقومية، وهو ما سوف نفصله هنا باعتباره "ما بعد قومى".

• المفهوم البدئى للقومية

يعتقد دعاة هذه الفكرة أن بالإمكان تعريف الدول والثقافات القومية والشعور بالولاء القومى، بالرجوع إلى الإغريق والحضارات الباكرة الأخرى. (انظر: Geertz, 1963; Van den Berghe, 1979) الدول من هذا المنظور، طبيعية وشاملة وهى امتداد لعلاقات القربى وجزء لا يتجزأ من السلوك الإنسانى، بمعنى أنها تشبع حاجة إنسانية. الدول قد تختفى وتعاود الظهور على مدار التاريخ الإنسانى؛ ولكنها دائما هناك لا يمكن اختراعها هكذا ببساطة. (Kellas, 1991) ومثلما قد يخطر على ذهن القارئ، إذا كنا سنقبل هذا الطرح، فإن الكثير سوف يتوقف على تعريفنا لـ "القومى". على نحو أكثر تحديدا، "المجتمعات القومية" فى المرحلة القديمة ربما لا تكون متسقة مع مفاهيمنا عن القومية، وهى دول بمعنى أضيق أو أوسع بكثير مما

نفهمه اليوم. فى هذا السياق فإن الإصرار على المفهوم القديم بأن الدول كانت موجودة قديما، لا يصمد أمام حقيقة مهمة، وهى أنه خلال تلك المرحلة كانت هناك قوى كثيرة موازية تعمل، وبخاصة: الإقليمية، والهجرة، والتعددية، والاختلاط الثقافى.

● المفهوم الحداثى للقومية

على النقيض من ذلك، يرى الحداثيون أن الثقافات القومية والقومية، انبعثت خلال فترة معينة من التاريخ الأوروبى الحديث، وفى ذروة عدد من التطورات، قبل أن تنتشر فى بقية العالم. فى رأى "بنديكت آندرسون Benedict Anderson" (1983) على سبيل المثال، ظهور رأسمالية الطباعة فى أواخر القرن الثامن عشر أمر محورى فى تطور القومية؛ لأن ذلك أدى إلى ظهور أشكال مختلفة من الأدب (كتب، صحف،... إلخ) أصبحت منتشرة وتساعد فى جعل الناس "يتخيلون" أنفسهم جزءا من جماعة قومية مشتركة فى تجربة مشتركة، حتى على الرغم من أنهم، غالبا، لم يكونوا يلتقون بأغلبية أقرانهم من المواطنين. فى سياق مشابه، يحدد "إرنست جلنر Ernest Gellner" التصنيع وصعود "المجتمع الصناعى" اللذين ظهرا فى أجزاء من أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر كلحظات فارقة فى تاريخ القومية. الصلة بين التصنيع والقومية عنده، نابعة من كون النمو الصناعى يتم تسهيله من خلال نمط معين من الثقافة والنظام السياسى، وبالتحديد القومية الحديثة والدولة ـ الأمة. (Kellas, 1991; 42) بعبارة أخرى، النمو الصناعى كان يتطلب ـ وشجع فى الوقت نفسه لغة مشتركة، وعملة واحدة، ونظاما قانونيا وتعليميا مشتركا، ودولة مركزية لكى تطبق وتنسق هذه التطورات، التى أسهمت كلها فى تكون الدولة المتجانسة، وتصنيف العدد الكبير من اللغات والثقافات المحلية والعرقيات، التى كانت تميز المجتمع الإقطاعى، أثناء هذه العملية؛ وهناك كتاب آخرون يرون أن القومية كانت مشروعا محسوبا عندما "اخترعت" النخب فكرة الدولة والتقاليد القومية لكى تحافظ على الوضع القائم وعلى أوضاعها الخاصة .(Hobsbawm and Ranger, 1983) على أن المشكلة مع الخط الحداثى فى الجدال كما لاحظ كثير من النقاد، هى أنه يكافح لكى يفسر

النزعة العاطفية القوية للقومية ولماذا كان كثيرون مستعدين للقتال والموت من أجل أوطانهم. (Kellas, 1991: 43) والحقيقة أن هذا يعنى أن السكان يتم خداعهم بشكل جماعى وعلى نحو مستمر، ولكى نعيد صياغة "أنتونى سميث" نقول: "إنك لا تستطيع أن تخترع دولا لا وجود لها" (1990: 180-1) .

• المفهوم العرقى - الرمزى للقومية

فى مسار متوسط بين هاتين المدرستين الفكريتين، يصر دعاة العرقية الرمزية على وجود أصول عرقية للدول الحديثة؛ وفى هذا السياق يجادل "أنتونى سميث" (1986) بأن الدول لم تنتج عن التطورات الحديثة مثل الرأسمالية والتصنيع فحسب، بل إنها - بالأحرى - لها جذورها وأصولها فى الجماعات العرقية فى المرحلة ما قبل الحديثة. هناك إذن داخل هذا التقليد العرقى - الرمزى تأكيد قوى على الاستمرارية (Kellas, 1991)، وبعبارة أخرى، فإن الدول الحديثة لا تنبثق من المجهول وإنما تنمى وتطور الأساليب التى يتواصل بها أعضاء الجماعة العرقية. الرمزية -العرقية، على أية حال، تواجه انتقادات كثيرة، فدعاتها مثل "سميث" متهمون بالتقليل من شأن الفوارق بين الدول الحديثة والمجتمعات العرقية الباكرة، (özkirimli, 2000) كما أن هناك زعما - على نحو خاص، بأن طبيعة وبنية الدول "المدنية" الحديثة لا وجود لها فى المراحل الباكرة من التاريخ.

• المفاهيم ما بعد القومية للقومية

هناك المزيد من الانتقادات لهذه الاستشرافات المستقرة، وبخاصة لأنها ذات مركزية أوروبية. (Chatterjee, 1986) وعمياء عن النوع (McClintock, 1996) وتفترض التجانس الثقافى والاستقرار، بينما هناك فى الواقع تنوع وسيولة. (Bhabha, 1990) ما هو عام بالنسبة لأساليب الاستشراف "ما بعد القومية" مثل الدراسات الخاصة بالنسوية وما بعد الاستعمار، هو محاولة المضى إلى ما هو أبعد من حدود وأشكال الإقصاء التى تأسست عليها القومية والدولة تقليديا، وهو ما يجعل الثقافات القومية مشكلة ويتحدى البنى السائدة للدولة وحتى مجرد التفكير فى ما هو أبعد من الدولة نفسها (özkirimli, 2000) .

الكُتَّاب المنخرطون فى الجدال حول الظرف المعاصر للثقافة القومية، سوف يعتمدون دائما على الاستشراف النظرى الخاص للقومية الذى يناسب حالتهم، وعليه فإن أولئك المعلقين الذين يرون أننا نشهد انكماش الثقافات القومية نتيجة للعولمة، سوف يشيرون إلى المزاعم بأن الدول والقوميات عبارة عن هياكل أو اختراعات حديثة وهو ما يتفق مع طرحهم. لو لم تكن الثقافات القومية موجودة منذ زمن بعيد لكان معنى ذلك أننا كنا قادرين على العيش بدونها فى الماضى ونستطيع أن نفعل ذلك مرة أخرى، وهذا ما يحدث الآن. (Held and McGrew, 2002b) الكُتَّاب الذين يعتقدون أن الثقافات القومية ستبقى حية فى زمن العولمة، يشيرون إلى تاريخها الطويل، والوسائل التى أصبحت من خلالها متجذرة سواء فى مجتمعاتنا أو خيالنا، ولكن هذا النقاش سينتقل الآن إلى درس الأساليب الخاصة لعمليات وتطورات العولمة المعاصرة فى تحديها للثقافات القومية.

العولمة وانكماش الثقافة القومية

- **التدفقات الثقافية الكونية والثقافات القومية.**

هناك الآن كثير من الكتابات التى ترى -بإصرار- أن التدفقات الثقافية الكونية ضارة بالدولة -الأمة وبالثقافة القومية؛ فنجد على سبيل المثال كلا من "سكوت لاش Scott Lash" و"جون أورى John Urry" ، متخذين من فكرة "أپادوراى Appadurai" عن "المشاهد" نقطة انطلاق، يجادلان بأن فضاءات الميديا أهم من فضاءات الأفكار. بعبارة أخرى، نجد أن الانتشار الإلكترونى وانتشار الصور والمعلومات فى حقبة ما بعد الحداثة يحظى بأهمية أكبر من الأفكار والأيديولوچيات والمؤسسات والخطاب العقلانى الذى يميز الحداثة، التى تعتبر القومية والدولة ـ الأمة جزءا لا يتجزأ منها؛ ونجد ذلك منعكسا فى حقيقة أن الحكومات القومية لم تعد تحتكر تدفق المعلومات. فى هذا السياق، فإن تطور ميديا عابرة للحدود قد يبدو له متضمنات ملحوظة بالنسبة للدول ـ الأممية وللثقافات القومية. الصين مثلا، لها تراث من السلطوية والسيطرة المحكمة على الميديا، ومن هنا فإنها قد تبدو نموذجا للدولة ـ الأمة القادرة على التحكم فى أى

مؤثرات ثقافية خارجية. على أية حال، نتيجة لظهور الميديا العابرة للحدود، التى بدأت فى تحدى الميديا القومية داخل الصين، نجد أن المجتمع الصينى قد تم اختراقه بواسطة قوى ثقافية خارجية، وليست غربية فقط كما رأينا فى الفصل السابق، بل ومن دول جوار. فى هذا السياق، وبناء على دراسة حالة لشانغهاى، نجد " ماى فير مى - هوى يانج May Fair Mei-hui Yang " يرى أن نجاح هوية ثقافية صينية عابرة للحدود، يضعف تأثير الدولة على نحو متزايد، بما يجعل من الصعب على الدولة الحزبية الصينية أن تشكل رعاياها، كما يقول؛ وكان الكاتب الراحل "چيرالد سيجال (2002) " (Gerald Segal أحد أهم من كتبوا عن الصين) قد لاحظ أن الدولة الحزبية الصينية أنفقت معظم العقدين الأخيرين فى حرب وقائية ضد المؤثرات الثقافية الخارجية.

ينظر كثيرون إلى التدفقات الثقافية الكونية كذلك باعتبارها مؤثرات تؤدى إلى ضعف الفضاء القومى، كما ينظرون إلى العولمة باعتبارها تمهد الطريق أمام مفهوم أكثر انفتاحا للسكان والثقافة يتحدى الفضاءات المحدودة للدول - الأممية، وهو ما يتحقق عبر الشبكات المعقدة للميديا الإلكترونية الكونية، والتدفقات الثقافية التى تخلق مساحات جديدة من الفضاء الافتراضى بما يسمح بتطور مجتمعات وثقافات افتراضية قليلة الصلة بالمكان أو المنطقة القومية، وربما منبتة الصلة بها. (انظر: Jones, 1997; Woolgar, 2002) تكنولوچيا المعلومات والاتصال الحديثة تحديدا، مثل الإنترنت والفضائيات تمثل خطرا على الحدود القومية وتعيد تشكيل علاقتنا بالفضاء والمنطقة والهوية أثناء هذه العملية. (Morley and Robbins, 1995) ومثل هذه التطورات هو الذى جعل "دورين ماسى (1994) Doreen Massey" تحث على "مفهوم تقدمى للمكان"، مصرة على أن شبكة العلاقات الاجتماعية والتحركات والاتصالات والتفاعلات التى تربط الأماكن ببعضها ليست ساكنة، وإنما ينبغى النظر إليها باعتبارها عملية مستمرة. وبالإضافة إلى ذلك ترى أن الأماكن ليست كيانات محددة أو مقيدة وإنما يجب فهمها فى إطارها الجغرافى الأوسع. بعبارة أخرى، فإن ما يساعد على تحديد أو تعريف المكان هو علاقته بما هو خارجه، فمحاولات إبعاد أو إقصاء من يعتبرون غرباء، توضح لنا الكثير بخصوص المكان. فى سياق مماثل، يعتقد "مانويل

كاستلز" (1996) أن ظهور مجتمع شبكى يغير طبيعة الحياة الاجتماعية بأن يحملها إلى ما هو أبعد من الحدود القومية؛ كذلك يجادل "تيموثى لوك "Timothy Luke" بأن التدفقات العابرة للحدود فى رأس المال والبشر والسلع والمعلومات والثقافة، كل ذلك يخلق "محلية/ كونية/ فضائية/ إلكترونية/ تليفزيونية/ معلوماتية، تصهر المحلى والكونى فى حياة يومية عالمية جديدة" (1995: 91)، يضاف إلى ذلك أنه يعتبر "المحلى والكونى يمتزجان فى أساليب إنتاج كونية/ محلية جديدة، عبر وخارج الحدود القومية؛ وفى رأيه أن الحدود السامية بالفعل، يتم اختراقها اليوم من قبل التدفقات الكونية من السلع والخدمات والمعلومات، وبالتالى يتزايد تآكلها أثناء هذه العملية. كذلك فإن مساحة الاعتماد المتبادل كبيرة بين المجتمعات والمناطق فى أرجاء العالم، لدرجة أن الكثير من المؤسسات فى الدول ـ الأمة الحالية، تعتبر الآن قيدا على النماذج والأساليب الكونية/ المحلية الناشئة" (ibid) , ويتابع "چون أورى John Urry" (2000) مثل هذه الأفكار إلى أقصى مدى، محاججا بأن الاختراق اليومى للحدود القومية بواسطة عمليات العولمة والتدفقات، يقلل من أهمية دور علم الاجتماع، الذى كان، تقليديا، يتمحور حول درس المجتمعات القومية وأصبح فى حاجة إلى تطوير "علم اجتماع حركة" قادر على تجاوز حدود الدولة ـ الأمة.

عودة إلى فكرة أن الناس حَمَلَة ثقافة، نجد أن تدفقات الهجرة المعاصرة تجلب معها تعقيدات وعوامل تنافر تجعل المجتمعات تصبح ـ على نحو مطّرد ـ متعددة الثقافة، متعددة العرقية. هذا التحول من دول عرقية إلى دول تعددية يثير كثيرا من النقاش حول ملاءمة استخدام نماذج مجتمعية متعددة الثقافة أكثر منها عرقية ـ قومية. (e.g., Glazer, 1997) هذا بالإضافة إلى الإسهام فى إعادة ظهور القومية العرقية والسياسات المغرقة فى اليمينية والعنف العنصرى فى عدد من الدول. (انظر الفصل السادس). العلاقة بين ذلك والجدال حول الثقافة القومية، هى أنه يستتبع (كما ذكرنا فى القسم السابق) أن تكون الثقافات القومية أقل تجانسا واستقرارا نتيجة لنمو الإقليات القومية، وبالتالى أقل تميزا. باختصار، يصبح التعرف على ثقافة قومية موحدة أمرا أكثر صعوبة، وكذلك التماهى معها؛ وهو تطور تعكسه المجادلات حول أزمة الهوية القومية

(e.g., Delanty, 1996; Rex, 1996) يضاف إلى ذلك أن الطبيعة الأكثر تعددية أو متعددة الثقافة للمجتمعات الحديثة تجعل من السهل التعبير عن هوياتنا المتعددة. فى ظل مثل هذه الظروف فإن ثقافتنا وهويتنا القومية تكون أقل قدرة على السيادة، وتدرج هوياتنا الأخرى وولاءاتنا لتصبح مجرد جزء من المكونات الذهنية أو المجتمعات المتخيلة التى نحملها معنا؛ والحقيقة أننا عند النظر على نحو أشمل إلى هذه القضية، نجد أن حياتنا وارتباطاتنا الخاصة تصبح أكثر معنى بالنسبة لنا من حياتنا وولاءاتنا القومية أو العامة.

- **التدفقات الثقافية الكونية والولايات المتحدة**

حالة الولايات المتحدة تؤكد عددا من النقاط السابقة، فهى بداية تقدم دليلا على الآثار المعقدة لأنماط الهجرة المعاصرة؛ لأن معظم الجدال فى الولايات المتحدة مركز على الهجرة من المناطق الإقليمية. هناك قلق خاص حيال عدد المهاجرين غير الشرعيين الذى كان يقدر بـ ١١,٥ المليون نسمة فى ٢٠٠٦ وهو ما يوازى ٣,٦٪ من سكان الولايات المتحدة، الذين يلتحق بهم كل عام ما بين نصف المليون والمليون يدخلون البلاد عبر الحدود الطويلة مع المكسيك. الأكثر دلالة هو أن معدل القادمين بشكل غير رسمى يتزايد باطراد منذ ثمانينيات القرن العشرين بمعدل يصل إلى خمسة أمثال عدد المهاجرين غير الشرعيين الذين يدخلون البلاد كل عام كما كان يحدث، وهى قضية مثيرة للشعور بالقلق أدت إلى اتخاذ إجراءات من قبل الجماعات المعارضة للهجرة أو مؤيديها على السواء؛ الأولى وجهت أنشطتها نحو إنشاء مجموعات مراقبة تقوم بدوريات على الحدود الأمريكية وتحاول منع الدخول غير الشرعى للبلاد. يضاف إلى ذلك أن جماعات المؤيدين للهجرة ينظمون سلسلة من المظاهرات المعارضة لاقتراحات تغليظ قوانين الهجرة، وأهمها ذلك الاحتجاج العام الذى انطلق تحت شعار "يوم بدون مهاجرين"، فى ١ مايو ٢٠٠٦، والذى تضمن، بين أشياء أخرى، مقاطعة الأعمال التجارية لإظهار مدى أهمية المهاجرين غير الشرعيين للاقتصاد الأمريكى بشكل عام. الشعور بأن البلاد تصبح أكثر تنوعا ثقافيا وعرقيا - باطّراد - نتيجة للهجرة، أثار نقاشات واسعة عن حالة الثقافة القومية وما إذا كنا نشهد حالة

"تفكيك أمريكا" (disuniting of America) (Schlesinger, 1998) [٣] صمويل هنتنجتون Samuel Huntington يرى أن الولايات المتحدة قد قامت على "الأساسين المتلازمين: الثقافة الأوروبية والديمقراطية السياسية" (1996:21) المتضمنين فى مبدأ الحقوق المتساوية للأفراد، ولكنه يعتقد أن ذلك قد بات مهددا بسبب التعددية الثقافية وتأكيد حقوق الجماعات؛ ويخشى أن يؤدى ذلك، بشكل مؤثر، إلى صدام داخلى للحضارات يفكك الولايات المتحدة (2004). "هنتنجتون" مقتنع ـ على نحو خاص ـ بأن المستويات الحالية للهجرة المكسيكية والهسپانية، والاستيعاب المحدود لهؤلاء المهاجرين فى المجتمع الأمريكى سوف يضعف الثقافة القومية فى وقت ما، ويشير إلى إطلاق الصيغة الإسپانية من النشيد القومى الأمريكى، دليلا يؤيد ما يقول. المشكلة مع مثل هذا الموقف هى أنه يقوم على فكرة أن التزام الأقليات العرقية غير الأوروبية فى الولايات المتحدة بالديمقراطية الليبرالية أقل، وبالتالى فهم يتجاهلون التضحية البالغة التى قدمها الكثيرون لكى يجيئوا إلى أمريكا، ربما لأنهم كانوا على الأقل منجذبين إلى أسلوب الحياة الأمريكى والحريات المصاحبة له. على النقيض، نجد لدى "چوزيف ناى الابن (2002) "Joseph Nye Jr." تقييما أكثر تفاؤلا عن حالة الدولة، ويعبر عن ثقته بالحاجة إلى أناس يعملون، وكذلك فى مجالات الاتصالات الحديثة والميديا التى تتطلب إتقان الإنجليزية، إلى جانب توليد ضغوط تعمل من أجل التجانس؛ وهو ما يعنى أن المهاجرين المستقرين حديثا ليس لديهم الحوافز فحسب، وإنما الوسائل للاندماج فى المجتمع الأمريكى كذلك.

على العكس من ذلك، وبنظرة إلى ما هو أبعد من الولايات المتحدة، نجد "چوناثان خافيير إندا "Jonathan Xavier Inda و"ريناتو روزالدو Renato Rosaldo (2002) من رأيهما أن الدولة ـ الأمة الغربية، أقل تأثيرا فى ممارسة هذه التوجهات المجانسة مما كانت عليه فى السابق. مرة أخرى، بعض التطورات فى المرحلة المعاصرة من العولمة من المرجح أن تسهم فى هذا النمط؛ وبشكل أكثر تحديدا نقول إنه سيكون على تدفقات الثقافة القومية أن تتنافس مع تدفقات الثقافة الكونية، لدرجة أن الأفراد سوف يجدون أنفسهم فى مواجهة سيل لا ينقطع من الرسائل المختلطة. كذلك، كما رأينا سابقا، فإن الاتصالات الكونية

وتكنولوجيا المعلومات تجعل من الأكثر سهولة على المهاجرين ومجتمعات الشتات أن يظلوا على اتصال وعلاقة بأوطانهم الأصلية، وهو ما يضعف الحاجة لديهم للتماهى مع الدولة المضيفة بقوة. نجد ذلك فى الولايات المتحدة فى ما أطلق عليه "ampersand Americans" الذين يتمسكون بجنسية مزدوجة، وفى بعض الأحيان يحاولون الحصول على مواطنة مزدوجة، مواطنة أمريكا وبلادهم الأصلية .(The Economist, 2000)، وفى هذه الحالة تصبح الهوية الأمريكية بالفعل هوية عابرة للحدود القومية (Kivisto, 2002)، ذلك كله أثار قدرا من القلق فى دول أخرى، ولعله يفسر، فى جزء منه، سبب إقدام حكومة المملكة المتحدة على تنظيم مراسم مواطنة لمن يريدون أن يكونوا مواطنين بريطانيين، ولماذا تحاول الحكومة الهولندية ترحيل المهاجرين الذين يعيشون فى هولندا منذ سنوات، ولماذا أصدرت الحكومة الفرنسية قوانين جديدة لتضمن استيعاب الأقليات الدينية فى ثقافة البلاد العلمانية، ولماذا تبنى دول الاتحاد الأوروبى "أوروبا القلعة" ردا على الأنماط المعاصرة من الهجرة والانتقال. فى الحالة الأخيرة، فإن هذه المحاولات المنسقة للسيطرة على تدفقات الهجرة، دليل على أن الحكومات القومية غير قادرة على عمل ذلك منفردة، بل يمكن قراءة ذلك كدليل أكبر على تقلص استقلاليتها الذاتية.

العولمة والدولة الأمة والسيادة القومية

هناك ضغط آخر، غير مباشر، على الثقافات القومية، يمكن أن نقول إنه مستمد من التحديات التى تمثلها الجوانب المختلفة للعولمة بالنسبة للدولة الأمة والسيادة القومية. (انظر:Barry Jones, 2000; Holton, 1998; Mann; 1997).

أحد هذه التحديات هو ذلك الناجم عن التطور المتواصل لمؤسسات الهيمنة العالمية؛ وحيث إن البنك الدولى ومنظمة الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية ومحكمة العدل الدولية، تضطلع بدور أكثر أهمية فى الشئون الدولية، فإنها أصبحت تمثل ـ على نحو متزايد ـ مواقع بديلة للسلطة بالنسبة للحكومات القومية. والواقع أن قرارات وأحكام مثل هذه المؤسسات مقصود بها أن تكون ملزمة للدول الأمة. وبالمثل فإن نمو الإقليمية والمنظمات

الإقليمية مثل الاتحاد الأوروبى و"النافتا NAFTA" اتفاقية التجارة الحرة لدول أمريكا الشمالية) وال "آسيان ASEAN" اتحاد دول جنوب شرق آسيا) و"سادك SADC اتحاد تنمية جنوب أفريقيا) و "ميركوسر MERCOSUR" السوق المشتركة للمخروط الجنوبى) فى أمريكا اللاتينية - تعتبر بشكل عام دليلا على تآكل السيادة القومية. معظم الحكومات القومية تقر الآن بضرورة التعاون الإقليمى إن كان لها أن تظل من اللاعبين الرئيسيين على المسرح العالمى، مع بعض التجميع لسيادتها بإقامة مؤسسات إقليمية. والحقيقة أنه فى حالة الاتحاد الأوروبى نجد أن التكامل الاقتصادى والسياسى متقدم، لدرجة أن إمكانية قيامه بدعم هوية أوروبية مشتركة - وهى التى قد تتحدى الثقافات القومية للدول الأعضاء فى الوقت المناسب - هى الآن محل جدال (انظر: Hopper, 2004) بالإضافة إلى هذه التحديات الخارجية للدولة الأمة، فقد تغير العولمة من طبيعة العلاقة بين الدولة ومواطنيها. وبحسب "چيرار ديلانتى "Gerard Delanty و"پاتريك أوماهونى Patrick O´Mahony فإننا نشهد الآن المزاوجة بين الأمة والدولة ويتبع ذلك المزاوجة بين الجنسية والمواطنة. وهناك جدال مفاده أنه بينما ظهرت القومية من العلاقة بين المشروع السياسى والحداثة (تكوين الدولة والمواطنة العالمية مثلا)، والمشروع الثقافى للحداثة (صوغ هويات جديدة مثلا)، فإن الصلة بين الاثنين تواجه تحديا فى حقبة العولمة هذه؛ وهناك الآن عدة أساليب لم تعد تعرف فيها العولمة بالجنسية على وجه حصرى. الملاحظ أنه مع تزايد اعتراف الحكومات القومية، وخاصة فى مجالات حقوق الإنسان، أصبحت المواطنة منفصلة عن الارتباط بالدولة، وهو ما يعنى عند "ديلانتى" Delanty أن "الشخصانية العامة" فى طريقها لأن تحل محل الرابطة القومية (79 :2000).

لعل من الواجب علينا أن نبدأ بالتفكير فى المواطنين كذوات مستقلة فى هذه الحقبة الكونية، أكثر منهم كهيئات أو مؤسسات جمعية مثل الدولة والأمة. على مستوى يومى، هناك الآن تأكيد أكبر على حقوق الجماعات أو الحقوق الثقافية داخل المجتمعات التى تزداد تعددية وتنوعا ثقافيا. هذا التوجه يفصح عن نفسه بعدة صور، بدءا من سياسات عمل إيجابية لجماعات دينية ومهاجرين وأقليات عرقية يصبحون أكثر إصرارا على حقوقهم، إلى جانب كونهم أكثر تنظيما للتعبير

عن مطالبهم. (انظر: Soysal, 1994) فى سياق مماثل، فإن العمليات العابرة للحدود القومية والمجتمعات والدوائر، لأنها تمتد أو تتخطى أكثر من دولة - أمة، قد تعمل على تمزيق الصلة بين القومية والمواطنة، وخاصة فى ما يتعلق بدرجة التزام أصحاب الجنسيات العابرة بدولة ما، واستعدادهم لدفع الضرائب والمشاركة فى عملياتها الانتخابية ومجتمعها المدنى: وهذا غالبا ما يؤدى بالقوميين إلى مساءلة التزام أصحاب الجنسيات العابرة بالنسبة لوطنهم. وقد طرح "أليچاندرو بورتس Alejandro Portes" السؤال: "ما معنى أن يكون هناك مواطنون كثيرون وهم فى حقيقة الأمر ليسوا هنا ولا هناك؟" . (1996:77)القومية العابرة للحدود قد تعنى - على الأقل - أحيانا، تحولا عن فكرة المواطنة التى تعتمد على الدولة بشكل تقليدى، نحو مفاهيم أكثر مرونة. (انظر: Ong, 1999).

مثل هذه التحديات الداخلية والخارجية لسلطة ومكانة الدولة - الأمة، قد تسهم فى التحرر من الوهم بالنسبة للسياسات القومية فى دول كثيرة، وهو ما يتضح فى انخفاض عدد أصوات الناخبين وظهور حركات اجتماعية جديدة. ما يتعلق بهذا النقاش هو ما إذا كان هذا الموقف النقدى من الدولة - الأمة، على افتراض أن ذلك يحدث، يضعف ارتباطنا بكل ما هو قومى، بالنسبة للبدئيين (Primordialists) والعرقيين الرمزيين (ethnosymbolists) فإن التقاليد القومية و"أساليب الحياة" سابقة على ظهور الدولة - الأمة، وبالتالى فإنها سوف تبقى، وتظل ذات أهمية فى حياة الناس بصرف النظر عما يحدث لهذه المؤسسة؛ بينما يرى المتشككون أن العولمة إن لم تكن موضع شك، فإن بعض الآثار المنسوبة إليها لابد من أن توضع هى الأخرى موضع المساءلة.

على النقيض من منظور دعاة العولمة، فإن دلائل تدهور تأثير الدولة -الأمة يمكن إدراكها من كونها لم تعد مصدرا للثقافة، وهو ما يتناقض تماما مع ماضيها السابق. الواقع أن تماسك الدولة - الأمة فى أوروبا كان هو المقدمة للتوسع الإمبريالى فى أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية عند منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين، وإعادة تشكيل هذه المجتمعات ثقافيا وسياسيا. اليوم، دور ناشر الثقافة والقيم الثقافية يصبح - على نحو متزايد - حكرا على

المؤسسات الخاصة، وإذا كنا نعتبر العولمة أمركة، فإن الاستثناء الوحيد على الأقل سيكون هو الولايات المتحدة: على أنه حتى فى حالة أمريكا، كما رأينا فى الفصل السابق، فما زالت شركات مثل "ماكدونالدز" و "كوكاكولا" و "ديزنى" - أكثر مما هى واشنطن - هى العناصر الرئيسية فى التوزيع والنشر الثقافى. يضاف إلى ذلك أن الميديا العابرة للحدود القومية وانتشار تكنولوچيا الاتصال، قد تمكن المواطنين العاديين والشبكات الكونية غير التابعة للدولة، فى المستقبل، من أن يكون لها تأثير أكبر على التوجهات والتطورات الثقافية.

• الأسواق الرأسمالية العالمية والثقافات القومية

عولمة الأسواق الرأسمالية قد تقوى التقارب الثقافى بتشجيع الأساليب المشتركة لتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وهو توجه ذو متضمنات واضحة بالنسبة للثقافات القومية. وهكذا فإن ضغوط المنافسة فى سوق كونية وانتشار أفضل الممارسات والتكنولوچيات الصناعية وحركية رأس المال والمنافسة، بالإضافة إلى قدرة المؤسسات متعددة الجنسية والعابرة للحدود على إقامة تقسيم عمل دولى وشبكات اتصال عالمية - كل ذلك يؤدى - كما يقال - إلى تقارب عالمى (Berger and Dore, 1996). هذه الحالة المصحوبة بحكومات قومية، عليها أن تتبع قواعد واتفاقيات التجارة العالمية وأن تحرر اقتصاداتها. مثل هذه الحجج يعكس قلق مرحلة سابقة، عندما كان يخشى من الثقافات الصناعية الموحدة القائمة على ممارسات عامة، أن تؤدى إلى تآكل الخصوصية المحلية والقومية، وأن تسهم فى المجتمع الجماهيرى. العولمة تعيد إحياء هذا الجدال بدرجة ما؛ لأنها تصف التوجهات التى تتخطى الحدود القومية؛ واليوم يمكن رؤية هذه التوجهات على نحو أكثر وضوحا، ليس فى مجال الإنتاج وإنما فى مجال التسويق والاستهلاك، حيث يوجد تأكيد كبير على العلامات التجارية والماركات المسجلة. (Klein, 2000) يبدو من ثم أن الرأسمالية الكبيرة تؤسس ثقافتها العولمية وأيديولوچيتها الخاصة، على أن هذه النقطة تستلزم موازنة عدد من الدراسات التى تؤكد استمرارية التميز المحلى والقومى، بما فى ذلك أشكال المقاومة الثقافية، فى وجه المسيرة التواصلية للرأسمالية العالمية.

(e.g., Lowe and Lloyd, 1997) كذلك فإن من الأنماط التى تزيد من تعقيد التقارب الثقافى أن تكنولوچيات الكمبيوتر الجديدة تسهل أنظمة التصنيع المرنة (ما بعد فورد)، بما يمكن الشركات من أن تكيف منتجاتها حسب متطلبات أسواق معينة، ولكى تقدم ما يروق - حتى - لأذواق وأساليب حياة فردية. مثل هذا الإضفاء للصفة الفردية على أنماط الاستهلاك، ربما يبدو أنه ضد فكرة التقارب الثقافى، على الرغم من أن الناس، بالطبع، ما زالوا منخرطين فى تجربة مشتركة من الرأسمالية الاستهلاكية؛ وسواء كان ما نشهده تقاربا ثقافيا أو إضفاء للصفة الفردية أو كليهما، فليس من المرجح أن تكون الظاهرتان فى صالح الثقافة القومية والدولة - الأمة، وخاصة فى ما يتعلق بتكوين مواطنة فعالة.

هناك فوق ذلك وسيلة أخرى يمكن أن تستخدم من قبل أحد جوانب العولمة ضد الدولة - الأمة والثقافة القومية، وهى - مرة أخرى - تتعلق بتكنولوچيات المعلومات والاتصال العالمية التى يمكن أن تعيد إحياء المحلى فى مواجهة القومى. الأغذية المحلية والموسيقى والفنون والحرف واللغات واللهجات الإقليمية والعادات والتقاليد المحلية، لديها من خلال الإنترنت والشبكة العنكبوتية العالمية وسائلها للانتشار والنمو. حتى المدن الصغيرة والقرى غير المعروفة جيدا، قادرة على تعميم وجودها من خلال تلك الوسائل، وغالبا لجذب السياح والاستثمارات. يضاف إلى ذلك أن أولئك المحليين الذين غادروا المنطقة يمكن أن يبقوا على صلة بمدنهم أو مناطقهم السابقة ويسهمون فى إحيائها، وخاصة من خلال شراء منتجاتها، وهذا من شأنه أن يمكن أشكالا متعددة من الانتعاش الإقليمى وتعبيرات المحلية التى كانت فى انهيار لفترة طويلة، والحقيقة أن انتشار الثقافة القومية هو الذى حَجَّمَ الثقافات والهويات المحلية.

وأخيرا يقدم "تيموثى لوك (Timothy Luke" (1995 تقييما ضعيفا لحالة ومستقبل الدولة - الأمة. معتمدا على عمل "بودريار "Baudrillard يصور "لوك" عصرنا كعصر تمت فيه إساءة استغلال العالم الواقعى الجديد للدولة - الأمة، من قبل مجموعة عالمية جديدة، ما بعد حداثية، فائقة الواقعية، خلقتها التدفقات الكونية المعاصرة. نحن انتقلنا إذن إلى ما هو أبعد من مجتمعات "بندكت آندرسون" (1983) القومية المتخيلة، انتقلنا إلى عالم من المجتمعات الافتراضية،

حل فيها الواقع المتشعب محل التاريخ والواقع الاجتماعى. "لوك" يشير إلى أن لذلك متضمنات مهمة بالنسبة للسياسة حيث يتحول الاهتمام من عالم الدولة ـ الأمة إلى السياسات الفائقة للواقعية. السياسات المتشعبة التى يديرها فاعلون غير رسميين فى الفضاء الإلكترونى. ادعاءاته تثير أسئلة عن مكامن القوة وما تمثله فى مرحلة عوالم جديدة. على أن "لوك" يقدم العالم باعتباره مكانا يتلقى معلومات وبذلك يقدم شيئا ذا طابع مثالى، حيث إن عدم المساواة فى فرص الوصول إلى المعلومات وتكنولوچيا الاتصال ما زال قائما. يضاف إلى ذلك، رغم ملاحظة أن "لوك" يحاول أن يحدد التوجهات السائدة أكثر مما يقدم حالة نهائية، ربما يقلل من أهمية المدى الذى ذهبت إليه الحكومات القومية والدول ـ الأمة. أنهم ما زالوا لاعبين رئيسيين على المسرح العالمى، كما يشكلون الكثير من التدفقات الكونية؛ وهو موضوع سنعود إليه فى القسم التالى.

باختصار، المجتمعات القومية التى تنبع منها الثقافات القومية أصبحت أكثر مسامية منها فى أى وقت مضى، كل يوم يخترقها ويتغلغل فيها بشر وثقافات وأفكار وصور وأصوات مختلفة. الحكومات القومية تبذل جهدا مضنيا لتأكيد سلطانها، وربما لكى تحافظ على حدودها الإقليمية؛ لقد خسرت المعركة لكى تقيم حدودا فى الفضاء الإلكترونى قبل وقت قريب. فوق ذلك، نجد أن بعض التطورات المرتبطة بالعولمة والتى عرضنا لها فى مواضع أخرى من هذا الكتاب، مثل التجانس الثقافى والكوزموپوليتانية، تعتبر تطورات داعمة ومقوية للتكوينات الثقافية والشبكات والهويات الجديدة. تراكميا، تمثل هذه التغيرات تحديات للدولة ـ الأمة والثقافة القومية، تجعل بعض المعلقين يستنتج أن كلتيهما (الدولة ـ الأمة والثقافة القومية) فى تدهور. على أقل القليل، ربما يكون من المعقول أن نتساءل عن معنى أن تكون "قوميا" فى زمن العولمة هذا.

استمرار الثقافات القومية فى زمن العولمة

- **تجذر ما هو قومى فى مقابل سرعة زوال ما هو كونى.**

الزعم بأن الثقافات القومية تتآكل أو أنه يعاد تشكيلها بفعل قوى العولمة، أبعد ما يكون عن القبول العام. النقاد، بداية يجادلون بأن ذلك يفترض أن يكون الناس

الملتزمون بهذه الثقافات مذعنين على نحو سلبى فى هذه العملية، راضين بأن تجتاحهم مؤثرات ثقافية كونية. الحالة نفسها، عندما نستوطن ثقافات عدة فى لحظة واحدة وبالتالى نكون تحت قصف صور ومعلومات قادمة من أرجاء العالم، ولكن ذلك لا يضعف بالضرورة ارتباطنا بثقافتنا القومية. وكما رأينا، فإن الكثير من ميديا المؤسسات متعددة الجنسية والعابرة للحدود القومية الذين يعتبرون موزعين رئيسيًا للتدفقات الثقافية الكونية، يقوم بتكييف منتجاته لكى تناسب الأسواق القومية بما يوحى بأن التمييز القومى موجود، وبأن الثقافات القومية محتفظة بحيويتها. ولكن هناك اعتراضًا أساسيًا وهو أن الثقافات القومية نتاج تواريخ مشتركة وذاكرات جمعية، وبالتالى فهى قادرة على توليد تحالفات وولاءات عميقة، سوف تكافح عمليات العولمة دائما للتهوين من شأنها. فى المقابل، فإن هذه النقطة قابلة للتطبيق بالمثل على تلك الثقافات القومية ذات التاريخ القصير نسبيا. فى أفريقيا مثلا، نجد أن الثقافات القومية لكثير من الدول قد تشكلت نتيجة للصراع ضد الحكم الاستعمارى الأوروبى وتعهدتها كل أقسام المجتمع، وهى خطوة ولدت ذاكرتها الثقافية الخاصة وساعدت على دمج الدول الجديدة التى ظهرت. باختصار، الثقافات القومية من هذا المنظور ذات جذور ومادة، مقارنة بالتدفقات الثقافية الكونية سريعة الزوال. لهذا السبب يعتقد "أنتونى سميث" أن الكوزموپوليتانية والإقليمية، المرتبطتين بالعولمة دائما، ينبغى ألا ننظر إليهما باعتبارهما من نتاج أفول القومية. الهوية القومية عند "سميث" تمارس "تأثيرا أكثر قوة واستمرارية من أى هويات ثقافية جمعية أخرى"، مما يجعله يستنتج أن فرص تجاوز الدولة وتهميش القومية ضعيفة فى الوقت الراهن. (6 -175 :1991).

فكرة أن الهجرة المتزايدة تضعف التجانس القومى، تواجه كذلك انتقادات كثيرة. أنماط الهجرة المعاصرة، قبل كل شىء، محل خلاف أكاديمى واسع. "هيرست" و"طومسون" (1996) يؤكدان أن معظم سكان العالم يجدون صعوبة فى الانتقال لأسباب مختلفة، تتراوح بين فرض قيود شديدة على الحدود وشروط الهجرة، من قبل الدول الصناعية المتقدمة ومجتمعات الحدود مثل أستراليا وكندا وجنوب أفريقيا التى اجتذبت أعدادا كبيرة من البشر فى الماضى. الحقيقة أن

هناك تنوعا كبيرا فى المدى الذى يمكن أن يصل إليه الناس فى انتقالهم عبر الحدود، وهو أمر وثيق الصلة بالمؤهلات المهنية للمهاجر وثروته ووضعه الاجتماعى. كذلك يلاحظ "هيرست" و"طومسون" أن الفترة من ١٨١٥ ـ ١٩١٤ كانت أكبر حقبة للهجرة الجماعية الطوعية، بينما نجد أحداثا مثل الحربين العالميتين والحرب الباردة وظهور دول جديدة، تعرقل عمليات الهجرة فى القرن العشرين. على الرغم من ذلك، هناك إجماع بين علماء الهجرة على أن أنماطها بعد الحرب، وخاصة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين تتضمن دولا أكثر بكثير مما كان فى الحقب السابقة، مع افتراض أن كل دولة فى العالم، إما أنها تصدر أو تستورد عمالة (Castels and Miller, 1998). الأكثر أهمية أن "هيلد وآخرين (1999) .Held et al يشيرون إلى تعقد تدفقات الهجرة المعاصرة التى تتبدى فى ظهور أنظمة إقليمية جديدة للهجرة وخاصة فى أمريكا اللاتينية وداخل أفريقيا وعبر جنوب وجنوب شرق آسيا، ويستنتجون، إلى جانب ذلك، أن الأنماط المعاصرة للهجرة أكثر اتساعا ـ من الناحية الجغرافية ـ من الهجرات العالمية فى المرحلة الحديثة، وإن كانت أقل كثافة" (ibid., 326).

هناك كذلك من يدحض الزعم بأن التميز القومى يتآكل؛ لأن الدول أصبحت أكثر تنافرا من الناحية الثقافية. "نيكوس پاپاسترجيادس (2000) "Nikos Papastergia dis" يرى أنه، حتى، عندما تعترف الدول ـ الأمة بالطبيعة متعددة الثقافة لمجتمعاتها، فإن تمثيل هذا الفارق إنما ينعكس لكى يثبت الصورة الأشمل للثقافة القومية فحسب. (113 : 2000) ، صحيح أنه لا يقدم أمثلة تؤكد ذلك، ولكن جنوب أفريقيا والولايات المتحدة والمملكة المتحدة ربما تكون أمثلة على هذا التوجه. التعددية الثقافية مستخدمة، إذن، لاستكمال وتقوية الدولة. وبينما قد يكون "پاپاسترجيادس" مبالغا فى أهمية هذه الحالة، حيث إن المجتمعات متعددة الثقافات أو متعددة العرقيات على الأقل، تضمن أن تكون الثقافات القومية أقل تجانسا، فإن مجادلاته تعتبر ردا مفيدا على الرغم من أننا نشهد الآن زوالها.

فى هذا السياق، ينبغى ألا نقلل من أهمية المدى الذى قد يذهب إليه الناس لحماية الدولة ـ الأمة والثقافة الخاصة بهم. فى داخل عدد من الدول الأوروبية

مثلا، هناك قلق بخصوص التأثير الذى تحدثه العولمة، وبخاصة الهجرة، على ثقافتها: وهو تطور يعتبر مسهما فى عودة ظهور اليمين المتطرف. الحزب الجمهورى فى ألمانيا والجبهة القومية فى فرنسا ـ على سبيل المثال ـ بترويجهما للعزلية الثقافية وحق الناس فى هوية قومية خاصة، يبدو أنهما عزفا على وتر قطاعات من مجتمعاتهم؛ ولكن القلق على مصير الدولة ـ الأمة وثقافتها فى المرحلة المعاصرة ليس حكرا على اليمين المتطرف. هناك المزيد من ردود الفعل الدفاعية الواضحة فى جهود الكثير من الدول لحماية جوانب من الحياة القومية مثل اللغة والعادات والثقافة، من قوى العولمة وضغوطها. الحكومة الفرنسية، مثلا، تسعى جاهدة للحفاظ على اللغة الفرنسية وصناعة الموسيقى، كما حاولت تقييد عدد الأفلام الأمريكية التى يمكن عرضها فى فرنسا بهدف حماية صناعة السينما الوطنية. وفى كندا، تحاول الحكومة أن تحدد المدى الذى يمكن أن تتملك به الثقافة الأمريكية حصة فى الميديا الكندية وصناعة الاتصالات بها. (Held et al., 1993: 371) وبشكل أكثر عمومية، الحكومات الوطنية فى أنحاء العالم ترى أن تنمية ثقافتها القومية سواء فى الداخل أو الخارج، جزء مهم من دورها، من خلال أساليب مثل أفلام الفيديو الدعائية والاستثمار فى صناعة السياحة وبرامج التبادلات التعليمية والثقافية.

كذلك يمكن القول إن الثقافات القومية "تعيد إنتاج" نفسها، وبذلك نضمن أن نواصل الحياة "كوطنيين"؛ وهناك ـ فى هذا السياق، كتاب لـ "مايكل بيلنج Michael Billing" (صادر فى ١٩٩٥) بعنوان "القومية المبتذلة Banal Nationalism" يرى أننا نستقبل يوميا رسائل تذكرنا بأننا جزء من أمة، وحتى إن كنا لا نقوم بتسجيل ذلك دائما. عملية إعادة الإنتاج هذه تتضمن أشياء مثل إصدار طوابع البريد والصحف القومية ورفع الأعلام الوطنية على المنشآت العامة وشعارات شركات الطيران والخرائط والزهور الوطنية والمطبخ الوطنى والعمارة، وأحيانا اللغة القومية إلى جانب الأعياد والإجازات. مقارنة بالرسائل اليومية هذه التى تذكرنا بأننا مواطنين من أهل البلاد، فإن صور العالم المتوالية، التى نراها على شاشات تليفزيوناتنا يقال إنها تفتقر إلى العمق والمعنى. يضاف إلى ذلك أنه، حتى المنافسات الرياضية مثل كأس العالم والأولمبياد، التى من المفترض أن تقرب

الدول من بعضها، غالبا ما تثير الحماسة الوطنية بدلا من الأممية، حيث تنافس الدول بعضها البعض. وبالعودة إلى قلق "صمويل هنتنجتون" بخصوص الثقافة الأمريكية والاستيعاب نجد الحالة نفسها، وهى أن الجماعات المهاجرة أو المترحلة التى تعيش داخل جماعات وطنية، بما فى ذلك الولايات المتحدة، ستكون عرضة كذلك لمثل تلك الضغوط التى تضفى الصفة القومية.

● نظام الدولة ـ الأمة العالمى

ربما تكون الدولة ـ الأمة فى حالة صحية أفضل مما يزعم نقادها؛ وبينما قد يقيد القانون الدولى السيادة الوطنية إلى حد ما، فإن الدولة ـ الآمة هى المسئولة من خلال حكوماتها عن توقيع وتطبيق مثل هذا التشريع. يضاف إلى ذلك أن الدولة ـ الأمة لعبت دورا محوريا فى إقامة منظمات مثل الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى ومنظمة التجارة العالمية التى تعتبر حالة الدولة ـ الأمة شرطا للعضوية؛ والأهم أن هذه المؤسسات مستخدمة بالمثل من قبل الحكومات كمنابر ومنتديات لتنمية مصالحها الوطنية. وعلى الرغم من كل المناقشات حول التدفقات والعمليات الكونية فمازال العالم يشكل بواسطة نظام عالمى للدولة ـ الأمة ـ نظام تبادلات بين الدول الأمم ـ أكثر مما هو من خلال العولمة. (Featherstone, 1990:6) بالإضافة إلى ذلك كله لا يبدو أن هناك ما يدل على نمو فى الدعم العالمى الشعبى للمزيد من تطوير مؤسسات التحكم العالمية. على العكس من ذلك، كان هناك زيادة فى عدد الدول الأممية فى المرحلة الحديثة، يمكن ملاحظتها فى زيادة عضوية منظمة الأمم المتحدة التى تضم الآن أكثر من ٢٠٠ دولة ـ أمة. أضف إلى ذلك أن حالة الدولة ـ الأمة هى الحالة التى يصبو إليها كثير من الشعوب المضطهدة والجماعات المتحررة فى العالم، كما أن من حققوا تلك الغاية ليس من المرجح أن يتخلوا عنها. القومية والسعى إلى الاستقلال الوطنى يظلان قوة دافعة وهدفا، سواء كان ذلك فى شكل قومية عرقية (لاحظ الفوران الأخير فى البلقان) أو قومية ليبرالية (الدول الأخرى المتحررة حديثا فى أوروبا الشرقية مثل بولندا والمجر)؛ وقد يبدو إذن أن كلا من "لاش Lash" و"أورى Urry" (1994) يبالغان فى إضفاء أهمية على حالتيهما: الأفكار والأيديولوچيات الحديثة

مثل الدولة ـ الأمة، تبقى مهمة مثل المعلومات والصورة فى المرحلة المعاصرة. باختصار، تظل الدولة ـ الأمة، من منظور أولئك المتشككين فى أمر العولمة، لاعبا رئيسيا على المسرح العالمى، ويبدو من المحتمل أنها ستبقى كذلك فى المستقبل المنظور.

على أنه إذا كان علينا أن نستجمع صورة أكثر دقة عن طبيعة العلاقة بين العولمة والدولة ـ الأمة، وبالتالى نفهم كيف تؤثر فى الثقافات القومية، ربما كان علينا أن ننتقل إلى ما هو أبعد من الجدال بين دعاة العولمة والمتشككين فيها. من المهم جدا أن نعرف أننا فى حاجة إلى نظرة تاريخية إلى هذه القضية. الدولة ـ الأمة سهلت العولمة تاريخيا. كما رأينا فى الفصل الأول، وهى فى الحقيقة تعبير عنها، بمعنى أنها ظاهرة عامة، ولكنها كانت تعطل تقدمها أحيانا عن طريق خلق حدود وقيود ومن ثم تقيد التبادل الثقافى؛ وما من شك فى أن تكون الثقافات القومية قد أفادت من هذه العلاقة المتقلبة. أضف إلى ذلك أننا إذا طبقنا هذا الفحص التاريخى على قضية السيادة، فالأرجح أن مفهوم السيادة الوطنية كان موجودا لفترة محدودة فقط فى بدايات أوروبا الحديثة، وبالتحديد بعد معاهدة وستفاليا فى ١٦٤٨ عندما كانت درجة الاعتماد المتبادل ـ بين الدول متدنية. (Ferguson, 2006) فى ظل العولمة المعاصرة، كما رأينا، فإن الفاعلين الجدد العابرين للحدود القومية، والتطور المستمر للمؤسسات الدولية، والتدفقات العالمية من كل نوع، والأشكال الأكثر اتساعا من التواصل والاعتماد المتبادل، كل ذلك يمثل أشكالا مختلفة من التحديات للسيادة القومية. إلا أن ذلك لا يعنى نهاية السيادة القومية، وسيكون الأكثر دقة أن ننظر إلى السيادة كحالة يتزايد "التفاوض" حولها بين فاعلين مختلفين على المسرح العالمى منهم الحكومات القومية الفرعية، مع الاعتراف فى الوقت نفسه بأن تلك كانت الحالة لبعض الوقت. (انظر: .(Keohane, 1995).

التهجين الثقافى والثقافة القومية

تقدم نظرية الهجنة رؤية نافذة مختلفة فى هذا الجدال، عن حالة الثقافة القومية فى زمن العولمة. كل الثقافات عند منظرى الهجنة، بما فيها الثقافة

القومية، ثقافات توفيقية تتشكل من خلال استيعاب وتمثل أفكار ومؤثرات من مصادر متعددة مع مرور الوقت؛ وبالتالى فإن فكرة تمايز واستقرار الثقافات القومية لا يمكن أن تصمد لأن الثقافات تتمازج وتقترض من بعضها. يتضح ذلك، على سبيل المثال، فى بعض الملامح المقومة التى تميز الثقافة الإنجليزية مثل "سان چورچ" القديس الراعى واللغة الإنجليزية. الأول، كان بالأحرى شخصا غامضا ولكن يعتقد أنه نبع أصلا من الشرق الأوسط، والثانية خليط من مصادر لغوية جاءت إلى إنجلترا من شمال أوروبا فى القرن الخامس.(Crystal, 1995)، والحقيقة أن الثقافة الإنجليزية كلها قد تشكلت نتيجة غزوات مختلفة، بما فى ذلك تلك التى كانت على يد الآنجلز والساكسون والڤايكنج والنورمانديين. وهكذا تقوم الثقافات القومية باستمرار بتطوير واحتواء مؤثرات جديدة. فى حالة بعض الدول مثل البرازيل والمكسيك وإندونيسيا وزنزبار خاصة، فإن الأصول والطبيعة الهجينة لهوياتها القومية من السهل التعرف عليها فى ضوء تجاربها مع الاستعمار، وفى بعض الأحيان تصبح محل حفاوة؛ وفى رأى منظرى الهجنة أن الهياكل الاجتماعية مثل الدول والأديان، أسهمت فى إخفاء عمليات التهجين. يتبع ذلك أن المدافعين عن الثقافات القومية والدينية ـ وتحديدا أصحاب مفاهيم الثقافة الأحادية من بينهم ـ إما أنهم يفشلون فى الاعتراف بطبيعتها الهجينة أو أنهم ـ ببساطة ـ غير مدركين لها.

وكما عرضنا فى الفصل الأول، فإن كتابا مثل "ندرڤين پيتيرس" (2004) يعتقدون أن التهجين المتسارع والتمازج المتزايد بين الثقافات هى الملامح المحددة للعولمة المعاصرة(٤) . وإذا كان الحال هكذا، فلا بد من أن يكون له متضمناته الواضحة بالنسبة للثقافات القومية، وقد تبدو هناك جوانب معينة من العولمة المعاصرة تسهل الهجنة. وكما رأينا، فإن العمليات العديدة التى تمثل العولمة تعمل على تمزيق العلاقة بين الثقافة والمكان. وهكذا فإن الحفاظ على الثقافة داخل حدود إقليمية معينة يصبح أكثر صعوبة عندما تخترق هذه الحدود يوميا من قبل التدفقات الثقافية والإعلامية القادمة من أرجاء العالم من خلال تكنولوچيات الاتصال الحديثة. وبالمثل، فإن تحسن وسائل الانتقال والسفر والهجرة المتزايدة ـ وهى أيضا جزء من العولمة الحديثة ـ تمكن من أن يكون لدينا عدد أكبر من

المواجهات الثقافية المتنوعة، ومن ثم فرص أكثر للاختلاط الثقافى. يضاف إلى ذلك أن الحياة المدينية فى المدن الكونية اليوم تجعل من الصعب تفادى التفاعل مع الشعوب والثقافات حول العالم، سواء فى المطاعم والمقاهى والمسارح ودور السينما، أو ببساطة من خلال لقاءاتنا وخبراتنا العادية اليومية. (انظر: Al Sayyed, 2001). بإيجاز، التطورات والتجليات التى ندعوها "عولمة" توفر لنا حراكا وسيولة فى المجتمعات الإنسانية، وتكسر الحدود والعوائق فى هذه العملية، وتلك كلها ظروف مواتية للهجنة.

على أن العلاقة بين الثقافة القومية والتهجين أكثر تعقيدا مما ذكرنا إلى الآن، وهنا نبدى ملاحظتين لإيضاح ذلك. الأولى: بدلا من مجرد النظر إلى الثقافات القومية باعتبارها مهددة من قبل قوى التهجين، لا بد كذلك من التعرف على الضغوط التى تواجهها ثقافة الهجنة فى إطار ثقافة قومية مهيمنة، ومدى احتواء تلك الثقافة لها. والحقيقة أن مواجهة الهجنة نادرا ما تكون متساوية فى كل الثقافات، كما أنه ليس من المرجح أن تفرز نتائج واضحة مباشرة، وهنا لابد من أن نضع فى اعتبارنا فكرة المثاقفة المتبادلة التى عرضنا لها فى الفصل الثانى، والتى بموجبها توجد الثقافة عبر غيرها من الثقافات. باختصار، نحن فى حاجة إلى أن نضع باعتبارنا علاقات القوى التى تعمل عندما تتفاعل الثقافات وأن نتأكد أننا عندما نركز على السيولة والتدفق والامتزاج، لا نغفل الفوارق والاختلافات الهيكلية. ثانيا: حتى مع الاعتراف بالطبيعة الهجينة للثقافات القومية، فإن هذه الثقافات يمكن، بالتأكيد، أن تتوازن وأن تبقى، وتصبح فى الوقت المناسب ذات معنى بالنسبة لمواطنيها. فى العقود القليلة المؤدية إلى القرن العشرين، على سبيل المثال، كان للمملكة المتحدة مزيج عرقى وثقافى متجانس نسبيا، أدى من ثم إلى إنتاج ثقافة قومية مستقرة تتمحور حول مؤسسات و"أساليب حياة" معينة مشتركة؛ على أن ذلك، فى رأى "ندرڤين پيتيرس"، ينبغى ألا يصرفنا بعيدا عن حقيقة مهمة، وهى أن الهويات القومية ما زالت "خليط هويات" .(2004: 33) الثقافات من وجهة نظره، كانت ومازالت "تفيض عن الحدود" وهى نفسها "تراكمات إضافية متراكبة" . (ibid., 100)

● **نقد نظرية الهجنة**

تواجه نظرية الهجنة انتقادات واسعة كما هو واضح حتى الآن[٥] بداية، هناك قضية ما يتم تهجينه فى عملية المواجهة هذه. ببساطة، ألا بد من أن تكون الثقافات المتفردة موجودة لكى يتم التهجين؟ وإذا كان الأمر كذلك، ألا يضعف ذلك من زعم منظرى الهجنة بأن جميع الثقافات ما هى إلا مزيج استعارات من ثقافات أخرى تفيض عن حدودها؟ كذلك هناك اتهام آخر لنظرية الهجنة مفاده أن معظم أشكال التهجين الثقافى سطحية، وأنها مواجهات عابرة، ولكى تتملك الثقافات الأخرى تماما وتضمن جوانب منها، فإن ذلك يتطلب وقتا والتزاما، إلى جانب الاعتناق لدرجة التقمص. الناس سوف ينخرطون فى أشكال من التمازج الثقافى والتجريب، مثل تلك الأعداد المتزايدة من المواطنين الغربيين الذين اجتذبتهم تعاليم البوذية، ولكن تجربتهم الهجينة فى آخر الأمر ليست متأصلة، إذا ما قورنت بقبضة ثقافتهم القومية أو حتى الغربية عليهم. فى حالة الأخيرة، بالنسبة لعدد كبير من الناس فى الغرب، ربما تكون حريتهم الفردية هى ما يثمنونه عاليا، لأن ذلك هو ما يزودهم بالفرصة "للامتزاج والملاءمة"، إن كان لنا أن نتكلم من الناحية الثقافية. على أن منظرى الهجنة يردون على اتهام المواجهات التهجينية بأنها عابرة بسؤال: ومن ذا الذى يقرر إذا ما كان الحال كذلك؟ من غير الفرد المعنى يستطيع أن يقول إن إسبانياً يمارس البوذية، لا يمارسها فى تجربة ذات معنى؟

بالتوازى مع الانتقادات الموجهة لنظرية الهجنة، أثيرت شكوك عن المدى الذى وصلت إليه عمليات التهجين الثقافى فى الماضى وفى عصرنا. أيديولوچيات الإقصاء مثل القومية والداروينية الاجتماعية لعبت دورا كبيرا فى تشكيل الحقبة الحديثة، كما عملت بكل تأكيد على تقييد أشكال التهجيين الثقافى؛ وبشكل عام، هناك تاريخ طويل لحكومات تحاول حماية ثقافتها القومية من قوى التهجين، بدءا من تقييد الهجرة إلى تحجيم تدفق الأفكار والمنتجات الثقافية الأجنبية إلى مجتمعاتها.

فى هذا السياق، لجأت الحكومات المتوالية فى سنغافورة إلى إجراءات سلطوية لحماية ما تعتبره ثقافة وقيما قومية؛ كما تشير نتائج مسح أجرى فى

المملكة المتحدة فى ٢٠٠٤ من قبل "لجنة المساواة العرقية Commission for Racial Equality" أن أكثر من تسعة من كل عشرة بريطانيين بيض ليس لديهم أصدقاء من الأقليات العرقية .(Dodd, 2004) ما حدث هو أن كثيرا من البيض كانوا قد تركوا مناطق وسط المدينة، حيث المرجح أن توجد جماعات المهاجرين، والواضح أن ذلك خفض حجم التفاعل الثقافى. من ثم، نجد أن لندن وبعض المدن الأخرى كوزموپوليتانية ومتعددة الثقافات، بينما مناطق أخرى، وخاصة الريف، ليست كذلك. وبينما يوجد دليل على أن البيض الأصغر سنا، أكثر اختلاطا وامتزاجا من الكبار، تشير نتائج المسح أيضا إلى عكس ذلك داخل بعض مجتمعات الأقليات العرقية ـ أكثر من ٣٩٪ من "البريتونز" (وهى أقلية عرقية) تحت سن الثلاثين لهم أصدقاء ينتمون كلهم تقريبا إلى أقليات عرقية أخرى مقارنة بجيل آبائهم (أى من هم فوق الخمسين)، حيث يشير الرقم إلى ١٩٪ فقط؛ وهى أرقام تصبح أكثر دلالة، على اعتبار أن المفترض أن العولمة تسهل عمليات التفاعل الثقافى. كذلك هناك حكومات أوروبية عديدة تعبر عن قلقها؛ لأن كثيرا من المسلمين يظلون "غرباء"، على الرغم من أنهم عاشوا "بينهم" فى بلادهم على مدى أجيال، وعلى الرغم من أن ما يزعج الحكومات الأوروبية فى معظم الأحيان هو أن أولئك المسلمين وغيرهم من الأقليات العرقية لا يندمجون فى المجتمع ويظلون محتفظين بثقافاتهم القومية. بعبارة أخرى، إنهم يبحثون عن الاستيعاب الثقافى وليس التهجين.

ليس من المرجح أن يعتبر منظرو الهجنة الأمثلة السابقة جوانب ضعف فى قضيتهم، فكما سنرى فى الفصل القادم هناك زيادة فى حالات الزواج فى المجتمعات الغربية بين أفراد من أجناس مختلفة وفى عدد الأطفال نتيجة هذا الزواج، وهو ما قد يعتبر الشكل النهائى للتفاعل الثقافى، وإن كان ذلك مجرد نوع من أنواع التهجين الثقافى. التدفقات الثقافية الكونية المعاصرة، والصور والأفلام والأصوات والرموز تؤكد أننا لسنا مضطرين لأن نكون فى حالة اقتراب جغرافيا وفيزيقيا بدرجة وثيقة مع الآخرين لكى نمارس جوانب من ثقافتهم. يضاف إلى ذلك، كما ذكرنا من قبل، أن منظرى الهجنة يرون أن الثقافات القومية التى تحاول بعض الحكومات أن تدمج جماعات الأقليات فيها، هى بالفعل كيانات

هجينة. من هنا، تقوم العولمة الحديثة "بتهجين ما هو مهجن" بالفعل وإن بمعدل أسرع (Nederveen Pieterse, 2004).

العولمة والثقافة القومية والتعقد

على ضوء ما أتمنى أن يكون قد اتضح فى هذا الفصل، هناك حجج كثيرة لدى كلا الجانبين حول الحالة الراهنة للثقافة القومية وتأثير عمليات العولمة فيها. لقد طرحت هذه القضية حتى الآن باعتبارها جدالا بين متفائلين ومتشائمين بخصوص مصير الثقافة القومية، بينما توجد فى الحقيقة آراء مختلفة حول ما هو موضوع معقد. من الأسباب الرئيسية لهذا التعقد أن المواجهة بين الكونى والقومى تتم فى أطر مختلفة. بعبارة أخرى، الأشكال المختلفة من بنية الدولة وكذلك الثقافات القومية ذات التواريخ المختلفة والدرجات المتباينة من الصحة، كلها عرضة للتدفقات الثقافية الكونية، غير المتساوية سواء فى حجمها أو فى المدى الذى تصل إليه، وهذا يعنى فى النهاية أن مثل تلك التدفقات التى ستمارس وتفسر ذاتيا، سيكون لها تأثير كبير فى بعض البلاد والمناطق بما يؤدى إلى تآكل الخصوصيات المميزة نتيجة لذلك، ولكنها فى بلاد ومناطق أخرى ربما تلقى صورا مختلفة من المقاومة القومية. كل ذلك يعنى أنه إذا كان علينا أن نقرر ما إذا كانت عمليات العولمة تضعف الثقافات القومية، سيكون علينا أن نبحث أطر معينة ونجرى الكثير من عمليات دراسة الحالة. وهكذا فإن الولايات المتحدة باعتبارها أقوى دولة -أمة، وهو ما يسهم جزئيا فى المستوى العالى من الوطنية الذى يمكن أن نجده فى البلاد، مع حقيقة كونها (كما رأينا فى الفصل الرابع) مصدرا مهما لكثير من التدفقات الثقافية الكونية، سيكون لها خبرة مختلفة فى العولمة الثقافية مقارنة بكثير من دول الشرق الأوسط ذات التاريخ الأقصر أو الأضعف (مثل حقها فى الوجود الذى يهدده بعض المسلمين فى المنطقة)، كما أنها المتلقى لمثل تلك التدفقات.

عندما نقيم تأثير العولمة فى الثقافة القومية، لا بد من أن نضع فى اعتبارنا أيضا، أن الدولة ـ الأمة من بدايتها، كان عليها أن تضطلع بدور مهم فى توليد وتنمية الوحدة الثقافية القومية، وعادة يتم تهميش الثقافات والهويات المحلية

الداخلية أثناء ذلك. الضغوط الخارجية التى تمثلها العولمة اليوم، هى إذن – بمعنى ما ـ جزء من نمط، رغم أننا ينبغى ألا نهون من شأن التحديات الخاصة التى تمثلها عمليات العولمة المعاصرة للثقافات القومية. النموذج الأبرز من بين هذه التحديات، الانخلاع الثقافى عن الإقليم (الفصل الثانى) الذى ينطوى على أن الصلة بين الثقافة القومية والإقليم لم تعد ضرورية كما كانت ذات يوم، على اعتبار أنه قد بات اليوم أكثر سهولة أن يتواصل المرء مع مواطنه عن بعد، وكذلك مع مواطنيه أينما كانوا فى العالم. ببساطة، لم تعد هناك ضرورة كبيرة لأن تعيش فى بلدك لكى تعتبر من أهله، يضاف إلى ذلك أن شعوب الثقافات والجنسيات الأخرى يعيشون فى بلادنا، وعلى الرغم من جهود بعض الوطنيين والحكومات الوطنية للحفاظ على الخواص المميزة لثقافاتها، فإن التدفقات الثقافية للصور والرموز والأصوات والأفكار تعبر الحدود القومية جيئة وذهابا كل يوم، كما رأينا كيف أن مثل هذا الحراك والسيولة يمكن أن يعمل على تمزيق الفضاء القومى. فى هذا السياق هناك قضية كيفية تصور أوطاننا الأصلية من على البعد وهى تمر بتغيرات سريعة، إلا إذا كنا متمسكين، بالطبع، بمفهوم وردى أو مفهوم راسخ عن ذلك الوطن "الأم"، وهو ما يميز بعض الجماعات المغتربة.

فى آخر الأمر، يصبح من الصحيح أن نعتبر الثقافات القومية مهددة من قبل التدفقات الثقافية الكونية، إذا تصورنا أن تلك الثقافات كيانات مستقرة وثابتة ومتجانسة. ولكننا إذا نظرنا إلى الثقافات القومية ـ كل الثقافات كما نتصورها هنا ـ باعتبارها متقلبة ومتلونة وحدودها قابلة للاختراق، فلا شك أن رؤيتنا ستكون أكثر استبصارا لطبيعة العولمة وديناميكيتها، وخاصة فى ما يتعلق بإسهام الأولى فى تطوير الأخيرة؛ ففى وقت قصير نسبيا، على سبيل المثال، دخلت المطاعم الهندية، أو تم استيعابها فى الثقافة البريطانية.

والحقيقة أن الذهاب اليوم لتناول "الكارى" فى أحد المطاعم، أصبح أمرا مقبولا فى الحياة الثقافية البريطانية. هكذا، وعلى المستوى الشعبى يتم استيعاب الثقافات الغربية وإدخالها فى إطار الثقافات القومية والوطنية، فتسهم فى تطورها بدلا من أن تكون خطرا يتهددها؛ وتلك عملية ممكنة لأن الثقافة البريطانية ليست كيانا ثابتا، وهى نقطة تنطبق على الثقافات القومية الأخرى.

ولعل المثال السابق دليل كذلك على أن النخب السياسية ستجد من الأصعب أن تتبنى وتسيطر على الثقافات القومية فى عصر العولمة، وهو تغير يقوى منه تدهور مشاعر الاحترام والتوقير، وتزايد الفردانية. كل ذلك يؤكد أن أى محاولة من قبل حكومة ما لتشكيل الثقافة القومية، سوف تواجه بالمزيد من الشك والارتياب، مثل محاولة حكومة حزب العمال الجديدة الفاشلة الدعوة إلى "بريطانيا جديدة" فى أواخر تسعينيات القرن الماضى. ولكن هذا التغير لا يعنى أنه لم يعد لدينا مرشدون ثقافيون نهتدى بهم. الحقيقة أن هناك نخبا ثقافية جديدة هم نجوم الأزياء والموضات والفنون والموسيقى الشعبية ولاعبو الكرة ومحررو الصحف وخبراء التصميمات، الذين، وإن كانوا لا يملون آراءهم، يشكلون الأذواق العامة؛ وهذا على الرغم من أن التأثير الذى يحاولون ممارسته، من المرجح أن يكون على جمهور عابر للحدود، أكثر من كونه وطنيا. وبالمثل فإن الكثير من المنتجات الثقافية ليس موجها للمساهمة فى الثقافة القومية، وبينما كانت الموسيقى والعمارة والأثاث تصمم فى مراحل تاريخية سابقة بحيث تعكس أسلوبا قوميا أو لإشباع ذوق وطنى عام (رغم أن الاستشراق استثناء)، فإن مثل تلك الحالات نادر الآن. اليوم، يبدو أن منتجى هذه الأشكال الثقافية أصبحت ميولهم ونزعاتهم إلى ما هو وطنى أو قومى أقل مما كانت عليه، وأصبحوا يستلهمون مؤثرات ثقافية من أرجاء العالم لإبداعاتهم، كما أصبحوا يبحثون عن اعتراف أوسع بمنتجاتهم. هنا يصبح من الملائم أن نتساءل - على الأقل فى مجال الأعمال الفنية وربما فى مجالات أخرى - وأين يتم إعادة إنتاج الثقافة القومية؟ وهل يعنى هذا أن الثقافات القومية سوف تصبح متاحف ذاكرة؟ هل ننظر إليها باعتبارها مجرد حنين إلى الماضى أكثر منها تشكيلات ثقافية معاصرة؟ إذا كان الحال كذلك، فإن وثاقة صلتها بالواقع الوطنى أو القومى سوف تتضاءل بالفعل، وخاصة بالنسبة للأجيال القادمة. على أننا ينبغى ألا نبالغ فى هذه النقطة، فسوف تكون هناك مجالات أخرى من الحياة القومية تواصل الإسهام فى الثقافة القومية مثل التفوق فى مجال الرياضة، ورحيل رموز قومية مهمة، والأحداث والمناسبات العامة. وعلى الرغم من ذلك، هناك فى الوقت نفسه بعض جوانب من الثقافة القومية لا تعيد إنتاج نفسها.

باختصار، إذا تصورنا الثقافة عملية مستمرة لا تتوقف، سيكون فهمنا أكثر وضوحا للعلاقة المتبادلة بين العولمة والثقافة القومية، كما سنكون أكثر قدرة على قبول فكرة أن الثقافات، بما فيها القومية، مكونة من طبقات متراكمة فوق بعضها وأنها خضعت لمؤثرات طورتها وجمعتها، وأنها طوال الوقت كانت عرضة لأفكار وصور مختلفة. بهذا المعنى، فإن التدفقات الثقافية الكونية تسهم فى الثقافات القومية؛ وسوف أورد هنا مثالا يشار إليه كثيرا، ويعيدنا إلى موضوع الهند. فى نتيجة لمسح أجرى عن عادات الأكل فى المملكة المتحدة اتضح أن الطبق البريطانى "الوطنى" الآن هو "دجاج التيكا"! عمليات العولمة هنا ملحوظة تماما ولا تحتاج إلى مزيد بيان. الأهم، أن هذا التطور لن يزيح، بالضرورة، المطبخ الوطنى الموجود ليحل محله. هذا التطور إضافة. بعبارة أخرى دجاج التيكا سيأخذ مكانه إلى جوار "البيف والبوكشاير بودنج والسمك والبطاطس، باعتباره جزءًا من الثقافة القومية التى ستصبح بذلك أكثر ثراء.

للمزيد

هناك عدد كبير من الأعمال الجيدة التى تتناول المادة التى عرضنا لها فى هذا الفصل.

- عن العلاقة بين العولمة والدولة ـ الأمة مع الاهتمام بالبعد الثقافى، انظر:

Robert Holton´s: "Globalization and The Nation State", 1998.

Jean – Marie Guéhenno´s: "The End of The Nation State", 1995.

Anthony Smith´s: "Nations and Nationalism in A Global Era", 1995.

- للمزيد عن نظرية الهجنة وما يرافقها من جدال، انظر:

Nederveen Pieterse´s: "Globalization and Culture", 2004.

Avtah Brah and Annie Coombes´: "Hybridity and its Discontents," 2000.

الفصل السادس

العولمة والصراع الثقافى

يتناول هذا الفصل دعاوى أن جوانب العولمة تولد أشكالا من الصراع الثقافى، وسنبدأ بفحص أعمال كُتَّاب بارزين ممن عقدوا هذه الصلة وبخاصة "بنچامين باربر "Benjamin Barber ، و"صمويل هنتجتون "Samuel Huntington و"ماثيو هورسمان "Mathew Horsman و"أندرو مارشال ."Andrew Marshall وفى القسم الثانى نستكشف الأساليب التى يمكن أن تسهم بها العولمة والعمليات الاجتماعية ـ الثقافية والاقتصادية، فى الصراع الثقافى فى العالم المعاصر؛ بينما يتناول القسم الثالث العلاقة المتبادلة بين العولمة والإرهاب العالمى والأصولية الإسلامية، مع التركيز بشكل أساسى على ظاهرة "القاعدة"؛ واتساقا مع التأكيد العام على التعقد الثقافى والتعددية والثقافة بوصفها عملية مستمرة أكثر منها كيانا محددا، سوف نعرض لكثير من الصلات المعقودة بين العولمة والصراع الثقافى.

العولمة والصراع الثقافى

- **العولمة: هل هو الجهاد فى مواجهة "عالم ماك"؟**

فى كتابه "الجهاد فى مواجهة عالم ماك (1996) "Jihad vs. McWorld"، يدرس بنچامين باربر عالمين متصارعين بالنسبة للبشرية: عالم الجهاد وعالم ماك، الجهاد ينطوى على عملية إعادة القبلية للعالم، وبعبارة أخرى يصبح عالما تسوده زيادة مفرطة فى الأصوليات والقوميات العرقية التى هى نقيض حقوق الإنسان والديمقراطية والحوار المفتوح؛ ويطلق "باربر" على ذلك مصطلح "لبننة

العالم" بمعنى أن تصبح هناك حالة فى داخل الدول القومية: "الثقافة فيها ضد الثقافة وأناس ضد أناس وقبيلة ضد قبيلة" (Barber, 2000: 23). وتكون القومية العرقية فى كل مكان: "القوى التى أعتبرها والجهاد شيئا واحدا تحاول أن تعرف ما إذا كان يمكن أن تكون هناك صربيا أخرى ... فلاندرز أخرى ... قطالونيا أخرى.. (164 : 1966) المضى على هذا المسار سوف يقضى على كل أشكال التعاون الاجتماعى ويدمر كل المشاعر والعواطف المتبادلة. المستقبل الآخر، عالم ماك، يقوم على شبكات كونية من الرأسمالية الاستهلاكية، عالم تقوده تكنولوچيات الاتصالات والثقافة الشعبية والنزعة التجارية التى تضم لاعبين رئيسيين مثل شبكة "CNN" و"ديزنى" و"ماكنتوش"، حيث التأكيد على الوجبات السريعة والكمبيوترات السريعة... ويمكن أن نقول الحياة السريعة بوجه عام. لقد رأينا فى الفصول السابقة أن أشكال التجانس الثقافى وصور التقارب المختلفة التى يقترحها عالم ماك كانت كذلك محل اهتمام كُتَّاب آخرين.

بعض المعلقين يلاحظون ذلك التشابه بين مولات التسوق والمساحات المخصصة لأغراض معينة فى ظاهرة أصبحت تعرف بـ "نمط ديزنى" لتسلية العملاء والترفيه عنهم. (Ritzer and Liska, 1977)، وبالمثل فإن تليفزيوناتنا هى الوسيط الذى نتسلى عن طريقه، كما أنها وسيلة نواصل التسوق من خلالها، وهذا واضح فى زيادة عدد القنوات المخصصة لذلك، كما أننا مواجهون دائما بمطاعم الوجبات السريعة التى يعلن عنها قبل بدء عرض الأفلام السينمائية، ومجمعات السينما التى أصبحت تضم كذلك قاعات ومنافذ لبيع الوجبات السريعة.

نتيجة لهذا التسليع الواسع الانتشار، يصبح العالم مجرد "تجربة تسلية وتسوق" ضخمة، يتحول البشر أثناءها وتتغير أساليب حياتهم، والواقع أن التسوق أصبح شكلا من أشكال التعبير الشخصى والاسترخاء وربما يكون أهم جزء فى العطلات والإجازات. وكما يشير كل من "ريتزر "Ritzer و"ليزكا "Liska فإن "الكنديين الذين يذهبون الآن إلى "مول وست إدمنتون" أكثر ممن يذهبون إلى شلالات نياجرا" (1997: 103)، هذا السلوك فى رأى "باربر" يعتبر نقيضا للديمقراطية، حيث إن طاقتنا هنا تكون مكرسة لأنماط فردية من الاستهلاك؛

ولذلك نجده يقدم رؤيتين متنافرتين للعالم: واحدة تدعم فكرة التجانس الثقافى والثانية تسير ضدها مباشرة. "الكوكب يتداعى ... ويلتئم على كرهٍ فى اللحظة ذاتها" (23 :2000) ويتوقع صراعا مستمرا بين هاتين القوتين، والقوتان بالنسبة له تفعلان الكثير لتشكيل حقبة العولمة ... وتضران بالديمقراطية. وهكذا يكون الجهاد وعالم ماك موجودين جنبا إلى جنب فى علاقة جدلية تنتج كل ما هو شاذ وعبثى: الحكومة الفرنسية - مثلا - لا تتوقف عن الاحتجاج وتحاول أن تحمى نفسها من "الأمركة"، وعلى الرغم من ذلك تقوم بتمويل إنشاء "يورو ديزنى" على أطراف باريس.

على أن طرح "باربر" إشكالى لعدة أسباب، فهو يرى أن العولمة رأسمالية استهلاكية كونية وعالم ماك، بينما هناك فى الحقيقة قوى مختلفة تسهم فى شكلها المعاصر بما فى ذلك الإسلام المعولم الذى ليس له صلة كبيرة بالرأسمالية الاستهلاكية. فى هذا السياق فإن "باربر" يهمل كذلك التنويعات الموجودة من الرأسمالية، مفترضا وجود شكل استهلاكى واحد سائد. كما أنه لا يتسائل عن مدى عمق حاجتنا للتسوق والاستهلاك؛ وبينما التسوق تجربة ذات معنى، وبينما أصبح أسلوب حياة بالنسبة للبعض فإن كثيرين لا يصلون إلى درجة التشبع ويسعون وراء المزيد، تماما مثل تنامى الاهتمام بالأديان والروحانيات بشكل عام. أما بالنسبة لطرح "باربر" عن "لبننة الدولة - الأمة، باعتبار ذلك مستقبلا سياسيا محتملا"، فهو طرح غير دقيق؛ حيث إن تلك القوى كانت موجودة دائما وكانت تطفو على السطح من وقت لآخر حسب كل حالة. الباسكيون والقطالونيون والفلمنكيون والكويبكيون والولونيون، كلهم لهم تاريخ طويل من محاولات الحصول على الحكم الذاتى من دولهم. مثل هذه اللبننة أو القومية العرقية هى بالتالى ظاهرة فى حد ذاتها، ووجودها لا يتطلب علاقة جدلية بقوى عالم ماك.

• عولمة وقبلية؟

بينما يعين "باربر" توجهات متعارضة ومتناقضة، فإن "ماثيو هورسمان "Mathew Horseman" و"أندرو مارشال "Andrew Marshall" فى كتابهما: "After The Nation-State: Citizens, Tribalism, and The New World Disordes

order" (1995) يحاولان أن يربطا بينها، باعتبار العولمة تسهم فى أشكال من القبلية، ويجادلان بأن الأفراد يأوون إلى مجتمعات يميزها "تشابه الأديان والثقافة والعرقية أو تجارب مشتركة أخرى"، من أجل الاطمئنان والحماية، كنتيجة للخوف والارتباك الذى تولده العمليات المعاصرة وخاصة العولمة (X :1995).

هذه القبلية واضحة بالنسبة لـ "هورسمان" و"مارشال"، فى عودة نشاط الهويات العرقية والقومية فى شكل الإقصاء والتمييز، وهو ما يتم ضد الأقليات وجماعات الهجرة، وفى نشاط الحركات الانفصالية أو الاستقلالية وصعود الأصولية الدينية. سوف نعرض للعولمة والعمليات المتعلقة بها فى القسم التالى، ولكن لا بد من الإشارة - مؤقتا - إلى أن من الانتقادات الموجهة لارتباطها بالصراع الثقافى، ما يعتبر عوامل شارحة لخلفيتها، والتركيز عليها ربما يشجع التحليلات التى تظل عامة ومجردة. هذه الانتقادات تفترض أيضا أن العولمة والعمليات المرتبطة بها تعمل بنظام خاص عندما يكون من المحتمل أن تعمل بطرق جديدة ومتناقضة فى أى لحظة. والحقيقة أنه سوف تكون هناك عدة أسباب أمام الناس الذين يلجأون إلى أنماط قبلية فى السلوك، ولكنها سوف تكون متوقفة على أطر وظروف محلية خاصة. يضاف إلى ذلك أننا حتى إذا أبقينا استقصاءنا عند مستوى التفسير العام، فهناك عدد من التطورات الحديثة يسهم فى هذه الظاهرة مثل انتهاء الحرب الباردة، ودخول الديمقراطية إلى مناطق جديدة، وهى تطورات ليست ذات صلة كبيرة بالعولمة؛ وبالطبع فإن أى تفسير معقول لوجود الصراع الثقافى، لابد من أن يضع فى اعتباره العمليات التى تعتمد عليها المرحلة المعاصرة، ومرة أخرى .. سوف نعرض لذلك فى القسم الثانى من هذا الفصل.

• عولمة وصراع حضارى؟

يرى صمويل هنتنجتون (1993, 1996, 1997) أن المصادر الرئيسية للصراع أثناء الحرب الباردة، كانت أيديولوچية (الشيوعية ضد الرأسمالية) واقتصادية، بينما بعدها سيكون الصراع ثقافيا مع "صدام حضارات" ومع التقاليد السائدة فى السياسة الكونية. على نحو أكثر تحديدا، يتصور "هنتنجتون" أن مستقبل العالم سوف يتشكل من خلال تفاعل سبع أو ثمانى حضارات رئيسية: الغربية

واليابانية والكونفوشيوسية والإسلامية والهندوسية والأرثوذوكسية السلافية والأمريكية اللاتينية والأفريقية، ربما ... وأن أهم صراعات المستقبل سوف تحدث على امتداد خطوط الصدع الفاصلة بين تلك الحضارات وبعضها. عند "هنتنجتون"، هناك عدة نقاط اشتعال محتملة فى آسيا الوسطى والقوقاز والبلقان والشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط، وكثير منها يعتمد على التوترات بين الإسلام والغرب؛ وهو بذلك يرفض طرح "فرانسيس فوكوياما" (1992) الذى يرى أننا، بانتشار الرأسمالية، قد وصلنا إلى "نهاية التاريخ". بدل ذلك، نحن فى رأى "هنتنجتون" متجهون نحو عالم متعدد الحضارات، تتصاعد فيها الفوارق والاختلافات ولا تتلاشى. يضاف إلى ذلك أن الفوارق الحضارية، مقارنة بالانقسامات الأيديولوچية، لها جذور تاريخية عميقة، وعليه فهى مهمة وذات معنى بالنسبة لنا، ولذلك كله فإن احتمالات الصراع فى المستقبل تصبح قوية. كما يعتقد "هنتنجتون" أن سبب نشأة ذلك، كون كثير من الموضوعات التى تتصدر الأچندة العالمية قضايا بين الحضارات، مثل حقوق الإنسان والديمقراطية والهجرة؛ وبينما بإمكاننا أن نغير أيديولوچياتنا السياسية، لا نستطيع أن نغير "من نحن"، وبالتحديد لا نستطيع أن نغير خلفياتنا العرقية والثقافية.

العولمة فى رأى "هنتنجتون"، تُفَاقِمُ صدام الحضارات؛ لأن التفاعل الثقافى المتزايد الناتج عن عمليات العولمة المعاصرة يجعلنا أكثر وعيا بما بيننا من فروق واختلافات. وهو يجادل بأن "قوى التكامل فى العالم حقيقية، وهى بالتحديد ما يولد قوى مضادة للتوكيد الثقافى والوعى الحضارى". (36 :1997)، على سبيل المثال، أحد التطورات المرتبطة بالعولمة، وتحديدا زيادة أنماط الهجرة، أدى إلى بناء ما يسمى بـ "أوروبا الحصينة"، من خلال إجراءات وتدابير لتقييد الدخول إلى دول الاتحاد الأوروبى، كما أدى إلى تصاعد الدعوة فى الولايات المتحدة للحد من أعداد المهاجرين الجدد إليها. "هنتنجتون" يرى أن ذلك يعكس رغبة فى الغرب للحفاظ على أساليب الحياة والحضارة الغربية. العولمة بالتالى تقوى الانشقاقات الحضارية؛ وكما يقول، فإن "الحروب تحدث فى معظم الأحيان بين مجتمعات ذات مستويات عالية من التفاعل، والتفاعل عادة يقوى الهويات الموجودة وينتج مقاومة وردود فعل ومواجهة" (Huntington, 1996: 63).

نقاد "هنتنجتون" يجادلون بأن الحضارات - إن كان لها وجود - ليست متمايزة أو كيانات أحادية متفردة، بل إنها متنوعة بداخلها ومعقدة وتستعير من ثقافات وتقاليد ومؤثرات أخرى مختلفة. كما أنه متهم بأنه يهون من شأن الصراع داخل الحضارات؛ لأن ذلك لا يتفق مع طرحه عن "الصدام بين الحضارات". المسألة ببساطة، هى أنه إذا كانت هناك انقسامات داخل الحضارات، فليس من المرجح أن يكون هناك صدام بين الحضارات. (Harries, 1994)

من الانتقادات الأخرى الموجهة لطرح "هنتنجتون"، هى أنه يقلل من شأن وثاقة الصلة بين الدولة - الأمة والشئون العالمية: الحكومات القومية سوف تتصرف أولا وأخيرا بما يتفق والمصلحة الوطنية أكثر منها من أجل المصلحة الحضارية. (Weeks, 1996)، وفى هذا السياق هناك قدر محدود من الاعتراف داخل عمل "هنتنجتون" بأن الناس يملكون هويات متعددة وبالتالى سيكون لهم ولاءات متعددة كذلك. باختصار .. طرح "هنتنجتون" يجانس، بينما هناك تنافر فى حقيقة الأمر[1]. يضاف إلى ذلك أن مثل هذا الاستشراف - بالنسبة لبعض النقاد - يفشل فى الاعتراف بأن العمليات والتطورات التى تمثل العولمة المعاصرة بالفعل تقدم هجنة وتنوعا وتعقدا أكثر. والواقع، بما أن "هنتنجتون" يحاول أن يرسم خريطة لمستقبلنا الكونى، فإنه يولى اهتماما ضئيلا لفهم طبيعة العولمة، وهذا هو موضوع القسم الثانى من هذا الفصل.

العولمة: والعمليات الاجتماعية - الثقافية والاقتصادية المعاصرة

الفكرة الرئيسية المتكررة فى هذا القسم، هى أن العولمة ليست بمعزل، فهى تسهم بعدد من العمليات الاجتماعية - الاقتصادية، والاجتماعية - الثقافية المعاصرة، كما تكتسب فى الوقت نفسه قوة منها. هذا البحث سيبدأ بفحص الأساليب التى تسهم بها تلك العمليات فى المزيد من عدم الأمان، وكيف يمكن أن يولد ذلك بدوره أشكالا من التماسك الثقافى والصراع. هذه المناقشة سوف تركز - على نحو خاص - على المجتمعات الغربية، رغم أن ما سيرد لاحقا يمكن تطبيقه على مجتمعات أخرى.

• **عدم الأمان والتماسك الثقافى**

إذا كانت العولمة تنطوى على أشكال أكثر قوة من التواصل الكونى، فمن الحتمى أن تتراكم هذه الأشكال وتتضافر مع عمليات وتطورات رئيسية أخرى فى هذا العصر، مثل الابتعاد عن الموروث والتقاليد ونزعة ما بعد الصناعية. الابتعاد عن التراث هو المصطلح الذى يستخدمه علماء الاجتماع لوصف التحديات المتزايدة التى تواجه الممارسات التقليدية والمؤسسات وأشكال السلطة (مثل الكنيسة والزواج والأسرة والمؤسسات الحكومية والدولة ـ الأمة والمجتمعات المحلية واتحادات العمال ونظم العمل المستقرة ... إلخ). الجوانب المختلفة للعولمة تسهم فى هذا التوجه بطرق عدة وخاصة من خلال نشر مبادئ السوق؛ وانتشار الأسواق العالمية وقيمها والنزعة الاستهلاكية لا تؤكد أن معظمنا تتوفر له خيارات أكثر فحسب، وإنما يستتبعه مؤسسات قومية وأحزاب سياسية وأديان وشخصيات دينية تتنافس فى السوق للاستيلاء على اهتمامنا، ضد أشكال ثقافية ومنتجات استهلاكية أخرى، وبذلك تجردها من بعض هالتها ومكانتها وسلطانها. إلى جانب ذلك، فإن نظم المعلومات والاتصالات الكونية الناشئة تعمل على إزاحة البنى الاجتماعية والقومية القائمة، مشجعة على الانعكاس على الذات بتمكيننا من أن نرى إلى ما هو أبعد من تلك الأفق المحدودة (Lash and Urry; 1994, 2003).

وكما رأينا فى الفصل السابق، فإن سلطة الدولة ـ الأمة قد تكون معرضة للتآكل بفعل عمليات العولمة؛ وفى هذا السياق فإن القوة الاقتصادية النامية للأسواق المالية العالمية والمؤسسات المتعددة الجنسية قد تجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للحكومات القومية لكى تدير اقتصاداتها على نحو مستقل، ومن ثم يصعب أن تؤدى الكثير من وظائفها فى فترة ما بعد الحرب وخاصة فى مجال توفير الرفاه الاجتماعى. كذلك يواجه الحكم القومى الكثير من التحديات بسبب تلك الصلة القائمة بين النزعة ما بعد الصناعية والعولمة.

على نحو أكثر تحديدا، فإن تكنولوچيات المعلومات والاتصال الكونية التى تسهل كلا التوجهين، قد مكنت الأعمال التجارية ما بعد الصناعية فى الغرب من إعادة تمركزها واللجوء إلى اقتصادات قليلة الأجور فى الدول النامية بإقامة مراكز استدعاء للعمالة المؤقتة، وبذلك تسهم فى العولمة، ولكن على حساب

التوظيف فى الدول النامية، وهو توجه لا تستطيع أن تمنعه الحكومات الغربية ولا اتحادات العمال بالطبع. بعض المعلقين يرون أن مثل هذه التطورات يقلل من قدرة الدولة ـ الأمة على القيام بدورها التقليدى فى حماية مواطنيها، وهو ما يؤدى بدوره إلى إضعاف ارتباطهم بها ... وإضعاف سلطتها. الأثر التراكمى لكل هذه العمليات ـ كما يقال ـ هو أننا ندخل عصرا حديثا متأخرا، مرحلة تحديث انعكاسى نكون فيها أكثر قدرة على تحديد مساراتنا الحياتية بسبب كوننا أكثر تحررا من تقاليد وقيود وأنماط سلطة الماضى(٢).

الحالة التى انتهينا من وصفها توا، توفر لحياتنا حرية أكبر، وفى الوقت نفسه قدرا أكبر من عدم الشعور بالأمان. أشكال الحماية والتماسك الاجتماعى وخطوط الماضى الإرشادية يتزايد غيابها، بما يملى علينا أن نكون أكثر إنتاجا لأنفسنا وأكثر اعتمادا على الذات، وهو ما يعكسه التحول إلى المهن الحرة، والعمل فى المنزل، والعمل نصف الوقت، والحصول على راتب تقاعدى خاص، ومشروعات الرعاية الصحية وتأكيد انتهاج أساليب المعيشة الخاصة. الواضح أن بعض الناس ينتعشون فى ظل الظروف المعاصرة، حيث الحرية تتسع وفرص السفر والاستمتاع بتجارب جديدة تتزايد، بينما هناك آخرون تصبح الحياة الاجتماعية بالنسبة لهم أكثر تشظيا وأقل أمانا مع تراجع مصادر الهوية ـ مثل زملاء مكان العمل والاتحادات والمجتمعات المحلية؛ ويعتقد كثير من الكُتَّاب أن مثل هذه العمليات يؤدى بالأفراد "المنعزلين" إلى أن ينهمكوا فى أشكال مختلفة من التماسك الاجتماعى. (e.g., Bauman, 1996b; Beck-Gernsheim, 1996; Melucci, 1989; Wieviorka, 1994)

إنهم ينسحبون إلى جماعتهم الثقافية أو القومية الخاصة ويعيدون اكتشاف اليقينيات القديمة وأنماط السلوك الجمعى على هيئة هويات عرقية -ثقافية، لأسباب تتعلق بالشعور بالأمان والجوانب المجتمعية ولتحقيق شعور بالهدف والمعنى. وعليه، ومن منظور المعنيين بذلك، فإن إحياء وتأكيد الجوانب العرقية ـ الثقافية، وحتى أشكال النشاط العنصرى، يسمح ببناء شكل من إعادة البناء الاجتماعى والهروب من الفردانية الانعزالية .(Wieviorka, 1994) . وهكذا فإن التوجه نحو الداخل للاحتماء، يصحبه توجه ضد من يتصور أنهم "دخلاء"، بينما

فى هذه المرحلة المعاصرة من العولمة، تؤكد صور كثيرة من الهجرة الشاملة والواسعة أننا نلتقى بأعداد أكبر من أولئك الذين يوصفون بأنهم "دخلاء"، وهو ما يجعل البعض يستنتج أن ثقافتهم الخاصة مهددة، وأنهم غير قادرين على التحكم فى ما يحدث فى مجتمعاتهم. فى إطار الشعور المتزايد بعدم الأمان، سوف يؤدى كثير من المواجهات المتكررة مع "الدخلاء" إلى المنافسة وإلى توترات بين الجماعات الثقافية المختلفة. باختصار، تحت مثل هذه الظروف قد يذكرنا التواصل بأولئك الذين ينتمون إلى ثقافات أخرى، بمدى اختلافنا عنهم.

بالنسبة للدولة ـ الأمة والحكومات القومية، فنتيجة للتحديات المختلفة التى تواجهها، أصبح الناس يتوجهون نحو ثقافتهم الوطنية الخاصة فى مواجهة الدولة ـ الأمة. فى المملكة المتحدة مثلا، نجد هذا النموذج واضحا فى توجه البعض وتماهيهم مع ثقافتهم الأسكتلندية أو الويلزية أو الإنجليزية أكثر منهم مع الثقافة البريطانية، وهذا بالمثل انسحاب إلى "أمان التماثل"؛ لأن الدولة ـ الأمة، باعتبارها من نتاج التنوير والثورة الفرنسية، تقوم على مبادئ المواطنة العامة. على النقيض فإن القوميات العرقية الثقافية مؤسسة على الإقصاء أكثر منها على الديمقراطية والاستيعاب. والحقيقة أن إحدى نتائج دفاع المرء عن ثقافته ضد التحديات الخارجية، أن طبيعة الثقافة تتغير. عند الدفاع مثلا عن مفهوم مثل "أن تكون إنجليزيا" أو "أن تكون فرنسيا"، فإن درجة التنوع العرقى أو الثقافى الموجودة فى المجتمع يتم تخفيضها أو تهميشها فى هذه العملية (Tomlinson, 1997a)؛ وكما أشار "مانويل كاستلز" (1997a) فإن القوميات المعاصرة "هويات مقاومة"، بمعنى أن المنتسبين لها يشعرون بخطر العولمة والعمليات المصاحبة لها؛ وهذا رد فعل قومى دفاعى فى جوهره، ولكنه "يتأكد دائما ضد الغريب" (ibid., 27)؛ هناك إذن قدر من إعادة النظر يحدث فى ما يتعلق بالدولة ـ الأمة، وبالتحديد بما يعتبره الناس مجتمعهم القومى، ينعكس فى الصعوبة التى تجدها بعض الدول –الأمة لاحتواء المطالب العرقية القومية بالاستقلال الذاتى والانفصال، مما يؤدى ببعض الكُتَّاب للتساؤل عن مستقبل الدولة ـ الأمة بشكلها الحالى. (e.g., Horsman and Marshall 1995) فى داخل أوروبا على سبيل المثال، هناك توجه نحو تكوين دول أكثر تجانسا عرقيا وثقافيا، وهذا واضح فى تفتت الاتحاد

السوڤيتى السابق وتقسيم تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٩٣ إلى دول تشيك وسلوڤاك. الحركات الانفصالية تظل - أو أصبحت - قوة ذات أهمية فى السياسات الداخلية لدول مثل بلچيكا وكندا وإسپانيا والهند؛ والآن نجد أن أسكتلنده وويلز تتمتعان باستقلالية أكبر داخل المملكة المتحدة، نتيجة لهذا التطور. الأمثلة الأكثر وضوحا للدول التى تناضل من أجل احتواء التوترات العرقية والثقافية، موجودة بالطبع فى أفريقيّا، التى شهدت سلسلة من الحروب المحلية وغيرها من الصراعات والخلافات، وعلى حد تعبير "زيجمونت بومان Zygmunt Bauman" "الدولة - الأمة تخرج ... القبيلة تدخل" (1993: 41).

المتشككون سوف يعبرون عن ارتيابهم فى هذا التوصيف للحالة الراهنة للدولة - الأمة، حيث يعتقد كل من "هيرست" و"طومسون" (2000 - 1996) أن الحكومات القومية تحتفظ بالاستقلال الذاتى لكى تواصل إدارة قومية اقتصادية سياسية حقيقية؛ وكما رأينا فى المقدمة نجدهما يتساءلان ما إذا كنا نشهد عولمة كاملة فى زماننا. من منظورهما، تظل الدولة - الأمة قوة لها شأنها، وأن إمكاناتها ووظائفها قد قويت وزادت باطّراد فى مرحلة ما بعد الحرب، مع دخول دولة الرفاهة وأنظمة التعليم بما يؤكد أنها - الدولة الأمة - مستمرة فى القيام بدور بارز فى حياة مواطنيها. (انظر كذلك فى ما يتعلق بهذا المجال: Dunn, 1995; Holton, 1998; Mann, 1997) ، وبينما تحاول بعض الحكومات الآن إدخال عنصر من عناصر الخصخصة فى دولة الرفاه عندها، وخاصة فى ما يتعلق بالصحة والمعاشات، فإن مستويات الإنفاق العام لم تنخفض بشكل عام. يضاف إلى ذلك أن الحكومات القومية عندما تلوم العولمة بسبب الصعوبات التى تواجهها دولها مثل انكماش اقتصاداتها، فتلك وسيلة لصرف الاهتمام عن أدائها الخاص.

وعلى أية حال، بينما تلك نقاط مهمة، فلعل الأهم هو فهمنا للعولمة؛ وهكذا قد تستمر الدولة - الأمة فى أن تكون قوة حيوية ومهمة فى المرحلة المعاصرة، ولكن إذا كان هناك تصور يتنامى بأنها تكافح بسبب العمليات والتوجهات التى تمثل العولمة، فالأرجح أن الناس سوف يبحثون عن أشكال من الأمان والمعنى فى أماكن أخرى. يضاف إلى ذلك أنه إذا كان هذا التحليل صحيحا، فمعنى ذلك أننا نشهد

تضاؤل وضعف هوياتنا (دولنا ـ الأممية) وهو ما يلازمه إحياء لهوياتنا القومية الأقدم والأقل شمولا، أى أننا نبرز الآثار المتناقضة للعولمة.

باختصار، عمليات العولمة المعاصرة تبدو مثيرة لردود انتقائية، وضيقة الأفق، يتم التعبير عنها فى أشكال من التماسك الثقافى والإقصاء. على أنه لا بد من الاعتراف بأن بعض الناس فقط هم الذين يتصرفون على هذا النحو، ومن هنا تكون التنوعات القومية والإقليمية؛ وإن مثل هذا السلوك ليس حالة دائمة بالضرورة، حيث إن هوياتنا وولاءاتنا الثقافية يعاد تشكلها على نحو مستمر فى خضم عملية التفاعل المتواصل بين ما هو كونى وما هو محلى. البشر كذلك يمتلكون هويات متعددة، كلها ترفد سلوكنا بطرق مختلفة، أى أن ولاءاتنا القبلية ليست هى التى تسيطر علينا، أو هى التى نعرف بها. يضاف إلى ذلك، وبالعودة إلى نقطة أثيرت فى القسم السابق من هذا الفصل، أن أشكال التماسك والصراع الاجتماعى سوف يكون سببها فى الغالب الأعم عوامل لا علاقة لها ـ أو ذات علاقة محدودة ـ بالعولمة، حيث المرجح أن تكون الأهمية الكبرى للظروف المحلية. على سبيل المثال، نجد أن انبعاث القومية العرقية فى البلقان منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين، كان نتاج عوامل مثل التاريخ والديناميكيات الثقافية فى المنطقة، بالإضافة إلى دور القادة السياسيين المعاصرين، أكثر مما كانت رد فعل على العولمة. مرة أخرى يمكن أن نرى أننا لكى نستجلى تأثير العولمة، لابد من فحص الأطر الخاصة التى يتقاطع فيها الكونى والمحلى، على الرغم من أننا فى غنى عن القول إن العولمة المعاصرة على هيئة أشكال أكثر اتساعا من التواصلية البينية الكونية، تثرى المضمون ـ دائم التغير ـ الذى تحدث فيه تلك التطورات.

● التدفقات الثقافية والتوترات الثقافية

التدفقات الثقافية الكونية الأكثر كثافة التى تميز عصرنا، قد تثير القلق كذلك لأنها تؤكد أننا، يوميا، مواجهون بـ "الآخر" بما يقوى أحيانا الهويات والفوارق العرقية ـ الثقافية؛ وكما يشير "ستيوارت هال Stuart Hall (1996)"، فإن الهوية يتم سبكها فى العلاقة بيننا وبين "الآخر". فى ظل العولمة المعاصرة،

ليس من الضرورى أن تكون هذه المواجهة بين أشخاص؛ إذ إنها قد تتكون - بكل بساطة - من الصور والرموز والأفكار والأصوات التى نستطيع تجربتها، قادمة إلينا من أنحاء العالم دون - حتى - أن يكون علينا أن نبرح مكاننا. دلائل التوترات التى قد تنتج عن ذلك يمكن أن نراها فى محاولة الحكومات الإسلامية أن تضع قواعد وأن تتخذ إجراءات قد تصل إلى الحظر كما فى حالة إيران بالنسبة لاستخدام الأطباق اللاقطة للإرسال التلفزيونى. فى معظم الحالات يكون الهدف من هذه السيطرة تقييد وتحجيم التأثير الثقافى الغربى والشرقى أو كليهما الذى ينظر إليه باعتباره قوة مجانسة، رغم أنه فى حالة حكومة إيران نجد أن الدافع هو الرغبة فى الاحتفاظ بالسيطرة السياسية، وخاصة لأن المحطات الفضائية الأجنبية يديرها منفيون أو لاجئون إلى الولايات المتحدة، ويرون أنها لعبت دورا مهما فى الاحتجاجات الطلابية فى ٢٠٠٣.

على أية حال، هى الحركة المتزايدة للناس عبر كوكب الأرض، التى أثارت وحفزت تلك الورطة السياسية والثقافية الواسعة فى المرحلة الحديثة، مؤدية إلى جدال حول الهوية والانتماء، وكذلك إلى خلق أشكال جديدة من الإقصاء، كما عبر عن ذلك "إيريك هوبسباوم" بقوله: "أينما كنا نعيش فى مجتمع حضرى فنحن نلتقى غرباء: رجالا ونساء مجتثة جذورهم يذكروننا بهشاشة أو جفاف جذور عائلاتنا" .(173 :1992) . هجرة عصر الطائرات النفاثة، كما رأينا فى الفصل السابق، جعلت مجتمعات كثيرة أكثر تعددية من الناحية الثقافية وأفرزت قضايا كثيرة عن كيفية استيعاب ثقافات وشعوب جديدة فى المجتمعات القومية القائمة، وخاصة مع زيادة الجدل حول تمثل الثقافات الأخرى فى مواجهة التعددية الثقافية كما قد نرى فى الحالات التالية:

التوترات الثقافية فى فرنسا

كان هناك جدال استمر طويلا فى فرنسا حول ظاهرة ارتداء الحجاب فى المدارس، انتهى بتصويت فى البرلمان الفرنسى، بأغلبية كبيرة، فى فبراير ٢٠٠٤ لحظر ذلك وغيره من الرموز الدينية الصريحة، فى المدارس الرسمية. إرث الثورة الفرنسية يجعل الدولة ترى أن من واجبها الدفاع عن النظام الجمهورى

والعلمانية، وبالتالى تحاول دائما أن تتجنب منح أى دين اعترافا رسميا. هذا الأمر يصب فى قلب المفهوم الفرنسى للمواطنة الذى يتأسس على الأفراد أكثر مما هو على الجماعات، سواء كان ذلك ثقافيا أو غيره. المواطن الفرنسى، باختصار، مدين بولائه للدولة، ويتمتع بالحقوق والحريات على هذا الأساس. على أن معارضة الدولة الفرنسية للتعددية الثقافية تعتبر فى نظر بعض المعلقين معوقا أمام استيعاب مسلمى فرنسا. كما ينظر إليها باعتبارها عاملاً خلفيًا لأعمال الشغب التى انطلقت من ضواحى باريس الفقيرة إلى المدن الأخرى عبر فرنسا فى آواخر ٢٠٠٥، على الرغم من أنه كانت هناك - بالطبع - عوامل عدة وراء هذه الاضطرابات إلى جانب جماعات أخرى متورطة فى الأحداث.

التوترات الثقافية فى الولايات المتحدة

هناك بالمثل نزاعات وخلافات فى المدارس والجامعات فى الولايات المتحدة حول محتوى المناهج الدراسية، أدت إلى عدد من المظاهرات وأحدثت اضطرابات فى الحرم الجامعى. (انظر: Chavez, 1996; William, 1996) . هذه القضية تم استقطابها غالبا بين مؤيدى التعددية الثقافية وأولئك المهتمين بتنمية هوية أمريكية وثقافة مدينية. المؤيديون يؤكدون حق الشباب فى أن يدرسوا عن خلفياتهم العرقية أو الثقافية الخاصة، مع بعض الجدال بأن الثقافة الأمريكية يسيطر عليها الأوروبيون فى الأساس، بينما المعارضون يعتبرون ضغوط الأمركة آخذة فى التراجع، بسبب تنمية التعددية الثقافية والترويج لها فى الحياة العامة، وخاصة فى المدارس والجامعات .(e.g., Briemlow, 1995) إلى جانب الجدل الدائر حول المناهج التعليمية، تظهر وجهات النظر المختلفة كذلك الجدال حول التعددية اللغوية وغيرها، وهو ما جعل بعض المعلقين يتساءلون ما إذا كانت مجرد مثل أعلى ينبغى أن تسعى إليه البلاد، والأهم هو التفكير فى معنى "أن تكون أمريكيا" . (Lapham, 1992). من تجليات هذا القلق، ظهور سياسات الهوية فى المجتمع الأمريكى، الذى أصبح يلام، بدوره، عن فشله فى الاستيعاب (Shain, 1995). بعض النقاد يعتقدون أن سياسات الهوية فى المجتمع الأمريكى هى التى أفرزت سياجات ثقافية محصورة، أدت إلى انخفاض التسامح ومضاعفة

إمكانيات الصراع الاجتماعى، بحيث أصبحت الحياة اليومية فى الولايات المتحدة حربا ثقافية مستمرة منخفضة الكثافة .(e.g., O´Sullivan)[٣].

ينظر كذلك إلى سياسات الهوية باعتبارها قد أضرت بالعملية الديمقراطية: لأنها أدت بمجموعات خاصة للتصويت ككتلة؛ لتعميق مصالحها الخاصة على حساب المجتمع الأوسع. كذلك فإن قراءة بديلة لما يحدث داخل المجتمع الأمريكى ترى أن التعددية الثقافية والأهمية المتزايدة لسياسات الهوية تعكس كلا من حاجة عميقة للتعبير عن التنوع والاختلاف الثقافى، وخيبة أمل كبيرة فى الشكل الذى اتخذه الاستيعاب تقليديا، وخاصة تنمية الهيمنة الثقافية للواسپ[*] انظر: .(Smelser and Alexander, 1999)

والواقع أن "ريتشارد ميريلمان Richard Merelman" (1994) يرى أن سياسات الهوية والشواهد الحديثة على الصراع الثقافى فى الولايات المتحدة بمثابة أعراض لتدهور الهيمنة الأيديولوچية الأوروبية البيضاء على المجتمع الأمريكى. هذا التطور فى رأيه، يمهد الطريق أمام المزيد من المنافسة بين الجماعات المختلفة، وأمام مقاومة أكبر من قبل الأقليات لقوة الجماعة المسيطرة.

العولمة والتعددية الثقافية والتهجين

بالإضافة إلى إسهامها فى تطور المجتمعات متعددة الثقافة، يمكن أن تؤدى العولمة إلى تمزيق مثل هذه المجتمعات؛ لأن التدفقات الكونية المتزايدة وتجلياتها المختلفة قد تؤدى إلى التهجين الثقافى. هناك جنوح يمكن فهمه لدى دعاة التعددية الثقافية وخاصة ممثلى جماعات الأقليات؛ للتهوين من شأن درجة التنوع داخل الثقافات وربما تجاهلها تماما، حيث إن وضعها يستند إلى فكرة أن الثقافات كيانات متجانسة ومتمايزة. بنظرة أوسع، مع تسهيل عملية التهجين فإن عمليات العولمة يكون لديها الإمكانية لإضعاف دور كل من يصرون على التمايز الثقافى والحضارى بأى صورة، بتوضيح وتدعيم وزيادة درجة التنافر الموجودة داخل الثقافة بالإضافة إلى توليد ثقافات هجينة جديدة. إلى جانب التعين

(*) White Anglo-Saxon Protestants البروتستانت الأنجلوساكسون البيض. (المترجم)

اليومى، وغالبا الاستيعاب غير الواعى تماما للثقافات الأخرى على شكل صور وأفكار وأصوات كلنا منهمكون فيها. فإن أحد التجليات الواضحة لزيادة الهجنة، تلك الزيادة فى عدد الزيجات بين الأجناس المختلفة وزيادة نسبة الأطفال من أجناس مختلطة وخاصة فى المجتمعات الغربية. الجنس المختلط هو الآن ثالث أكبر جماعات الأقليات فى المملكة المتحدة والمتوقع أن يصبح أكبرها فى العقد القادم؛ بينما فى الولايات المتحدة ـ وهو ما يعكس مدى التغير ـ مسموح أن يسجل فى الإحصائيات اليوم صفة "متعدد الجنسية"، كما يتحدث المعلقون عن جيل ملتبس عرقيا. هذا الغموض العرقى نجده أكثر وضوحا فى الإعلان والتسويق والترفيه وصناعة الأزياء. مشاهير مثل "كريستينا أجيليرا Christina Aguilera" و "تيجر وودز Tiger Woods" تعتبرهم الشركات قادرين على بيع منتجاتها لأنهم ملتبسو العرق، وعليه فمن المرجح أن تروق الكثيرين فى سوق الشباب التى يتزايد باطّراد تنوعها العرقى والثقافى. قد تكون تلك آخر صيحة ثقافية، ولكنها تعكسها كذلك تغيرات ديموغرافية فى أمريكا وغيرها من الأماكن، وكذلك فى عدد "المهجنين". المغزى السياسى لهذا التطور، كما يشير "نيكوس باپاسترجيادس Nicos Papastergiadis" هو أن الهجنة ينظر إليها دائما وكأنها "مخفف للاحتكاكات" فى عملية صدام الثقافات .(176 :2000) .

وهكذا فإن مثل هذا التنوع العرقى والثقافى، هذا التعقد فى الحقيقة، يمكن أن يعمل ضد تفاقم الصراع الثقافى الذى يتطلب مسبقا وجود تمايز واختلاف. من هنا، فإن الهجنة تتحدى الجوهرية؛ لأنها تزعزع الثقافات والهويات الثقافية الراسخة وتمكننا من التعرف على تواريخها المعقدة والمتداخلة والأسلوب الذى اقترضه كل تقليد من سواه ومن المؤثرات الأخرى. (انظر ندرڤين پيتيرس (2004) (Nederveen Pieters) .

من ناحية أخرى، يتضاءل اعتبار الثقافات الأخرى خطرا، كما تقل الحاجة للدفاع عن ثقافتنا الخاصة، حتى عندما نكون على وعى بأنها كلها نتاج مصادر متعددة. من هنا، فإن الاعتراف بالهجنة وقبولها يمكن أن يساعد على النظر إلى ما هو أبعد من ثقافتنا الخاصة، وأن نتعرف إلى المشترك بيننا وبين الآخرين. والحقيقة أنه من منظور منظرى الهجنة، فإن الحدود والتصنيفات الثقافية

وغيرها من التقسيمات تجعلنا نتهيب استكشاف جذورنا الهجينة ومن ثم لا نفهم أنفسنا.

التعقد الثقافى نفسه، بالطبع، قد يثير الأصوليين لأسباب واضحة، ولكن حالة "التهجين المتسارع"، إذا قبلنا أن يكون وصف "ندرفين پيتيرس" (2004) للمرحلة المعاصرة دقيقا، تثير أسئلة حول الملاءمة المستقبلية لاتخاذ موقف متشدد دفاعا عن الثقافة أو عن جماعة ثقافية معينة. استكمالا لهذا الطرح، هل من الممكن أن تؤدى بنا موروثاتنا الثقافية المختلطة، وولاءاتنا المتعددة إلى أن نرفض فى النهاية أناسا يقومون بحملات باسمنا من أجل ثقافات أحادية وعرقيات أحادية نتماهى معها جزئيا؟ إن تصنيفنا باعتبارنا ننتمى إلى جماعة ثقافية معينة، يجلب معه توقعات بالولاء والالتزام بقيم ومبادئ الجماعة وهو ما يمكن أن يقيد سلوكنا. (Appiah,1994 ; Kuper, 1999) بكل بساطة، ثقافتنا يمكن أن تخفى ذاتنا الحقيقية، (Taylor, 1994) ، وليس ذلك بمفرده أحد اهتمامات الفردانيين الغربيين؛ فعلى سبيل المثال سوف تجد ممارسات من قبيل الزيجات المرتبة التى أصبحت مرتبطة بثقافات معينة، معارضة شديدة غالبا، من قبل أفراد ينتمون إلى هذه الثقافات؛ وفى سياق مشابه هناك أمثلة لا حصر لها على أناس يقومون بأعمال وأفعال باسم ثقافة معينة، بينما سلوكهم يؤدى إلى إقصاء أفراد من مجتمعهم الثقافى الخاص، الأغلبية الساحقة من المسلمين مثلا تروعهم الأعمال التى يقوم بها المتطرفون من بين صفوفهم.

تكنولوچيات المعلومات والاتصال الكونية والتعبئة الثقافية والتطرف

تدفقات المعلومات والاتصال جزء لا يتجزأ من تدفقات الثقافة الكونية المعاصرة كما رأينا فى الفصل الثالث، ولكنها أيضا يمكن أن تستغل من قبل الأصوليين والقوميين العرقيين لتحقيق أهدافهم واحتياجاتهم الخاصة، وتحديدا من أجل إعادة إحياء وتدعيم هوياتهم الثقافية الجمعية. ومن ثم فإن التطورات المشهودة فى الميديا الإلكترونى وتكنولوچيات الاتصال التى تسهل عمل المنظمات غير الرسمية وغير التابعة للدول، تسهم كذلك فى التعبئة العرقية والثقافية. إنها تمكن الجماعات العرقية والتجمعات القومية من نشر رسالتها، وتمهد الطريق

لإرساء شبكات دعم على مستوى العالم وخاصة بين السكان وتجمعات المهاجرين والشتات القادرين على الإبقاء على الاتصال بأوطانهم الأصلية (Richmond, 1984; Schlesinger, (1991) كما يتضح لنا مثال آخر على وصف " بندكت آندرسون (1994) Benedict Anderson بـ"قومية المسافات الطويلة"، وذلك فى حالة القومية الهندية فى الهند، التى لقيت دعما مهما من الهندوس المقيمين فى الغرب وخاصة فى الولايات المتحدة وكندا. (انظر كذلك: Appadurai - 1996) هذه الممارسات تعبر عن الانخلاع الثقافى عن الإقليم (ثقافة أبناء الهجرة والشتات منفصلة عن الإقليم الأصلى)، ولكنها واضحة كذلك فى ثقافة "إعادة الأقلمة" حيث يحاول أبناء المجتمعات العرقية والقومية تنمية مشاعر الارتباط بالأقاليم (الأوطان) الأصلية بين أبناء جماعتهم الثقافية أو الاجتماعية أينما كانوا. مثل هذا المشروع، إذن، دلالة على الارتباط المستمر بين الثقافة والإقليم؛ وبعبارة أخرى: فى إطار العولمة المعاصرة يظل بالإمكان دائما "تخيل" مجتمعنا من على البعد.

كما هو معروف جيدا، الإنترنت والشبكة العالمية والبريد الإلكترونى، كلها مستخدمة لنشر التطرف والكره، وبأساليب مزعجة تتراوح بين أفراد منخرطين فى إنكار الهولوكوست وجماعات تؤيد العمليات الانتحارية لمن يقومون بتفجير أنفسهم أو خطف رهائن. التكنولوچيات الحديثة ـ على نحو خاص ـ سهلت للمتطرفين العمل دون أن يتعرف عليهم أحد، بما يمكنهم من نشر مادتهم والالتفاف على القوانين الوطنية؛ ومن هنا تجد الحكومات صعوبة فى المراقبة والسيطرة ومقاضاة المتورطين فى مثل تلك الأنشطة. على مستوى سياسى أوسع، يتزايد استخدام الجماعات اليمينية المتطرفة للإنترنت من أجل نشر رسالتهم، فقد نشرت وكالة المخابرات الألمانية فى تقريرها السنوى (إبريل ٢٠٠٤) عن خطورة المتطرفين ما يفيد أن الجماعات اليمينية الألمانية المتطرفة قد أنشئت ٣٠٠ موقعا للترويج لأفكارها وتجنيد أعضاء جدد. (BBC World Service, 4 April, 2000).

وبنظرة أكثر اتساعا ,تتضح على نحو خاص الجوانب الثقافية التى تتداخل فيها العولمة مع أبعاد أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية، وذلك لأن من ينتمون

إلى مثل تلك الجماعات وينتهجون النشاط نفسه الذى نصفه هنا ,هم غالبا من الأقسام المهمشة فى المجتمع، الذين لديهم الكثير الذى يخشونه من ظروف العولمة المعاصرة ,وخاصة أن فرص عملهم أصبحت تنتقل إلى أماكن أخرى من العالم, وعليهم أن يتنافسوا مع قادمين جدد، بينهم كثيرون أكثر منهم مهارة.

تكنولوچيات المعلومات والاتصال الكونية الحديثة، بالإضافة إلى ظهور الميديا العابرة للحدود، تبدو كذلك قادرة على توليد معارف ثقافية عالمية حول الأفكار والصور وأساليب الحياة[٤] وبالفعل فإن "ماليس رثفن Malise Ruthven " يعتقد أن صدام الحضارات "عندما يقع، فسوف يكون ذلك فى الفضاء الإلكترونى وليس بين الجيوش أو التكتلات الإقليمية"، (6 : 1995) ، فالميديا والاتصالات المعاصرة على سبيل المثال أسهمت كثيرا فى نشر الجدل الخلافى المحيط بالرسوم الكاريكاتورية الدانمركية للنبى "محمد" فى ٢٠٠٦، وفى غضون أيام قليلة حولت جدلا دانمركيا محليا إلى قضية عالمية رئيسية.

فى السياق نفسه، هناك مقارنة مثيرة للاهتمام بين ما أثير من لغط وخلافات حول رواية "سلمان رشدى": "آيات شيطانية" فى أواخر ثمانينيات القرن الماضى، وأدت بالزعيم الإيرانى "آية الله الخمينى" أن يصدر فتواه الشهيرة بإهدار دم مؤلفها. قضية "رشدى" أخذت وقتا أطول بكثير لكى يكون لها صدى عالمى، أخذت شهورا، وليس أياما لكى تصبح حكاية عالمية. من الواضح أنه كانت هناك عوامل أخرى وراء التأثير المتباعد لهاتين القضيتين، وخاصة أن الرسوم الدانمركية ظهرت بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وفى إطار حرب الولايات المتحدة على الإرهاب، بما يعنى أن الحساسيات الثقافية ظلت عالية على كل الجوانب. على الرغم من ذلك فإن السرعة التى انتشرت بها معرفة الرسوم الدانمركية من دولة لأخرى فى أواخر يناير وأوائل فبراير ٢٠٠٦ لكى تصبح "قضية اليوم"، دليل على قوة الاتصالات والميديا الحديثة واتساع المدى الذى تصل إليه. وإذا انتقلنا إلى ما هو أبعد من النزاعات الثقافية الخاصة، فإن إسهام هذه القوى فى ضغط العلاقات الاجتماعية عبر الزمان والمكان، واضح فى ظهور الإسلام الراديكالى، الذى ورط النشطاء الإسلاميين فى استخدام واسع للإنترنت والبث عبر الأقمار الصناعية كما سنرى.

العولمة ليست سببا للإرهاب العالمى. الإصرار على مثل تلك الصلة قائم على تصور العولمة كيانا حيا له أهداف وأغراض سياسية، بينما هى ليست شيئا من ذلك. الهدف هنا -فى هذا الفصل -هو مجرد تقييم المدى الذى تسهم به عملياتها وتجلياتها فى زيادة الشعور بالرعب، بالتركيز على ظاهرة "تنظيم القاعدة". إحدى الصعوبات الرئيسية فى الكتابة عن "القاعدة" التى ظهرت فى ١٩٩١، وتشير إلى قاعدة بيانات كونية عن الداعمين والفاعلين، هى أنها لا جود لها فعليا .(Burke, 2003)، الحقيقة، هى أن القاعدة أيديولوچيا، أو رؤية للعالم كما أنها تنظيم، وقد أصبحت "اسم تغطية" لجماعات إرهابية مختلفة. القاعدة - باختصار - تستعصى على التعريف أو التصنيف المحدد، وهو ما يلخصه "چاسون بيرك Jason Burke" الذى يرى أن "أسامة بن لادن" والقاعدة: ألفيون، أصوليون، إحيائيون، وهابيون، سلفيون إسلاميون ... على الأقل فى تجذرهم فى الحداثة، إن لم يكن فى برنامجهم[٥] (39 :2003) القاعدة، أيضا، عَرَض من أعراض الصراع الدائر داخل المجتمع الإسلامى عن التوجه المستقبلى للإسلام، مع المعلقين الذين، على نحو متزايد، يشيرون إلى أكثر من إسلام ... وربما التأسلم[٦]، ومع وضع هذا التنوع فى الاعتبار، فإن النقاش التالى عن الإسلام والقاعدة يدور بشكل عام.

كثير من المسلمين، وليس الراديكاليين أو المتطرفين فقط، يربطون بين العولمة والاختراق الاقتصادى الغربى أو الأمريكى تحديدا، الذى ينظرون إليه بدوره باعتباره سببًا رئيسيًا للحالة الاقتصادية المتردية لكثير من مجتمعاتهم. من هذا المنظور، مكنت العولمة الولايات المتحدة وحلفاءها من أن تمارس قوتها الاقتصادية فى الشرق الأوسط وأماكن أخرى فى العالم الإسلامى وأن توسع استخدامها نتيجة لذلك. (Falk, 1999) [٧]. وبالمثل فإن البعد الثقافى للعولمة يعتبر فى نظر كثير من المسلمين، خطرا على ثقافتهم الدينية الخاصة من وجهة نظرهم، بمعنى أن مجتمعاتهم تتعرض لقصف يومى بصور أساليب الحياة الغربية عن طريق التليفزيون والأفلام والإعلانات، جاعلة من الصعب الحفاظ على خصوصيتها وهوياتها الثقافية. (انظر: Mohammad, 2001). باختصار، هناك قلق من أن

العولمة أصبحت تعنى انتشار النزعة الاستهلاكية والمادية، وكذلك العلمانية والفردانية، وتعتبر كلها عوامل إضعاف لأساليب الحياة والقيم الإسلامية. آية الله الخمينى حذر من "مستقبل أسود مخيف" للأمة الإسلامية، وهى العبارة التى فهمت فى العالم كإشارة إلى الهيمنة الكونية للقوة الاقتصادية والسياسية الأمريكية. العولمة نفسها ينظر إليها كأحد مستهدفات القاعدة، (Talbott and Chanda, 2001). من هنا لم تكن مصادفة أن تكون هجمات الحادى عشر من سبتمبر موجهة نحو مراكز القوة الرئيسية فى الولايات المتحدة، وباستهداف مركز التجارة العالمى، كانت القاعدة تضرب أحد رموز العولمة.

الانتشار السريع لتكنولوجيات المعلومات والاتصال وبخاصة "الإنترنت"، يجعل من الصعب بدرجة كبيرة، إن لم يكن من المستحيل، على الأنظمة الإسلامية أن تتحكم فى تدفق المعلومات إلى دولها. فى عام ٢٠٠٧ كانت هناك تقديرات تشير إلى أن إيران يوجد بها أكثر من ٥ ملايين مستخدم للإنترنت، ولكن طهران فى الوقت نفسه قلقة بسبب احتمالات النشاط الثورى المضاد الذى يقوم به الإيرانيون الذين يعيشون خارج البلاد ولا سيطرة لها عليهم. والحقيقة أنه كانت هناك زيادة هائلة فى التدوين باللغة الفارسية وصلت إلى وجود نحو ٤٦٠٠٠ مدون داخل إيران، وأكثر من ٧٥٠٠٠ مدون نشط بالفارسية فى عام ٢٠٠٥ فى أنحاء العالم (Boyd, 2005), وهو ما يعنى أن الحكومات الإسلامية لا تستطيع القيام بأكثر من الجهد الوقائى، حيث إن مواطنيها تصلهم تقارير متضاربة عن الواقع السياسى؛ وكان ذلك واضحا فى محاولة الحكومة الإيرانية فى أواخر عام ٢٠٠٦ تقييد سرعات الإنترنت بهدف تخفيض التأثير الثقافى الغربى فى البلاد، بأن تجعل من الأكثر صعوبة على الإيرانيين تحميل الموسيقى الأجنبية والأفلام وبرامج التلفزيون (Tait, 2006). بالإضافة إلى ذلك فإن مؤسسات الميديا والتكنولوچيات العالمية تجعل المسلمين أكثر وعيا بضعف مستوياتهم المعيشية وسوء أحوالهم مقارنة بالشعوب الغربية، وهو ما يجعل أعدادا متزايدة منهم تهاجر إلى المجتمعات الغربية. (هناك الآن حوالى ٦ ملايين مسلم يعيشون فى الولايات المتحدة، وفى أوروبا يصل الرقم إلى نحو ١٦ مليونا). على أية حال، القادة المسلمون قلقون لأن أولئك المسلمين الذين يعيشون فى الغرب

لا يترددون على المساجد كثيرا ويكيفون التعاليم الإسلامية لكى تتناسب مع بيئتهم وأساليب حياتهم الجديدة، بينما يرى الأصوليون أن التجمعات الإسلامية فى المجتمعات الغربية تعيش فى "جاهلية" الكفر؛ وبالطبع فإن العولمة تعنى كذلك أن أثر "الجاهلية" آخذ فى الانتشار فى المجتمعات الإسلامية، ومن هنا كانت الحاجة - من وجهة نظرهم - للجهاد. فى هذا السياق، فإن مؤسسات التحكم الحديثة مثل الأمم المتحدة والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى تعتبر تحت السيطرة الغربية، كما تعتبر آليات يستطيع الغرب من خلالها فرض قيمه وممارساته على المجتمعات الإسلامية، وخاصة فى مجالات حقوق الإنسان والديمقراطية.

العولمة الإسلامية

على الرغم من ذلك، ينبغى ألا نعتبر العولمة غريبة عن الإسلام. الإسلام دين كونى والمسلمون جزء من مجتمع كونى بالفعل (الأمة). يضاف إلى ذلك أن للإسلام تاريخا من الإمبراطوريات والسلطنات، انتهت فقط مع انهيار الإمبراطورية العثمانية؛ وهناك كثيرون من الراديكاليين الإسلاميين، بما فى ذلك القاعدة وشركاؤها، الذين يرغبون فى عودة الخلافة والانتشار الكونى المتواصل للإسلام. هناك إذن تاريخ للخروج الثقافى عن الإقليم وإعادة الأقلمة فى إطار الإسلام. هناك كذلك معنى تعمل فيه جوانب العولمة باعتبارها مفيدة للإسلام. هذه الأشكال المتعددة للتواصلية الكونية مثل السفر والاتصالات والميديا الحديثة تقرب المسلمين من بعضهم وتقوى هويتهم المشتركة، والمؤكد أنها أسهمت فى "إعادة أسلمة" الإسلام خلال العقود الثلاثة الأخيرة. بين المسلمين، بشكل عام، هناك مستوى عال من الوعى بمعاناة "الإخوة" المسلمين فى أجزاء كثيرة من العالم، والمؤكد أن وجهات النظر داخل "الأمة" تتشكل على أساس تلك المعرفة؛ وربما نجد أصداء لذلك فى مفهوم "رولاند روبرتسون" للعولمة، باعتبارها تمثل "انضغاط" العالم، حيث سيكون للأحداث نتائج وتداعيات لأحداث أخرى فى مناطق أخرى. وربما تكون مرجعية لها فى مناطق أخرى أبعد. إنشاء صحف ومنظمات إعلامية إسلامية وعربية عالمية مثل تليفزيون الجزيرة، يلعب دورا مهما فى هذا السياق؛ وبينما توجه اتهامات لبعض هذه المصادر بأنها تقدم تقارير

منحازة وتثير النزعات الراديكالية، فإن ذلك يعنى أن المسلمين لم يعد حتما عليهم أن يعتمدوا على المؤسسات الإخبارية الغربية مثل الـ "CNN" والـ "BBC" للحصول على المعلومات. الصور الإعلامية عن الفظائع التى ارتكبت بحق المسلمين سواء فى شيشينيا أو فلسطين أو العراق أو البوسنة أو كشمير أو غيرها، تدعم شعورا بالتضامن كما تثير فى البعض الرغبة فى الانتقام. كل ذلك مفيد إلى حد بعيد بالنسبة للجماعات المتطرفة مثل القاعدة، والحقيقة أن الإسلاميين الراديكاليين يستخدمون مثل هذه المعلومات التى يتم نشرها عبر العالم من خلال الأفلام والـ "DVD" ومواقع الإنترنت بهدف تجنيد أعضاء جدد من أجل الجهاد العالمى.

تنظيم القاعدة والعولمة

يشار إلى القاعدة دائما على أنها تضم جوانب متعددة من العولمة، وباعتبارها شبكة عالمية فالجانب الأبرز هو اعتمادها الكبير على الاتصالات الحديثة. "چون جراى (2003) John Gray" يعتقد أنها بهيكلها التنظيمى واستخدامها لتكنولوچيات الاتصال، والوعى بأهمية الميديا، تعتبر ظاهرة حديثة. القاعدة تستخدم منتجات الحداثة الكونية مثل الإنترنت واللاپ توب والتليفونات المحمولة ... والطائرات بالطبع. مواقع الإنترنت يستخدمها عدد من الجماعات الإسلامية للتجنيد ولأهداف تنظيمية أخرى، ولكن القاعدة تستخدم مواقع مشفرة. أما بالنسبة للوعى بأهمية الميديا، فمن منظور قيادة القاعدة أن نقل الصور المشهدية فى زمن الاتصالات العالمية السريعة يجعلها تصل إلى جمهور كونى كما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر. والحقيقة أن الميديا العابرة للحدود القومية قد ساعدت قضية القاعدة، وربما دون قصد، بأن جعلت رسائل الڤيديو والرسائل الصوتية من أسامة بن لادن وغيره من قيادات القاعدة تبث فى أرجاء العالم؛ كما كانت هناك إشارات مزعجة إلى أن شبكة القاعدة بصدد استكشاف إمكانية استخدام تكنولوچيات المعلومات والاتصال العالمية للدخول فى إرهاب إلكترونى ضد ما يسمى بـ "المجتمع الشبكى". يضاف إلى ذلك أن القاعدة والمنظمات ذات الصلة نفسها، أسست شبكات مالية عالمية متطورة لجمع ونقل الدعم المالى والتبرعات واستخدام المؤسسات الإسلامية ومنظمات الأعمال

الخيرية وكذلك البنوك والشركات التى تعمل "واجهات" لتمويل عملياتها. ونتيجة للطبيعة المعقدة والمتشعبة للأسواق المالية العالمية، ولضخامة حجم الصفقات، تجد الحكومات القومية صعوبة بالغة فى تتبع الإرهاب الدولى فى عالم المال. القاعدة فى رأى "چون جراى": "منتج فرعى من منتجات العولمة".

باختصار، التطورات المختلفة التى تمثل العولمة مكنت القاعدة من أن تنظم نفسها وتحافظ على بقائها. على أننا إذا كنا نريد بالفعل أن نفهم جيدا كيف تسهم العولمة فى الإرهاب العالمى الذى تنتجه القاعدة، فمن الضرورى أن نفهم تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب. كثير من المسلمين يعتبرون العولمة المرحلة الأحدث فى تاريخ طويل من الاعتداءات الغربية على الإسلام وهو ما يعود فى نظر البعض إلى الحملات الصليبية. فى مراحل أحدث، كانت تلك الاعتداءات واضحة فى انتشار الحكم الاستعمارى الأوروبى عبر الشرق الأوسط خلال النصف الأول من القرن العشرين، ودمج العالم الإسلامى فى الحرب الباردة، ودعم الحكومات الغربية للأنظمة السلطوية فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، وتدخل الغرب فى الأراضى الإسلامية المقدسة بسبب الحاجة إلى النفط. هناك بالتالى شعور عام فى العالم الإسلامى بأنه تحت حصار العالم الغربى وأنه يعمل من موقع ضعف. (انظر: Fuller and Lesser, 1995). يتبع ذلك أن صحوة الحركات الإسلامية والجهادية هى فى جزء منها رد فعل دفاعى على هذه التطورات، كما تعكس رغبة فى التمسك بأسلوب الحياة الإسلامى (Halliday, 1996)، وهكذا فإنه عند النظر إلى العولمة أو تصويرها باعتبارها استمرارية للاستغلال الغربى، فإن ذلك يكون لصالح القاعدة والجماعات المشابهة. على أن هذه الصلة بين القاعدة والعولمة فى حاجة إلى موازنتها باعتبارات ربما لا يتسع المجال هنا لمناقشتها، مثل المشكلات الأحدث التى تواجه المجتمعات الإسلامية: الاقتصادات الراكدة، والأنظمة السلطوية، والفساد السياسى، والزيادة السكانية المطردة، إلى جانب اللغط الدينى والانقسامات السياسية التى تحدث فى المجتمع الإسلامى، وكلها عوامل ساعدت فى ظهور القاعدة. من هنا، نكرر أنه لابد من النظر إلى العولمة باعتبارها عاملاً مساعداً أكثر منها سببا للرعب والإرهاب العالمى.

وأخيرا، من الممكن أن تؤثر حملة الإرهاب التى تقوم بها القاعدة على المسار المستقبلى للعولمة فيصبح الناس أكثر حذرا وترددا فى مسائل السفر والتنقل فى العالم، بالإضافة إلى التأثير الضار على التجارة العالمية والاستثمار؛ ففى الولايات المتحدة مثلا وضعت قيود مشددة على انتقالات البشر ورؤس الأموال إلى داخل وخارج البلاد بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وإن كان ذلك لا يعنى أن عمليات العولمة سوف تتوقف أو أن مسارها سينعكس بسبب الإرهاب العالمى، كل ما هنالك أن شكلها هو الذى سيتأثر. هذه القضية تحيل إلى جدال أكاديمى أوسع عن ما إذا كانت العولمة سوف تتعرقل بفعل الانقسامات الثقافية.

"رولاند روبرتسون" (1992) يعتقد أن العولمة تقدم الإطار الذى تؤكد فيه الحضارات نفسها، والحقيقة أنه يناقش العولمة وكأنها قد تحققت بالفعل، وعلى العكس منه نجد "ڤايتوتس كاڤوليس (1988) Kavolis Vytautas" ، وهو محلل متخصص فى الحضارة، يؤكد الحيوية المتواصلة للحضارات إلى جانب تمايزها وعدم تكافؤها، ومن هنا، فهو ينتقد نظرية العولمة. وبينما يقبل "روبرتسون" خصوصيات الأديان الفردية فإنه يؤكد نسبيتها. بعبارة أخرى، العولمة تضع الحضارات الدينية المختلفة كلها معا وتجبرها على أن تقيم وزنا بعضها لبعض، وهو ما يفسر المستوى العالى الحالى للوعى الحضارى والوعى الذاتى العرقى، وهذا يعزز بدوره فكرة مهمة عند "روبرتسون" تناولناها فى الفصل الرابع، وهى أن العولمة تتضمن "تعميم الخصوصية وليس مجرد تخصيص العمومية".(130 :1992).

صراع ثقافى أم تعقد ثقافى؟

الكُتَّاب الذين تناولنا أفكارهم فى هذا الفصل أوضحوا، بطرق مختلفة، الصلة بين العولمة وأشكال الصراع الثقافى، على أن هناك مشكلة عامة فى توصيفهم وهى تناول العولمة على نحو غير نقدى، وهو ما يتضح فى نقص الإشارة إلى ما يصاحب الموضوع من جدال. الأهم من ذلك أن هناك إدراكا غير كاف للعولمة باعتبارها عملية مستمرة تنطوى على عدة عمليات معقدة، غير كاملة، غير منتظمة تؤثر بدورها فى الثقافات والمجتمعات المختلفة بعدة طرق؛ وعليه تصبح

معادلة التواصلية الكوكبية المتسارعة بالصراع الثقافى مسألة إشكالية وهو أقل ما يمكن قوله فى هذا السياق. والحقيقة أنه على ضوء الأساليب الخاصة التى سوف تمارس بها العولمة عملياتها المتعددة، ويفهمها جماعات اجتماعية ومجتمعات مختلفة لكل منها ثقافته وتاريخه، فمن المرجح أن تجلب تنافرا وتعقيدا أكثر بدلا من مجرد إثارة الصراع، يضاف إلى ذلك أن العولمة لا تخلق صراعا ثقافيا، وبينما قد يكون ذلك أحد آثار عملياتها المتعددة فإن نتيجة كهذه سوف تتحدد فى النهاية بطبيعة الديناميكيات الكونية/ المحلية فى أطر معينة، يتضح ذلك مثلا فى ردود الفعل المختلفة للدول إزاء أن تصبح أكثر تعددية من الناحية الثقافية نتيجة لتوجه عولمى خاص وبالتحديد زيادة الانتقال والهجرة.

وهكذا بينما رفضت الدولة الفرنسية التعددية الثقافية لأسباب تاريخية، وهو توجه قد يكون مسئولا فى جزء منه على الأقل عن الاضطرابات الكبيرة بين جماعات الأقليات العرقية والثقافية فى الفترة الأخيرة، نجد أنه كانت هناك توترات ثقافية أقل فى الفترة نفسها فى المملكة المتحدة، حيث التعددية الثقافية سياسة تنتهجها الحكومات المتوالية منذ ستينيات القرن الماضى. يضاف إلى ذلك أن استطلاعا للرأى أجرته الـ "BBC" فى أغسطس ٢٠٠٥ يكشف عن أن ٢٦٪ من ألف شخص تم استطلاع رأيهم، كانوا يشعرون أن "التعددية الثقافية جعلت بريطانيا مكانا أفضل للعيش"، (BBC, 2005) ، على أنه فى دولة أوروبية أخرى مثل هولندا نجد مثلا على كيفية تأثير عمليات العولمة، مثل الهجرة، فى المجتمع وكيف تغيره. هولندا، تاريخيا، بلد ليبرالى، ومعروف عنها الترحيب بالمهاجرين، ولكن مؤخرا كان هناك تعبير عن القلق فى المجتمع بخصوص مستوى الهجرة ـ فى مطلع القرن الحادى والعشرين كان أكثر من ١٠٪ من سكان هولندا (البالغ عددهم ١٦,٣ مليون نسمة) مهاجرين "غير غربيين" ـ ونقص الاندماج الملحوظ فى المجتمع الهولندى لبعض المسلمين يثير مطالبات بضوابط أشد من بعض الدوائر. إلا أن أى أثر لعمليات العولمة على تآكل روح التسامح الهولندية المعروفة، لا بد من موازنته بعوامل أخرى مثل قتل المخرج السينمائى الهولندى "ثيو ڤان جوخ "Theo van Gogh فى عام ٢٠٠٤ على يد متطرف إسلامى، وهو ما أثار قلقا واسعا حول وضع الدولة.

تفسيرات "باربر" وآخرين، تصوير يعوزه الوضوح للشئون العالمية. فى هذا السياق نجد أن أحد جوانب أشكال التواصل الكونى التى تعبر عن العولمة المعاصرة، هى التطور الكبير لمنظمات التحكم العالمية فى ما يتعلق بتنمية الحوار بين الثقافات. "اليونيسكو" على سبيل المثال، تولى هذا الهدف اهتماما كبيرا، من خلال تنظيم المؤتمرات العالمية والاحتفاليات وتبادل الوفود التربوية وتشجيع إصلاح برامج المدارس والجامعات. وفى سياق مماثل ظهرت آليات كثيرة لحل النزاعات وبحث الشكاوى. وكما سنرى فى الفصل السابع، هناك رؤية مفادها أن مثل هذه المؤسسات، مع النمو المستمر فى حجم وعدد المنظمات غير الحكومية، قد تسهم فى تكوين مجتمع مدنى عالمى يكون بديلا للجهاد فى مواجهة عالم ماك[٨]. من المرجح أن يرد "باربر" وغيره بأنهم منشغلون أساسا بتحديد توجهات وميول عريضة فى المرحلة المعاصرة، أكثر من انشغالهم بتناول ما يحدث فى أطر معينة؛ على أن نتيجة استشرافهم هى أنهم يميلون إلى تعريف العولمة باعتبارها تشجيع التطورات التى تسير فى اتجاه واحد أو اتجاهين فقط، بينما عمليات العولمة، كما رأينا، قادرة على إنتاج استجابات متنوعة، متوقفة على ظروف أو أطر خاصة وعلى التفاعل بين الكونى والمحلى (Holton, 1998) .

باختصار، بينما يركز "باربر" ومن معه على الصراع الثقافى فى علاقته بالعولمة، من المرجح أن يكون الملمح المحدد لها هو التعقد الثقافى الأكبر، وخاصة إذا لم نفكر بالثقافة باعتبارها ثابتة، ونقبل مزاعم "روبرتسون" بالاختراق المتبادل بين الكونى والمحلى. الفكرة العامة للكُتّاب الذين يربطون العولمة بالصراع الثقافى، هى أنهم يرون الكونى والمحلى موجودين فى علاقة جدلية، كما أن لهم رؤيتهم الخاصة حول ما تتضمنه العولمة وكيفية عملها؛ ولكن بعض العمليات والتجليات المعبرة عن العولمة، إلى جانب الانعكاسية الموجودة فى القلب من التفاعل بين الكونى والمحلى، يمكن أن تؤدى إلى نتائج كوزموبوليتانية، كما سنرى فى الفصل القادم.

للمزيد

- انظر أعمال (Barber,1996) و (Horsmann and Marshall 1995) للمزيد عن العولمة وانبعاث القومية العرقية.
- صمويل هنتنجتون هو الكاتب الأهم فى مجال الصراع الثقافى وقد قام بتطوير رؤاه فى عدد من المقالات والمقابلات، ولعل أبرز أعماله كتابه الشهير:

The Clash of Civilization and the Remaking of the World Order (1997).

- من الأعمال الرئيسية عن التحديث الانعكاسى والانعكاسية والخروج عن التقليد مؤلفات:

Beck et al. (1994), Lash and Urry (1994) and Heelas et al. (1996).

- للاطلاع على تقييم للمتضمنات المجتمعية لاستخدام المتطرفين للإنترنت، انظر:

Susan Zickmund, "Approaching the Radical Order: The Discursive Culture of Cyberhate" (1997).

- للمزيد عن الخلفية الثقافية واللاهوتية والسياسية للقاعدة انظر:

Jason Burke´s "Al-Queda: Casting a Shadow of Terror" (2003).

الفصل السابع

العولمة والكوزموپوليتانية

فى هذا الفصل الأخير من الكتاب نستكشف العلاقة بين العولمة والكوزموپوليتانية، وهو مختلف عن الفصول السابقة من حيث تناول الأمر على نحو أكثر تأملا، مع محاولة للتفكير، من خلال المتضمنات الممكنة، فى أشكال أكثر شمولية فى عمليات الاتصال والتواصل الكونى فى المرحلة المعاصرة. الفصل يبدأ بطرح بعض المجادلات حول الكوزموپوليتانية إلى جانب أسلوب التناول الذى سوف نتبعه هنا. بعد ذلك نلخص الأساليب التى تُوَلِّد من خلالها عمليات وتجليات العولمة توجهات وطرائق الحياة الكوزموپوليتانية؛ وسوف يتضمن ذلك تقييما للآثار بعيدة المدى على الأفراد والمجتمعات، الذين لديهم القدرة على الوصول إلى الثقافات والتقاليد الأخرى من خلال الهجرة والسفر وتكنولوچيات المعلومات والاتصال.

كما سيتضمن الفصل العودة إلى بعض الموضوعات المتعلقة بهذا العمل، وبخاصة تأكيد الطبيعة التعددية التنافسية المعقدة للعولمة الثقافية. فى هذا السياق فإن الحالة التى نعرض لها هنا فى علاقتها بالكوزموپوليتانية، لا بد من موازنتها بالادعاءات التى سبق أن تناولناها، مثل الجدال بأن عمليات العولمة تسهم فى الصراع الثقافى.

قبل بدء هذا البحث من الضرورى تحديد معنى كلمة " كوزموپوليتان" التى ستفهم هنا على النحو التالى:

١ : (أ) : جزء من أجزاء كثيرة من العالم أو يفهم أجزاء كثيرة منه.

(ب) : مكون من أناس من أجزاء كثيرة من العالم أو من كل الأجزاء.

٢ متحرر من القيود والانحيازات القومية. (Concise Oxford Dictionary, 8th ed. 1991.) أما كيف نصبح كوزموپوليتان، فذلك أمر أكثر تعقيدا وهو ما سوف نتناوله على مدى الفصل.

استشراف الكوزموپوليتانية

يعود الجدال حول الكوزموپوليتانية إلى قدامى الرواقيين الإغريق، وفى المرحلة الحديثة كان هناك إحياء للاهتمام بالموضوع نتج عنه أدبيات كثيرة تغطى مجالات عدة، منها مثلا ما يناقش الكوزموپوليتانية فى علاقتها بمناطق معينة مثل أوروبا (Amin, 2001)، والشرق الأوسط (Zubaida, 2002)، إلى جانب مدن (Sennett, 2002) ومناطق محلية مجاورة .(Hiebert, 2002) . معظم هذا العمل، إن لم يكن كله، يشكله أسلوب تناول العلوم السياسية للموضوع مع تأكيد على تطور الأطر الأخلاقية (Dower, 1998) ، والمواطنة العالمية (Heater, 2003)، ومؤسسات التحكم العالمية (Held, 2004) ، ولكن هذا الفصل من الكتاب، اتساقا مع مجمل موضوعاته، يركز على الأبعاد الاجتماعية والثقافية للكوزموپوليتانية التى تناولتها كذلك أدبيات كثيرة. (انظر: Beck, 2000, 2002; Breckinridge et al., 2002; Tomlinson, 1999a; Urray, 2003)[١] سوف يتناول أسلوب الاستشراف الذى نتبعه هنا معنى أن يكون الشىء "كوزموپوليتانيا" فى عصر العولمة، ومن هنا سيكون التركيز على المواطنين والأفراد وتكوين الهويات الثقافية أكثر منه على المؤسسات والهياكل والأطر القانونية والأخلاقية. والحقيقة أن أحد الانتقادات الموجهة للتركيز على الإطار المؤسسى أو بنية الحكم العالمى، هو الافتراض الأساسى بأن الناس فى العالم سوف يتصرفون على نحو كوزموپوليتانى ويفيدون من هذه البنى والعمليات، ويريدون بشكل عام أن يصبحوا مواطنين عالميين.

على الرغم من ذلك، فإن الأسلوب الذى نتبعه هنا لاستشراف الكوزموپوليتانية من المرجح أن يواجه باعتراضات. "مارتا نسباوم (1996) Martha Nussbaum" على سبيل المثال ترى الكوزموپوليتانية مجتمعا باتساع العالم يتكون من كل الشعوب، ولذلك تؤيد فكرة المواطنة العالمية وتدافع عنها؛ على أن أفق التوقعات

لإقامة مواطنة عالمية، ودولة عالمية وحتى أساليب عمل مناسبة للحكم العالمى، ما زال بعيداً فى هذه المرحلة: ومن هنا فإن أى مناقشة له لا بد من أن تظل مجردة. هناك كذلك تبرير آخر لاستخدام أسلوب سوسيولوچى وثقافى فى تناول مسألة الكوزموپوليتانية، وهو أنها مفهوم متعدد الأبعاد ويتطلب سلسلة من الأنماط التحليلية لفهمه؛ وفى ما يتعلق بالعولمة، فإن الكوزموپوليتانية لا تبقى فكرة مجردة مقصورة على الجدال الأكاديمى بل تصبح تجربة معيشة لأعداد متزايدة من الناس، وبالتالى تكون أكثر تنوعا وتعددية فى طبيعتها، ولعل ذلك هو السبب فى أن بعض الكُتَّاب يناقشون الآن "كوزموپوليتانيات" أكثر مما يناقشون كوزموپوليتانية واحدة. (انظر: Breckenridge et al., 2002; Clifford, 1992)، وهى نقطة سوف نعود إليها فى خاتمة هذا الفصل.

بعد أن لخصنا أسلوبنا فى تناول الكوزموپوليتانية هنا، سننظر فى القسم التالى فى الأساليب التى يمكن أن تنتهجها بعض العمليات والتطورات التى تمثل العولمة لدعم الكوزموپوليتانية؛ ولكن قبل ذلك لابد من القول إن مثل تلك الصلة من المرجح أن تواجه تحديات، وبخاصة من قبل الاقتصاديين واليسار السياسى الذين يربطون بين العولمة والرأسمالية واتساع الأسواق الرأسمالية؛ فـ "پيتر جووان "Peter Gowan" الذى يستخدم مصطلح الكوزموپوليتانية على الأقل بالنسبة للعولمة، يكتب مثلا عن "كوزموپوليتانية نيوليبرالية"، مجادلا بأن هناك قوى اقتصادية قوية تدفع العولمة المعاصرة وتحاول أن تقيم نظاما كونيا يتغلغل عميقا فى "الحياة الاجتماعية والسياسية للدول المعرضة لها، بينما يحمى تدفقات الأموال والتجارة العالمية" (2001:8)، مثل هذه الآراء تعتبر تذكرة مفيدة بأن هناك بعدا قويا للعولمة، ولكن هذا مرة أخرى، يوضح مدى اختلاف المجالات الأكاديمية فى فهمها للموضوع، وكيف أنها تهمل طبيعتها المتعددة الأبعاد.

العولمة والكوزموپوليتانية

• الاتصالية الثقافية والكوزموپوليتانية

هناك جوانب من العولمة تدعم أو تسهل التواصل الثقافى التفاعلى، الأمر الذى يمكن أن ينتج عنه وجهات نظر كوزموپوليتانية لأنه يزيد من احتمالات تطور

الفهم أو حتى التقمص إلى أكثر من مجرد الإلمام بثقافات ومجتمعات وتقاليد مختلفة: فالتحركات السكانية المعاصرة، كما رأينا، تجعل كثيرا من المجتمعات تصبح، تدريجيا، متعددة الثقافة، متعددة الأعراق، كما تجعل كثيرا ممن يعيشون فى هذه المجتمعات يفيدون من الفرصة لممارسة ثقافات مختلفة تتراوح بين تجربة أصناف الطعام الجديدة إلى المعتقدات الدينية[٢]. كذلك هناك آخرون منهمكون فى عمليات تهجين ثقافى يمزجون ثقافات مختلفة، وخاصة فى مجالات الموسيقى والرقص والأزياء والمسرح. بينما التوجه نحو الدولانية أو العولمة، اعتمادا على ما إذا كان المرء يصدق منظور المتشككين أو المغالين فى العولمة، دليل على أن التجارة وأنشطتها سوف تتسع إلى ما هو أبعد من الحدود القومية، وهو تطور تساعد عليه أنظمة النقل العالمية. مثل هذه الاتصالية، أدت بدورها إلى ظهور "مفاوضى الحدود"، وهم المتخصصون القادرون على تناول المنازعات عبر الحدود ومشكلات التواصل الثقافى المتبادل، مثل المحامين الدوليين والدبلوماسيين والمتخصصين الثقافيين وغيرهم من المهنيين الذين يثيرون جدلا حول إذا ما كان ظهورهم يؤدى إلى تكوين ثقافات عابرة للحدود القومية أو "ثقافات ثالثة" (Featherstone, 1990; Gessner and Schade, 1990) ، ويصبح هناك إذن إمكانية لعدد كبير من الناس أن يتصرفوا بطرق مختلفة باعتبارهم كوزموپوليتان أو مواطنين عالميين. يضاف إلى ذلك أن تكنولوچيات المعلومات والاتصالات الكونية تسهل امتداد الحياة الاجتماعية عبر الزمان والفضاء، وهو ما يعنى - مرة أخرى - أن يزيد التواصل الكونى ويصبح أكثر سرعة فى المرحلة المعاصرة. كل ذلك يهيئ الفرصة أمامنا لكى نفكر فى ما هو أبعد من بيئاتنا ومجتمعاتنا، وبالتالى فهو يقوى تحالفات جديدة ويتحدى الكثير من الولاءات المستقرة، وإن كان ذلك لا يعنى بالضرورة اختفاء الذهنيات والهويات القومية. هذا التوجه نجده منعكسا فى تكوين هويات جديدة بما فى ذلك الهويات المزدوجة مثل "إيطالى - أمريكى" و "بريطانى - آسيوى" و "پولندى - أوروبى" مثلا.

على أن الناس لن يصبحوا بالضرورة أكثر كوزموپوليتانية لمجرد أن أصبح لديهم المزيد من "الفرص الكوزموپوليتانية"؛ وفى هذا السياق يعرف كل من "چيمس هنتر James Hunter" و"چوشوا يتيس Joshua Yates (2002)" من

يصفونهم بأنهم "كوزموبوليتان ضيقو الأفق" ويقصدون بهم الناس -وبخاصة رجال المال والتجارة - الذين يسافرون طولا وعرضا ولكنهم يظلون معظم الوقت داخل "الفقاعة الواقية" لثقافاتهم الخاصة، وهو ما يمنعهم من ممارسة أو تجربة الثقافات الأصلية على النحو الصحيح. هذا النموذج من الكوزموبوليتانية - إن اتفق أن يكون ذلك هو الوصف الملائم - نموذج ضحل. وكما يشير "أولف هانرز Ulf Hannerz" فإن كون الشخص فى حالة حركة دائمة "لا يكفى أن يجعله كوزموبوليتان"، (241 :1990) . فى هذا السياق يحرص قطاع كبير من صناعة السياحة على توفير عطلات وإجازات "آمنة ومريحة" للسائحين، وهو ما يعنى تقليل احتكاكهم قدر الإمكان بالمحليين؛ وهى الحالة نفسها مثلما رأينا أن الفرص الكوزموبوليتانية التى تسهلها عمليات العولمة قد تساعد على إعادة تقوية الثقافات والهويات القومية، وخاصة بسبب التهديدات الملحوظة للتقاليد وأساليب الحياة القومية. هناك كذلك أسباب أخرى - كما سنوضح لاحقا - تجعلنا نعتقد أن ردود الفعل القومية، ضيقة الأفق، لن تكون بالضرورة هى الرد السائد على العولمة، ولكن قبل أن نبحث ذلك سنحاول استكشاف ظاهرة اجتماعية تتعلق بالكوزموبوليتانية، وهى علاقة ليست سهلة وليست مستوية، وهى ظاهرة المدينة المعولمة.

• المدن المعولمة والكوزموبوليتانية

ظهور المدن المعولمة، مثل لندن ونيويورك وطوكيو - ويقال إن هناك خمسًا وعشرين مدينة من هذا النوع - انظر: (Knox, 2000) دليل على الكوزموبوليتانية[1] ظهور هذه المدن يمكن إرجاعه - بين أشياء أخرى - إلى الهجرة العالمية والاتصالات الإلكترونية، ودورها باعتبارها المراكز الرئيسية للاقتصاد العالمى، وقد ساعد ذلك كله على نموها وقوتها، كما أدى - إلى حد ما - إلى ابتعادها عن الدول التى توجد بها؛ والواقع أن المدن المعولمة توفر لسكانها بدائل عن الدولة - الأمة، سواء من ناحية مصادر القوة أو الهوية. وهى على نحو أوسع عنصر مهم فى التوجه نحو التحكم العالمى متعدد المستويات، الذى هو نفسه انعكاس لتآكل السيادة القومية أو الوطنية .(Delanty, 2000) . وربما تكون

المدن المعولمة أكثر اتساعا مع التطورات المعاصرة من الدول - الأمة: لأنها أكثر ارتباطا بتدفقات وتحركات العولمة، رغم أن "برنر Brenner" يرى أن الأخيرة تنمى الأولى (تحركات العولمة تنمى التدفقات) لكى تجتذب استثمارات رأس المال. المدن المعولمة هى الأماكن التى تخدم أهدافنا. حيث يتجمع الكثير من البشر من أماكن مختلفة من العالم، إلى جانب أنها النقاط التى تنبع منها وتعود إليها معظم التدفقات الثقافية والاتصالات والمعلومات الكونية، وبذلك تكون مواقع رئيسية للتفاعل والتبادل الثقافى. والحقيقة أن أحد الملامح المحددة لمدن مثل نيويورك ولندن وپاريس وريو دى چانيرو، هى ذلك المزيج الكوزموپوليتانى للثقافات والموروثات المختلفة، يضاف إلى ذلك أن المدن المعولمة متصلة بمدن أخرى فى أربعة أركان للمعمورة عن طريق تكنولوچيات المعلومات والاتصال، ومن هنا فهى تسهم فى تكوين شبكات كونية. (انظر: Sassen, 2000). وهى، فى العادة، النقاط المحورية والعقدية للشبكات عبر الحدود، (كاستلز، 1996)، يراها جزءا من الطبقة الثانية فى فضاء التدفقات الذى يتمثل عنده فى عقد ومحاور)، وعليه فهى تلعب دورا حاسما فى تشجيع الاتصالية الكونية وليس المجال الاقتصادى فحسب.

على أن هذا المفهوم للمدن المعولمة باعتبارها أماكن كوزموپوليتانية لن يعدم من يختلفون معه، إذ بينما مثل هذه المدن عادة ما تكون نقاط النهاية لتدفقات هجرات ديناميكية معقدة ومتفاوتة. باعتبارها الأماكن التى يقصدها معظم المهاجرين عند وصولهم إلى دولة ما، فإن ذلك لا يمهد الطريق بالضرورة أمام مواجهات كوزموپوليتانية بين المهاجرين والمقيمين. مثل هذا التفاعل تعوقه ظاهرة "الفرار الأبيض"، حيث تواصل الطبقات البيضاء العليا والمتوسطة المسيطرة خروجها من المدن الداخلية وخاصة فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. وبالمثل فإن كثيرا من المهاجرين سوف يقومون - فى البداية على الأقل - بالأعمال المتدنية وذات الأجر الهزيل ويعيشون عادة فى مناطق فقيرة حقيرة، بما يؤكد أنهم بالفعل معزولون عن معظم بقية المدينة وسكانها. باختصار، الناس "يتحركون" ولكنهم لا يتواصلون بالضرورة. من موقف مختلف، تعتقد "ساسكيا ساسين (2000-2001) Saskia Sassen" أن المدن المعولمة ظهرت لأسباب

اقتصادية: أصبحت مراكز عابرة للحدود وللنشاط المالى والخدمى، كما تجادل بأنه حتى فى عالم يكون فيه النشاط الاقتصادى لا مركزيا، تكون هى الأماكن التى تتمركز فيها القوة الاقتصادية والمالية. المدن المعولمة، بعبارة أخرى، نتاج الرأسمالية وليس الكوزموپوليتانية. فى السياق نفسه يكتب "چون أورى John Urry (1995)" عن مدن الاستهلاك التى تزيح المدن الصناعية؛ وكما هو معروف جيدا فإننا يمكن أن نجد التفاوت الشديد فى الدخول والعوز والحرمان الاقتصادى والاجتماعى الكبير فى كثير من المدن المعولمة، وهى الحالة التى تعمل على تفاقمها عشوائية أسواق العمل فى المرحلة الحديثة. حتى فى داخل المجتمعات الغربية نجد أن مستويات المعيشة فى بعض المناطق المدينية لا تختلف كثيرا عنها فى بعض دول العالم النامى. المدن المعولمة، من هنا، فى كثير من الأحيان تكون أماكن للتوترات الاجتماعية والثقافية، كما يتضح فى تكون مجتمعات مغلقة أو جيتوهات ثقافية وعرقية؛ ومرة أخرى، هذه الظروف تعمل على كبح انتشار الكوزموپوليتانية.

مثل هذه الانقسامات نجدها منعكسة فى ظاهرة المراقبة داخل التخطيط المدينى، وخاصة فى التجمعات ذات البوابات المغلقة الأشبه بالقلاع، والمثير للاهتمام أن تلك المجتمعات المسورة تظل هى الأكثر اتصالا، كونيا، وذلك بفضل تكنولوچيات المعلومات والاتصال ويتجسد فى ما يسمى بظاهرة "الكوخ الإلكترونى" التى تأخذ فى بعض مدن أوروبا وأمريكا الشمالية شكل مستوطنات الميديا أو المقاطعات الإلكترونية. "مانويل كاستلز" (1993) يعتقد أن "مدينة المعلومات" كما يطلق عليها، ينتج عنها الازدواجية المدينية الأولية فى زماننا، وبالتحديد الفصل بين "نخبة كوزموپوليتانية متصلة" و"محليين غير متصلين"؛ الأولى تشكل حياة المدينة، بينما الأخيرة مستبعدة أو مقصاة إلى حد بعيد عن هذه التطورات.

فى المدن المزدحمة كذلك بالغرباء، نجد أن الغريب هو الأقل مشارك فى الكوزموپوليتانية، فالمدن المعولمة ملأى بعابرين مثل السائحين والجوالين ومن يقومون برحلات يومية ذهابا وعودة إلى أماكن عملهم، أى أنه لا معنى حقيقيا للارتباط بها ولا بالناس الذين يعيشون بها؛ بل إن "زيجمونت بومان"

(1993, 1996) يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك مجادلا بأن السائح أو الجوال أو المتشرد ضارون بالأخلاقيات، حيث لا حاجة لهم للتدخل فى أى جدال أخلاقى حول الأماكن التى يزورونها، وليس لديهم أى مسئولية أخلاقية تجاه السكان المحليين. وحيث إن أولئك الطارئين، من وجهة نظر السكان الأصليين ليس لديهم أى التزام تجاه مجتمعهم، على اعتبار أنهم الذين اختاروا عدم البقاء، فليس هناك سبب مهم ولا فرصة لكى تكون هناك مواجهة كوزموپوليتانية معهم. يضاف إلى ذلك أن تدفقات الناس الذين يمرون بمدننا كثيفة فى ظل ظروف العولمة المعاصرة، كما أن الناس أكثر حركة، وإيقاع الحياة أسرع، وذلك كله يمكن أن يكون ضارا بالمجتمعات المدينية وبناء بيئة تؤدى إلى مواجهات ثقافية متبادلة. فى النهاية، مهما كانت درجة تعقد حياة المدينة وتنوع الجماعات الاجتماعية ومن يشاركون فى تلك العمليات، فإن من الصعب الوصول إلى استنتاج محدد عن العلاقة المتبادلة بين المدن المعولمة والكوزموپوليتانية؛ وفى هذا السياق يقدم كل من "جراهام Graham " و"مارڤن Marvin " فى كتابهما: (Splintering Urbanism (2001 " دليلا كافيا على التشظى والانفصال المدينى، وإن كانا يعترفان فى آخر العمل بأن أشكال الاختلاط والامتزاج العام تبقى جزءا من حياة المدينة. التعليقات المتباينة عن الحياة اليومية فى مدينة كونية واحدة، لندن مثلا، يمكن أن نجدها فى كتاب "چون إيادى John Eade" الذى يحمل عنوان: (1997) "Living the Global City" وهى مرة أخرى تلقى الضوء على أهمية الحاجة إلى تفحص مجموعة من الأطر المحددة، لمعرفة كيف تعمل تدفقات وعمليات العولمة، وعلى نحو أكثر تحديدا مدى الإسهام فيها والمشاركة فى هذه التقاطعات الكونية - المحلية.

● الكوزموپوليتانية الشعبية

هناك سبب إضافى لعدم انتشار الكوزموپوليتانية فى كل قطاعات المجتمع لأنها - تقليديا - كانت حكرا على النخب الغنية، وبعض الكُتَّاب يعتقدون أن هذا السبب مازال قائما؛ وبمعنى أوسع، هناك تمييز يتم غالبا بين نخبة كوزموپوليتانية من الطبقة المتوسطة مكونة من المهنيين ورجال الأعمال والميديا

والسياسيين الدوليين والمديرين والدبلوماسيين المعروفيين بحركيتهم وتنقلاتهم ومشاركتهم فى الشبكات الكونية، وطبقة عاملة أقل حركة ربما تكون مرتبطة بمحليتها وإقليميتها تكون نظرتها، على أكثر تقدير، عابرة للحدود القومية. (e.g., Bauman, 1998a) فى هذا السياق، يحدد "چوناثان فريدمان" - 1999 - ظهور نمط آخر من النخبة الكوزموپوليتانية، الممثلة بالمثقفين من أقسام الدراسات الثقافية (منظرو الهجنة وكُتَّاب مابعد الكولونيالية .. إلخ) وهم فى رأيه بعيدون عن هموم واهتمامات المواطنين العاديين.

إلا أن هناك على الرغم من هذه الآراء، جوانب من العولمة المعاصرة قد تسهم فى الانتشار الواسع للكوزموپوليتانية، أو تعتبر دليلا على ذلك. بداية، بعض أفقر الجماعات داخل كل المجتمعات هم جماعات مهاجرة وجماعات شتات، ولكن كثيرا من أعضائها سيكونون من مزدوجى اللغة وحاملى الهويات المزدوجة ومن لديهم مجموعة من الولاءات والانحيازات الأبعد من التماهى مع البلد "المضيف"، (Appadurai, 1996; Cheah and Robbins, 1998) كثير منهم من ثم، وبمعنى حقيقى، معرضون لثقافات ومؤثرات أخرى ويعيشون بأسلوب كوزموپوليتانى. وبينما توضح "پنينا ڤيربنر (1999) Pnina Werbner " هذه النقطة فى ما يتعلق بدراساتها عن المهاجرين الپاكستانيين كاشفة عن اندماج حقيقى ومتنوع مع الثقافات والمجتمعات المختلفة التى يقيمون فيها، أكثر من دراسة اللغات سواء كان ذلك فى أمريكا الشمالية أو أوروبا أو غيرهما، يؤدى بها ذلك إلى أن تصفهم بأنهم "كوزموپوليتان طبقة عاملة"، تحفر أعمالهم وتصرفاتهم "ممرات كونية".

ثانيا، بعض التطورات والتكنولوجيات التى تسهل العولمة المعاصرة، يمكن النظر إليها بالمثل باعتبارها تسهم فى الانتشار الشعبى للكوزموپوليتانية. على سبيل المثال، التوسع العالمى فى صناعة الطيران والتطور المستمر فى صناعة الطائرات النفاثة، كل ذلك يؤدى إلى رخص السفر إلى الخارج، كما يُمكِّن المزيد والمزيد من الناس من كل قطاعات المجتمع من التنقل فى العالم وممارسة ثقافات أخرى، رغم أننا ينبغى ألا ننسى أن "هانرز وآخرين" يتشككون فى علاقة السفر بالكوزموپوليتانية. مثل هذا السلوك يعززه إضفاء الصفة الفردية والروح الاستهلاكية على المرحلة المعاصرة (الفصل الخامس)، الذى يقودنا للاعتقاد بأن

من حقنا أن نستهلك الثقافات والأماكن الأخرى فى العالم كله، (Urry, 1995). ثالثا، ونكرر، من الممكن أن يكون هناك سلسلة من المواجهات والتجارب الكوزموپوليتانية داخل المدن الرئيسية فى مجتمعاتنا التى تتزايد فيها التعددية الثقافية، بما فى ذلك الجيرة وأماكن العمل والمدارس والجامعات، حيث تتراكم وتتقاطع المجتمعات الثقافية بعضها مع البعض .(Hiebert, 2002) فى منازلنا، تمكننا الإذاعة والتليفزيون والصناعات الموسيقية العالمية من الوصول إلى مؤثرات جديدة، تصلنا على شكل "الأحداث الجارية" وبرامج السفر والموسيقى العالمية على سبيل المثال. ذلك كله جزء مما يطلق عليه "الكوزموپوليتانية اليومية"، (Vertovec and Cohen, 2002). وهو ما يعنى أن السفر إلى دول أخرى لم يعد ضروريا لكى نصبح متفاعلين مع أكثر من ثقافة ومن ثم نتصرف على نحو كوزموپوليتانى. كل ذلك يعمل على طمس التمايز أو التمييز الذى يتم عادة بين "الكوزموپوليتانيين" و"المحليين" وهو ما قد يثير الشكوك حول زعم "هانرز" بأنه "لا يمكن أن يكون هناك كوزموپوليتانيون دون المحليين".

• العولمة والتعليم والكوزموپوليتانية

من بين الأسباب التى تدعو لدراسة انتشار الكوزموپوليتانية، وتسليط الضوء على الحاجة لفحص الجوانب السياسية والاقتصادية وغيرها للعولمة لكى نفهم بعدها الثقافى على نحو أفضل، هناك سبب إضافى ينبع من الأسلوب الذى تطور به كثير من الحكومات القومية عمليات العولمة: ولكى نكون أكثر تحديدا نقول إن هناك إجماعا بين الحكومات فى أنحاء العالم على ضرورة توفير نظم تعليمية مدعومة جيدا تحقق أعلى المستويات، وهو تطور ينطوى على مضامين كوزموپوليتانية. تزداد أهمية التعليم باعتباره مطلبا ضروريا سواء للأفراد؛ لكى يشاركوا فى هذا العصر الكونى من خلال تزويدهم بالمهارات والكفاءات الضرورية، أو لتمكين الدول من أن تنافس اقتصاديا. قصارى القول، أن الدول لكى تبقى وتزدهر فى نظام اقتصادى معولم، لابد من أن يكون مواطنوها قادرين على القيام بدور كامل فى الاقتصادات القائمة التى يتزايد اعتمادها على المعرفة. "تونى بلير Tony Blaire " رئيس وزراء بريطانيا السابق كان واضحا، على سبيل

المثال، عندما عبر عن هذه النقطة وهو فى منصبه، بقوله: "العولمة المتزايدة فى الاقتصاد العالمى تعنى أن يتم الآن وضع المستويات المطلوبة من التعليم والمهارات حسب المقاييس الدولية" (Blaire, 1996: 78-79) . ولكنها ليست الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية وحدها مثل حزب العمال البريطانى التى تفكر بهذه الطريقة، إذ يمكن أن نجد مثل هذه التوجهات نحو التعليم عبر الطيف السياسى فى دول مختلفة فى أنحاء العالم، مما أدى إلى جدل حول ما إذا كانت العولمة قد شجعت على أشكال من التقارب السياسى بين اليسار واليمين (انظر: (Kelly, 1999; Sassoon, 1998) .

الإجماع على أهمية التعليم بالنسبة للمواطنين نجده منعكسا فى التوسع العالمى فى التعليم العالى فى كثير من دول العالم، كما تُظْهِر نتائج مسح أجرى مؤخرا أنه سيكون هناك أكثر من بليونى خريج فى العالم بحلول عام ٢٠٢٥ (Norton-Taylor, 2001) ، أما علاقة ذلك بموضوعنا فذلك التعليم العالى يولد توجهات أكثر نقدية وليبرالية واستنارة بين المتلقين له، وهو مطلب لنزعة كوزموپوليتانية. وبشكل عام، كلما كان المواطنون أكثر تعليما، كانوا أكثر قدرة على مساءلة مزاعم الزعماء القوميين والوطنيين، وتحدى الأنماط العرقية والثقافية، ومقاومة تمركز الشعوب الأخرى حول هوياتها، كما أن من الأرجح أن يصبحوا على دراية بالطبيعة المركبة لكثير من التقاليد القومية فى دولهم. عندما يصبح أولئك الناس غير مقيدين بمشاعر الولاء القومى، فإنهم يستطيعون أن يطوروا منظورا أشمل، وأن يفكروا بما هو أبعد من حدودهم القومية، والحقيقة أن مثل هذه التوجهات تسهم فى أزمات التجنيد التى تواجه الجيوش الوطنية.

كذلك يشير كثير من الدراسات إلى أن المواطنين أصبحوا أكثر انتقادا لحكوماتهم، ويلاحظ كثير من المعلقين ضعف الثقة فى الحكومات والسياسيين، الذى يمكن أن يكون، فى جزء منه، سببا فى هبوط نسبة التصويت وعضوية الأحزاب السياسية والشعور العام بفك الارتباط بالسياسات القومية. كذلك فإن المزيد والمزيد من جماعات الضغط المحلية والمنظمات غير الحكومية تقوم بمراقبة وتفحص التعاملات الأخلاقية الخارجية للحكومات القومية وخاصة فى ما يتعلق بالسياسة الخارجية وعقود التسليح والبيئة والتجارة مع الدول النامية.

ذلك كله يجعلنا، بالعودة إلى تعريفنا للكوزموپوليتانية، نجد أن الناس يصبحون أكثر تحررا من القيود والانحيازات القومية والوطنية.

فى مقابل تلك المزاعم، لا بد من أن نشير إلى الصراعات الدولية الحديثة، وهو ما يوحى ببقاء التوجهات التقليدية والتراثية غير الكوزموپوليتانية؛ وإلى أن ثورة الميديا والاتصالات لم تقلل من قدرتنا على تعيين الشعوب والثقافات الأخرى حسب خصوصيتها، يضاف إلى ذلك أن التوجهات التى نصفها هنا ربما تكون مقصورة على المجتمعات الصناعية الحديثة. كذلك ليس كل نظام تعليمى قومى فى العالم، موجها نحو تشجيع التفكير النقدى ونشر القيم الليبرالية؛ وفى دول كثيرة ولأسباب عدة، لن يذهب كثير من المواطنين سواء فى الدول المتقدمة أو النامية إلى الجامعات، وعليه لن نستطيع أن نقول إن الكل سوف يسهم فى التوسع الكونى فى التعليم العالى؛ إلا أن التطورات التى وصفناها تسهل ظهور مواطنة عالمية، عابرة للحدود، أكثر تعليما ومعرفة، يتزايد استعدادها كما تتزايد قدرتها على الانتقال والاستقرار فى دول أخرى لأسباب مختلفة تتدرج من العمل إلى الخيار الشخصى. فى هذا السياق يرسم "هارولد پيركن "Harold Perkin" فى كتابه "الثورة الثالثة (1996) The Third Revolution"، خريطة لظهور مجتمع مهنى كونى. باختصار، التعليم هو الذى يزود الأفراد بالمهارات والمؤهلات المهنية والأفكار التى تقلل من اعتمادهم على دولهم، وتمكنهم من التصرف على نحو كوزموپوليتانى.

• الكوزموپوليتانية الانعكاسية

ناقشنا فى الفصل السابق التحديث الانعكاسى فى علاقته بأشكال الصراع الثقافى، كما أنه حالة أو مرحلة ذات متضمنات كوزموپوليتانية. ونوجز مرة أخرى فنقول إن كُتَّابا مثل "أولريش بيك" و"أنتونى جيدنز" و"سكوت لاش" (1994) يعتبرون عصرنا الحديث المتأخر، الذى ساعدت العولمة فى تعريفه وتحديد معالمه، يتصف بفقدان سلطة المؤسسات والبنى والهياكل التقليدية بما فى ذلك الحكومة والأسرة والكنيسة والدولة والأمة، وهو ما يؤدى إلى المزيد من التشخص، بمعنى أن نصبح أكثر قدرة على سبك أساليب حياتنا ومسالكنا. على

نحو متزايد نقوم باختيار شعاراتنا وهوياتنا وقيمنا وارتباطاتنا الثقافية، بدلا من أن نتبنى، ببساطة، تلك الخاصة بآبائنا وبالجماعات الاجتماعية التى ننشأ فيها. التكوين الذاتى والهوية الذاتية هما بالتالى جزء لا يتجزأ من التحديث الانعكاسى، ولذلك متضمناته على الكوزموپوليتانية ومدى انتشارها؛ وكما يقول "صمويل شفلر Samuel Scheffler" ، فإن الكوزموپوليتانية تتضمن أن يكون "لدى الأفراد القدرة على التحقق والازدهار عن طريق سك هويات ذات سمات خاصة مستمدة من مصادر ثقافية متباينة وغير متجانسة، ولا ينظر إليها باعتبارها مكونة أو معرفة عن طريق روابط وصفية بثقافة أو مجتمع أو تراث معين"، (258 ,1999) . وهكذا فالكوزموپوليتانى شخص ذاتى التكوين، محصلة تجارب وخبرات ثقافية مختلفة وولاءات عدة. وفى الوقت نفسه ينبغى عدم النظر إليه باعتباره عنصرا مستقلا متحررا من أى ارتباطات بأماكن أو ثقافات معينة، ولاؤه فقط لمنظمات دولية مثل الأمم المتحدة. كذلك فإن عمليات العولمة تسهم فى الكوزموپوليتانية، بأن تتيح لنا الفرصة لممارسة مجالات أوسع من المؤثرات والتقاليد الثقافية وأن نندمج ونتكيف فى عملية تكون ذاتى.

من منظور تاريخى أوسع، يرى "رولاند روبرتسون" أن تلك الانعكاسية هى التى تفصل العولمة المعاصرة عن تجلياتها الباكرة. هذه الفكرة نابعة من تصوره للعولمة باعتبارها تنطوى على "توسيع الوعى بالعالم كله" (8 ,1992) ، وهو ما يعنى على أحد المستويات مثلا، أن الدول المنخرطة فى العولمة سوف تكون على وعى بالنماذج والمسارات التى تتبعها قوى أخرى، وسيكون عليها أن تصدر أحكاما وقرارات على ضوء هذه المعرفة. مثل هذه الانعكاسية يكشف عنها الأفراد ـ كما تكشف عنها أيضا المؤسسات الحديثة فى رأى جيدنز ـ الذين سيكون عليهم أن يوازنوا بين التقاطع والاختراق المتبادل بين الكونى والمحلى، وهو ما ينتج عنه نمط من الكوزموپوليتانية الانعكاسية أو "الكوزموپوليتانية الكونية/ المحلية" (Urry, 2003: 137)، بعبارة أخرى، نحن نندمج مع أفكار وصور ورموز من أنحاء العالم فى حياتنا اليومية، لكى ترفد وجهات نظرنا وأساليب حياتنا وبذلك نطور قدرتنا على التفكير والعمل على مستوى يتجاوز محيطنا، بما يشجع على حسن إدراك لموقعنا فى العالم وعملنا بداخله. هكذا نعيش ومرجعيتنا الكونى دائما،

وسيكون لأسلوب تعاملنا مع بيئتنا المحلية متضمناته على النظام البيئى للأرض، ويكون لأداء اقتصاداتنا المحلية والقومية علاقة بحالة الاقتصاد العالمى... ومستوى فريقنا القومى لكرة القدم سيحدده تصنيف الـ "FIFA" ، وهكذا. ويمضى چون أورى (2003) إلى ما هو أبعد من ذلك ليناقش التحديث الانعكاسى فى علاقته بمرونة وسيولة الكوزموبوليتانية، فسرعة ومدى انتشار التدفقات الكونية يعنى أننا بتنا نعرف أكثر عما يحدث فى المجتمعات الأخرى، وهو تطور يتحدى حقبة الدولة ـ الأمة عندما كان "المجتمع الآخر" شيئا نخشاه .(133 :2003) .

لقد أثار التحديث الانعكاسى جدلا نقديا واسعا، (انظر مثلا: ,Alexander 1996) هناك جدل مثلا حول ما إذا كان الناس بالفعل يكشفون عن انعكاسية واستقلالية فى الوقت نفسه، حيث إننا نولد بهويات وننشأ فى جماعات اجتماعية وثقافات تشكل توجهاتنا وسلوكنا بالأساس؛ ولهذا السبب يرى بعض المعلقين أن هوياتنا القومية تحكم قبضتها علينا إلى المدى الذى يجعل الهويات الأخرى تجهد عادة لكى تولد قوة الولاء والالتزام نفسها. يضاف إلى ذلك أننا حتى إذا ما كنا على المستوى الشخصى نستمتع ونفيد من عملية التكوين الذاتى، فذلك لن ينطوى بالضرورة على إضعاف للولاءات القومية؛ والزعم بأن الحال يمكن أن تكون كذلك كما يقول "چون هتشنسون (John Hutchinson (2005" معناه أن نتجاهل المدى الذى تربط به الأساطير والذكريات المشتركة الناس بدولة ما، وافتراض أنهم يتصرفون على نحو أداتى، رغم أن هذه النقطة لا بد من أن توازن بحقيقة أن العولمة تعتبر غالبا مولدة لمزيد من الفردانية داخل المجتمعات الحديثة[٤]، لأسباب تتراوح بين الفرص التى يمكن أن تتيحها والشعور بعدم الأمان الذى يمكن أن تقويه. فى ظل مثل هذه الظروف، تضع مشكلة الانتماء لدولة أو لمجتمع قومى ما، التزامات علينا تتراوح بين دفع الضرائب والالتزام العاطفى، وفى النهاية تجعل علينا أن نضحى بحياتنا من أجلها فى أوقات الصراع. من هنا يمكن أن يقيد التماهى مع دولة ما استقلاليتنا. يتبع ذلك إذن فى هذا الإطار، أن القبضة التى يفترض أنها ضعيفة وتحكمها علينا ولاءاتنا وهوياتنا غير القومية، سوف تصبح مقبولة منا إلى حد ما، حيث إنها ستضع

علينا التزامات أقل، وسيكون لدينا حرية أكبر لمواصلة حياتنا الخاصة مع مرجعية أقل لاختياراتنا الجمعية. فى هذا السياق يلاحظ "دى. ام. جرين D. M. Green" ـ على عكس هتشنسون ـ أن هوياتنا السياسية أصبح ينظر إليها، على نحو متزايد، بمعنى أداتى، وأنها مسألة تفضيل وليست ضرورة نفسية، (85 :2000).

ونلخص الدعاوى المطروحة فى هذا السياق إلى الآن فنقول: المستويات المحسنة فى التعليم لعدد أكبر من الناس، بالإضافة إلى دلائل ظهور الذات المنعكسة فى العصر الحديث المتأخر، عوامل قد تساعد على إضعاف ولاءاتنا لدول وثقافات معينة. ومن ثم، بعيدا عن حفز قوى القومية والعرقية، فإن بعض العمليات المرتبطة بالعولمة قد تساعد على إنتاج مواطنين كوزموپولتيان. وباختصار: التحديث الانعكاسى والشخصنة المتزايدة التى ينطوى عليها، متطلب رئيسى مسبق للكوزموپوليتانية.

● الحاجة الكونية للكوزموپوليتانية

بأساليبها المختلفة، التطورات التى تم توصيفها إلى الآن، تتحدى البنى الثقافية والسياسية التى مازالت قادرة على كبح انتشار الكوزموپوليتانية، وهى الدول والدول ـ الأممية بالتحديد. وإذا كنا قد رأينا فى الفصل السابق أن بعض الناس قد يتجهون إلى جماعتهم العرقية ـ القومية بحثا عن الأمان والتحقق، وأن ذلك سلوك نقيض للكوزموپوليتانية، فإن العمليات الاقتصادية والثقافية الأوسع المرتبطة بالعولمة والمحددة هنا بأنها يمكن أن تكون مشجعة على الكوزموپوليتانية، إلى جانب نقص الدعم المؤسسى من دولة ـ آمة ـ ذلك قد يعنى أن تلك القوميات المحلية سيكون عليها أن تناضل من أجل البقاء. وربما يكون ذلك رد فعل مؤقتًا، مفهوما إلى حد ما، على الشكوك المواكبة لعمليات العولمة. إلى جانب ذلك هناك شعور إضافى بأن الدول والدول ـ الأمة تحاول جاهدة أن تتكيف مع الظروف المعاصرة، وهذا يتعلق بإدارة القضايا العالمية، مثل البيئة، والتنمية، وسياسات التجارة، والأوبئة العالمية، والمخاوف الصحية، والنمو السكانى، وانتقال الناس، وانتشار الأسلحة الذرية، والجريمة العالمية، والإرهاب.

المخاطر الكونية تتطلب تفكيرا كوزموپوليتانيا وحلولا عالمية، وتحديدا، التطور الأوسع لمؤسسات الحكم الكونية الجديدة مثل منظمة الأمم المتحدة ومفاهيم العدالة العابرة للحدود مثل أنظمة حقوق الإنسان. الدول ـ الأمة والحكومات القومية، على العكس، ليست هى بالضرورة المؤسسات الأنسب لتناول مثل هذه القضايا، وكما يحدث فى الغالب، سيكون ما يحكم حركتها هو متابعة مصالحها القومية الخاصة؛ وفى رأى "أولريخ بيك (1999) Ulrich Beck" أن "مجتمع المخاطر العالمى" لا بد من أن يكون مكانا كوزموپوليتانيا بالضرورة. كل ذلك يضع مسئولية أكبر على المواطنين العاديين فى العالم لكى يتصرفوا على نحو أكثر كوزموپوليتانية، ولعل هناك بعض الدلائل على أن ذلك قد بدأ كما سنرى لاحقا.

بداية، الميديا العابرة للحدود القومية وتكنولوچيات المعلومات والاتصال الكونية، إلى جانب المستويات العالية من التعليم التى أشرنا إليها، كلها تؤيد، ليس فقط وعيا أوسع بما وصفناه من مشكلات، بل ميلا أكبر من قبل عدد كبير من الأفراد لكى يزيدوا اهتمامهم بمثل هذه الأمور وتناولها. يضاف إلى ذلك أن الإنترنت والبريد الإلكترونى يجعلان من الأكثر سهولة على الناس القيام بحملات وتنظيم شبكات عالمية موجهة لتناول هذه القضايا التى يمكن أن تسهم بدورها فى تكوين مجتمع مدنى كونى (انظر: Kaldor, 2003) ، وهى النقطة التى سنعود إليها لاحقا(٥). أحيانا يبدو أن بعض الأفراد والجماعات يعبرون عن مواقف كوزموپوليتانية، مثل المدافعين عن البيئة الذين يتزايد تحديهم لحكوماتهم؛ لأنهم يعتقدون أن سياساتها ضارة بالبيئة؛ وبينما قد تكون تلك السياسات لمصلحة قومية ومفيدة لبلادهم، فإن المدافعين عن البيئة سوف يتبنون دائما النظرة الكونية وسيكون الكثيرون منهم مستعدين لكسر القوانين القومية مصرين على أفكارهم، (Folk, 1995) ، كذلك ـ وبالمثل ـ فإن علماء الاجتماع، وحتى بعض السياسيين القوميين يرصدون تناقصا فى الوطنية والقيم المرتبطة بها فى المرحلة المعاصرة، مثل الواجب والموالاة. بعبارة أخرى، القول المأثور "بلدى... سواء أكان على خطأ أو صواب" بدأ يندثر بسبب ـ مثلا ـ العدد المتزايد من المواطنين المستعدين لتحدى شرعية بلادهم عندما تذهب للحرب، وفى حالات الموظفين الذين يسربون الوثائق والوزراء السابقون الذين يذيعون أسرار الدولة. إن ما

يدفعهم إلى ذلك غالبا، إطار عمل أخلاقى يمتد إلى ما هو أبعد من حدود دولهم، وهو اعتبار لمصير الوطنيين والقوميين الآخرين، الذى يترجم باعتباره اكتراثا بالمصير الإنسانى: وفى هذه الحالة تكون تصرفاتهم باعتبارهم مواطنين عالميين أكثر منهم مواطنين قوميين، وباعتبارهم كوزموپوليتان أكثر منهم محليين.

هذا التحول قد يكون نتيجة لبعض الضغوط الواقعة على الدول ـ الأمة والثقافات القومية كما أوضحنا بالتفصيل من قبل. وهكذا فإن الأمة، وكل ما هو قومى، يدخل فى تكوينها مؤثرات عدة على نحو متزايد، إنها حلبة صراع تتواجه فيها وتتنافس قوى التعددية الثقافية والتضامن على أساس يومى، بما ينطوى على فقدان للسلطة وتناقص فى القدرة على إحكام القبضة على خيال المواطنين. أى فكرة عن أن هوياتنا القومية هى الهوية الأساسية أو الهوية المحددة التى يمكن أن نعرف بها لم تعد قادرة على الصمود، ولابد من أن تكون فى تنافس مع عدد كبير آخر من الهويات للاستحواز على اهتمامنا، وهذا يجعل من السهل علينا أن نكون كوزموپوليتان. وإذا كان ذلك هو ما يحدث بالفعل، فمعناه، كما يبدو، أننا ندخل مرحلة جديدة تتميز بزوال الخاصية الأولى للدولة -الأمة والثقافات القومية المتجانسة نسبيا. مفهوم بديل لما يحدث هو أننا نشهد عودة إلى ماضى المجتمعات متعددة العرقية قبل قيام الدولة ـ الأمة، وفى هذا السياق يؤكد "وليم اتش ماكنيل (1986) William H. McNeill أن التعددية العرقية هى القاعدة بالفعل فى تاريخ العالم، حيث إن التجانس العرقى القومى كان ظاهرة قصيرة نسبيا وغير عادية. بصرف النظر عن هذه التفسيرات الخاصة، وفى ما يتعلق بالمزاعم الواسعة هنا، فإن التعددية العرقية وعدم وجود مفهوم محدد متكامل للدولة المقصودة، تعتبر شرطا وبيئة مناسبة للكوزموپوليتانية[٦].

بالعودة إلى تعيين التجليات المعاصرة للكوزموپوليتانية، فإن المزيد من الكوزموپوليتانية اليومية أو العادية واضح فى مقاطعة بعض سلاسل مطاعم الوجبات السريعة والمقاهى بسبب ممارسات غير أخلاقية حقيقية أو مزعومة، وكذلك النمو العالمى لظاهرة بيع السلع وفقا لاتفاقية السعر الأدنى. بالإضافة إلى ذلك فإن المزيد والمزيد من الناس يحاولون، لأسباب بيئية، شراء منتجات محلية، وهو توجه تحاول معظم محلات السوبر ماركت الآن المساعدة عليه؛ كما أن هناك

دليلا على وجود اعتبارات أخلاقية أكثر منها قومية، تؤثر فى مجالات استهلاكية آخرى بدءا من السيارات إلى المعاشات. الحقيقة أن مسألة وزن المزايا النسبية للمحلى والقومى والكونى، هى التى تتطلب من الأفراد أن يتصرفوا بأسلوب كوزموپوليتانى، وهذا دليل آبعد على آن الحداثة الانعكاسية يمكن أن تساعد على خلق وعى نقدى ووجهات نظر كوزموپوليتانية، وليس مجرد انشغال بالذات. هذا بدوره قد يفسر جزئيا القضايا العالمية التى ظهرت فى السنوات الأخيرة، مثل الحملات العالمية لمواجهة المجاعات والفقر ومشكلات البيئة، وربما يبدو أن مواطنى العالم لم يكونوا على وعى أخلاقى بدرجة كافية فى بعض المجالات.

ربما يدل ذلك كله على بداية ظهور وعى كونى، الأمر الذى يعتبره "رولاند روبرتسون" جزءا لا يتجزأ من العولمة ولذلك يسك مصطلح "كلية الكون"، ليصف "حالة الوعى الواسع بالكون كله متضمنا الطبيعة النوعية لهذا الكون"، (1992: 78) مع الأمثلة التى ذكرناها، فإن تطورات مثل اتساع السوق العالمية، والحركات الكونية، والقبول بتوقيت كونى موحد، وإنشاء نظام قضائى دولى (مثل محكمة العدل الدولية)، كل ذلك يشجعنا على التفكير "كونيا" وعلى أن "نتخيل" ـ باستخدام مصطلح بنديكت آندرسون ـ أننا جزء من مجتمع كونى. فى هذا السياق، فإن وعيا كونيا من شأنه أن يسهم فى ظهور مجتمع مدنى كونى أو عابر للحدود القومية كما أنه يقوى به كذلك. هذا المجتمع قد يتشكل إذا واصلت مؤسسات الحكم الكونية تطورها واكتسبت قوة دافعة، على الرغم من أن الحكومات القومية ستواصل اعتراضها. إلى جانب ذلك فإن عدم التساوى فى فرص الوصول إلى تكنولوچيات الاتصال والمعلومات الكونية سيكون فى حاجة إلى مواجهة لضمان تواصل أغلبية المواطنين ولكى تظهر "الفضاءات الاجتماعية العابرة للحدود القومية" ـ بتعبير أولريخ بيك (2000) ـ مما يسهل بناء مجتمع مدنى يتخطى الدولة ـ الأمة. وبالمثل فإن ظهور مجال عام كونى سوف يساعد على تحقيق هذه الغاية، وبينما قد يساعد الفضاء الإلكترونى فى ذلك أيضا، فإن ذلك يتطلب أن تصبح القضايا الكونية ذات معنى بالنسبة للناس، وبالطبع فإن ظهور المشكلات البيئية والإرهاب الدولى ربما يؤكد آن ذلك هو ما يحدث بالفعل.

يضاف إلى ذلك أن الأحداث العالمية الأخيرة ـ أو سلاسل الأحداث ـ مثل هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، وحرب العراق، وكارثة تسونامى فى أواخر عام ٢٠٠٤ كانت بالنسبة لبعض الناس ذات مغزى وأهمية أكبر من السياسات الداخلية، وربما تشكل ـ فى الوقت المناسب ـ جزءا من ذاكرة جمعية كونية. على أن المجال الكونى العام يتطلب كذلك تأسيس منظمات إخبارية وإعلامية ذات توجه كونى حقيقى، وكما رأينا فى الفصل الثالث فإن معظم المنظمات القائمة لها أجندات قومية تعمل عليها.

باختصار، هناك تطورات وعمليات معينة فى العولمة قد تكون مشجعة للبعض على تبنى منظور أكثر اتساعا، والعمل بأسلوب كوزموپوليتانى، والأكثر أهمية هو أن بعض المشكلات ذات الصلة بالعولمة تؤكد أن هناك حاجة كونية للكوزموپوليتانية، وكما سنرى لاحقا، فإن كون هناك حاجة لمثل هذا التفكير لا يعنى بالضرورة أن ذلك سيحدث، فكثير من الناس سوف يبقون محتفظين بذهنياتهم وأفكارهم القومية.

• الكوزموپوليتانية والمجتمع الشبكى

الآثار التراكمية للتواصل الثقافى المتبادل، والتأكيد المتزايد للتعليم، والتحديث الانعكاسى، والشخصنة الزائدة، والمشكلات التى تواجه الدولة ـ الأمة، ـ معناها أن أنماطا مختلفة من الاحتياجات والضغوط تقع على عاتق الأفراد. المهارات الجديدة وإستراتيجيات التصدى مطلوبة الآن: علينا جميعا أن نكون أكثر استقلالية، معتمدين على أنفسنا وحركيين جغرافيا. هناك تأكيد أكبر على مهارات التواصل الشخصى المتبادل وتطوير شبكات الصلات والمعارف. وعلى الرغم من أن ليس الكل يعيشون ويعملون بموجب هذه التغيرات، من الممكن اكتشاف ظهور من يطلق عليهم "الكوزموپوليتان المتصلون" وليس ذلك بين الشباب فقط. كلهم يسافرون كثيرا وملمون بتكنولوچيات الاتصال الحديثة ومعتادون على الاتصال الشبكى، وكثيرون منهم يطورون أساليب اتصال وعلاقات واسعة بالداخل والخارج. كلهم ـ باختصار ـ متوائم ومتكيف جيدا للعمل فى إطار المجتمعات أو الاقتصادات القائمة على المعرفة(٧).

الأفكار والمعلومات مصادر رئيسية لإنتاج الثروة والتطور المجتمعى داخل الاقتصادات القائمة على المعرفة. وتطوير مثل هذه الاقتصادات يتطلب اتصالا منتظما بين المجتمعات وعبرها، وهذا، بدوره، ما يؤدى إلى أن يُكَوّن الأفراد معارف وصداقات جديدة فى دول مختلفة. وعلى الرغم من آن تبادل المعلومات كان يحدث فى الماضى فإن اتساع وقوة هذه المبادلات الحالية، هى التى تجعل عصرنا مختلفا عن المراحل التاريخية السابقة. الجامعات، على نحو خاص، أصبحت مواقع رئيسية للتفاعل الثقافى، وهذا الدور ينمو باطّراد، فإلى جانب حضور المحاضرات والمؤتمرات الدولية وسفر الطلاب لاستكمال الدراسة فى الخارج، فإن تكوين شبكات معلومات/ سياسية عابرة للحدود ومجتمعات متعددة المجالات المعرفية عبر الإنترنت أصبح تطورا حديثا ملحوظا، (Stone, 2000).

السماح للمواطنين بتبادل الأفكار والمشاركة فى أفضل الممارسات أسلوب مثمر بالنسبة للحكومات لتحسين الظروف المادية فى مجتمعاتهم، والحكومات نفسها تعمل بهذا الأسلوب، فترسل الوفود والبعثات للخارج للتعلم من الدول الأخرى، وهو ما يجعل من الصعب بالنسبة لها أن تقيد أنشطة شبكات السياسات العالمية أو تمنع مواطنيها من العمل بالأسلوب نفسه، كما أن أى حكومة قومية تحاول منع مثل هذا النشاط فإنما تضر باقتصادها وبمجتمعها، وهناك أمثلة عديدة لمجتمعات انعزلت عن المجتمع العالمى - كوريا الشمالية وجنوب أفريقيا العنصرية وعراق صدام حسين مثلا - فكانت متخلفة عن غيرها من المجتمعات التى تقارن بها. وهكذا، بينما قد تكون الدوافع وراء مثل هذه الأشكال من التبادل الكونى أنانية أو مغرقة فى القومية، إلا أنها تسهل الحوار والتفاعل الثقافى والاجتماعى المتبادل، وهى بدورها متطلبات للكوزموبوليتانية. شبكات السياسة العالمية وتبادل المعلومات ليست مقصورة على الحياة الأكاديمية والحكومات. المنظمات العالمية غير الحكومية وشبكات المناصرة والدعم العابرة للحدود القومية، (انظر: (Keck and Sikkunk, 1998) ، حتى الجماعات المناهضة للعولمة منظمة على هذا النحو. بالنسبة لـ "مانويل كاستلز" (1996)، ذلك كله جزء من "المجتمع الشبكى" الذى يتميز به عصرنا، ويجعله يتصف بنشر المعلومات على نطاق كونى:

التدفقات المعلوماتية متعددة الاتجاهات، وتتجاهل الحدود القومية بدرجة كبيرة. "هانرز Hannerz" يعتبر "المجتمع المسكونى العالمى" شبكة مكونة من عدة شبكات تجتذب الأفراد والجماعات إلى "وجود أكثر عولمة" (1992b: 47) ، يضاف إلى ذلك كله أن الانفتاح والطبيعة غير التراتبية للشبكات العالمية تشجع على تكوين فضاءات عامة عابرة للحدود، ومجتمعات افتراضية، ومن ثم تسهل المخالطة الاجتماعية إلى ما هو أبعد من الدولة ـ الأمة. المجتمع الشبكى ـ إذا رجعنا إلى تعريفنا للكوزموپوليتانية ـ (يتكون من أناس من كثير أو كل أجزاء العالم) بما يسمح بحقيقة إمكانية استخدامه لأهداف غير كوزموپوليتانية أو مناهضة لها، وهو مكان كوزموپوليتانى بالمعنى الدقيق للكلمة. على أية حال، ما إذا كانت هذه التطورات يمكن أن تسهم فى تكوين مجتمع كوزموپوليتانى أو عالمى، أمر ليس مؤكدا تماما.

هناك الآن اعتراف متزايد بمحدودية الاتصالات عبر الكمپيوتر وخاصة فيما يتعلق بمدى أهمية المجتمعات والجماعات الاجتماعية الافتراضية بالنسبة للمهتمين بها. بعبارة أخرى، هذا النوع من التجربة لا يمكن مقارنته بالتواصل أو التفاعل الشخصى الفعلى فى "الحياة الحقيقة"، كما أنه عرضة لأشكال مختلفة من الابتزاز. على أن للاتصال عبر الإنترنت من يدافعون عنه ويتحمسون له، والفضاءات الإلكترونية التى يوفرها لأشكال التواصل الاجتماعى تنطوى على إمكانيات كوزموپوليتانية، وحيث إنه لا وجود لتفاعل وجها لوجه، فإن التراتبيات التقليدية فى النوع والطبقة والجنس أقل ظهورا، ومن ثم لن تكون مجال خلاف (Holmes, 1997) ؛ ويرى "بارى ويلمان Barry Wellman" و"ميلينا چوليا Melina Gulia (1999)" أننا إذا نظرنا إلى المجتمعات الإلكترونية فى علاقتها بغيرها من التطورات التكنولوچية مثل التليفونات والطائرات، فسوف نألف فكرة أن العلاقات الاجتماعية والتضامن الاجتماعى يمكن أن توجد دون تقارب فيزيقى. هناك كذلك ـ من منظور أوسع ـ سبب إضافى يجعلنا نشعر بأننا نشهد انتشارا للكوزموپوليتانية، وهو أنها ـ ببساطة ـ مفيدة لنا. النظرة الكوزموپوليتانية تمكننا من ممارسة وتعلم الكثير من الثقافات والمجتمعات المختلفة، وبالتالى توسع معرفتنا وآفاقنا.

أن نكون معارضين للكوزموبوليتانية معناه إذن أن نفرض قيودا على حياتنا. "مارتا ناسباوم (1996) Martha Nussbaum" تعتقد أن الكوزموبوليتانية تسهل معرفتنا بأنفسنا، لأننا كلما عرفنا المزيد عن الآخرين أصبحنا أكثر قدرة على معرفة أنفسنا؛ وكما بينا من قبل فإن الكوزموبوليتانية مفيدة كذلك بالنسبة للمجتمعات حيث تمكنها من استيعاب أفكار جديدة ومؤثرات ثقافية تسهل تطورها وتمنع ركودها وتحللها. على أن هذا التأكيد العام لمزايا الكوزموبوليتانية ليس مرتبطا بالعولمة مباشرة بالطبع، وإن كانت هناك جوانب منها (من العولمة) مثل تكنولوچيات المعلومات والاتصال العالمية وتزايد وتيرة السفر، يمكن أن تسهل الخبرات الكوزموبوليتانية، والحقيقة أن مقاومة الضغوط الكوزموبوليتانية ستجعل الأفراد والمجتمعات يحاولون عزل أنفسهم عن عمليات العولمة.

• ما الدليل على انتشار الكوزموبوليتانية؟

هناك جدال مضاد للقضية التى نتناولها هنا، مفاده أنه لا يوجد دليل ملموس على انتشار الكوزموبوليتانية، هذا الانطباع يقويه، فى أوروبا، تزايد التأييد للأحزاب والجماعات اليمينية المتطرفة فى الفترة الأخيرة، إلا أن الحظوظ الانتخابية مؤشر لا يمكن التعويل عليه كثيرا لقياس التوجهات العامة. الأهم من ذلك هو أن عددا من العمليات والتطورات طويلة المدى، المرتبطة بالعولمة ـ مثل تقدم تكنولوچيات المعلومات والاتصالات وزيادة السفر والتحديث الانعكاسى وتحديات الدولة ـ الأمة والتأكيد الكبير على التعليم العالى ـ كل ذلك يمكن أن يولد أشكالا من الكوزموبوليتانية[٨]. وبينما ينبغى ألا نقلل من أهمية أو أخطار اليمين المتطرف، يبدو أن التوجهات التاريخية تعمل ضد هذه الأخطار. الواقع أن الانبعاث الحديث لليمين المتطرف يمكن قراءته باعتباره معركة وقائية، ومحاولة للتمسك بالحدود وبالنظام فى مواجهة التغير وعدم التوقع والسيولة المصاحبة لعمليات العولمة؛ كما أننا فى عصر العولمة سيكون علينا أن نغير من توجهاتنا إن لم تكن منطوية على مفارقة تاريخية، فالأفراد الذين يرفضون التكيف سيجدون أنفسهم فى خصام مع صور التواصل المختلفة التى تميز العصر، والأرجح أن من

سيزدهرون فى عصر العولمة هم أولئك المنفتحون على الثقافات والتقاليد الأخرى، القادرون على التعلم منها والأخذ عنها.

من أو ما الكوزموپوليتان؟

من النظر إلى الجوانب الثقافية والاجتماعية للكوزموپوليتانية يتبلور تصورنا لها هنا كتجربة معيشة، وهو أمر ممكن عندما نستطيع أن ننظر إلى ما هو أبعد من ثقافتنا القومية. وعلى الرغم من ذلك فإن تخليك عن ثقافتك الخاصة لا يعنى أنك أصبحت كوزموپوليتان. الكوزموپوليتانية ليست حالة مكتملة. على نحو أكثر تحديدا، هوياتنا القومية وثقافتنا الخاصة لا تستبعد التطور من منظور كوزموپوليتانى؛ كذلك فإن سيادة الدولة ـ الأمة والقومية لا تعنى أن أى شخص لا يمكن أن يتحرر تماما من ارتباطاته القومية. فالمرء يمكن أن يظل روسيّا أو مكسيكيا مثلا وهو كوزموپوليتان. لكى تكون كوزموپوليتان، منفتحا على الثقافات والتجارب الثقافية الأخرى، فإن ذلك يتطلب أن تكون متحررا من القيود والانحيازات، وهو ما يعيدنا إلى تعريف الكوزموپوليتانية الذى لخصناه فى بداية هذا الفصل. طالما نحن لم نعرف بثقافتنا القومية الخاصة يبقى الاحتمال بأن نطور نحن موقفا كوزموپوليتانيا؛ وكما رأينا فإن العولمة يمكن أن تسهل هذا الانتقال؛ لأن عملياتها وتجلياتها تمكننا من ممارسة تعددية من المؤثرات الثقافية، وأن نكتسب ارتباطات ومصادر للولاء. بل إننا إذا قبلنا حالة الهجنة، وأن النتيجة الرئيسية للعولمة هى إحداث المزيد من الاختلاط وتقليل التمايز الثقافى، يصبح من الأسهل نظريا أن نتخطى الحدود القومية. العالم، باختصار، أصبح "طيفا متدرجا يحتوى فوارق واختلافات مختلطة" (Geertz, 1980: 147).

أن تكون كوزموپوليتان لا يكفى أن تكون، فقط، متحررا من الانشغالات القومية. إذا كان ذلك هو المعيار الوحيد، فقيادة ومؤيدو "القاعدة" سيكونون مؤهلين إذن ليكونوا كوزموپوليتان، لأنهم برغبتهم فى عودة الخلافة إنما يبحثون عن نهاية الدولة ـ الأمة فى العالمين العربى والإسلامى. لا بد إذن من أن تكون هناك عوامل إضافية ليصبح المرء كوزموپوليتان، سنذكر عاملين منها الآن: لا ثقافة ولا جماعة اجتماعية ولا تراث ـ سواء قومى أو غيره ـ ينبغى أن يكون له

تأثير علينا لدرجة أن يكبح وجهة النظر الكوزموپوليتانية؛ بعبارة أخرى: شعورنا بالارتباط بثقافة مفردة أو جماعة أو مجتمع ما، ينبغى ألا يكون قويا إلى درجة تحول بيننا وبين احتكاكنا بثقافات أو جماعات أو مجتمعات آخرى. ثانيا: إلى جانب أن نكون قادرين على استيعاب التجارب الثقافية الأخرى، لا بد من أن تنطوى الكوزموپوليتانية على مجموعة من التوجهات والقيم (انظر: Held, 2004) .

وهكذا سيكون الشخص الكوزموپوليتان معنيا بمستويات عامة للعدالة وحقوق الإنسان، كما سيكون حساسا بالنسبة للثقافات الأخرى عندما يتفاوض على هذه المستويات، ولديه شعور بالزمالة مع مواطنى العالم، ومهتما بأساليب المساواة والمشاركة فى ثقافات الشعوب الأخرى. سبب آخر للبرهان على هذه الفكرة هو أن إحدى القراءات للشخص الكوزموپوليتان هى اعتباره ـ ببساطة ـ شخصا مستهلكا لتجارب ثقافية (غربى على نحو نموذجى)، عابرًا لمجتمعات مختلفة دون أن يكون له حصة فى أى منها، وبذلك فهو منتزع عن البشر فى تلك المجتمعات؛ وقد عبر "جوناثان فريدمان Jonathan Friedman " عن ذلك على نحو أكثر دقة مجادلا بأن الكوزموپوليتان شخص "يسهم فى عوالم كثيرة دون أن يصبح جزءا منها" (1995: 78). على النقيض من ذلك، الوضع الذى نتناوله هنا هو أنه بدلا من الترحل الحر والاحتفاظ بمسافة وربما اتخاذ وضع الترفع أحيانا، ينبغى أن يكون الشخص الكوزموپوليتان مهتما اهتماما حقيقيا بالثقافات والمجتمعات التى يواجهها؛ لأن ذلك يعنى التعبير عن "إنسانية مشتركة"، أى الكوزموپوليتانية الخاصة به.

ما نخرج به من هنا هو أن الكوزموپوليتانية عملية انتقائية، فنحن لا نولد كوزموپوليتان. نحن، بالأحرى، نولد وننشأ فى مجتمعات معينة، أما وجهات نظرنا فتنبع من مجموعة مؤثرات، كثير منها ـ وليس كلها ـ ينبع من تلك المجتمعات مثل التعليم الذى حصلناه. هذا يعنى أن الفرد الذى يطور منظورا كوزموپوليتانيا سوف يظل محتفظا ببعض الولاءات لجماعات بعينها مثل الأسرة والأصدقاء والجماعة الاجتماعية، وسيكون عليه أن يوازن بين توافقات من الاحتياجات والاهتمامات، بين العام والخاص، وبين العالمى والمحلى فى حياته. الكوزموپوليتان

سيكون -باختصار -تجليا للاختراق المتبادل بين الكونى والمحلى: وفوق ذلك ينبغى ألا نعتقد أن ارتباطاتنا والتزاماتنا الخاصة متنافرة بالضرورة مع الكوزموپوليتانية (انظر: Appiah, 1996) .

إن مجتمعاتنا، إلى جانب كونها مصادر للمعنى والتحقق، يمكن كذلك أن تزودنا بالقيم العامة اللازمة للتفكير والسلوك بأسلوب كوزموپوليتانى[٩] ، والحقيقة أن الشخص الذى ليس لديه أى تعاطف أو شعور بالمودة نحو الناس الذين نشأ معهم، ليس من المرجح أن يشعر بأى تعاطف أو مودة تجاه الإنسانية كلها. بعبارة أخرى: أن تشعر بالولاء نحو "المجتمع الإنسانى العالمى" إن جاز لنا أن نستخدم عبارة "مارثا نسباوم" (1996: 4) ، فإن ذلك "لابد من أن يكون متضمنا من ينتمون إلى مجتمعك المحلى أو الخاص"[١٠]. هناك إذن علاقة بينية بين الكونى والمحلى عندما يكون الأمر متعلقا بالكوزموپوليتانية. فى هذا السياق مثلا، إذا كان لدىَّ أطفال وقمت بتنشئتهم على قيم التسامح والتراحم والمودة، فلا شك أن ذلك سيكون مفيدا لكل من مجتمعى الخاص وللإنسانية بشكل عام، وإذا كان أطفالى قد نشأوا وتعلموا على هذا النحو، فلا بد من أن يكون هناك أمل فى أنهم لن يكون لديهم أى ميل للتمييز بين الخاص والعام[١١]. ذلك كله يدعم النقطة التى سبق إيضاحها عن الدور الذى يمكن أن يقوم به التعليم والتحديث الانعكاسى فى تدعيم الذكاء النقدى، الذى يمكن بدوره أن يقدم الأساس لخيار كوزموپوليتانى، وامتلاك ولاءات متعددة، وتعددية فى الاهتمامات التى تتجاوز حدود التمايزات العامة ـ الخاصة.

* * *

.. وأخيرا.

كان الاهتمام فى هذا الفصل منصبا على استكشاف الروابط الممكنة بين عمليات العولمة والأبعاد الثقافية والاجتماعية للكوزموپوليتانية. لم يكن هناك زعم بأن التدفقات الثقافية المتزايدة هى التى تفرز الكوزموپوليتانية بالضرورة، ولكننا

رأينا أن هناك عددا من العمليات طويلة المدى المرتبطة بالعولمة أو تعتبر منتجات فرعية لها، قادرة على استثارة الكوزموبوليتانية[١٢]. التطورات الكونية المعاصرة وبخاصة الهجرة العالمية، التفاعل الثقافى الكبير والاتصالية، المدن المعولمة، المخاطر الكونية، التحديث الانعكاسى، المستويات المرتفعة للتعليم، التدفقات الثقافية المتزايدة .. بالطبع، كل ذلك يحمل إمكانيات خلق توجهات وميول كوزموبوليتانية، بإتاحة الفرصة لنا لأن نفكر فى ما هو أبعد من ثقافتنا ومجتمعاتنا الخاصة. فى هذا السياق، فإن التحديات التى تجلبها عمليات العولمة للثقافات القومية والدولة -الأمة، هى متطلبات ضرورية مسبقة لتحقيق ارتباطات وولاءات أبعد من هذه المكونات.

على أية حال، ينبغى ألا نبالغ فى أهمية العلاقة بين العولمة والكوزموبوليتانية؛ فالعولمة، كما يرى "جان آرت شولته Jan Aart Scholte" كل ما فعلته هو أنها شجعت "نموا متواضعا فى الارتباطات الكوزموبوليتانية" (2000: 5) . الأهم، أن تحديد انتشار أو عدم انتشار الكوزموبوليتانية ليس أمرا هينا، فهو شىء ينعكس فى ندرة المعلومات والبيانات المتاحة؛ ولذلك فإن التركيز هنا منصب على وصف التوجهات العولمية والتوجهات العريضة ذات الآثار الكوزموبوليتانية المحتملة. لقد فحصت "پيپا نوريس Pippa Norris (2000)" على أية حال، البيانات المتاحة بالنسبة للعولمة على ضوء عمليتى المسح اللتين أجريتا فى "١٩٩٠ ـ ١٩٩١" و"١٩٩٥ ـ ١٩٩٧" للقيم العالمية المبنية على أدلة من ٧٠ دولة، لتكشف عن أنه مقارنة "بالعالم كله"، كانت نسبة تماهى الناس بقوة مع دولتهم أو محليتهم أو منطقتهم هى ١٥٪ و ٣٨٪ و ٤٧٪ على التوالى. ولكن المسح كشف كذلك عن فجوة جيلية، فأولئك الذين ولدوا بعد الحرب العالمية الثانية كانوا أكثر ميلا نحو رؤية أنفسهم بوصفهم مواطنين كوزموبوليتان أكثر من الأجيال السابقة. مما يدل على أن "الرأى العام، على المدى الطويل، يتحرك فى اتجاه أكثر عالمية" (ibid., 175) .

من المثير للاهتمام كذلك، أن "نوريس" تسلط الضوء على المستويات التعليمية المرتفعة وعمليات التحضير المتزايدة باعتبارهما يسهمان فى هذا التوجه؛ على أن مثل هذه البيانات قديمة (مر عليها أكثر من عقد)، ولكى نعود إلى جدال هذا

الفصل ينبغى عدم النظر إليها - أو اعتبارها - باعتبارها حالة "إما .. وإما". أى أننا إما أن نكون كوزموپوليتان أو محليين، أو إما كوزموپوليتان أو قوميين. الكوزموپوليتانية، بالأحرى ينبغى اعتبارها عملية تراكمية، تتميز بتجمع مؤثرات ثقافية وولاءات وتجارب تتفق مع قدراتنا بوصفنا بشرًا على امتلاك أكثر من هوية. على أن ذلك يعنى أيضا أن صحة وسلامة الصلات بين العولمة والكوزموپوليتانية تعتمد على دقة فهم المرء للعولمة المعاصرة، وكما رأينا فى الفصول السابقة فإن العمليات المتعددة للعولمة قادرة كذلك على خلق ردود فعل قومية ضيقة الأفق.

الأشكال الأوسع والأعمق من التواصلية الكونية المتبادلة يمكن أن تساعدنا على التفكير فى ما هو أبعد من الدولة -الأمة، كما تذكرنا فى الوقت نفسه بارتباطنا بها، وخاصة فى عالم سريع التغير؛ وسيكون على المشاعر الكوزموپوليتانية أن تتنافس دائما مع الجذب الشديد لارتباطاتنا المحلية، وتلك بالتأكيد وجهة نظر "أنتونى سميث Anthony Smith" الذى يعتقد أن الثقافة الكوزموپوليتانية ستكون ضحلة وبلا جذور مقارنة بثقافاتنا "العميقة" القائمة (1995, 24). من هنا وبالنسبة للمستقبل المنظور، سوف يظل صدى الولاءات المحلية والقومية يتردد لدى كثير من الناس، رغم أن ذلك، كما رأينا، لا يمثل عقبة فى سبيل تكوين منظور كوزموپوليتانى ينبغى النظر إليه باعتباره عملية تكون ذاتى. عندما تمنعنا ولاءاتنا الخاصة من جمع هذه التجارب ومن مواجهة الثقافات الأخرى على النحو الصحيح، حينذاك فقط يصبح هناك مشكلة فيما يتعلق بالكوزموپوليتانية.

على أن تطوير نظرة كوزموپوليتانية فى النهاية سيكون رهنا بعدة عوامل أكثر من مجرد توفر "فرص كوزموپوليتانية" والضغوط التى تولدها المشكلات المرتبطة بالعولمة، وهذه تتضمن نمط عملية أو عمليات العولمة المرتبطة بها، والمجتمعات التى يحدث فيها ذلك التفاعل، والأفراد الذين يمارسون هذه المواجهات؛ فليست كل المجتمعات مثلا تمر بعمليات التحديث الانعكاسى الذى لخصناه سابقا. يضاف إلى ذلك أن الفهم، أو حتى التقمص العاطفى، الناتج عن التواصل والألفة مع الثقافات المختلفة سوف يتوقف إلى حد بعيد على الأفراد بناء على تجاربهم

الحياتية وميولهم وخلفياتهم التعليمية والاجتماعية. وسوف يؤثر ذلك فيما إذا كان الناس يريدون أو لا يريدون ممارسة ثقافات مختلفة، أو يعتبرون المهاجرين خطرا، أو على استعداد لإقامة علاقات تجارية مع الشركات الأجنبية، وهكذا. لهذه الأسباب فإن طبيعة وتأثير عمليات العولمة معقدة ومتفاوتة فى الوقت نفسه.

باختصار، سوف يتوقف ما إذا كانت الكوزموپوليتانية نابعة من التدفقات الكونية المتزايدة وأشكال التواصل المتبادل، على الأطر الخاصة التى تمارس فيها هذه القوى وعلى الجماعات والأفراد الذين يمارسونها. هذه الأطر سوف يتخللها بالطبع، وإلى حد بعيد، عمليات عولمية تساعد فى تشكلها، وهو ما يبين مرة أخرى أهمية فحص تقاطعات الكونى والمحلى واستخدام سلسلة من الاستشرافات المنضبطة جزءًا من تحليلنا بدلا من تبنى أسلوب بحث سوسيولوچى وثقافى فقط، وهو ما يعنى كذلك أن الأشكال والدرجات المختلفة للكوزموپوليتانية (تنويعات على الكوزموپوليتانية إن شئت)، سوف تظهر، وهو ما يعيدنا إلى النقطة التى أوضحناها فى بداية هذا الفصل: التوجه الظاهر للنظر إلى الكوزموپوليتانية بصيغة الجمع.

للمزيد:

- الكوزموبوليتانية مفهوم يلقى اهتماما آكاديميا ونقديا متزايدا. أحد المنظرين الذين حاولوا - على نحو خاص - استكشاف العلاقة بين العولمة والكوزموبوليتانية هو "أولريخ بيك "Ulrich Beck" فى أعمال مثل: What is Globalization? (2000). ومقال بعنوان: "The Cosmopolitan Perspective: Sociology in the Second Age of Modernity" (2002).

- من أهم الكتابات التى تتناول هذ الموضوع مقال Ulf Hannerz بعنوان:

"Cosmopolitans and Locals in World Culture" (1990).

- عن العلاقة بين الكوزموبوليتانية والدولة - الأمة وقضية السيادة انظر: Kymlicka and Straehle (1999) and Pogge (1992) على التوالى.

- من الكتب التى تتناول الأبعاد الثقافية والاجتماعية للكوزموبوليتانية، انظر:

- C. A. Breckenridge et al. (eds). "Cosmopolitanism" (2002).
- John Tomlinson, "Globalization and Culture", (1999a).
- John Urry, "Global Complexity" (2003).

خاتمة

عولمات ثقافية

ما العولمة الثقافية إذن؟ ما طبيعة العلاقة بين الثقافة والعولمة؟ ما المتضمنات التى تنطوى عليها العولمة لفهمنا للثقافة؟ هذه الأسئلة كلها سوف نتناولها من خلال التقريب بين المجادلات والقضايا الرئيسية لهذا الكتاب.

• العولمة الثقافية: تحديات تحليلية

بداية، ينبغى التعرف على ما أصبح واضحا - وأتمنى أن يكون قد أصبح كذلك - على امتداد هذا العمل، وبالتحديد أن العولمة الثقافية تقدم لنا عددا من التحديات التحليلية وخاصة المجال الواسع للموضوع وكون العلميات الكونية لم تنتشر بعد فى كل أجزاء العالم، وأنها حتى فى تلك الأماكن التى وصلت إليها لم يكن ذلك بشكل متسق. هذا الوضع يخلق بدوره عددا من المشكلات عندما نتأمل كيف تؤثر أشكال التواصلية الكونية فى الثقافات الكونية أو تسهم فى أنماط الصراع الثقافى، وكلها أمور ينبغى تحليلها فى عملية التقمص التى نقوم بها. لا بد كذلك من أن نضع فى اعتبارنا أن المحلى يمكن أن يكون له صدى كونى، فالتذكارات الثقافية والنصوص والأشكال المادية الأخرى على سبيل المثال، يمكن أن تتجاوز ثقافات وأماكن بعينها ويكون لها مقبولية لدى العامة وتؤثر فيهم؛ ومما يزيد الأمر تعقيدا أن للعولمة تاريخا طويلا وإن كان غير منتظم. وكما رأينا فى الفصل الأول، فإن أسس مرحلتها الحالية قد وضعت فى مراحل سابقة، على الرغم من أنه كانت هناك جوانب من العولمة المعاصرة تؤكد تمايزها عن المراحل الأخرى، بما فى ذلك الحجم غير المسبوق للتحرك الثقافى والتمازج المتزايد

والتطورات التى تفرز تحدياتها التحليلية الخاصة: بيد آن الأهم هو أن تعريف العولمة الثقافية أبعد من أن يكون واضحا كما سنبين الآن.

• العولمة

إذا بدأنا بتحليل مفهوم العولمة الثقافية إلى مكوناته، فسرعان ما يتضح أن هناك عدم اتفاق على ما نعنيه أو ما ينطوى عليه بالفعل. التفسيرات تتراوح بين أشخاص يرون العولمة تحديا يواجه عصرنا (e.g., Blair, 1996)، وآخرين يعتبرونها "تدمر التنوع الثقافى والتجارب الشخصية" و"تحول المواطن إلى مستهلك" .(Touraine, 1997, 68) . هذه الطبيعة المختلف عليها للعولمة نجدها منعكسة فى أساليب الاستشراف الخاصة التى تنتهجها المجالات المعرفية المختلفة فى تناولها لها. وبينما يربط كثير من علماء الاجتماع العولمة بالحداثة وبالمرحلة الحديثة كما رأينا، فإن كثيرا من المؤرخين ينظرون نظرة أبعد لتاريخها. هناك كذلك سبب آخر للاختلاف وهو المعيار الذى نستخدمه جزءًا من تعريف كل منا للعولمة. عندما نتصور العولمة مثلا باعتبارها مجرد أشكال متعددة من التواصل الكونى المتبادل، فإن ذلك يعنى أنها لا تتضمن علاقات إنسانية عميقة، ويرسخ فهمها باعتبارها عملية تاريخية طويلة المدى على اعتبار أن المجتمعات كانت تتفاعل بهذه الطريقة لزمن طويل. إلا أننا لو نظرنا إلى العولمة باعتبارها أشكالا متعددة من الاعتماد الكونى المتبادل، فسيكون ذلك فى حاجة إلى نمط مختلف - نوعيا - من العلاقات الإنسانية وهو نمط من الصعب سبكه والحفاظ عليه. وعلى اعتبار أن السفر والانتقال والاتصال كانت أمورا صعبة فى المراحل الباكرة من التاريخ الإنسانى، يمكن أن تكون العولمة - من هذا المنظور - مجرد ظاهرة حديثة.

• الثقافة

الثقافة كذلك مفهوم إشكالى عصى على التعريف المحدد، كما تدلنا التصورات المتعددة لها. إلا أننا إذا نظرنا إلى الثقافات باعتبارها كيانات غير متمايزة - كما جادلنا فى الفصل الثانى - وأنها تثرى بعضها البعض بمؤثرات

مختلفة، يصبح من الملائم أن نتصور الثقافة باعتبارها "عملية مستمرة" وليس شيئا ثابتا مستقرا. وعلى الرغم من أننا ينبغى ألا نبالغ فى أهمية فكرة السفر وسهولة انتقال المؤثرات الثقافية: لأن ذلك قد يعرضنا لخطر إهمال عمليات التكون الثقافى وأشكال المقاومة ومن ثم عدم فهم الفوارق الثقافية. مثال على حالة التوجهات الثنائية هذه ما نراه بالنسبة للكرنڤال البرازيلى، حيث يسود القلق لدى بعض البرازيليين لأن كرنڤالاتهم أصبح يسودها الـ "DJ" ويسيطر عليها الموسيقيون الأجانب وخاصة بموسيقاهم الإلكترونية التى يعتبرونها إهانة للكرنڤال الأفرو - برازيلى الحقيقى. ما حدث أن القلق تصاعد إزاء هذا الخطر على الهوية الثقافية البرازيلية، لدرجة أن عددا من مدارس السامبا فى "ريو دى چانيرو" حظرت اشتراك الأجانب فى عروضها الكرنڤالية.

فى الوقت نفسه، نجد المدونين البرازيليين يشبهون الموسيقيين والمؤدين الأجانب بالغزاة الهولنديين الذين جاءوا إلى بلادهم فى القرن السابع عشر (Phillips, 2007). وهكذا يوجد مفهوم عن الثقافة البرازيلية باعتبارها شيئا فريدا، جديرا بالحفاظ عليه رغم أنه - حتما - يتطور فى عملية مستمرة، وهذا التدخل الأخير ما هو إلا أحدث مراحل تطوره.

العولمة الثقافية

إذا جمعنا هذين المفهومين (مفهوم العولمة ومفهوم الثقافة) وتناولنا العولمة الثقافية، فما النتيجة التى نخرج بها من هذه الدراسة عن الموضوع؟ مشكلتنا المباشرة هى أننا مواجهون بأشياء كثيرة مستمرة، بما أدى بـ "أولف هانرز Ulf Hannerz" (1989 b.) أن يصف ذلك بـ "المجمع المسكونى الكونى". ثقافة كونية ذات علاقات ثقافية متبادلة متداخلة؛ وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون توصيفا دقيقا للحالة المعاصرة، إلا أنه لا يفسرها؛ ولذا نحن فى حاجة إلى التعمق قليلا وأن نعترف بأننا لا نستطيع أن نفهم العولمة تماما من خلال الموشور الثقافى. وبينما الشكل الثقافى من بين كل أشكال العولمة هو الذى نمارسه على نحو يومى، وبينما هو الأكثر وضوحا، علينا على الرغم من ذلك أن نضع باعتبارنا جوانبه وأبعاده الأخرى. بهذا المعنى، فإن الأشكال الاقتصادية والسياسية للعولمة

أقل سهولة فى اكتشافها، رغم أن ذلك لا يعنى أن ممارستنا لها ملموسة على أى نحو بدرجة أقل. إن قرار استثمار تتخذه شركة عابرة للحدود القومية بمركزها الرئيسى فى طوكيو مثلا، يمكن أن يكون له تأثير مباشر على فرص وآفاق العمالة ... ويتبع ذلك تأثير فى أساليب حياة عمالها فى كثير من مناطق العالم. الأكثر أهمية من ذلك ـ كما رأينا ـ أن أبعاد العولمة هذه متداخلة باستمرار، وعليه فإن ذلك يتطلب استشرافا متعدد المجالات حتى عندما يكون تركيزنا على العولمة الثقافية. على سبيل المثال، كثير من المنتجات الثقافية التى نقابلها بدءا من برامج التليفزيون وانتهاء بالسلع الاستهلاكية، هى كلها نتاج الأبعاد الاقتصادية والتكنولوچية والسياسية للعولمة، وإذا تناولنا البعد السياسى للعولمة على سبيل المثال، فسنجد ذلك موجودا فى اتساع مؤسسات التحكم العالمية وخاصة فى شكل الاتفاقيات التجارية التى تمكننا من مواجهة هذه المنتجات الثقافية. باختصار ... عمليات العولمة الثقافية ليست بمعزل بعضها عن البعض، جميعها متواشجة مع أبعاد وعمليات أخرى للعولمة.

أما بالنسبة لطبيعة العلاقة بين العولمة والثقافة، فلا بد من الاعتراف بأن عمليات العولمة لا تعرف الثقافة فى المرحلة المعاصرة وإنما هى التى تشكلها بالأساس. بعبارة أخرى، الثقافات، سواء كانت قومية أو دينية أو محلية ... أو غير ذلك، لها تاريخ ويتم سبكها فى مجمل المساعى الإنسانية كما يثريها انهماكنا فى عمليات العولمة وتأثرنا بالتدفقات الثقافية. على الرغم من ذلك، إذا كان علينا أن نحدد تأثير مثل هذه التدفقات، فسنكون بحاجة للاعتراف بالقلق حيث إن استخدام الاستعارات على هذا النحو يمكن أن يبقى نقاشنا مجردا وعاما. لكى نعالج هذه المشكلة علينا أن نقوم بتشريح هذه التدفقات لكى نعرف مكوناتها (أفكار ـ صور ـ أصوات ـ رموز ـ بشر ـ رأسمال ـ منتجات)، وما إذا كانت كونية أو محلية أو إقليمية فى طبيعتها، وأن نضع فى اعتبارنا مستوياتها المختلفة من حيث مداها وحجمها. عملية الاستقصاء هذه سوف تكشف لنا بالتأكيد عن الأصول المتعددة والمتنوعة للتدفقات الثقافية المعاصرة، وكذلك عن طبيعتها ذات الاتجاهات المتعددة، وهذا بدوره يساعد فى زعزعة فكرة وجود ثقافة كونية واحدة موحدة (الفصل الرابع). حتى إذا قبلنا أنه سيكون هناك دائما لاعبون

وقوى دائمة تثرى هذا الجانب من العولمة الثقافية، فإن ذلك لا يستبعد إمكانية وجود تدفقات موازنة إلى جانب قوى مقاومة. فى هذا السياق، فإن الهجرة والسفر وتكنولوجيات المعلومات والاتصال تؤدى إلى مؤثرات ثقافية من قبل العالم غير الغربى تخترق الغرب وتشكل الثقافة بناء على ذلك سواء أكان ذلك فى شكل موسيقى أو أزياء أو مسرح أو غير ذلك من الممارسات الثقافية. يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الكُتَّاب يعتبرون التدفقات والعمليات الخاصة بالعولمة تعمل على طمس الهويات الثقافية الموجودة، وتولد هويات أكثر تعقيدا، وهو ما تعكسه الهجنة والتعددية العرقية والثقافية. (انظر: Nederveen Pieterse, 2004; Garcia Cancilini, 1995)

• مشكلة الكونى - المحلى

تحليل التدفقات الثقافية ومحاولة تحديد تأثيرها المحتمل، عملية أكثر تعقيدا مما يبدو إلى الآن، وذلك لأننا مواجهون على نحو مستمر بما وصفه "رولاند روبرتسون" بـ "الاختراق المتبادل" بين الكونى والمحلى. وهكذا فإن الكونى يثرى بالمؤثرات المحلية والعكس صحيح، كما أن هناك مصالح وجماعات تشجع مثل هذه العلاقة المتبادلة بنشاط. وكما هو معروف جيدا فإن نشطاء حماية البيئة مستمرون منذ سنوات فى حثنا على أن "نفكر كونيا ونعمل محليا". والشركات العالمية - بالمثل - تواصل عملها من أجل إضفاء الطابع المحلى على ما هو كونى وتكييف منتجاتها بما يناسب الأسواق المحلية، لكن حتى بدون مثل هذا التشجيع والتحفيز فإن الأفراد والجماعات - بوازع من أنفسهم - يسبغون الطابع "المحلى" على الأشياء والأصوات والرموز التى تكون التدفقات الثقافية فى النهاية. (الفصل الرابع).

ومما يعقد الأمور أكثر من ذلك أن "المحلى" الذى يتخذ بالفعل أشكالا عدة (دولة - أمة، جيرة، تراث... إلخ) من المرجح أن يكون أكثر تنوعا داخليا عن قبل، نتيجة للاتصالية الزائدة مع بقية العالم وحركية الثقافات الجديدة وانتقالها إلى ثقافتنا المحلية، وهى نقطة تنطبق حتى على الدولة - الأمة ذات الأنظمة والتقنيات الخاصة لتنمية التماسك واللحمة الاجتماعية. "دورين

ماسى (2005) Doreen Massey" تكتب عن التعدديات الداخلية الفاصلة للمكان، وترى أننا نحتاج أن نفكر فى التواصل بدلا من المكان بالنسبة للتفاعل الإنسانى، على الرغم من أنه ينبغى عدم إغفال حقيقة أن هذه الروابط مرنة وديناميكية فى ظل ظروف العولمة المعاصرة وأن من الصعب أن نجمدها فى مكانها. الأثر التراكمى لهذه التطورات يجعل "روبرت هولتن Robert Holton (2005)" يعتقد أن وحدتنا للتحليل يجب ألا تظل هى القومى/المحلى أو الكونى، وإنما المحلى/الكونى فحسب وهو ما يتطلب استخدام محلية/كونية منهجية.

ربما تبدو فكرة وجود علاقة ثنائية بين الكونى والمحلى قديمة فى ظل الظروف المعاصرة، والحقيقة، كما رأينا فى الفصل الثانى، أن تطورات مثل القوميات العابرة للحدود إنما تزيد الأمور تعقيدا بإبرازها الروابط التى تتقاطع عبر هذه الثنائية. ليس التمايز الكونى/المحلى هو الواقع فقط تحت ضغوط التطورات العولمية المعاصرة، فالشىء نفسه ينطبق على فكرة الوطن والخارج، الداخلى والخارجى، العام والخاص. يضاف إلى ذلك أن الجمع بين التطورات التكنولوجية والتحولات فى طبيعة الإنتاج الرأسمالى تنطوى على كثير من الشخصنة، عندما يتعلق الأمر بكيفية ممارستنا للتدفقات الثقافية. هذا يعنى مثلا أن الموسيقى والبرامج التى نقوم بتحميلها من الإنترنت، والمجموعات المتزايدة من برامج التليفزيون التى نختارها، وقنوات الأقمار الاصطناعية التى نشترك فيها، والصحف الرقمية، ومصادر المعلومات الأخرى التى نشترك لكى نتلقاها ـ كل ذلك يأتى نتاجًا لأذواقنا الخاصة. من هنا فإن التباين الثقافى يتأكد، بناء على حقيقة أن الأفراد أنفسهم هم المنغمسون على نحو متزايد فى تشكيل الكثير من خبراتهم الثقافية. مثل هذا التحول يولد انعكاسية، حيث يصبح الفرد أكثر وعيا بعمليات الإنتاج والاستهلاك الثقافى ودورهما داخل هذه العمليات، ولكن بالإضافة إلى أن ذلك يعنى أن تنوع الاستجابات على المستوى المحلى سوف يزيد تفسيره لهذه الظاهرة مع اتباع المزيد والمزيد من الناس لمثل هذا الأسلوب فى الحياة. لكثير من الأسباب السابقة، هناك جدل الآن حول ضرورة أن نقلع عن اعتبار المحلى نقطة التوقف التى يصل إليها الانتشار

الكونى، (Nustad, 2003)، وأن نتحرك إلى ماهو أبعد من ثنائية الكونى/ المحلى، (Nustad, 2003) على الأقل، فكرة أن الكونى يتكون من " تعددية من المحليات "، (Morley and Robins, 1995) ، أو كون المحلى مفهوماً علائقياً مديناً بوجوده لعلاقته بالكونى - فكرة إشكالية. وحيث إننا جادلنا هنا بأن الثقافة يتم تصورها باعتبارها عملية مستمرة، مؤسسة على شبكات من المعنى والحركة التعددية، فقد يكون من غير الضرورى أن نصبح مشغولين أكثر من اللازم بتحديد ما هو كونى وما هو محلى. بعبارة أخرى، ينبغى ألا نفكر بالثقافة فى علاقتها بأماكن معينة، وخاصة أننا فى مسيرتنا اليومية نتحرك حاملين معنا ثقافتنا، منغمسين فى تدفقات وعمليات كونية عابرة للحدود فى أطر مختلفة، (الفصل الثالث). لذا هناك الكثير فى حياتنا المتصلة ثقافيا لا يعتمد على المكان. هناك مستمعو الموسيقى العالمية وأتباع الأديان والمشاركون فى الحركات الاجتماعية باعتبارهم أمثلة. لذا، لتحديد بعض الصلات والروابط الموجودة بين العولمة والثقافة، نحن فى حاجة لتفحص كل الظروف والوسائل التى يسهم فيها وبها الأفراد والجماعات والمؤسسات ويشاركون فى التدفقات والعمليات المختلفة للعولمة، كل منهم بثقافته وتاريخه. الناس ليسوا سلبيين جالسين فى أوطانهم فى انتظار التدفقات الثقافية الكونية، إنهم يسهمون فيها بإيجابية، وهذا واضح على نحو خاص لدى جماعات الهجرة والشتات العابرة للحدود القومية. حتى المستقرون فى أماكنهم وغير المترحلين يتواصلون كونيا كلما استخدموا الكمبيوتر والإنترنت وتراسلوا بالبريد الإلكترونى.. وإن كان ذلك بمعنى محدود. كما أنهم يصبحون جزءا من الميديا وتدفقات الاتصال فى كل مرة يتركون فيها التلفزيون والراديو ويقومون بإجراء اتصالات تليفونية دولية فى أى لحظة. إذن، إلى جانب منظمات (مثل الأمم المتحدة) وأحداث كبرى (مثل الأولمبياد) ومؤسسات قوية (مثل المؤسسات الإعلامية المتعددة الجنسية) - ستكون هناك طرق وقنوات عدة يسهم فيها ومن خلالها الناس العاديون فى التواصلية الكونية. ويعنى ذلك كذلك أن هناك معنى مزدوجا لفكرة الإطار فى المرحلة المعاصرة: الظروف المحددة التى يعمل فيها الأفراد والجماعات؛ ولكن أيضا، الإطار الكونى الرئيسى للأشكال الأوسع من التواصلية.

• العامل البشرى والعولمة الثقافية

وجود العناصر البشرية فى صميم عملية التقصى التى نقوم بها. يتطلب أن نضع تصورنا للعولمة فى الاعتبار، وهو أمر تثريه الأيديولوجيات والحوار الدائر أى خطاب العولمة. يتطلب الأمر كذلك أن نقوم بتحليل كل ما يدل على بزوغ وعى كونى. كثيرون منا - بالطبع - ممن يسهمون فى التواصلية الكونية لن يكونوا واعين دائما بأننا نفعل ذلك، رغم الكشف هنا عن أن أحد الملامح المميزة لعصرنا هو أن الناس منخرطون فى علاقة أكثر انعكاسية مع العلميات السائدة. يضاف إلى ذلك أن تبنى هذا النمط من الاستقصاء الذى نجادل به هنا، من المرجح أن يكشف عن أن الناس لديهم أنماط مختلفة من العلاقة مع التدفقات والعمليات الخاصة بالعولمة - سلبى، انعكاسى، غير مكترث، معارض... إلخ - بما يعبر عن ظروفهم الخاصة وأطر عملهم (التى تثرى بهذه المواجهات)، وأن هناك أشكالا أخرى كثيرة من الانغماس فى عمليات العولمة والاستجابة لها، مثل محاولة الحفاظ على الثقافات القومية أو توليد توجهات كوزموبوليتانية وأساليب حياة مثل تلك التى تناولناها هنا. ذلك كله دليل على الطبيعة المعقدة للعلاقة بين العولمة والثقافة، ويؤكد أن العولمة الثقافية متشابكة ومتنافرة وجمعية فى آن؛ ولذا لا بد من تصورها باعتبارها " عولمات ثقافية " - بصيغة الجمع. - يتبع ذلك أن الأمر يصبح إشكاليا سواء حاولنا تحديد النتائج الثقافية للعولمة كما فعل "هولتن (2000) "Holton"، و"باربر " (1996) "Barber" هنتنجتون "Huntington (1997) ، أو مناقشة السببية فى علاقتها بالعولمة، كما لو كانت عاملا مستقلا له دافعيته وأجندته الخاصة. الحقيقة أن هناك فى أدبيات العولمة اعترافًا متزايدًا بالطبيعة المعقدة لهذا الموضوع، يتضح فى التحول نحو البحث الإمبيريقى والتحليلات على المستوى الصغير للفاعلين وللعناصر المشاركة فى العمليات الكونية والعابرة للحدود القومية، وتجنب التنظير العام على المستوى الأكبر؛ ففى الصحف الأكاديمية مثل "Global Networks" نجد دراسات موسعة عن الشبكات الكونية والممارسات العابرة للحدود والمهاجرين والمؤسسات التجارية والمهنية والمنظمات العالمية غير الحكومية والمجتمعات الإلكترونية. هذا النوع من الأبحاث يجرى كذلك داخل المؤسسات لفحص الأساليب التى تتواصل وتتفاعل

بها مع مؤسسات وكيانات أخرى، وفى هذا السياق نجد أن "مارتن كارنوى Martin Carnoy" ومانويل كاستلز (2001) " Manuel Castells قد قاما بتطبيق مثل هذا الأسلوب فى الاستشراف على الدولة - الأمة. وعلى أساس استنتاجاتهما صاغا فكرة "الدولة الشبكة". التدفقات الكونية بالمثل، يتم فحصها نقديا مع التأكيد على كيفية تقاطعها مع المؤسسات ودرجة الاختراق الكونى - المحلى المتبادل وكيفية استمرار الاستقرار فى ظروف المرونة والسيولة (e.g., Street, 2003).

تراكميا، تحليل الشبكات الكونية والمجتمعات الإلكترونية والاتصالات العابرة للحدود المختلفة، يقدم لنا رؤية ثاقبة، أكثر تفصيلا وتعقيدا للأساليب التى تتطور بها العمليات الثقافية، وكيف تثرى حياتنا الشخصية ومجتمعاتنا، وكيف أنها تغير مفاهيمنا عن الزمان والمكان. كما تقدم كذلك دليلا إضافيا عن المصادر والعمليات المتعددة التى تسهم فى العولمة، وخاصة كيف يعمل الأفراد والجماعات على نحو متزايد ولأسباب عدة (اقتصادية وأسرية وتكنولوچية وشخصية وثقافية) بأسلوب كونى وعابر للحدود القومية. بالإضافة إلى ذلك فإن التحليل يبين أنه بينما توجد مؤثرات قوية واضحة تولد عمليات العولمة، مثل الرأسمالية، إلا أنه ليس هناك قوة واحدة متكاملة تعبر عنها؛ وعليه لن يكون من الحكمة أن نختزل مثل هذه الظاهرة فى مؤثر واحد، حيث سيؤدى ذلك إلى عنف فى التعبير عن مجموعة من الدوافع الإنسانية وراء مثل هذا النشاط. يضاف إلى ذلك أن الأطر المختلفة التى يعمل فيها الأفراد والجماعات، مثل المؤسسات التى يوجدون بها والمحليات وأماكن العمل والمناطق والدول، سوف تثرى عملهم. هناك تعقيد آخر وهو أن تأثير هذه الحياة الثقافية والاجتماعية يتراكم وتصبح مكوناته معتمدة بعضها على البعض بشكل متبادل؛ والحقيقة أن مثل هذه التوجهات لا تنطبق فقط على الأفراد والجماعات، ولكن كذلك على المؤسسات والأحداث والشبكات والتدفقات، جاعلة من الصعب تحديد الظاهرة الكونية الحقيقية. فى حالة كأس العالم على سبيل المثال، بينما يتم تسويق كرة القدم باعتبارها لعبة العالم كله (كونية)، نجد أن الدورة لا تضم سوى ٣٢ دولة (دولية)، كما نجد أن الفرق والمشجعين يعبرون عن وطنيتهم (قومية)، كما نجد أن كثيرا من سياسات

الإشراف والتنظيم وغير ذلك من الترتيبات تعتمد على أشكال مختلفة من التعاون الإقليمى والعابر للحدود القومية. وهكذا فإن ما قد يبدو ظاهرة كونية، إنما يتمثل بالفعل فى المزج أو الاعتماد المتبادل بين عدة عوامل غير كونية. تفتيت ما هو كونى إلى عناصر أو أجزاء مكونة مكملة لبعضها، يمكن تطبيقه كذلك على مؤسسات ومنظمات مثل الأمم المتحدة وثقافات مثل الإسلام.... وحتى على حركات مثل "القاعدة" (الفصل السادس). ما يعنيه ذلك إذن هو أن الظواهر التى تورد باعتبارها دليلاً على العولمة، أو العولمة الثقافية ليست كونية بالضرورة، سواء فى مداها الإقليمى أو نتائجها؛ ولكن بتناولها معا نجد أنها مستويات وأشكال واسعة من التواصلية والاتصالية عبر الكرة الأرضية، (Holton, 2005 : 13) .

التوصيف المذكور أعلاه ليس من المرجح أن يلقى قبولا عاما وخاصة فى ما يتعلق بالعولمة الثقافية. فى نظر كثير من المعلقين، المجال الثقافى للعولمة أكثر "تعولما" من المجالات السياسية والاقتصادية أو المادية لها، (e.g., Waters, 1995)، ذلك لأن العولمة الثقافية - فى جزء منها - مكونة من تبادلات رمزية - اقتصاد العلامات والرموز - الذى يتراوح بين الإعلانات وجمع وتحويل البيانات؛ على أنه وكما رأينا، حتى فى المرحلة المعاصرة، فإن مؤسسات مثل الدولة - الأمة والحكومات الوطنية، وعلى مستوى الأفكار، الأصوليات الثقافية والقوميات العرقية - كل ذلك يساعد فى تقييد انتشار التدفقات الثقافية، وليس مجرد الأفكار والصور ما ستحاول الحكومات أن تقيده، وإنما أيضا حركة الناس، من خلال وضع تشريعات خاصة بالهجرة والمواطنة. نحن إذن فى حاجة إلى معادلة التأكيد على الحركية التى يمكن أن نجدها فى بعض التفسيرات (e.g., Urry, 2000)، بالاعتراف بالقيود العملية الموجودة فى الحياة اليومية.

على نحو أشمل، هناك خطر أن نصبح أكثر تعلقا بتحديد ما هو كونى وما هو ليس كذلك؛ وبوجود الزعم هنا بأن الكثير مما يحدث يتضمن مستويات وأشكالا من الاختراق المتبادل والتأصيل، إلى جانب عدم اتساق التدفقات الثقافية، فقد يعنى ذلك أننا سنجد القليل مما يمكن اعتباره كونيا بالفعل، أو متجانسا بالمعنى الثقافى، هذا إذا وجدنا شيئا بالمرة. ما زالت هناك بالطبع تغيرات مهمة تحدث

وبدرجة تجعلنا فى حاجة للاعتراف بها وأن نأخذها بالاعتبار. فى هذا السياق إذا تخلينا عن اعتبار العولمة حالة نهائية، سرعان ما سيتضح، كما بينا من قبل، أن هناك تطورات وعمليات كثيرة سوف يسهم تأثيرها التراكمى فى المزيد من التواصلية فى العالم، وإن لم تكن بالضرورة ذات طبيعة كونية. الأكثر ملاءمة إذن، النظر إلى "العولمة الثقافية" باعتبارها مصطلحًا أو مفهومًا شاملاً، يصف التطورات الدولية والعابرة للحدود القومية والإقليمية والمحلية والكونية، ذات البعد الثقافى؛ كما يصف التطورات المضادة مثل أشكال التماسك الثقافى. يتبع ذلك أن العولمة الثقافية ليست حالة واحدة متكاملة، وإنما هى مجموعة متعددة الجوانب والأبعاد، من عمليات وتوجهات مترابطة متبادلة الاختراق والتغلغل، وهذا ـ مرة أخرى ـ يدعم فكرة تصور الأمر بصيغة الجمع، (Holton, 2005) ،أى أن الموجود "عولمات ثقافية" وليس "عولمة ثقافية".

وهكذا فإن التمازج الثقافى المتزايد والطبيعة الجمعية للتدفقات الثقافية، وتعقد الاتصالية المتبادلة بين الكونى والمحلى، وأشكال ومستويات الاعتماد المتبادل التى حددناها عاليه، كل ذلك يقوى الحاجة إلى التفكير فى العولمة الثقافية فى علاقتها بالعناصر البشرية والظروف الخاصة التى تعمل فيها، وإلا سنكون معتمدين على الحدس فقط. باختصار، فإن نقطة البداية فى بحثنا هذا الأمر، لابد من أن تكون الاعتراف بأن التدفقات الثقافية والشبكات والأسواق الرأسمالية، إلى غير ذلك من التطورات التى تولد أشكالا تعددية من التواصل الكونى، إنما ينشغل بها ويسهم فيها الأفراد والجماعات والمؤسسات فى أطر مختلفة، والمواقف الثقافية هى التى ستحدد الشكل الذى يتخذه التفاعل. وباعتبارنا كائنات ثقافية وفاعلين فى مواقع معينة، فنحن لسنا سلبيين ولا محايدين، نحن نبدع ونشكل ونتفاوض بنشاط لاختيار طريقنا عبر هذه العمليات كلها طول الوقت. ينبغى أيضا ملاحظة أن هذا الأسلوب الأنثروبولوچى (أو ذا المركزية الإنسانية) فى استشرافنا للموضوع، متسق مع نظرية الموجة الثالثة للعولمة، (انظر: Hay and Marsh, 2001; Holton, 2005) ، وكذلك أساليب الاستشراف العابرة للحدود القومية، (انظر: Ong, 1999)، يضاف إلى ذلك أن انتهاج هذا الأسلوب يمهد الطريق أمام المزيد من الفهم للعولمة الثقافية والجدل المصاحب لذلك، بما يمكن

من تحديد مدى دقة المزاعم بأن الانغماس فى العمليات الكونية يؤدى كذلك إلى المجانسة والتهجين والانسحاب الثقافى والكوزموبوليتانية بين أشياء أخرى: وبالطبع حين نتعهد تحليلات المستوى الأصغر هذه، فقد نكتشف أنه حتى فى داخل مجالات معينة، يمكن أن نرصد بعض أو كل أنماط السلوك، هذه ولكن المؤكد أن أيا منها، لا يقرره أى جانب من جوانب العولمة وحده.

على أية حال، ينبغى ألا يكون جل تركيزنا على التحليلات ذات المستوى الأصغر حتى لا نفقد الرؤية للدور الذى تقوم به الاختلافات البنيوية والأطر التنظيمية الدولية والمؤسسات المسيطرة فى التطورات والمواجهات الثقافية، وهو ما يمكن تجنبه عن طريق توليف الرؤى البصيرة لمجالات معرفية مثل علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد، كما أنها تذكرة بضرورة استخدام أسلوب استشراف متعدد المجالات عند تناول هذا الموضوع؛ ومن الطبيعى أن نلجأ إلى مثل هذا الاستشراف عندما نقوم بتحليل الشبكات؛ لكى نضع فى اعتبارنا العلاقات الرأسية والأفقية بين تلك الشبكات وبداخل كل منها؛ وكذلك كيف أن عدم المساواة فى إمكانية الوصول إلى تكنولوچيات الاتصال الكونية الحديثة يعوق المشاركة فيها بالنسبة لبعض الأفراد والمجتمعات، (الفصل الثالث). بالمثل نجد "زيجمونت بومان (Zygmunt Bauman (1998a" يعين تراتبية كونية للحراك، ويميز بين نخبة حركية غنية وفقراء متمركزين محليا يجاهدون من أجل المشاركة فى عمليات العولمة. فى هذا السياق، فإن تناولنا للتدفقات الثقافية ينبغى ألا يفقد الرؤية لحقيقة أن الرأسمالية والدوافع الاقتصادية والمالية وراء الكثير من الإنتاج الثقافى، كما أنها وراء اتساع صناعة الاتصالات، وتشجع الكثير من الناس على الهجرة، وبالمثل لابد من أن نعترف بأن بعض التدفقات ينبع بشكل واسع من مصادر بعينها أكثر من غيرها، مثل تلك التى تنبع من الميديا القوية ومؤسسات التسلية والترفيه (مثل CNN وMTV و BBC) بما يؤكد أن بعض الثقافات مكشوفة أمام الثقافات الأخرى، الأمر الذى ينتج عنه تفاوت فى قوتها إلى جانب إثراء عملية المثاقفة. (الفصل الثانى)

إن تجارب الناس وانغماسهم فى كل ما هو كونى وعابر للحدود، تتشكل بعمق بواسطة العوامل السابقة، ولا بد من اعتبارها جزءا مهما من بحثنا. باختصار،

بالتأكيد على جدة عصرنا وتعقده، يجب ألا نهمل الأشكال الراسخة من الهيمنة؛ وذلك كله يميل إلى نقطة أوسع لمسناها فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب، وهى أننا، تحديدا، ينبغى ألا نبالغ فى قيمة التطورات المعاصرة ودرجة ما يحدث من تغير. حتى فى هذه الظروف المرنة التى تتميز بالسفر والشبكات والانتقالات والتحولات، تظل هناك بنى ومراكز قوى ومؤسسات محتفظة بحيويتها مثل الدولة ـ الأمة.

وهكذا، ونحن نمضى قدما فى القرن الحادى والعشرين، لا نعتبر ذلك مجرد دخول مرحلة جديدة كونية، أو عابرة للقوميات. هذا القرن الجديد سوف يميزه، بالأحرى، ظهور توترات مستمرة بين كونية القرن العشرين وتوجهات العولمة المعاصرة، كما أن التطورات والمجادلات المحيطة بالعولمة الثقافية ستكون جزءا لا يتجزأ من هذا الموضوع.

للمزيد:

- في رأيي أن الأعمال التي تمضي قدما بدراسات العولمة وتسهم في فهمنا للعولمة الثقافية، كلها جزء من الموجة الثالثة لاستشراف العولمة، مثل:

- Colin Hay and David Marsh´s: "Demystifying Globalization", (2001).
- Robert Holton´s: "Making Globalization", (2005).

- بالإضافة إلى ذلك هناك: "Globalizations" و "Global Networks" وهما صحيفتان معنيتان بتعقد هذا الموضوع وتقدمان دراسات حالة مفيدة في هذا السياق.

الهوامش والتعليقات

المقدمة : استشراف العولمة الثقافية

(١) فى كثير من الأدبيات الحديثة التى تتناول هذا المجال هناك تأكيد على تعددية أبعاد العولمة وجماعيتها، ونشير فى هذا السياق إلى صدور مجلة أكاديمية جديدة عام ٢٠٠٤ بعنوان: "Globalization".

(٢) كمثال جيد على هذا النمط من التحليل والاستشراف انظر: (Massimiliano Monaci et al.,2003) الذى يتناول مشروعا بحثيا استمر ثلاث سنوات فى ميلانو والمنطقة المحيطة بين ١٩٩٨و ٢٠٠٠، عن كيفية تصور واستجابة الفاعلين المحليين فى عدد من المجالات المهنية (مدرسون - فنانون - صحفيون - رجال أعمال - ومديرو شركات كبرى) للعولمة.

(٣) هى نقطة جدال حول إذا ما كان مثل هذا التمييز الدقيق يمكن أن يكون بين الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وهناك فى الواقع العملى تداخل كبير بين المجالات المختلفة وهو ما يمثل هذين التقسيمين.

(٤) نستخدم هنا مصطلح المعولمين Globalists ليعبر عن رأى فى إطار استشراف عريض للعولمة، ويطلق عليهم كُتاب آخرون مسميات مثل strong globalizers أو globalizers أو hyperglobalizers أو مجرد المؤيدين للعولمة والمدافعين عنها، وهذه المسميات كلها مستخدمة بالتبادل هنا.

الفصل الأول

العولمة الثقافية: أكثر من تاريخ

(١) يمكن أن نجد تحديدا للمراحل المختلفة للعولمة فى أعمال أخرى: انظر:
Held et al., 1999; Hopkins, 2000; Nederveen Pieterse, 2004.

أما كتاب " Global Transformations" تأليف: David Held et al. الصادر فى ١٩٩٩ فقد كان له تأثير كبير على أسلوبى فى تناول هذا الموضوع.

(٢) تاريخ ظهور المرحلة ما قبل الحديثة للعولمة محل خلاف، وسوف نعرض له فى القسم الثانى من هذا الفصل.

(٣) يرى G. H. Bentley (1993) أنه، بينما هذه المواجهات الثقافية المتقاطعة لم تسفر بشكل عام عن تحولات ثقافية متقاطعة، إلا أنها كانت عوامل تغيير مؤثرة فى العالم ما قبل الحديث، لأنها تقوم بدور، لعله الأهم، فى تشكيل أنماط العالم الثقافية (ibid., 5)، يضاف إلى ذلك أن "بنتلى Bentley" يحدد عددا من الفترات فى المرحلة ما قبل الحديثة "شهدت مواجهات ثقافية متقاطعة، منتظمة وقوية" .(ibid., 28) .

(٤) على الرغم من ذلك، يجد هذا الرأى معارضة من قبل "إيمانويل ڤاليرشتاين Immanuel Wallerstein (2004) رائد تحليل النظم العالمية، الذى يرى أن النظام العالمى ظهر فى القرن السادس عشر، وهناك كُتاب آخرون يتساءلون ما إذا كان يمكن أن تتساوى الرأسمالية بتبادل السوق (e.g., Hopkins, 2002)، ولكن ضيق المجال هنا لا يسمح بتفصيل هذا الجدال المعقد والمهم، إلا أن المواقف المختلفة يمكن أن تجدها فى: Frank and Gills" (1996)."

(٥) هذا الأمر دليل على مد وجزر العولمة، وإن كان يقوى كذلك مواقف أولئك الكُتاب الذين يؤكدون إسهام قوى الحداثة المشتركة فى العولمة؛ ومن هذا المنظور كما سنتبين فى القسم التالى من هذا الفصل، فإن العولمة المعاصرة مؤسسة على العولمة المتأخرة فى المرحلة الصناعية الحديثة. واعتبارا من هذه النقطة هناك جدال بأن قوى مثل التوسع الرأسمالى، والتكنولوجيا الصناعية تؤكد أن العولمة وصلت إلى مداها العالمى الحقيقى - فى مقابل المدى الإقليمى - وهو ما نجده منعكسا فى التواصل الحقيقى والاعتماد المتبادل.

(٦) على الرغم من ذلك فإن John Elliot (1970) يعتقد أن مواجهة أوروبا للعالم الجديد، كان تأثيرها ضئيل القيمة على الثقافة الأوروبية، مجادلا بأن الكثير من الكُتاب والفلاسفة - ببساطة - ضمنوا المعرفة الجديدة من أمريكا فى أنماط التفكير الراسخة، وذلك لأن الأوروبيين أساسا كانوا يثقون فى معتقداتهم وممارساتهم، وعادة ما كانوا يشعرون بالتفوق على الشعوب التى يواجهونها. والواقع أن كثيرا من الكُتاب الأوروبيين كانوا يحتفون بثقافتهم الخاصة بسبب إنجازاتها واكتشافاتها.

(٧) كما هو الحال بالنسبة للمراحل الأخرى للعولمة، هناك جدال حول تاريخ بداية المرحلة المعاصرة. (e.g., Held et al., 1999; Hopkins, 2002, Nederveen Pieterse, 2004; Scholte, 2005)

(٨) للاطلاع على استخدام شامل لهذا الاستشراف، انظر: Held et al. (1999)

الفصل الثانى

ثقافات متحركة

(١) على الرغم من ذلك يعتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا أن بالإمكان المبالغة فى توكيد الغيرية، مشيرين إلى أن معظم الناس الذين يعملون فى أطر ثقافية مختلفة يتكيفون بسهولة نسبية مع محيطهم الجديد. (انظر: Baumann, 1996a; Keesing, 1994)، ببساطة شديدة، سوف يهاجر عدد أقل من الناس إذا كانت آفاق وتوقعات الانتقال إلى مجتمع آخر تبدو صادمة من الناحية الثقافية. يضاف إلى ذلك أن التأكيد الزائد على "الآخر" يمكن أن يفاقم الاختلافات والصراع الثقافى ويطمس ما هو مشترك بيننا، وخاصة كون البشر لهم حاجات أساسية تتقاطع عبر الثقافات. (انظر: Doyal and Gough, 1991) .

(٢) فى منتصف تسعينيات القرن الماضى كان رئيس المنظمة العالمية للهجرة يقرر عدد المهاجرين فى العالم بنحو ١٢٠ مليون نسمة، وهو ما يقل عن ٢٪ من سكان العالم (Castles and Miller, 1998:4)، وفى سنة ٢٠٠٠ كان هناك حوالى ١٣٠ مليونا من البشر يعيشون خارج الدول التى ولدوا فيها.(Suarez- Orozco, 2000).

(٣) كمثال على هذا النموذج من التحليل، انظر مقال كلوديا دى ليما كوستا "Claudia de Lima Costa" بعنوان: "Between North and South: Travelling Feminisms and Homeless Women" (1999) الذى تعرض فيه لأساليب التكيف مع انتقال النظرية النسوية بين الولايات المتحدة والبرازيل.

(٤) هناك كُتاب يتشككون ما إذا كانت فكرة التدفقات الثقافية وما يصاحبها من حوار هى الطريقة الملائمة لتصور العولمة. (انظر: .(Tsing, 2002) .

(٥) يسلم "ديفيد هيلد "David Held والمشاركون معه من الكُتاب بأن التركيز على التدفقات الثقافية لا يقدم لنا شيئا عن "تجربة المسهمين عند كلا طرفى التدفقات" (329 : 1999)، وفى السياق نفسه يرى بعض الكُتاب أننا لكى نفهم العولمة لابد من إعطاء اهتمام أكبر لكيفية ممارسة وملاحظة تدفقاتها وعملياتها بطرق مختلفة وهو ما يتضمن فحص الأيديولوچيات المصاحبة .(May and Marsh, 2001; Hopper, 2006) .

(٦) على الرغم من ذلك، يجادل "مايكل كيرنى "Michael Kearney فى كتابه: Reconcepualising the Peasantry: Anthropology in Global Perspective" (1996) ."

بأنه فى عالم يموج بالتدفقات الكونية، فإن فكرة التمايزات والأنماط المكانية والثقافية وأنماط السيادة من الصعب أن تدوم.

(٧) تأكيد "أورى Urry" على التحركية، إلى جانب تأكيده فى إطار أدبيات العولمة على الاستعارات مثل المشاهد والشبكات والتدفقات كان عرضة للنقد لإهماله البيانات والبحث الإمبيريقى .(e.g., Favell, 2001) .

(٨) سوف تستمر الجماعات المهاجرة، بالطبع، فى مواجهة ضغوط لكى يتم استيعابها فى معظم الدول: ولهذا السبب يعتبر بعض الكُتاب القومية العابرة للحدود شكلا من أشكال المقاومة من جانب المهاجرين، وخاصة بوصفها نوعًا من رد الفعل على وضعهم المهمش باستمرار فى الدول المضيفة. (انظر: Basch et al., 1994) .

(٩) على الرغم من ذلك فإن فكرة انتقال الثقافات يمكن تطبيقها على الحقبة التى نعيشها، بمعنى أن التدفقات الثقافية دليل على تحول أوسع عن هويات وثقافات الجماعة، فى اتجاه التكوين الذاتى لأساليب الحياة الخاصة. (انظر الفصل السابع) بمعنى آخر، نحن معرضون باستمرار لتدفقات كونية متعددة من الأفكار والأصوات والصور والمعلومات، نستوعبها وتسهم بدرجة مختلفة فى تكوين أنماط سلوكنا ووجهات نظرنا.

(١٠) تجد فى الخاتمة تأكيدا على أن استخدام هذا الأسلوب فى التناول يزداد صعوبة مع الطبيعة المعقدة والمسامية للمحليات، وهو ما يدل بدوره على الحاجة إلى ذلك النوع من الأبحاث المفصلة التى يقوم بها كثير من علماء الأنثروپولوچيا المعاصرين.

الفصل الثالث

التواصل الكونى والميديا والتكنولوچيا

(١) على الرغم من ذلك، تكتشف "كريس باركر Chris Barker" اختلافات معينة بين المسلسلات والتمثيليات التليفزيونية من حيث عدد المشاهد والموضوعات التى تتناولها. انظر: " Global Television" (1997).

(٢) هناك دعاوى بأن المنافسة الزائدة تؤدى إلى أن يكون مقدمى البرامج أكثر توجها نحو التسلية، ومن ثم فإن هذا التقليل من دورهم فى الخدمة العامة يؤدى إلى تآكل المجال العام .(Herman and McChesney, 1997) .

(٣) يصف چون طومسون John Thompson هذه التجربة التى تصنعها الميديا بأنها "حميمية على البعد، غير متبادلة" (1995, 219)، وللاطلاع على مناقشة مستفيضة للاتصال والتفاعل غير المباشر، انظر: Thompson (1995) and Tomlinson (1999a, Ch. 5)

(٤) على الرغم من أن "كاى حافظ Kai Hafez" يلاحظ أن الشريان الرئيسى لتبادل البيانات مستمر فى أن يكون عبر الأطلنطى بين الولايات المتحدة وأوروبا، يؤكد أن ذلك، إذن، ليس تبادلا كونيا حقيقيا.

(٥) على الرغم من ذلك، فإن تحديد كمية استخدام الإنترنت أمر صعب، حيث المرجح أن يقوم عدد من المستخدمين باستخدام وصلة واحدة فى عدد من المنازل وأماكن العمل والمؤسسات ومقاهى الإنترنت.

(٦) كانت بداية مفيدة لجمع مثل هذه المعلومات فى كتاب المقالات الذى حرره "بارى ويلمان Barry Wellman" و"كارولين هاى ثورنويت Caroline Hey Thornwait" بعنوان:"The Internet in Everyday Life" (2002)

(٧) تحدد "پيپا نوريس Pippa Norris" جانبا ثالثا من الانقسام الرقمى، وبالتحديد "الانقسام الديمقراطى"، ومن المؤسف أن هذا الأمر خارج نطاق هذا العمل. (انظر: Norris, 2001).

(٨) الواقع أن عدم كفاية الاتصال التليفونى يمثل مشكلة بالنسبة للمناطق النامية الأخرى؛ لأن ذلك يعوق الوصول إلى مصادر المعلومات .(Tehranian and Tehranian, 1997) .

(٩) على ضوء الصعوبات المستمرة التى يواجهها كثير من الناس فى المجتمعات النامية، فإن النقاط المشار إليها هنا ينبغى ألا تعتبر منطبقة عليهم بشكل عام.

الفصل الرابع

العولمة والثقافة الكونية

(١) يقطع "چون توملينسون John Tomlinson" بأن التجانس الثقافى ليس من المرجح أن يكون الاهتمام الرئيسى للمواطنين العاديين الذين سيكون لديهم هموم يومية أكثر إلحاحا، مثل علاقاتهم الشخصية وأمورهم المالية. (87 ;1991)، وعلى أية حال هناك نقطة مضادة لذلك، فكون المرء قادرا على اختيار ثقافته الخاصة، يعتبر جزءا لا يتجزأ من التمتع بحياة مزدهرة.

(٢) لمناقشة التيوتوية وآثار انتقال الإدارة وأساليب العمل اليابانية إلى الخارج، انظر: Eleger and Smith, (1994).

(٣) على الرغم من ذلك يجب ملاحظة أن الصين تحقق إنجازات ممتازة فى الاتصالات الكونية، فى يناير ٢٠٠٧ كان فى الصين ١٣٧ مليون مستخدم للإنترنت بما يجعلها أكبر مجتمع إلكترونى فى العالم بعد الولايات المتحدة، وفى المقدر أن يفوق عدد المستخدمين فى الصين نظيرهم فى الولايات المتحدة بحلول عام ٢٠٠٩ (Ramesh, 2007) ويتوقع بعض المعلقين أن الإنترنت بالصينية سيكون فى النهاية أكبر من نظيره الإنجليزى.

(٤) أحد هذه الادعاءات أن الرأسمالية الكونية تشجع التقارب الثقافى بإزالتها للتمايزات الثقافية، وهو ما سنتناوله تفصيلا فى الفصل التالى.

(٥) للاطلاع على رد "ڤاليرشتاين" على هذا الاتهام، انظر مقالة: Culture is the World System: A Reply to Boyne, 1990b

(٦) مقارنة بـ "ڤاليرشتاين" يسمح "سكلير" على الأقل بدور أكبر للعامل البشرى فى النظام الكونى، مشيرا إلى أن العولمة يدفعها فاعلون يعملون من خلال مؤسسات يمتلكونها أو يسيطرون عليها أو يمتلكونها ويسيطرون عليها .(2-1 :2001) .

(٧) يعتقد "روبرتسون "Robertson أن مفهوم "جيدنز Giddens" للعولمة غير دقيق تاريخيا، مجادلا بأن "العولمة بنموذجها المعاصر انطلقت قبل وقت طويل عما قد نعرفه بالحداثة" (1992: 170).

(٨) قمت فى كتاب " Living With Globalization" (2006) بدرس التقاطع بين الكونى والمحلى على نحو أكثر تجريبية، وفى سياق أكبر، على ضوء عدد من دراسات الحالة.

(٩) زيجمونت بومان Zygmunt Bauman أحد الكُتاب الآخرين الذين اكتشفوا فقدانا للثقة الغربية بالنفس واضحا، فى التمييز المعاصر بين العالمى والكونى. الأول مرتبط بالمشروع "الفخور" للحداثة، بينما الكونية "على النقيض إذعان ضعيف لما يحدث هناك فى الخارج" .(24 :1995) .

(١٠) كذلك فإن "عولمة" تأتى على صيغة "فعللة"، وقضية دمج العملية بهذه الحالة النهائية لا بد من أن نضعها بالاعتبار عندما نعرض للمناظير النقدية الرئيسية حول العولمة وخاصة الكتابات المتشككة.

(١١) على الرغم من أن "چون بنيون "John Benyon و"ديڤيد دنكرلى David Dunkerley (2003) يعتبران "الكونى" و"المحلى" يمثلان ثنائية غير محددة المعالم، ويستدعيان مفاهيم وسيطة فى تحليل العولمة الثقافية.

الفصل الخامس

العولمة والثقافة القومية

(١) كما سنرى فى الفصل السادس، ليست كل الثقافات القومية مرتبطة بالدول ـ الأمة. "مونتسيرات جيبيرنو Montserrat Guibernau" على سبيل المثال يكتب عن أمم بلا دول مثل الويلزيون والباسك، ولكن التركيز هنا سيكون على العلاقة بين الدولة -الأمة والثقافة القومية.

(٢) باعتبار الاهتمام الرئيسى لهذا الفصل هو تناول الثقافة القومية فى علاقاتها بالعولمة، أكثر منه القيام بفحص واسع لهذه المصطلحات، فإن مثل هذا الانزلاق المفهومى من المرجح أن يكون واضحا هنا، مع اعتبار الثقافة القومية ـ بمعناها الواسع ـ تضم كل هذه العناصر وممثلة بها.

(٣) بحسب "هنتنجتون Huntington" يقدر مكتب الإحصاء الأمريكى أن سكان الولايات المتحدة سيكونون على النحو التالى بحلول عام ٢٠٥٠: ٥٣٪ هسپانيك ـ ١٦٪ ـ سود ١٠٪ أمريكيون آسيويون .(61 :1996) .

(٤) فى إطار الدراسات الثقافية، هناك كُتاب آخرون مهمون، ممن تناولوا قضية الهجنة، من بينهم "آرجون أپادوراى Arjun Appadurai" و"هومى بابا Homi Bhabha" و"نستور جارثيا كانسيلينى Néstor Garcia canclini" و"أولف هانرز Ulf Hannerz"

(٥) للمزيد عن الانتقادات الكثيرة التى وجهت لنظرية الهجنة، انظر: "Brah and Coombes (2000) and Friedman (1995, 1999).

وباعتبار هذا الفصل يركز على الثقافة القومية فلن نعرض هنا طبيعة الجدال بين منظرى الهجنة ونقادهم.

الفصل السادس

العولمة والصراع الثقافى

(١) ينكر "هنتنجتون" أنه يحاول تصوير العولمات باعتبارها كتلاً موحدة، وفى مقابلة معه بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر بوقت قصير، أشار إلى أن "الجزء الرئيسى عن الإسلام كان بعنوان (وعى دون تماسك) حيث أتحدث عن الانقسامات فى العالم الإسلامى، وعن القتال بين المسلمين والمسلمين. حتى فى الأزمة الحالية ما زالوا منقسمين. لديك بليون شخص بتلك الثقافات الفرعية. . القبائل. الإسلام أقل وحدة من أى حضارة أخرى". (Huntington: 2001) .

(٢) على الرغم من ذلك، ينبغى ألا نبالغ فى هذه الفرضية. إذا كان الخروج عن التقليد أو التراث موجودا مثلا، فهو يصف عملية أو توجهًا، نحن لم نتحرك، هكذا ببساطة، إلى ما هو أبعد من التقليد أو التراث لندخل مرحلة ما بعد تراثية. بعبارة أخرى، بينما نحن أكثر انتقادا بشكل عام للمؤسسات والممارسات التقليدية مقارنة حتى بالماضى الحديث، إلا أنها ما زالت مستمرة فى ممارسة نفوذها على معظمنا (Heelas: 1996) .

(٣) على الرغم من ذلك، فإن فكرة كون الولايات المتحدة مبتلاة بـ "حروب الثقافة" لها معارضون كثر. (انظر: Fiorina et al., 2005) ؛ كما أن "آلان وولف "Alan Wolfe فى كتابه: "One Nation After All" الصادر فى ١٩٩٨ يؤكد أن كثيرا من الأمريكيين لا يرون بلادهم هكذا. وتأسيسا على بحث لتوجهات الأمريكيين من الطبقة الوسطى، يكتشف درجة قوية من التسامح والقبول بالثقافات الأخرى. وبينما لا يقدم لنا بحث "وولف" شيئا عن أفكار وقطاعات أخرى من المجتمع الأمريكى، فإنه يفيد فى مواجهة بعض التقييمات الكئيبة للعلاقات الثقافية داخل الولايات المتحدة.

(٤) فى ما يتعلق بالصورة، فإن عملية المسح الواسعة التى قامت بها الحكومة الكويتية فى ٢٠٠٥ تكشف عن أن تصوير المسلمين فى الميديا الأمريكية والأوروبية "كان نمطيا وسلبيا باستمرار"، وذلك إلى حد كبير، بسبب أن الصورة الذهنية للإسلام عند الغرب اختطها متطرفون. (انظر: Feuilherade, 2005)

(٥) الوهابية أو الإسلام الوهابى حركة محافظة ظهرت أول ما ظهرت فى القرن الثامن عشر بهدف تنقية الإسلام وتخليصه من البدع والإضافات التى دخلت عليه منذ وفاة النبى.

هذه الحركة أسسها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ - ١٧٩٢)، هي التي شكلت الذهنية الدينية لأسامة بن لادن. وحيث إن مصطلح "وهابي" غير واضح، يفضل البعض استخدام مصطلح "سلفي" عند وصف جماعات معينة خارج العربية السعودية. (Oliveti 2002)؛ ولكن، كما يشير "چون اسبوزيتو John Espodito" كلا المصطلحين: الوهابي والسلفي يمكن أن يكون مضللا، فهما يستخدمان باعتبارهما مصطلحات "مظلة" تغطي أيديولوچيات وحركات مختلفة" (2002: 106) .

(٦) للمزيد عن الإسلام والتأسلم، انظر: Burgat, 2003

(٧) الشرق الأوسط وأجزاء من آسيا الوسطى بالفعل منفصلة، إلى حد ما، عن جوانب من العولمة الاقتصادية، بينما تدفقات تجارة رأس المال مستمرة بين المناطق الأخرى من العالم، ولكن كما هي الحال دائما فإن الحدس يمكن أن يكون مهما مثل الحقيقة عندما يكون الأمر متعلقا بالعولمة.

(٨) يؤكد "باربر" وآخرون أن القوى القبلية، في هذه المرحلة من التاريخ، أقوى من نظيرتها الكوزموپوليتانية والديمقراطية المبينة هنا، فنشاط المنظمات غير الحكومية العالمية، على سبيل المثال، يظل حكرا على عدد محدود من الناس.

الفصل السابع

العولمة والكوزموبوليتانية

(١) معبرا عن الأساليب المختلفة لاستشراف الكوزموبوليتانية يميز "صمويل شيفلر Samuel Scheffler" (1999) تمييزا مثيرا للاهتمام بين الكوزموبوليتانية "فى مجال العدالة" و"الكوزموبوليتانية فى مجال الثقافة". وبالمثل يميز "چيرمى والدرون" Jermey Waldron (2000)، بين الكوزموبوليتانية فى الثقافة والفكرة الكانطية عن حق كوزموبوليتانى. الأمر مجال جدال لا شك. على نحو آخر: هل بالإمكان أن نعيش على نحو كوزموبوليتانى ثقافيا دون أن يكون لدينا شعور كوزموبوليتانى بالعدالة والأخلاقيات؟

(٢) على الرغم من ذلك، فإن هذه المواجهات الثقافية تثير قضية الأصالة. على نحو أكثر تحديدا ... إلى أى مدى تم تعديل وتكييف هذه الأطعمة والمطابخ والمعتقدات الدينية والموسيقى... إلخ لكى تناسب الأذواق المحلية وتروق لها؟ فى مجال الموسيقى على سبيل المثال، أثيرت شكوك حول ما إذا كان مشاهير الفنانين وموسيقاهم يمثلون مجتمعاتهم وثقافاتهم عن حق؛ وعلى مستوى أعمق هناك قضية ما يمثل الثقافة الحقيقية ـ الأصلية ـ فى إطار العولمة الثقافية، وتلك قصة طويلة تتطلب إفراد كتاب خاص لدرسها.

(٣) مصطلحات هذا المجال محل خلاف شديد. هناك كُتاب مثل "كنج (1990) King" و"ساسين (2001) "Sassen يستخدمون مصطلح "المدينة الكونية" الذى يرى الثانى أنه يمكن تطبيقه ـ فقط ـ على لندن ونيويورك وطوكيو. وهناك كُتاب آخرون يتحدثون عن "مدن عالمية" (Knox, 2002)، وربما عن "مدينية عابرة للحدود القومية" (Smith, 2001). وسوف نستخدم هنا فكرة المدن الكونية لنعنى بها مدنا، غير تلك الثلاث المذكورة، أصبحت مراكز كونية مهمة. كذلك يعبر المصطلح عن تفاوت وعدم اتساق فى مصطلح العولمة ذاته .(Marcuse and Van Kempen, 2000).

(٤) للوقوف على شرح وافٍ لكيفية قيام عمليات العولمة بتدعيم نزعة الفردانية، انظر كتابى: "Rebuilding Communities in an Age of Individualism", (2003) وخاصة الفصل الثالث.

(٥) على الرغم من ذلك فإن مفهوم المجتمع المدنى الكونى يواجه انتقادات كثيرة. انظر على سبيل المثال: (Shaw, 1994).

(٦) على الرغم من ذلك فإن النقاط الموضحة هنا تتطلب أن نوازنها باقتناع أولئك الكُتاب الذين يعتبرون الدول والهويات القومية تحتفظ بحيويتها حتى فى هذه الحقبة المعولمة. (انظر: Smith, 1995) .

(٧) بالطبع، هى ليست بالضرورة الحالة التى تؤدى فيها تكنولوجيات الاتصال العالمية إلى نتائج كوزموپوليتانية أو حتى تستخدم لأهداف كوزموپوليتانية، وكما رأينا فى الفصل السابق فإن القوى غير الكوزموپوليتانية أو المضادة لها مثل جماعات الأقليات العرقية واليمين المتطرف تستخدم كذلك تلك التكنولوچيات.

(٨) يستخلص "أولريخ بيك" نتيجة تخص هذا الجدال حول "العصر الثانى للحداثة" الذى ساعدت الحداثة فى تأكيد أننا ندخله. ويعتبر "بيك" الكوزموپوليتانية حليفا للعولمة؛ حيث إنها تتحدى الدولة ـ الأمة: "العولمة تعنى أن عددا كبيرا متزايدا من العمليات الاجتماعية غير مكترث بالحدود القومية". (2002: 62)، على أن "بيك" يحذر بأن ذلك لا يعنى أننا سنصبح كلنا كوزموپوليتان، بما أن الحركات المضادة سوف تبقى كما هى.

(٩) بالطبع، ليست كل الدول تعمل بهذا الأسلوب. "آمى جوتمان Amy Gutman" مقتنع بأن "معظم الدول لا تعرف، ناهيك عن أن تمارس أى شىء له صلة بحقوق الإنسان" (Gutman: 1996: 66) وهذه نقطة مهمة؛ وفى هذا السياق يرى "چيرار ديلانتى Gerard Delanty" (2000) أن الكوزموپوليتانية لها جذورها فى ما يسميه بالمجتمعات الأهلية.

(١٠) للاطلاع على نقاش مهم حول ما إذا كان سيصبح علينا الالتزام على نحو أكبر بمجتمعاتنا، أكثر من التزامنا بالمجتمع العالمى، انظر: Samuel Scheffler, 1999

(١١) هذه النقطة من وحى مقال "هيلارى پتنام Hilary Putnam " الذى يحمل عنوان: Must we Choose between Patriotism and Universal Reason? (1996).

(١٢) على الرغم من أننا ينبغى ألا ننسى أن الكُتاب المتشككين فى العولمة سوف يرتابون فى طبيعة هذه العمليات وربما ينكرون وجودها.

البيبليوجرافيا

Abu-Lughod, J.L. (1989), *Before European Hegemony: The World-System, 1250–1350*, Oxford: Oxford University Press.

Abu-Lughod, L. (1991), 'Writing against Culture', in R.G. Fox (ed.), *Recapturing Anthropology*, Santa Fe, NM: School of America Research Press.

Adorno, T. (1991), *The Culture Industry*, London: Routledge.

Ajami, F. (1996), 'The Summoning', in *Samuel P. Huntington's The Clash of Civilizations? The Debate*, New York: Foreign Affairs, pp. 26–35.

Al-Ali, N. and Koser, K. (eds) (2001), *New Approaches to Migration?*, London: Routledge.

Albert, M. (1993), *Capitalism against Capitalism*, London: Whurr.

Albrow, M. (1996), *The Global Age*, Cambridge: Polity.

Albrow, M. (1997), 'Travelling Beyond Local Cultures', in J. Eade (ed.), *Living the Global City*, London: Routledge, pp. 37–55.

Alexander, J. (1996), 'Critical Reflections on "Reflexive Modernisation"', *Theory, Culture and Society*, 13, 4, pp. 133–8.

Alexander, J. and Seidman, S. (eds) (1991), *Culture and Society: Contemporary Debates*, New York: Cambridge University Press.

Alibhai-Brown, Y. (2001), 'Ramadan's True Spirit is Threatened', *The Independent*, 19 November.

Alibhai-Brown, Y. (2002), 'Reformist Muslims are Bringing New Hope to Islam', *The Independent*, 9 September.

Alsayyad, N. (ed.) (2001), *Hybrid Urbanism*, Westport, CT: Praeger.

Amin, A. (2001), 'Immigrants, Cosmopolitans and the Idea of Europe', in H. Wallace (ed.), *Interlocking Dimensions of European Integration*, Basingstoke: Palgrave, pp. 280–301.

Amin, S. (1996), 'The Challenge of Globalization', *Review of International Political Economy*, 2.

Amin, S. (1997), *Capitalism in the Age of Globalization*, London: Zed Books.

Anderson, B. (1983), *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*, London: Verso.

Anderson, B. (1994), 'Exodus', *Critical Enquiry*, 20, 2, pp. 314–27.

Anderson, B. (1995), 'Ice Empire and Ice Hockey: Two *Fin de Siècle* Dreams', *New Left Review*, 214, pp. 146–50.

Anderson, K. (1999), 'Clinton: End "Digital Divide"', *BBC News Online*, 9 December, www.bbcnews.co.uk (accessed 17/9/06).

Anderson-Gold, S. (2001), *Cosmopolitanism and Human Rights*, Cardiff: University of Wales Press.

Appadurai, A. (1990), 'Disjuncture and Difference in the Global Cultural Economy', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 295–310.

Appadurai, A. (1996), *Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Appadurai, A. (ed.) (2001), *Globalization*, Durham, NC: Duke University Press.

Appiah, K.A. (1994), 'Identity, Authenticity, Survival', in C. Taylor (ed.), *Multiculturalism: Examining the Politics of Recognition*, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Appiah, K.A. (1996), 'Cosmopolitan Patriots', in M.C. Nussbaum et al., *For Love of Country*, Boston: Beacon Press, pp. 21–9.

Archibugi, D. and Held, D. (eds) (1995), *Cosmopolitan Democracy*, Cambridge: Polity.

Arlidge, J. (2004), 'Forget Black, Forget White: The Future is Generation EA', *The Observer*, 4 January, p. 19.

Armstrong, K. (2001), 'The War We Should Fight', *The Guardian*, 13 October.

Armstrong, K. (2002), 'The Curse of the Infidel', *The Guardian*, 20 June.

Arthur, C. (2006), 'How Is the Blogosphere Doing?' *Guardian Unlimited*, 9 February, www.guardian.co.uk (accessed 24/11/06).

Ash, L. (2002), 'China's Fearful Muslim Minority', *BBC News Online*, 8 January, www.bbc.co.uk (accessed 12/5/06).

Axford, B. (1995), *The Global System*, Cambridge: Polity.

Axtmann, R. (1997), 'Collective Identity and the Democratic Nation-State in the Age of Globalization', in A. Cvetkovich and D. Kellner (eds), *Articulating the Global and the Local*, Boulder, CO: Westview Press, pp. 33–54.

Barber, B. (1996), *Jihad vs. McWorld*, New York: Ballantine.

Barber, B. (2000), 'Jihad vs. McWorld', in P. O'Meara, H.D. Mehlinger and M. Krain (eds), *Globalization and the Challenges of the New Century*, Bloomington: Indiana University Press, pp. 23–33.

Barker, C. (1997), *Global Television*, Oxford: Blackwell.

Barney, D. (2004), *The Network Society*, Cambridge: Polity.

Barraclough, G. (ed.) (1984), *The Times Atlas of World History*, London, Guild.

Barry Jones, R.J. (2000), *The World Turned Upside Down? Globalization and the Future of the State*, Manchester: Manchester University Press.

Bartley, R.L. (1996), 'The Case for Optimism: The West Should Believe in Itself', in *Samuel P. Huntington's The Clash of Civilizations? The Debate*, New York: Foreign Affairs, pp. 41–5.

Basch, L., Schiller, N.G. and Blanc, C.S. (eds) (1994), *Nations Unbound*, Langhorne, PA: Gordon & Breach.

Baudrillard, J. (1983), *Simulations*, New York: Semiotext(e).

Bauman, Z. (1993), *Postmodern Ethics*, Oxford: Blackwell.

Bauman, Z. (1995), *Life in Fragments*, Oxford: Blackwell.

Bauman, Z. (1996a), 'From Pilgrim to Tourist – or A Short History of Identity', in S. Hall and P. du Gay (eds), *Questions of Cultural Identity*, London: Sage, pp. 18–36.

Bauman, Z. (1996b), 'Morality in the Age of Contingency', in P. Heelas et al. (eds), *Detraditionalization*, Oxford: Blackwell, pp. 49–58.

Bauman, Z. (1998a), *Globalization: The Human Consequences*, Cambridge: Polity.

Bauman, Z. (1998b), 'On Glocalisation: Or Globalisation for Some, Localisation for Others', *Thesis Eleven*, 54, pp. 37–49.

Bauman, Z. (2001), *The Individualized Society*, Cambridge: Polity.

Baumann, G. (1996), *Contesting Culture*, Cambridge: Cambridge University Press.

Bayly, C.A. (2002), '"Archaic" and "Modern" Globalization in the Eurasian and African Arena, c.1750–1850', in A.G. Hopkins (ed.), *Globalization in World History*, London: Pimlico, pp. 47–73.

BBC (1998), 'It's a Man's Cyberworld', *BBC News Online*, 27 March, www.bbcnews.co.uk (accessed 17/6/06).

BBC (2000a), 'Is the Web Widening the Poverty Gap?', *BBC News Online*, 29 January, www.bbcnews.co.uk (accessed 12/1/06).

BBC (2000b), 'Indian Net Users Set to Soar', *BBC News Online*, 24 July, www.bbcnews.co.uk (accessed 18/9/06).

BBC (2003), 'Digital Divide Figures Are "Flawed"', *BBC News Online*, 29 January, www.bbcnews.co.uk (accessed 7/1/06).

BBC (2004), 'Global Broadband Keeps Climbing', *BBC News Online*, 6 January, www.bbcnews.co.uk (accessed 12/10/06).

BBC (2005a), 'UK Majority Back Multiculturalism', *BBC News Online*, 10 August, www.bbcnews.co.uk (accessed 2/11/06).

BBC (2005b), 'Blog Reading Explodes in America', *BBC News Online*, 4 January, www.bbcnews.co.uk (accessed 3/10/06).

BBC (2005c), 'Blogging v Dogging', *BBC News Online*, 28 September, www.bbcnews.co.uk (accessed 1/8/06).

BBC (2006), 'Global Fair Trade Sales Taking Off', *BBC News Online*, 28 June, www.bbcnews.co.uk (accessed 12/1/07).

Beaumont, P. (2001), 'The Roots of Islamic Anger', *The Observer*, 14 October.

Beck, U. (1992), *Risk Society: Towards a New Modernity*, London: Sage.

Beck, U. (1997), *The Reinvention of Politics: Rethinking Modernity in the Global Social Order*, Cambridge: Polity.

Beck, U. (1999), *World Risk Society*, Cambridge: Polity.

Beck, U. (2000), *What Is Globalization?*, Cambridge: Polity.

Beck, U. (2002), 'The Cosmopolitan Perspective: Sociology in the Second Age of Modernity', in S. Vertovec and R. Cohen (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press, pp. 61–85.

Beck, U. and Beck-Gernsheim, E. (1996), 'Individualisation and "Precarious Freedoms": Perspectives and Controversies of a Subject-Orientated Society', in P. Heelas et al. (eds), *Detraditionalization*, Oxford: Blackwell, pp. 23–48.

Beck, U., Giddens, A. and Lash, S. (1994), *Reflexive Modernization*, Cambridge: Polity.

Bennison, A.K. (2002), 'Muslim Universalism and Western Globalisation', in A.G. Hopkins (ed.), *Globalization in World History*, London: Pimlico, pp. 74–97.

Bentley, J.H. (1993), *Old World Encounters: Cross-Cultural Contacts and Exchanges in Pre-Modern Times*, Oxford: Oxford University Press.

Berger, P.L. and Huntington, S.P. (eds) (2002), *Many Globalizations*, Oxford: Oxford University Press.

Berger, S. and Dore, R. (eds) (1996), *National Diversity and Global Capitalism*, Ithaca, NY: Cornell University Press.

Berman, M. (1983), *All that is Solid Melts into Air*, London: Verso.

Beynon, J. and Dunkerley, D. (eds) (2000), *Globalization: The Reader*, London: Athlone Press.

Bhabha, H. (1990), *Nation and Narration*, London: Routledge.

Bhabha, H. (1995), *The Location of Culture*, London: Routledge.

Billig, M. (1995), *Banal Nationalism*, London: Sage.

Billington, R., Strawbridge, S., Greensides, L. and Fitzsimmons, A. (1991), *Culture and Society*, Basingstoke: Macmillan.

Blair, T. (1996), *New Britain: My Vision of a Young Country*, London: Fourth Estate.

Boas, F. (1911), *The Mind of Primitive Man*, New York: Macmillan.

Boas, F. (1886), 'The Limitations of the Comparative Method of Anthropology, *Science*, 4, 103.

Bourdieu, P. (1977), *Outline of a Theory of Practice*, Cambridge: Cambridge University Press.

Bourdieu, P. (1990a), *The Logic of Practice*, Cambridge: Polity.

Bourdieu, P. (1990b), *In Other Words: Essays Toward a Reflexive Sociology*, Cambridge: Polity.

Bourdieu, P. (1993), *The Field of Cultural Production*, Cambridge: Polity.

Boyd, C. (2005), 'Persian Blogging around the Globe', *BBC News Online*, 6 March, www.bbcnews.co.uk (accessed 19/1/07).

Boyne, R. (1990), 'Culture and the World-System', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 57–62.

Brah, A. (1996), *Cartographies of Diaspora*, London: Routledge.

Brah, A. and Coombes, A. (eds) (2000), *Hybridity and its Discontents*, London: Routledge.

Breckenridge, C.A., Bhabha, H.K., Pollock, S. and Chakrabarty, D. (eds) (2002), *Cosmopolitanism*, Durham, NC: Duke University Press.

Bredin, M. (1996) 'Transforming Images: Communication Technologies and Cultural Identity in Nishnawbe-Aski', in D. Howes (ed.), *Cross-Cultural Consumption*, London: Routledge, pp. 161–77.

Brenner, N. (1998), 'Global Cities, Glocal States: Global City Formation and State Territorial Restructuring in Contemporary Europe', *Review of International Political Economy*, 5, 1, pp. 1–37.

Brimelow, P. (1995), *Alien Nation: Common Sense about America's Immigration Disaster*, New York: Random House.

Brogan, H. (2001), *The Penguin History of the USA*, 2nd edn, London: Penguin.

Brunn, S. and Leinbach, T. (eds) (1991), *Collapsing Time and Space: Geographic Aspects of Communication and Information*, London: HarperCollins.

Buncombe, A. (2007), 'US Military Tells Jack Bauer: Cut out the Torture Scenes ... or Else!', *Independent Online*, 13 February, www.independent.co.uk (accessed 15/2/07).

Burbach, R., Nuñez, O. and Kagarlitsky, B. (1997), *Globalization and its Discontents*, London: Pluto Press.

Burgat, F. (2003), *Face to Face with Political Islam*, London: I.B. Tauris.

Burke, J. (2003), *Al-Qaeda: Casting a Shadow of Terror*, London: I.B. Tauris.

Calhoun, C. (2002), 'The Class Consciousness of Frequent Travellers: Towards a Critique of Actually Existing Cosmopolitanism', in S. Vertovec and R. Cohen (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press, pp. 86–109.

Callinicos, A. (2003), *An Anti-Capitalist Manifesto*, Cambridge: Polity.

Cameron, A. and Palan, R (2004), *The Imagined Economies of Globalization*, London: Sage.

Carnoy, M. and Castells, M. (2001), 'Globalisation, the Knowledge Society, and the Network State: Poulantzas at the Millennium', *Global Networks*, 1, 1, pp. 1–18.

Castells, M. (1993), 'European Cities, the Information Society and the Global Economy', in A. Gray and J. McGuigan (eds), *Studying Culture*, London: Arnold.

Castells, M. (1996), *The Rise of the Network Society*, vol. 1 of *The Information Age*, Oxford: Blackwell.

Castells, M. (1997a), *The Power of Identity*, vol. 2 of *The Information Age*, Oxford: Blackwell.

Castells, M. (1997b), 'An Introduction to the Information Age', *City*, 7, pp. 1–16.

Castells, M. (1998), *The End of the Millennium*, vol. 3 of *The Information Age*, Oxford: Blackwell.

Castells, M. (2001), *The Internet Galaxy*, Oxford: Oxford University Press.

Castells, M. (2004), 'Informationalism, Networks, and the Network Society: A Theoretical Blueprint', in M. Castells (ed.), *The Network Society: A Cross-Cultural Perspective*, Cheltenham: Edward Elgar, pp. 3–45.

Castells, M. and Ince, M. (2003), *Conversations with Manuel Castells*, Cambridge: Polity.

Castles, S. (1998), 'Globalization and Migration: Some Pressing Contradictions', *International Social Science Journal*, 50, 2, pp. 179–86.

Castles, S. and Miller, M.J. (1998), *The Age of Migration*, 2nd edn, Basingstoke: Macmillan.

Chalaby, J.K. (ed.) (2005), *Transnational Television Worldwide*, London: I.B. Tauris.

Chatterjee, P. (1986), *Nationalist Thought and the Colonial World*, London: Zed Books.

Chavez, L. (1996), 'Multiculturalism is Driving Us Apart', *USA Today*, 124, 2612, pp. 39–41.

Cheah, P. and Robbins, B. (eds) (1998), *Cosmopolitics: Thinking and Feeling beyond the Nation*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Chen, W., Boase, J. and Wellman, B. (2002), 'The Global Villagers: Comparing Internet Users and Uses around the World', in B. Wellman and C. Haythornwaite (eds), *The Internet in Everyday Life*, Oxford: Blackwell, pp. 74–113.

Clark, R.P. (1997), *The Global Imperative: An Interpretative History of the Spread of Humankind*, Boulder, CO: Westview Press.

Clarke, J.J. (1997), *Oriental Enlightenment*, London: Routledge.

Clifford, J. (1988), *The Predicament of Culture*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Clifford, J. (1992), 'Travelling Cultures', in L. Grossberg, C. Nelson and P. Treichler (eds), *Cultural Studies*, London: Routledge, pp. 96–116.

Clifford, J. (1997), *Routes: Travel and Translation in the Late Twentieth Century*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Cohen, R. (1997), *Global Diasporas: An Introduction*, London: Routledge.

Connor, W. (1978), 'A Nation is a Nation, is a State, is an Ethnic Group, is a ...', *Ethnic and Racial Studies*, 1, 4, pp. 379–88.

Cooper, F. (2001), 'What is the Concept of Globalization Good for? An African Historian's Perspective', *African Affairs*, 1000, pp. 189–213.

Cowen, N. (2001), *Global History: A Short Overview*, Cambridge: Polity.

Crane, D. (ed.) (1994), *The Sociology of Culture: Emerging Theoretical Perspectives*, Oxford: Blackwell.

Crick, M. (1989), 'Representations of International Tourism in the Social Sciences', *Annual Review of Anthropology*, 18.

Crystal, D. (1995), *The Cambridge Encyclopaedia of the English Language*, Cambridge: Cambridge University Press.

Crystal, D. (2003), *English as a Global Language*, 2nd edn, Cambridge: Cambridge University Press.

Curtin, P.D. (1984), *Cross-Cultural Trade in World History*, Cambridge: Cambridge University Press.

Cvetkovich, A. and Kellner, D. (eds) (1997), *Articulating the Global and the Local*, Boulder, CO: Westview Press.

Dalby, A. (2000), *Empire of Pleasures: Luxury and Indulgence in the Roman World*, London: Routledge.

Dalrymple, W. (2001), 'Jesus the Prophet', *The Guardian*, 22 December.

Dawood, N.J. (trans.) (1997), *The Koran*, London: Penguin.

Dawoud, K. (2002), 'Egypt Terror Leaders Renounce Violence', *The Guardian*, 2 August.

Deibert, R.J. (1997), *Parchment, Printing, and Hypermedia*, New York: Columbia University Press.

Delanty, G. (1996), 'Beyond the Nation-State: National Identity and Citizenship in a Multicultural Society – A Response to Rex', *Sociological Research Online*, 1, 3, www.socresonline.org.uk/socresonline/1/3/1 (accessed 3/9/05).

Delanty, G. (2000), *Citizenship in a Global Age*, Buckingham: Open University Press.

Delanty, G. and O'Mahony, P. (2002), *Nationalism and Social Theory*, London: Sage.

De Swaan, A. (1991), 'Notes on the Emerging Global Language System: Regional, National and Supranational', *Media, Culture and Society*, 13.

De Swaan, A. (2001), *Words of the World*, Cambridge: Polity.

Dodd, V. (2004), '90% of Whites Have Few or No Black Friends', *The Guardian*, 19 July, p. 1.

Douglass, M. (1994), 'Culture and the City in East Asia: A Perspective for the 21st Century', *International Conference on Cities in Transition: Towards a Creative and Cooperative Order*, Seoul Development Institute, November.

Dower, N. (1998), *World Ethics: The New Agenda*, Edinburgh: Edinburgh University Press.

Doyal, L. and Gough, I. (1991), *A Theory of Human Need*, Basingstoke: Macmillan.

Drahos, P. and Braithwaite, J. (2002), *Information Feudalism*, London: Earthscan.

Drahos, P. and Mayne, R. (eds) (2002), *Global Intellectual Property Rights*, Basingstoke: Palgrave.

Dunkerley, D. et al. (2002), *Changing Europe: Identities, Nations and Citizens*, London: Routledge.

Dunn, J. (ed.) (1995), *Contemporary Crisis of the Nation-State?*, Oxford: Blackwell.

Eade, J. (ed.) (1997), *Living the Global City: Globalization as Local Process*, London: Routledge.

Eagleton, T. (1991), *Ideology: An Introduction*, London: Verso.

Eagleton, T. (2000), *The Idea of Culture*, Oxford: Blackwell.

Eckes, A.E., Jr. and Zeiler, T.W. (2003), *Globalization and the American Century*, Cambridge: Cambridge University Press.

The Economist (2000), 'The New Americans', 11 March, pp. 1–18.
Eisenstadt, S.N. (ed.) (2002), *Multiple Modernities*, New Brunswick, NJ: Transaction Books.
Eisenstadt, S.N. (2003), *Comparative Civilizations and Multiple Modernities*, vols 1 and 2, Leiden: Brill.
Eisenstein, Z. (1998), *Global Obscenities: Patriarchy, Capitalism and the Lure of Cyberfantasy*, New York: New York University Press.
Elger, T. and Smith, C. (eds) (1994), *Global Japanization?*, London: Routledge.
Elliott, J.H. (1970), *The Old World and the New, 1492–1650*, Cambridge: Cambridge University Press.
Elliott, L. (2004), 'Blake's Big Brother', *The Guardian*, 10 July, p. 23.
Eriksen, T.H. (1995), *Small Places, Large Issues: An Introduction to Social and Cultural Anthropology*, London: Pluto Press.
Eriksen, T.H. (1997), 'Multiculturalism, Individualism and Human Rights: Romanticism, the Enlightenment and Lessons from Mauritius', in R.A. Wilson (ed.), *Human Rights, Culture and Context*, London: Pluto Press, pp. 49–69.
Eriksen, T.H. (ed.) (2003), *Globalisation: Studies in Anthropology*, London, Pluto Press.
Escobar, A. (1995), *Encountering Development*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Esposito, J.L. (2002), *Unholy War: Terror in the Name of Islam*, Oxford: Oxford University Press.
Etzioni, A. (1997), 'Other Americans Help Break Down Racial Barriers', *International Herald Tribune*, 10 May.
Fagan, B.M. (1990), *The Journey from Eden: The Peopling of our World*, London: Thames & Hudson.
Falk, R. (1995), 'The World Order between Inter-State Law and the Law of Humanity: The Role of Civil Society Institutions', in D. Archibugi and D. Held (eds), *Cosmopolitan Democracy*, Cambridge: Polity, pp. 163–79.
Falk, R. (1996), 'Revisioning Cosmopolitanism', in M.C. Nussbaum et al. (eds), *For Love of Country*, Boston: Beacon Press, pp. 53–60.
Falk, R. (1999), *Predatory Globalization*, Cambridge: Polity.
Favell, A. (2001), 'Migration, Mobility and Globaloney: Metaphors and Rhetoric in the Sociology of Globalisation', *Global Networks*, 1, 4, pp. 389–98.
Featherstone, M. (ed.) (1990), *Global Culture*, London: Sage.
Featherstone, M. (1995), *Undoing Culture*, London: Sage.
Featherstone, M. and Lash, S. (1995), 'Globalization, Modernity and the Spatialization of Social Theory: An Introduction', in M. Featherstone et al. (eds), *Global Modernities*, London: Sage, pp. 1–24.
Featherstone, M. and Lash, S. (eds) (1999), *Spaces of Culture: City, Nation, World*, London: Sage.

Featherstone, M., Lash, S. and Robertson, R. (eds) (1995), *Global Modernities*, London: Sage.

Ferguson, Y.H. (2006), 'The Crisis of the State in a Globalizing World', *Globalizations*, 3, 1, pp. 5–8.

Fernández-Armesto, F. (1996), *Millennium*, London: Black Swan.

Ferro, M. (1997), *Colonization: A Global History*, London: Routledge.

Feuilherade, P. (2005), 'Extremists "Hijack Islam's image"', *BBC Monitoring*, 15 November, www.bbcnews.co.uk (accessed 6/11/06).

Fieldhouse, D.K. (1961), '"Imperialism": An Historiographical Revision', *Economic History Review*, 14, pp. 187–209.

Fiorina, M.P. with Abrams, S.J. and Pope, J.C. (2005), *Culture War? The Myth of a Polarized America*, New York: Pearson Longman.

Frank, A.G. (1998), *Re-Orient: Global Economy in the Asian Age*, Berkeley: University of California Press.

Frank, A.G. and Gills, B.K. (eds) (1996), *The World System*, London: Routledge.

Freedland, J. (2002), 'What Really Changed', *The Guardian*, 4 September.

Friedman, E. (1999), 'Reinterpreting the Asianisation of the World and the Role of the State in the Rise of China', in D.A. Smith et al. (eds), *States and Sovereignty in the Global Economy*, London: Routledge, pp. 246–63.

Friedman, J. (1990), 'Being in the World: Globalization and Localization', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 311–28.

Friedman, J. (1994), *Cultural Identity and Global Process*, London: Sage.

Friedman, J. (1995), 'Global System, Globalization and the Parameters of Modernity', in M. Featherstone, S. Lash and R. Robertson (eds), *Global Modernities*, London: Sage, pp. 69–90.

Friedman, J. (1999), 'The Hybridisation of Routes and the Abhorrence of the Bush', in M. Featherstone and S. Lash (eds), *Spaces of Culture*, London: Sage, pp. 230–56.

Fukuyama, F. (1992), *The End of History and the Last Man*, New York: Free Press.

Fuller, G. and Lesser, I. (1995), *A Sense of Siege: The Geopolitics of Islam and the West*, Boulder, CO: Westview Press.

García Canclini, N. (1995), *Hybrid Cultures*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Gearhart, S. (2005), 'Inclusions: Psychoanalysis, Transnationalism, and Minority Cultures', in F. Lionnet and S. Shih (eds), *Minor Transnationalism*, Durham, NC: Duke University Press, pp. 27–40.

Geertz, C. (ed.) (1963), *Old Societies and New States*, New York: Free Press.

Geertz, C. (1973), *The Interpretation of Cultures*, New York: Basic Books.

Geertz, C. (1980), *Negara*, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Gellner, E. (1983), *Nations and Nationalism*, Oxford: Blackwell.

Gessner, V. and Schade, A. (1990), 'Conflicts of Culture in Cross-Border Legal Relations: The Conception of a Research Topic in the Sociology of Law', in M. Featherstone (ed.) (1990), *Global Culture*, London: Sage, pp. 253–79.

Giddens, A. (1990), *The Consequences of Modernity*, Cambridge: Polity.

Giddens, A. (1994), *Beyond Left and Right*, Cambridge: Polity.

Giddens, A. (1999), *Runaway World: How Globalisation is Reshaping our Lives*, London: Profile Books.

Gills, B.K. and Thompson, W.R. (eds) (2006), *Globalisation and Global History*, London: Routledge.

Gilpin, R. (1987), *The Political Economy of International Relations*, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Gilroy, P. (1993), *The Black Atlantic*, London: Verso.

Glazer, N. (1997), *We Are All Multiculturalists Now*, Cambridge, MA: Harvard University Press.

Goodenough, W. (1989), 'Culture: Concept and Phenomenon', in M. Freilich (ed.), *The Relevance of Culture*, New York: Bergin & Garvey.

Gowan, P. (2001), 'Neoliberal Cosmopolitanism', *New Left Review*, 11, pp. 79–93.

Graham, S. and Marvin, S. (2001), *Splintering Urbanism*, London: Routledge.

Gray, J. (2003), *Al Qaeda and What it Means to be Modern*, London: Faber & Faber.

Green, D.M. (2000), 'The End of Identity? The Implications of Postmodernity for Political Identification', *Nationalism and Ethnic Politics*, 6, 3, pp. 68–90.

Greider, W. (1997), *One World, Ready or Not: The Manic Logic of Global Capitalism*, London: Penguin.

Griffiths, I.L. (1995), *The African Inheritance*, London: Routledge.

Guardian Unlimited (2003), 'Across the Great Divide', 10 December, www.guardian.co.uk (accessed 22/11/06).

Guéhenno, J.-M. (1995), *The End of the Nation-State*, Minneapolis: University of Minnesota Press.

Guerrina, R. (2002), *Europe: History, Ideas and Ideologies*, London: Arnold.

Guibernau, M. (1999), *Nations without States*, Cambridge: Polity.

Gupta, A. and Ferguson, J. (2002), 'Beyond "Culture": Space, Identity, and the Politics of Difference', in J. Xavier Inda and R. Rosaldo (eds), *The Anthropology of Globalization: A Reader*, Oxford: Blackwell, pp. 65–80.

Gutmann, A. (1996), 'Democratic Citizenship', in J. Cohen (ed.), *For Love of Country: Debating the Limits of Patriotism*, Boston: Beacon Press, pp. 66–71.

Habermas, J. (1984), *The Theory of Communicative Action*, vol. 1, Boston: Beacon Press.

Hafez, K. (2007), *The Myth of Media Globalization*, Cambridge: Polity.

Hall, S. (1992), 'The Question of Cultural Identity', in S. Hall, D. Held and T. McGrew (eds), *Modernity and its Futures*, Cambridge: Polity, pp. 273–316.

Hall, S. (1996), 'Who Needs Identity?', in S. Hall and P. du Gay (eds), *Questions of Cultural Identity*, London: Sage, pp. 1–17.

Halliday, F. (1996), *Islam and the Myth of Confrontation*, London: I.B. Tauris.

Hamelink, C.J. (1983), *Cultural Autonomy in Global Communications*, London: Longman.
Hannerz, U. (1987), 'The World in Creolisation', *Africa*, 57, 4, pp. 546–59.
Hannerz, U. (1989a), 'Culture between Centre and Periphery: Toward a Macroanthropology', *Ethnos*, 54, pp. 200–16.
Hannerz, U. (1989b), 'Notes on the Global Ecumene', *Public Culture*, 1, 2, pp. 66–75.
Hannerz, U. (1990), 'Cosmopolitans and Locals in World Culture', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 237–51.
Hannerz, U. (1991), 'Scenarios for Peripheral Cultures', in A.D. King (ed.), *Culture, Globalisation and the World System*, London: Macmillan, pp. 107–28.
Hannerz, U. (1992a), *Cultural Complexity*, New York: Columbia University Press.
Hannerz, U. (1992b), 'The Global Ecumene as a Network of Networks', in A. Kuper (ed.), *Conceptualising Society*, London: Routledge, pp. 34–56.
Hannerz, U. (1996), *Transnational Connections*, London: Routledge.
Hannerz, U. (2003), 'Special Issue Devoted to the Work of Ulf Hannerz', *Global Networks*, 3, 3.
Harman, C. (1996), 'Globalisation: A Critique of a New Orthodoxy', *International Socialism*, 73, pp. 3–33.
Harries, O. (1994), 'Power and Civilization', *National Interest*, no. 35.
Harrison, L.E. and Huntington S.P. (eds) (2000), *Culture Matters*, New York: Basic Books.
Harvey, D. (1989), *The Condition of Postmodernity*, Oxford: Blackwell.
Hay, C. and Marsh, D. (eds) (2001), *Demystifying Globalization*, Basingstoke: Palgrave.
Headrick, D.R. (1988), *The Tentacles of Progress: Technology Transfer in the Age of Imperialism, 1850–1940*, Oxford: Oxford University Press.
Heater, D. (2003), *World Citizenship: Cosmopolitan Thinking and its Opponents*, London: Continuum.
Heelas, P. (1996), 'Introduction: Detraditionalization and its Rivals', in P. Heelas et al. (eds), *Detraditionalization*, Oxford: Blackwell, pp. 1–20.
Heelas, P., Lash, S. and Morris, P. (eds) (1996), *Detraditionalization*, Oxford: Blackwell.
Held, D. (1995), *Democracy and the Global Order*, Cambridge: Polity.
Held, D. (2004), *Global Covenant*, Cambridge: Polity.
Held, D. and Koenig-Archibugi, M. (2003), *Taming Globalization*, Cambridge: Polity.
Held, D. and McGrew, A. (eds) (2000), *The Global Transformations Reader*, Cambridge: Polity.
Held, D. and McGrew, A. (eds) (2002a), *Governing Globalization*, Cambridge: Polity.
Held, D. and McGrew, A. (2002b), *Globalization/Anti-Globalization*, Cambridge: Polity.

Held, D., McGrew, A., Goldblatt, D. and Perraton, J. (1999), *Global Transformations*, Cambridge: Polity.
Helleiner, E. (1997), 'Braudelian Reflections on Economic Globalization: The Historian as Pioneer', in S. Gill and J. Mittleman (eds), *Innovation and Transformation in International Studies*, Cambridge: Cambridge University Press, pp. 90–104.
Hendy, D. (2000), *Radio in the Global Age*, Cambridge: Polity.
Hepworth, M. (1989), *The Geography of the Information Economy*, London: Belhaven Press.
Herman, E. and McChesney, R. (1997), *The Global Media*, London: Cassell.
Hermida, A. (2006), 'Young Challenge Mainstream Media', *BBC News Online*, 3 May, www.bbcnews.co.uk (accessed 3/11/06).
Hewitt, D. (2000), 'China Clampdown on Muslim Region', *BBC News Online*, 29 May, www.bbcnews.co.uk (accessed 4/11/05).
Hiebert, D. (2002), 'Cosmopolitanism at the Local Level: The Development of Transnational Neighbourhoods', in S. Vertovec and R. Cohen (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press, pp. 209–23.
Hirst, P. and Thompson, G. (1996), *Globalization in Question*, Cambridge: Polity.
Hirst, P. and Thompson, G. (2000), 'Global Myths and National Policies', in B. Holden (ed.), *Global Democracy: Key Debates*, London: Routledge, pp. 47–59.
Hobsbawm, E. (1987), *The Age of Empire, 1875–1914*, London: Weidenfeld & Nicolson.
Hobsbawm, E. (1992), *Nations and Nationalism since 1780*, Cambridge: Cambridge University Press.
Hobsbawm, E. and Ranger, T.O. (eds) (1983), *The Invention of Tradition*, Cambridge: Cambridge University Press.
Holmes, D. (ed.) (1997), *Virtual Politics: Identity and Community in Cyberspace*, London: Sage.
Holton, R.J. (1998), *Globalisation and the Nation-State*, Basingstoke: Macmillan.
Holton, R.J. (2000), 'Globalisation's Cultural Consequences', *Annals of the American Academy of Political and Social Sciences*, 570, pp. 140–52.
Holton, R.J. (2005), *Making Globalisation*, Basingstoke: Palgrave.
Hopkins, A.G. (ed.) (2002), *Globalization in World History*, London: Pimlico.
Hopper, P. (2003), *Rebuilding Communities in an Age of Individualism*, Aldershot: Ashgate.
Hopper, P. (2004), 'Who Wants to Be a European? Community and Identity in the European Union', *Human Affairs*, 14, pp. 141–51.
Hopper, P. (2006), *Living with Globalisation*, Oxford: Berg.
Horrigan, J. and Raine, L. (2002), *The Broadband Difference: How Online Behavior Changes with High-Speed Internet Connections*, Washington, DC: Pew Internet and American Life Project.

Horsman, M. and Marshall, A. (1995), *After the Nation-State: Citizens, Tribalism and the New World Disorder*, London: HarperCollins.

Hsü, I.C.Y. (1995), *The Rise of Modern China*, 5th edn, Oxford: Oxford University Press.

Hunter, J.D. (1991), *Culture Wars: The Struggle to Define America*, New York: Basic Books.

Hunter, J.D. and Yates, J. (2002), 'In the Vanguard of Globalization: The World of American Globalizers', in P.L. Berger and S.P. Huntington (eds), *Many Globalizations*, Oxford: Oxford University Press, pp. 323–57.

Huntington, S.P. (1993), 'The Clash of Civilizations', *Foreign Affairs*, 72, 3, pp. 22–49.

Huntington, S.P. (1996), 'If Not Civilizations, What?', in *Samuel P. Huntington's The Clash of Civilizations? The Debate*, New York: Foreign Affairs, pp. 56–67.

Huntington, S.P. (1997), *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*, London: Touchstone.

Huntington, S.P. (2001), 'So, Are Civilizations at War?', interview by Michael Steinberger, *The Observer*, 21 October.

Huntington, S.P. (2004), *Who Are We? America's Great Debate*, New York: Free Press.

Hutchinson, J. (2005), *Nations as Zones of Conflict*, London: Sage.

Inglis, F. (1993), *Cultural Studies*, Oxford: Blackwell.

Ingold, T. (1994), 'Introduction to Culture', in T. Ingold (ed.), *Companion Encyclopedia of Anthropology: Humanity, Culture and Social Life*, London: Routledge.

ITU (1994), *Direction of Traffic: International Telephone Traffic 1994*, Geneva: International Telecommunication Union.

ITU (2003), *ITU Internet Reports: Birth of Broadband*, Geneva: International Telecommunication Union.

ITU (2006), 'Key Global Telecom Indicators for the World Telecommunication Service Sector', International Telecommunication Union, www.itu.int (accessed 10/9/06).

Iwabuchi, K. (2002), *Recentering Globalization: Popular Culture and Japanese Transnationalism*, Durham, NC: Duke University Press.

Jackson, P., Crang, P. and Dwyer, C. et al. (eds) (2003), *Transnational Spaces*, London: Routledge.

Jacquin, D., Oros, A. and Verweij, M. (1993), 'Culture in International Relations', *Millennium*, 22, 3, pp. 375–77.

Jameson, F. and Miyoshi, M. (eds) (1998), *The Cultures of Globalization*, Durham, NC: Duke University Press.

Jenkins, B.M. (2001), 'The Organization Men: Anatomy of a Terrorist Attack', in J.F. Hoge and G. Rose (eds), *How Did This Happen?*, Oxford: Public Affairs, pp. 1–14.

Jones, S.G. (ed.) (1997), *Virtual Culture: Identity and Communication in Cybersociety*, London: Sage.
Jones, S.G. (ed.) (1998), *CyberSociety 2.0*, London: Sage.
Judah, T. (2002), 'Via TV and the Net, Iran's Youth Plot Social Revolution', *The Observer*, 25 August.
Julius, D. (1990), *Global Companies and Public Policy*, London: Pinter.
Kagan, R. (2003), *Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*, London: Atlantic Books.
Kaldor, M. (2003), *Global Civil Society*, Cambridge: Polity.
Katz, J.E. and Aakhus, M. (eds) (2002), *Perpetual Contact*, Cambridge: Cambridge University Press.
Katz, J.E. and Rice, R. (2002), 'Synoptia: Access, Civic Involvement, and Social Interaction on the Net', in B. Wellman and C. Haythornwaite (eds), *The Internet in Everyday Life*, Oxford: Blackwell, pp. 114–38.
Kavolis, V. (1988), 'Contemporary Moral Cultures and the "Return of the Sacred"', *Sociological Analysis*, 49, 3.
Keane, J. (2003), *Global Civil Society?*, Cambridge: Cambridge University Press.
Kearney, M. (1995), 'The Local and the Global: The Anthropology of Globalisation and Transnationalism', *Annual Review of Anthropology*, 24, pp. 547–65.
Kearney, M. (1996), *Reconceptualizing the Peasantry: Anthropology in Global Perspective*, Boulder, CO: Westview Press.
Keck, M. and Sikkunk, K. (1998), *Activists beyond Borders*, Ithaca, NY: Cornell University Press.
Keesing, R.M. (1974), 'Theories of Culture', *Annual Review of Anthropology*, 3, pp. 73–97.
Keesing, R.M. (1994), 'Theories of Cultures Revisited', in R. Borofsky (ed.), *Assessing Cultural Anthropology*, New York: McGraw-Hill.
Kellas, J.G. (1991), *The Politics of Nationalism and Ethnicity*, Basingstoke: Macmillan.
Kelly, G. (ed.) (1999), *The New European Left*, London: Fabian Society.
Kennedy, P. and Roudometof, V. (eds) (2002), *Communities across Borders*, London: Routledge.
Keohane, R.O. (1995), 'Hobbes' Dilemma and Institutional Change in World Politics: Sovereignty in International Society', in H.-H. Holm and G. Sorensen (eds), *Whose World Order? Uneven Globalization and the End of the Cold War*, Boulder, CO: Westview Press, pp. 165–86.
Kepel, G. (2002), *Jihad: The Trail of Political Islam*, trans. A.F. Roberts, London: I.B. Tauris.
Khazanov, A.M. (1994), *Nomads and the Outside World*, Madison: University of Wisconsin Press.
Kiernan, V.G. (1988), *The Lords of Humankind*, London: Cresset Library.

King, A.D. (1990), *Global Cities*, London: Routledge.
King, A.D. (1995), 'The Times and Spaces of Modernity (or Who Needs Postmodernism?)', in M. Featherstone et al. (eds), *Global Modernities*, London: Sage, pp. 108–23.
Kivisto, P. (2002), *Multiculturalism in a Global Society*, Oxford: Blackwell.
Klein, N. (2000), *No Logo*, London: Flamingo.
Kline, D. and Burstein, D. (eds) (2005), *Blog!*, New York: CDS Books.
Knox, P.L. (2002), 'World Cities and the Organization of Global Space', in R.J. Johnson, P.J. Taylor and M.J. Watts (eds), *Geographies of Global Change*, 2nd edn, Oxford: Blackwell, pp. 328–39.
Kogut, B. (ed.) (2004), *The Global Internet Economy*, London: MIT Press.
Kotkin, J. (1992), *Tribes: How Race, Religion, and Identity Determine Success in the New Global Economy*, New York: Random House.
Kuper, A. (1999), *Culture: The Anthropologists' Account*, Cambridge, MA: Harvard University Press.
Kymlicka, W. and Straehle, C. (1999), 'Cosmopolitanism, Nation-States, and Minority Nationalism: A Critical Review of Recent Literature', *European Journal of Philosophy*, 7, 1, pp. 65–88.
Lak, D. (1999), 'Analysis: Chronic Instability of Indian Politics', *BBC News Online*, 18 April.
Lapham, L.H. (1992), 'Who and What is American?', *Harper's*, January, 43.
Lash, S. (2000), 'Risk Culture', in B. Adam, U. Beck and J. van Loon (eds), *The Risk Society and Beyond*, London: Sage, pp. 47–62.
Lash, S. and Lury, C. (2007), *Global Culture Industry: The Mediation of Things*, Cambridge: Polity.
Lash, S. and Urry, J. (1987), *The End of Organized Capitalism*, Cambridge: Polity.
Lash, S. and Urry, J. (1994), *Economies of Signs and Space*, London: Sage.
Latouche, S. (1996), *The Westernization of the World*, Cambridge: Polity.
Lelic, S. (2006), 'Brand Awareness', *Guardian Online*, 28 April.
Lesser, J. (ed.) (2003), *Searching for Home Abroad*, Durham, NC: Duke University Press.
Lévi-Strauss, C. (1969), *The Raw and the Cooked: Introduction to a Science of Mythology*, New York: Harper & Row.
Levitt, P. (2001), *The Transnational Villagers*, Berkeley: University of California Press.
Lima Costa, C. de (1999), 'Between North and South: Travelling Feminisms and Homeless Women', in D. Slater and P.J. Taylor (eds), *The American Century*, Oxford: Blackwell, pp. 298–316.
Linger, D.T. (2003), 'Do Japanese Brazilians Exist?', in J. Lesser (ed.), *Searching for Home Abroad*, Durham, NC: Duke University Press, pp. 201–14.
Lowe, L. and Lloyd, D. (eds) (1997), *The Politics of Culture in the Shadow of Capital*, Durham, NC: Duke University Press.

Luke, T.W. (1995), 'New World Order or Neo-World Orders: Power, Politics and Ideology in Informationalizing Glocalities', in M. Featherstone et al. (eds), *Global Modernities*, London: Sage, pp. 91–107.
Lull, J. (2000), *Media, Communication, Culture: A Global Approach*, 2nd edn, Cambridge: Polity.
Lury, C. (1996), *Consumer Culture*, Cambridge: Polity.
Lury, C. (1997), 'The Objects of Travel', in C. Rojek and J. Urry (eds), *Touring Cultures*, London: Routledge, pp. 75–95.
Lynch, M.D. (1997), 'Information Highways', in Y. Courrier and A. Large (eds), *World Information Report 1997/98*, Paris: UNESCO, pp. 258–303.
Lyon, D. (1988), *The Information Society*, Cambridge: Polity.
Maalouf, A. (2000), *On Identity*, London: Harvill.
McBride, S. (1980), *Many Voices, One World*, Paris: UNESCO.
McClintock, A. (1996), '"No Longer in a Future Heaven": Nationalism, Gender and Race', in G. Eley and R.G. Suny (eds), *Becoming National: A Reader*, Oxford: Oxford University Press, pp. 260–85.
Macfie, A.L. (2000), *Orientalism: A Reader*, Edinburgh: Edinburgh University Press.
Mackay, H. (2000), 'The Globalization of Culture?', in D. Held (ed.), *A Globalizing World?*, London: Routledge, pp. 47–84.
MacKenzie, J.M. (1983), *The Partition of Africa, 1880–1900*, London: Methuen.
MacKenzie, J.M. (1995), *Orientalism: History, Theory and the Arts*, Manchester: Manchester University Press.
McLuhan, M. and Fiore, Q. (1967), *The Medium is the Message*, Harmondsworth: Penguin.
McNeill, W.H. (1963), *The Rise of the West: A History of the Human Community*, Chicago: University of Chicago Press.
McNeill, W.H. (1979), *Plagues and Peoples*, London: Penguin.
McNeill, W.H. (1986), *Polyethnicity and National Unity in World History*, Toronto: Toronto University Press.
McPhail, T.L. (2006), *Global Communication: Theories, Stakeholders, and Trends*, 2nd edn, Oxford: Blackwell.
Makiya, K. (2001), 'Fighting Islam's Ku Klux Klan', *The Observer*, 7 October.
Mann, M. (1986), *The Sources of Social Power*, vol. 1: *A History of Power from the Beginning to AD 1760*, Cambridge: Cambridge University Press.
Mann, M. (1997), 'Has Globalization Ended the Rise and Rise of the Nation-State?' *Review of International Political Economy*, 4.
Mar, P. (1998), 'Just the Place is Different: Comparisons of Place and Settlement Practices of Some Hong Kong Migrants in Sydney', *Australian Journal of Anthropology*, 9, 1.
Martin-Barbero, J. (1993), *Communication, Culture and Hegemony*, London: Sage.
Marcuse, P. and van Kempen, R. (2000), *Globalizing Cities*, Oxford: Blackwell.
Massey, D. (1994), *Space, Place and Gender*, Cambridge: Polity.
Massey, D. (2005), *For Space*, London: Sage.

Mattelart, A. and Siegelaud, A. (eds) (1978), ***Communication and Class Struggle***, New York: International General.
Mattelart, A., Delacourt, X. and Mattelart, M. (1984), ***International Image Markets***, London: Comedia.
May, C. (2002), *The Information Society*, Cambridge: Polity.
Mayer-Schönberger, V. and Hurley, D. (2000), 'Globalization of Communication', in J.S. Nye and J.D. Donahue (eds), *Governance in a Globalizing World*, Washington, DC: Brookings Institution, pp. 135–51.
Maylam, P. (1986), *A History of the African People of South Africa*, London: Croom Helm.
Mazlish, B. and Buultjens, R. (eds) (1993), *Conceptualizing Global History*, Boulder, CO: Westview Press.
Mehendale, S. and Atabaki, T. (2005), *Central Asia and the Caucasus: Transnationalism and Diaspora*, London: Routledge.
Melucci, A. (1989), *Nomads of the Present: Social Movements and Individual Needs in Contemporary Society*, London: Hutchinson Radius.
Merelman, R. (1994), 'Racial Conflict and Cultural Politics in the United States', *Journal of Politics*, 5, 1, pp. 1–21.
Merry, S.E. (1997), 'Legal Pluralism and Transnational Culture: The *Ka Ho'okolokolonui Kananka Maoli* Tribunal, Hawai'i, 1993', in R.A. Wilson (ed.), *Human Rights, Culture and Context*, London: Pluto Press, pp. 28–48.
Meyer, B. and Geschiere, P. (eds) (1999), *Globalization and Identity*, Oxford: Blackwell.
Miles, R. (1994), 'Explaining Racism in Contemporary Europe', in A. Rattansi and S. Westwood (eds), *Racism, Modernity and Identity on the Western Front*, Cambridge: Polity, pp. 189–221.
Millar, F. et al. (1967), *The Roman Empire and its Neighbours*, London: Weidenfeld & Nicolson.
Miller, D. (ed.) (1995), *Acknowledging Consumption*, London: Routledge.
Minges, M. (2006), 'Tracking ICTs: World Summit on the Information Society Targets', *2006 Information and Communications for Development: Global Trends and Policies*, Washington, DC: World Bank, pp. 125–46.
Mohammad, M. (2001), *Islam and the Muslim Ummah*, Putrajaya, Malaysia: Prime Minister's Office.
Monaci, M., Magatti, M. and Caselli, M. (2003), 'Network, Exposure and Rhetoric: Italian Occupational Fields and Heterogeneity in Constructing the Globalised Self', *Global Networks*, 3, 4, pp. 457–80.
Morley, D. and Robins, K. (1995), *Spaces of Identity: Global Media, Electronic Landscapes and Cultural Boundaries*, London: Routledge.
Morris, N. and Waisbord, S. (eds) (2001), *Media and Globalization*, Lanham, MD: Rowman & Littlefield.
Mowlana, H. (1997), *Global Information and World Communication*, 2nd edn, London: Sage.

Mozfarri, M. (ed.) (2002), *Globalization and Civilizations*, London and New York: Routledge.
Munch, R. and Smelser, N.J. (eds) (1992), *Theory of Culture*, Berkeley: University of California Press.
Nas, P.J.M. and Houweling, A.J. (1998), 'The Network Metaphor: An Assessment of Castells' Network Society Paradigm', *Journal of Social Sciences*, 2, 4, pp. 221–32.
Nederveen Pieterse, J. (1994), 'Unpacking the West: How European is Europe', in A. Rattansi and S. Westwood (eds), *Racism, Modernity and Identity on the Western Front*, Cambridge: Polity, pp. 129–49.
Nederveen Pieterse, J. (1998), 'Hybrid Modernities: Mélange Modernities in Asia', *Sociological Analysis*, 1, 3, pp. 75–86.
Nederveen Pieterse, J. (ed.) (2000), *Global Futures*, London: Zed Books.
Nederveen Pieterse, J. (2004), *Globalization and Culture*, Lanham, MD: Rowman & Littlefield.
Newhouse, J. (1998) 'Europe's Rising Regionalism', *A New Europe? A Foreign Affairs Reader*, New York: Council on Foreign Relations, pp. 19–36.
Nie, N. and Erbring, L. (2000), *Internet and Society: A Preliminary Report*, Stanford, CA: Stanford Institute for the Quantitative Study of Society.
Norris, P. (2000), 'Global Governance and Cosmopolitan Citizens', in J. Nye and J. Donahue (eds), *Governance in a Globalizing World*, Washington, DC: Brookings Institution, pp. 155–77.
Norris, P. (2001), *Digital Divide*, Cambridge: Cambridge University Press.
Norton-Taylor, R. (2001), 'Bleak New World, as Seen by the MoD', *The Guardian*, 8 February.
Nussbaum, M.C. (1996), 'Patriotism and Cosmopolitanism', in M.C. Nussbaum et al., *For Love of Country*, Boston: Beacon Press, pp. 2–17.
Nustad, K.G. (2003), 'Considering Global/Local Relations: Beyond Dualism', in T.H. Eriksen (ed.), *Globalisation: Studies in Anthropology*, London: Pluto Press, pp. 122–37.
Nye, J.S., Jr. (2002), *The Paradox of American Power*, Oxford: Oxford University Press.
Ohmae, K. (1990), *The Borderless World*, London: Collins.
Ohmae, K. (2000), 'The Rise of the Region State', in P. O'Meara, H.D. Melinger and M. Krain (eds), *Globalization and the Challenges of a New Century*, Bloomington: Indiana University Press, pp. 93–100.
Ohmae, K. (2005), *The Next Global Stage*, Upper Saddle River, NJ: Wharton.
Oliveti, V. (2002), *Terror's Source: The Ideology of Wahhabi-Salafism and its Consequences*, Birmingham, Amadeus.
Ong, A. (1999), *Flexible Citizenship: The Cultural Logics of Transnationality*, Durham, NC: Duke University Press.
O'Sullivan, J. (1996), 'Mistaken Identities', *National Review*, 48, 22, pp. 50–5.

Osterhammel, J. and Petersson, N.P. (2005), *Globalization: A Short History*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Özkirimli, U. (2000), *Theories of Nationalism: A Critical Introduction*, Basingstoke: Macmillan.
Papastergiadis, N. (2000), *The Turbulence of Migration*, Cambridge: Polity.
Parekh, B. (2000), *Rethinking Multiculturalism*, Basingstoke: Palgrave.
Patterson, O. (2000), 'Taking Culture Seriously: A Framework and an Afro-American Illustration', in L.E. Harrison and S.P. Huntington (eds), *Culture Matters*, New York: Basic Books, pp. 202–18.
Perkin, H. (1996), *The Third Revolution: Professional Elites in the Modern World*, London: Routledge.
Perrone, J. (2005), 'Every Second a Blog – but Not for the Long Slog', *Guardian Online*, 3 August, www.guardian.co.uk (accessed 7/10/06).
Perry, N. (1998), *Hyper-Reality and Global Culture*, London: Routledge.
Phillips, T. (2007), 'Brazilian Carnival Loses its Rhythm to Foreign DJs', *The Guardian*, 12 February, p. 16.
Pogge, T.W. (1992), 'Cosmopolitanism and Sovereignty', *Ethics*, 103, pp. 48–75.
Porter, B. (1984), *The Lion's Share: A Short History of British Imperialism, 1850–1983*, 2nd edn, London: Longman.
Porter, B.D. (1993), 'Can American Democracy Survive?', *Commentary*, November, pp. 37–40.
Portes, A. (1996), 'Global Villagers: The Rise of Transnational Communities', *American Prospect*, 25, pp. 74–7.
Portes, A. (2001), 'Introduction: The Debates and Significance of Immigrant Transnationalism', *Global Networks*, 1, 3, pp. 181–93.
Price, S. (2001), 'Pakistan Tackles Sectarian Violence', *BBC News Online*, 15 March, www.bbcnews.co.uk (accessed 2/1/06).
Pries, L. (ed.) (2001), *New Transnational Social Spaces: International Migration and Transnational Companies in the Early Twenty-First Century*, London: Routledge.
Putnam, H. (1996), 'Must We Choose between Patriotism and Universal Reason?', in M.C. Nussbaum et al., *For Love of Country*, Boston: Beacon Press, pp. 91–7.
Ramesh, R. (2007), 'China, Soon to Be World's Biggest Internet User', *The Guardian*, 25 January, p. 17.
Rantanen, T. (2005), *The Media and Globalisation*, London: Sage.
Rapport, N. and Overing, J. (2000), *Social and Cultural Anthropology: The Key Concepts*, London: Routledge.
Rex, J. (1996), 'National Identity in the Democratic Multi-Cultural State', *Sociological Research Online*, 1, 2, www.socresonline.org.uk/socresonline/1/2/1 (accessed 3/9/05).
Rheingold, H. (2000), *The Virtual Community*, rev. edn, London: MIT Press.

Richmond, A.H. (1984), 'Ethnic Nationalism and Post-Industrialism', *Ethnic and Racial Studies*, 7, 1, pp. 4–18.
Rieff, D. (1995), *Slaughterhouse: Bosnia and the Failure of the West*, London: Vintage.
Ritzer, G. (1993), *The McDonaldization of Society*, London: Sage.
Ritzer, G. (1998), *The McDonaldization Thesis*, London: Sage.
Ritzer, G. (ed.) (2002), *McDonaldization: The Reader*, Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
Ritzer, G. and Liska, A. (1997), '"McDisneyization" and "Post-Tourism"', in C. Rojek and J. Urry (eds), *Touring Cultures: Transformations of Travel and Theory*, London: Routledge, pp. 96–109.
Robertson, R. (1992), *Globalization: Social Theory and Global Culture*, London: Sage.
Robertson, R. (1995), 'Glocalization: Time–Space and Homogeneity–Heterogeneity', in M. Featherstone, S. Lash and R. Robertson (eds) (1995), *Global Modernities*, London: Sage, pp. 25–44.
Robertson, R. and Inglis, D. (2006), 'The Global *Animus*', in B.K. Gills and W.R. Thompson (eds), *Globalisation and Global History*, London: Routledge, pp. 33–47.
Robison, R. and Goodman, D.S.G. (eds) (1996), *The New Rich in Asia: Mobile Phones, McDonald's and Middle-Class Revolution*, London: Routledge.
Rojek, C. and Urry, J. (eds) (1997), *Touring Cultures*, London: Routledge.
Rosenau, J. (1997), *Along the Domestic–Foreign Frontier*, Cambridge: Cambridge University Press.
Rosendorf, N.M. (2000), 'Social and Cultural Globalization: Concepts, History, and America's Role', in J.S. Nye and J.D. Donahue, *Governance in a Globalizing World*, Washington, DC: Brookings Institution, pp. 109–34.
Rouse, R. (1991), 'Mexican Migration and the Social Space of Postmodernism', *Diaspora*, 1, 1, pp. 8–23.
Rushdie, S. (2001), 'A War that Presents Us All with a Crisis of Faith', *The Guardian*, 3 November.
Rushdie, S. (2002), 'Anti-Americanism Has Taken the World by Storm', *The Guardian*, 6 February.
Ruthven, M. (1995), 'The West's Secret Weapon against Islam', *Sunday Times*, 1 January, p. 6.
Sabloff, J. and Lamberg-Karlovsky, C. (eds) (1975), *Ancient Civilization and Trade*, Albuquerque: University of New Mexico Press.
Said, E. (1994), *Culture and Imperialism*, London: Vintage.
Said, E. (1995), *Orientalism*, Harmondsworth: Penguin.
Said, E. (2001), 'Islam and the West are Inadequate Banners', *The Observer*, 16 September.
Sanderson, S.K. (ed.) (1995), *Civilizations and World Systems*, Walnut Creek, CA: Altamira Press.

Sardar, Z. (1999), *Orientalism*, Buckingham: Open University Press.
Sardar, Z. (2001), 'Islam Has Become its own Enemy', *The Observer*, 21 October.
Sardar, Z. and Wyn Davies, M. (2002), *Why Do People Hate America?*, Cambridge: Icon Books.
Sassen, S. (2000), *Cities in a World Economy*, 2nd edn, Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
Sassen, S. (2001), *The Global City*, 2nd edn, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Sassen, S. (ed.) (2002), *Global Networks, Linked Cities*, London: Routledge.
Sassoon, D. (1998), 'Fin-de-Siècle Socialism: The United, Modest Left', *New Left Review*, 227, pp. 88–96.
Schech, S. and Haggis, J. (2000), *Culture and Development: A Critical Introduction*, Oxford: Blackwell.
Scheffler, S. (1999), 'Conceptions of Cosmopolitanism', *Utilitas*, 11, 3, pp. 255–76.
Schiller, H.I. (1979), 'Transnational Media and National Development', in K. Nordenstreng and H.I. Schiller (eds), *National Sovereignty and International Communication*, Norwood, NJ: Ablex.
Schiller, H.I. (1989), *Culture Inc.*, New York: Oxford University Press.
Schiller, H.I. (1991), 'Not Yet the Post-Imperialist Era', *Critical Studies in Mass Communication*, 8, pp. 13–28.
Schiller, H.I. (1995), 'The Global Information Highway', in J. Brook and I.A. Boal (eds), *Resisting the Virtual Life: The Culture and Politics of Information*, San Francisco: City Lights Press.
Schiller, H.I. (1996), *Information Inequality*, London: Routledge.
Schirm, S.A. (2002), *Globalization and the New Regionalism*, Cambridge: Polity.
Schlesinger, P. (1991), *Media, State and Nation*, London: Sage.
Scholte, J.A. (2000), *Globalization: A Critical Introduction*, Basingstoke: Macmillan.
Scholte, J.A. (2005), *Globalization: A Critical Introduction*, 2nd edn, Basingstoke: Palgrave.
Screen Digest (1997), 'World Cinema Mãrket: Start of the European Fight-back', August.
Segal, G. (2002), 'Does China Matter?' in *The Rise of China*, New York: Foreign Affairs, pp. 27–39.
Senghaas, D. (2002), *The Clash within Civilizations: Coming to Terms with Cultural Conflicts*, London: Routledge.
Sennett, R. (2002), 'Cosmopolitanism and the Social Experience of Cities', in S. Vertovec and R. Cohen (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press, pp. 42–7.
Servon, L.J. (2002), *Bridging the Digital Divide*, Oxford: Blackwell.
Shain, Y. (1995), 'Multicultural Foreign Policy', *Foreign Policy*, 100, pp. 69–88.

Shaw, M. (1994), 'Civil Society and Global Politics: Beyond a Social Movements Approach', *Millennium: Journal of International Studies*, 23, 3, pp. 647–67.
Shields, R. (ed.) (1992), *Lifestyle Shopping*, London: Routledge.
Shikaki, K. (2002), 'This is a War on Islam', *The Guardian*, 11 September.
Shohat, E. and Stam, R. (1995), *Unthinking Eurocentrism*, London: Routledge.
Shore, C. (2000), *Building Europe*, London: Routledge.
Shweder, R.A. (2000), 'Moral Maps, "First World" Conceits, and the New Evangelists', in L.E. Harrison and S.P. Huntington (eds), *Culture Matters*, New York: Basic Books, pp. 158–76.
Sinclair, J., Jacka, A. and Cunningham, S. (eds) (1996), *New Patterns in Global Television: Peripheral Vision*, Oxford: Oxford University Press.
Sklair, L. (2001), *The Transnational Capitalist Class*, Oxford: Blackwell.
Sklair, L. (2002), *Globalization: Capitalism and its Alternatives*, 3rd edn, Oxford: Oxford University Press.
Smart, B. (ed.) (1999), *Resisting McDonaldization*, London: Sage.
Smelser, N. and Alexander, N. (eds) (1999), *Diversity and its Discontents: Conflict and Common Ground in Contemporary American Society*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Smith, A.D. (1986), *The Ethnic Origins of Nations*, Oxford: Blackwell.
Smith, A.D. (1990), 'Towards a Global Culture?', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 171–91.
Smith, A.D. (1991), *National Identity*, London: Penguin.
Smith, A.D. (1995), *Nations and Nationalism in a Global Era*, Cambridge: Polity.
Smith, M.A. and Kollock, P. (eds) (1999), *Communities in Cyberspace*, London: Routledge.
Smith, M.P. (2001), *Transnational Urbanism*, Oxford: Blackwell.
Soysal, Y.N. (1994), *Limits of Citizenship: Migrants and Postnational Membership in Europe*, Chicago: University of Chicago Press.
Sparks, C. (1998), 'Is There a Global Public Sphere?', in D.K. Thussu (ed.), *Electronic Empires: Global Media and Local Resistance*, London: Arnold, pp. 108–24.
Spear, P. (1990), *A History of India*, vol. 2, Harmondsworth: Penguin.
Spybey, T. (1996), *Globalization and World Society*, Cambridge: Polity.
Stadler, F. (2006), *Manuel Castells*, Cambridge: Polity.
Standage, T. (1998), *The Victorian Internet*, London: Weidenfeld & Nicolson.
Staple, G. (1991), *The Global Telecommunications Report, 1991*, London: International Institute of Communications.
Staple, G. (1996), *Teleography, 1996*, London: International Institute of Communications.
Starr, A. (2000), *Naming the Enemy: Anti-Corporate Social Movements Confront Globalization*, London: Zed Books.

Stone, D. (2002), 'Knowledge Networks and Policy Expertise in the Global Polity', in M. Ougaard and R. Higgott (eds), *Towards a Global Polity*, London: Routledge, pp. 125–44.

Strange, S. (1990), 'Finance, Information and Power', *Review of International Studies*, 16, 3, pp. 259–74.

Strange, S. (1995), 'The Limits of Politics', *Government and Opposition*, 30, 3, pp. 291–311.

Street, B. (1993), 'Culture as a Verb: Anthropological Aspects of Language and Cultural Process', in D. Graddol, L. Thompson and M. Byram (eds), *Language and Culture*, Clevedon: BAAL and Multilingual Matters.

Street, P. (2003), 'Stabilising Flows in the Global Field: Illusions of Permanence, Intellectual Property Rights and the Transnationalisation of Law', *Global Networks*, 3, 1, pp. 7–28.

Strinati, D. (1995), *An Introduction to Theories of Popular Culture*, London: Routledge.

Suarez-Orozco, M. (2000), 'Everything You Ever Wanted to Know about Assimilation but Were Afraid to Ask', *Daedalus*, 129, 4, pp. 1–30.

Swidler, A. (1986), 'Culture in Action: Symbols and Strategies', *American Sociological Review*, 51, pp. 273–88.

Tait, R. (2006), 'Iran Bans Fast Internet to Cut West's Influence', *The Guardian*, 18 October, www.guardian.co.uk (accessed 9/12/06).

Talbott, S. and Chanda, N. (eds) (2001), *The Age of Terror*, Oxford: Perseus Press.

Taylor, C. (1992), *Multiculturalism and the 'Politics of Recognition'*, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Taylor, C. (ed.) (1994), *Multiculturalism: Examining the Politics of Recognition*, Princeton, NJ: Princeton University Press.

Taylor, P.J. (2001), 'Isations of the World: Americanisation, Modernisation and Globalisation', in C. Hay and D. Marsh (eds), *Demystifying Globalisation*, Basingstoke: Palgrave, pp. 49–70.

Tehranian, M. and Tehranian, K.K. (1997), 'Taming Modernity: Toward a New Paradigm', in A. Mohammadi (ed.), *International Communication and Globalization*, London: Sage, pp 119–67.

Thompson, J.B. (1990), *Ideology and Modern Culture*, Cambridge: Polity.

Thompson, J.B. (1995), *The Media and Modernity*, Cambridge: Polity.

Thussu, D.K. (ed.) (1998), *Electronic Empires: Global Media and Local Resistance*, London: Arnold.

Tomlinson, J. (1991), *Cultural Imperialism*, London: Pinter.

Tomlinson, J. (1997a), 'Internationalism, Globalization and Cultural Imperialism', in K. Thompson (ed.), *Media and Cultural Regulation*, London: Sage, 117–62.

Tomlinson, J. (1997b), '"And Besides, the Wench is Dead": Media Scandals and the Globalization of Communication', in J. Lull and S. Hinerman (eds), *Media Scandals*, Cambridge: Polity.

Tomlinson, J. (1999a), *Globalization and Culture*, Cambridge: Polity.
Tomlinson, J. (1999b), 'Globalised Culture: The Triumph of the West?' in T. Skelton and T. Allen (eds), *Culture and Global Change*, London: Routledge, pp. 22–9.
Toulmin, S. (1999), 'The Ambiguities of Globalisation', *Futures*, 31, 9/10, pp. 905–12.
Touraine, A. (1997), *What is Democracy?*, Boulder, CO: Westview Press.
Tracey, M. (1988), 'Popular Culture and the Economics of Global Television', *Intermedia*, 16, 2.
Tran, M. (2000), 'Africa is Loser in Global Digital Divide', *The Guardian*, 14 August, www.guardian.co.uk (accessed 2/11/06).
Tsing, A. (2002), 'The Global Situation', in J. Xavier Inda and R. Rosaldo (eds) *The Anthropology of Globalization: A Reader*, Oxford: Blackwell, pp. 453–85.
Turkle, S. (1995), *Life on the Screen*, New York: Simon & Schuster.
Turner, B.S. (2006), 'Classical Sociology and Cosmopolitanism: A Critical Defence of the Social', *British Journal of Sociology*, 57, 1, pp. 133–51.
Twist, J. (2004), 'China Leads Way on Broadband', *BBC News Online*, 5 October, www.bbcnews.co.uk (accessed 12/11/06).
UNESCO (1998), *Statistical Yearbook, 1998*, Paris: UNESCO.
Urban, G. (2001), *Metaculture: How Culture Moves through the World*, Minneapolis: University of Minnesota Press.
Urry, J. (1990), *The Tourist Gaze*, London: Sage.
Urry, J. (1995), *Consuming Places*, London: Routledge.
Urry, J. (2000), *Sociology beyond Societies: Mobilities for the Twenty-First Century*, London: Routledge.
Urry, J. (2003), *Global Complexity*, Cambridge: Polity.
van de Ven, H. (2002), 'The Onrush of Modern Globalization in China', in A.G. Hopkins (ed.), *Globalization in World History*, London: Pimlico, pp. 167–93.
van den Berghe, P. (1979), *The Ethnic Phenomenon*, New York: Elsevier.
van Dijk, J.A.G.M. (2005), *The Deepening Divide*, London: Sage.
Vasagar, J. (2005), 'Talk is Cheap, and Getting Cheaper', *The Guardian*, 14 September, p. 25.
Vertovec, S. and Cohen, R. (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press.
Wagner, R. (1986), *Symbols that Stand for Themselves*, Chicago: University of Chicago Press.
Wagner, R. (1991), 'Poetics and the Recentering of Anthropology', in I. Brady (ed.), *Anthropological Poetics*, Savage, MD: Rowman & Littlefield.
Waldron, J. (2000), 'What is Cosmopolitan?', *Journal of Political Philosophy*, 8, pp. 227–43.
Wallerstein, I. (1974), *The Modern World-System*, New York: Academic.
Wallerstein, I. (1980), *The Modern World-System II*, New York: Academic.

Wallerstein, I. (1990a), 'Culture as the Ideological Battleground of the Modern World-System', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 31–56.

Wallerstein, I. (1990b), 'Culture is the World-System: A Reply to Boyne', in M. Featherstone (ed.), *Global Culture*, London: Sage, pp. 63–5.

Wallerstein, I. (2003), *The Decline of American Power*, New York: New Press.

Wallerstein, I. (2004), *World-Systems Analysis*, Durham, NC: Duke University Press.

Walzer, M. (ed.) (1995), *Toward a Global Civil Society*, New York: Berghahn Books.

Warschauer, M. (2004), *Technology and Social Inclusion*, London: MIT Press.

Waters, M. (1995), *Globalisation*, London: Routledge.

Watson, J.L. (1997), *Golden Arches East: McDonald's in East Asia*, Stanford, CA: Stanford University Press.

Watts, J. (2004), 'China Orders TV Stars to Stop "Queer" Western Behaviour', *The Guardian*, 5 May, p. 18.

Webb, J., Schirato, T. and Danaher, G. (2002), *Understanding Bourdieu*, London: Sage.

Webster, F. (2002), *Theories of the Information Society*, 2nd edn, London: Routledge.

Weeks, A.L. (1996), 'Do Civilizations Hold?', in *Samuel P.Huntington's The Clash of Civilizations? The Debate*, New York: Foreign Affairs, pp. 53–4.

Wei-Ming, T. (2000), 'Multiple Modernities: A Preliminary Inquiry into the Implications of East Asian Modernity', in L.E. Harrison and S.P. Huntington (eds) (2000), *Culture Matters*, New York: Basic Books, pp. 256–66.

Wellman, B. and Gulia, M. (1999), 'Virtual Communities as Communities: Net Surfers Don't Ride Alone', in M.A. Smith and P. Kollock (eds), *Communities in Cyberspace*, London: Routledge, pp. 167–94.

Wellman, B. and Haythornwaite, C. (eds) (2002), *The Internet in Everyday Life*, Oxford: Blackwell.

Welsch, W. (1999), 'Transculturality: The Puzzling Form of Cultures Today', in M. Featherstone and S. Lash (eds) (1999), *Spaces of Culture: City, Nation, World*, London: Sage, pp. 194–213.

Werbner, P. (1999), 'Global Pathways: Working Class Cosmopolitans and the Creation of Transnational Ethnic Worlds', *Social Anthropology*, 7, 1, pp. 17–35.

Werbner, P. and Modood, T. (eds) (1997), *Debating Cultural Hybridity*, London: Zed Books.

Whitehouse, D. (1999), 'Circle of Light is Africa's Net Gain', *BBC News Online*, 23 June, www.bbcnews.co.uk (accessed 12/1/05).

Wieviorka, M. (1994), 'Racism in Europe: Unity and Diversity', in A. Rattansi and S. Westwood (eds), *Racism, Modernity and Identity on the Western Front*, Cambridge: Polity, pp. 173–88.

Williams, M. (1996), 'A Campus Erupts over Multiculturalism', *New York Times*, 28 June, p. A13 (N).

Williams, R. (1963), *Culture and Society, 1780–1950*, Harmondsworth: Penguin.
Williams, R. (1976), *Keywords*, London: Fontana.
Wilson, R.A. (ed.) (1997), *Human Rights, Culture and Context: Anthropological Perspectives*, London: Pluto Press.
Wolfe, A. (1998), *One Nation After All*, London: Viking.
Wolff, J. (1991), 'The Global and the Specific: Reconciling Conflicting Theories of Culture', in A.D. King (ed.), *Culture, Globalization and the World-System*, London: Macmillan, pp. 161–73.
Wolpert, S. (1989), *A New History of India*, 3rd edn, Oxford: Oxford University Press.
Woolgar. S. (ed.) (2002), *Virtual Society? Technology, Cyberbole, Reality*, Oxford: Oxford University Press.
Wray, R. (2007), 'China Overtaking US for Fast Internet Access as Africa Gets Left Behind', *The Guardian*, 14 June, p. 29.
Wriston, W. (1992), *The Twilight of Sovereignty*, New York: Charles Scribner.
Wurm, S.A. (ed.) (1996), *Atlas of the World's Languages in Danger of Disappearing*, Paris: UNESCO.
Wuthnow, R. and Witten, M. (1988), 'New Directions in the Study of Culture', *Annual Review of Sociology*, 14, pp. 46–67.
Xavier Inda, J. and Rosaldo, R. (eds) (2002), 'Introduction: A World in Motion', *The Anthropology of Globalization: A Reader*, Oxford: Blackwell, pp. 1–34.
Yang, M.M. (2004), 'Mass Media and Transnational Subjectivity in Shanghai: Notes on (Re)Cosmopolitanism in a Chinese Metropolis', in J. Xavier Inda and R. Rosaldo (eds), *The Anthropology of Globalization: A Reader*, Oxford: Blackwell, pp. 325–49.
Young, I.M. (1990), *Justice and the Politics of Difference*, Princeton, NJ: Princeton University Press.
Young, R.C. (1995), *Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race*, London: Routledge.
Younge, G. (2004), 'Black Americans Move Back to Southern States, *The Guardian*, 25 May, p. 13.
Zakiara, F. (1997), 'Culture is Destiny: A Conversation with Lee Kuan Yew', in *The New Shape of World Politics*, New York: Foreign Affairs, pp. 219–33.
Zickmund, S. (1997), 'Approaching the Radical Other: The Discursive Culture of Cyberhate', in S.G. Jones (ed.), *Virtual Culture*, London: Sage, pp.185–205.
Zubaida, S. (2002), 'Middle Eastern Experiences of Cosmopolitanism', in S. Vertovec and R. Cohen (eds), *Conceiving Cosmopolitanism*, Oxford: Oxford University Press, pp. 32–41.

المؤلف فى سطور:

Dr. Paul Hopper

- أستاذ محاضر فى الدراسات الإنسانية بجامعة Brighton منذ التسعينيات.
- حاصل على الماجستير فى الفكر الاجتماعى والسياسى من جامعة Sussex فى ١٩٩١ وعلى الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة نفسها فى ١٩٩٦ بأطروحة كانت نواة كتابه: Rebuilding Communities in an Age of Individualism. (صدر فى ٢٠٠٣).

من مؤلفاته:

- Understanding Cultural Globalization. (2007).
- Understanding Development. (2003)
- Understanding Environmental Politics. (2009)

المترجم فى سطور:

طلعت الشايب

- كاتب ومترجم، صدر له نحو ثلاثين كتابا مترجما من بينها:
- حدود حرية التعبير، تأليف: مارينا ستاج.
- صدام الحضارات، تأليف: صمويل هنتنجتون.
- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى، تأليف: آ. هيرمان.
- الحرب الباردة الثقافية، تأليف: ف. س. سوندرز.
- الفنون والآداب تحت ضغط العولمة، تأليف: س. لارسون.
- الاستشراق الأمريكى، تأليف: د. ليتل.

التصحيح اللغوي: إبراهيم عبدالتواب
الإشراف الفني: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

"هذا الكتاب محاولة رصينة لفهم العولمة الثقافية والقضايا الجدلية المحيطة بها، كما يطرح أسئلة مركزية عن العولمة والثقافة من خلال التفاعل والتقاطع والاختراق المتبادل بين الكونى والمحلى، ودور تكنولوچيا المعلومات والاتصال الحديثة، وتأثيرها فى تدفقات البشر والصور والأصوات والرموز".

تصميم الغلاف: نسرين كشك